

عثمان برايمما باری

جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي




دار الفکر
للتأليف والنشر

عثمان براهما باري

جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الأفريقي

THE ROOTS OF ISLAMIC CIVILIZATION IN WESTERN AFRICA


BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية


BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية
كتب عربي
(شراء)

رقم التسجيل ٥٨٩٦٩

للشؤون
الدينية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَأَمَّا أَنْ تَكُونَ فِي حَسَاءٍ وَأَمَّا
مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثْ فِي الْأَرْضِ
صَدَقَ اللَّهُ الْعَقْلُ

دار الأمين

طبع * نشر * توزيع

القاهرة: ١٣ شارع البركة الناصرية (من
شارع نوبار) السيدة زينب - لاطو غلي
ت: ٧٩٥٤٣٧٦ ف: ٣٩٠٠١٣٠
ص.ب: ١٣١٥ العتبة ١١٥١١
الجيزة: ١ شارع سوهاج من شارع
الزقازيق (خلف قاعة سيد درويش)
الهرم - تليفون: ٥٦٣٤٦٩٩
ص.ب: ١٧٠٢ العتبة ١١٥١١
جمهورية مصر العربية

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
للمؤلف ولا يجوز إعادة طبع أو اقتباس
أى جزء منه بدون إذن كتابى من المؤلف .

الطبعة الأولى.

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

رقم الإيداع ٧٧٩٧/٢٠٠٠

ISBN : 977-279-291-5

التفصيل الطباعى : دار الأمين للطباعة

• عنوان الاتصال :

- 1 - P.O. Box 2878 KANO - NIGERIA
- 2 - ISLAMIC FOUNDATION OF NIGERIA
P.O. Box 3193 KANO, NIGERIA
FAX : (234) 662099

محتويات الكتاب

العنوان	الصفحة
إهداء.....	أ
خواطر.....	ب - ج
تعريف بالكتاب.....	د - هـ
التقديم.....	و - ز
الفصل الأول	
موجز الخلفية التاريخية.....	١ - ٤
طرق وصول الإسلام إلى المنطقة.....	٤ - ٦
عوامل ساعدت على انتشار الاسلام هناك.....	٧ - ١٦
الفصل الثاني	
دخول الإسلام إلى الغرب الافريقى.....	١٧ - ٢٢
الأنشطة الثقافية في غرب إفريقيا.....	٢٢ - ٣٠
تجسيد الشخصية الإسلامية لمنطقة الغرب الافريقى.....	٣٠ - ٣١
أ- إمبراطورية غانة.....	٣١ - ٣٨
ب - إمبراطورية مالى.....	٣٩ - ٤٤
ج - إمبراطورية صونغاى.....	٤٤ - ٤٧

الفصل الثالث

آثار التربية الاستعمارية على الفكر الإسلامى فى منطقة الغرب

- الإفريقى..... ٤٨ - ٥٥
منهج الإسلام التربوى..... ٥٥ - ٥٨
آثار الفكر الإسلامى على الحضارة الأوروبية..... ٥٨ - ٦٦
الشخصية المسيحية فى الغرب الإفريقى..... ٦٦ - ٧٩

الفصل الرابع

الممالك الإسلامية التى قامت فى الغرب الإفريقى

- "ألف" دولة بورنو..... ٨٠ - ٨٩
الإسلام فى بلاد الماوسا..... ٩٠ - ٩٤
"باء" دولة صوكتو..... ٩٥ - ٩٦
عثمان دان فودى، مؤسس الدولة "ميلاده ونشأته"..... ٩٦ - ١٢٦
خلفية ثقافية لدولة صوكتو..... ١٢٦ - ١٢٨
آثارها الثقافية على المناطق المجاورة..... ١٢٩ - ١٥٦
"جيم" دولة ماسينا..... ١٥٧ - ١٦١
التيارات الفكرية التى كانت تخيم على اجزاء المنطقة..... ١٦٢ - ١٦٥
أحمد لوبو، مؤسس تلك الدولة "مولده ونشأته"..... ١٦٦ - ١٨٤
"دال" الدولة العمرية الفتوية
بلاد فوتا..... ١٨٥ - ١٨٨

مولد ونشأة عمر تال الفوتى ٢١٠-١٨٨

الخلاصة ٢٢٥-٢١١

الفصل الخامس

الإستعمار والمقاومة الاسلامية فى غرب إفريقيا ٢٢٨-٢٢٦

أ - الطرق الصوفية الرئيسية

١ - القادرية ٢٣١-٢٢٨

٢ - الشاذلية ٢٣٢-٢٣١

٣ - التجانية ٢٣٩-٢٣٢

ب - الطرق الصوفية الفرعية

١ - المريدية ٢٤١-٢٣٩

٢ - الحماوية ٢٤٣-٢٤١

٣ - الأحمدية ٢٤٦-٢٤٤

٤ - البهائية ٢٥٢-٢٤٦

٥ - إمامية سامورى ٢٦١-٢٥٢

دور الرؤية المنامية وانعكاساتها على حركات الجهاد فى غرب

إفريقيا ٢٧٦-٢٦١

الأدعية وقراءة القرآن الكريم ٢٩٠-٢٧٦

الفصل السادس

قضية ظهور المهدي بين الماضى والحاضر ٢٩٣-٢٩١

أصل فكرة ظهور المهدي المنتظر ٢٩٣-٣٠٥

عقيدة المهدي وأثرها في غرب إفريقيا ٣٠٦-٣١٢

الفصل السابع

الجنس الفولاني واللغة الفولانية ٣١٣-٣٢٩

الجنس التوامي للجنس الفولاني ٣٢٩-٣٣١

النظام الاجتماعي للجنس الفولاني ٣٣٢-٣٦٦

الجنس الفولاني ومفهوم الهجرة ٣٦٦-٣٨١

خصائص اللغة الفولانية ٣٨١-٣٩٤

دعاء ٣٩٥-٣٩٦

المراجع العربية ٣٩٧-٣٩٨

المراجع الأجنبية ٣٩٩-٤٠٠

فهرس الأعلام ٤٠١-٤٣٢

نشرات أخرى للمؤلف ٤٣٣

ملحوظة ٤٣٤

إهداء

إلى أرواح الشهداء المسلمين في كل مكان ،
وإلى الذين يقفون لنصرة الحق في كل زمان ،
وإلى أرواح الشهداء الذين سقطوا في ممالك :
برنوا ، صوكتو ، ماسينا ، فوتا
بل وفي كل بقعة من بقاع إفريقيا وغربها على وجه الخصوص ، وإلى أرواح :

١ - والدي موديو محمد برايما ،

٢ - والدتي الحاجة زينب مختار بيللي ،

٣ - خالي تشيرنو محمد مختار بيللي ،

أهدى هذه الجهود المتواضعة وأتضرع إلى الله الرحمن الرحيم
راجيا منه أن يفسح مآواهم ويدخلهم جميعا جنات النعيم.

المؤلف

(خواتر)

- ١- حُكْمُ الْمَنِيَّةِ فِي الْبَرِيَّةِ جَارٌ
 - ٢- بَيْنَا يَرَى الْإِنْسَانَ فِيهَا مُخْبِرًا
 - ٣- فَاقْضُوا مَا رَبَّكُمْ عِجَالًا إِنَّمَا
 - ٤- وَتَرَكْضُوا خَيْلَ الشَّبَابِ وَبَادَرُوا
 - ٥- فَالذَّهْرُ يَخْدَعُ بِالْمَنَى وَيَعْصُ إِن
 - ٦- إِنَّمَا هَذِهِ مَوْعِظَةٌ فَاغْتَبِرُوا
 - ٧- هَدِيَّةٌ ثَمِينَةٌ مَا مِثْلُهَا
 - ٨- فَادْكُرُوا كَمَا أُمِرْتُمْ وَاتَّبِعُوا
 - ٩- وَاطْلُبُوا مِنْ رَبِّكُمْ غُفْرَانَهُ
 - ١٠- وَتَوْبُوا إِلَيْهِ نِعَمَ الْمُتَجَنِّحَا
 - ١١- إِنَّهُ الْمُعْطَى الْجَزِيلُ مِنْ نِعَمَائِهِ
 - ١٢- إِنَّ الدُّنْيَا مَالُهَا لِلزَّوَالِ
 - ١٣- أَيَّامُهُ قَلِيلَةٌ فِي عَدَمِهَا
 - ١٤- يَاسَعَادَةُ مَنْ ظَلَّ عَابِدًا
- مَا هَذِهِ الدُّنْيَا بِدَارٍ قَرَارٍ
حَتَّى يَرَى خَبِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ
أَعْمَارُكُمْ سَفَرٌ مِنَ الْأَسْفَارِ
أَنْ تُسْتَرَدُّ فَإِنَّهُنَّ عَوَارٍ
هَنَا وَيَهْدِيمُ مَا بَنَى بِبَوَارٍ
بِهَا إِخْوَانِي يَا أُولَى الْأَبْصَارِ
قِيَمَةٌ تَعْلُوا عَلَى الْأَسْعَارِ
تَزْدَادُوا بِذَا نَوَى عَنِ الْكُفَّارِ
يُمَدِّدُكُمْ بِخَيْرِهِ وَطَيِّبِ الْأَعْمَارِ
وَيُثِقُوا بِفَضْلِ الْمَالِكِ الْعَفَّارِ
وَمَقْصَى الْغُرُورِ بِشَوَاطِ مِنْ نَارٍ
وَالْمَرْءُ تَحْتَ قَبْضَةِ الْقَهَّارِ
وَهُوَ سَابِحٌ فِي مَوْجِهَا الدَّوَارِ
لِمَنْ قَضَاؤُهُ عَلَيْهِ بِحَارِ

١٥- يَسُوقُهُ إِلَى رَحْمَاتِهِ مُوقَّعًا

١٦- لَا تَقْنَطُوا مِنْ خَيْرٍ عُمَرِ إِنْ قَضَى

١٧- فَثِقُوا بِرَبِّنَا إِذِ بِهِ تَوْفِيقُنَا

١٨- يَحْدُو بِنَا الْإِيمَانُ نَحْوَ نُورِهِ

١٩- هَدَانَا اللَّهُ لِنُورٍ نَمْشِي بِهِ

٢٠- وَأُصَلِّي عَلَى الْأَمِينِ مُسَلِّمًا

مَعَ صَالِحِ الْعِبَادِ كَذَا لِأَبْرَارِ

دُونَ الْخَيْرِ فِي الْجَهْرِ وَالْأَسْرَارِ

لِلتَّوْبَةِ النَّصُوحِ وَالْبِرِّ بِالتَّكْرَارِ

وَيَقْضَى عَلَى الشُّرُورِ وَالْأَشْرَارِ

بَيْنَ الْأَنْاسِ غُدُوًّا وَبِالْأَسْحَارِ

أَزْكَى صَلَاةِ رَبِّنَا السَّيِّئَارِ

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف بالكتاب .

بقلم : الإمام القاضي/نائبى سليمان والى رئيس المؤسسة الإسلامية بكانو
جمهورية نيجيريا الاتحادية.

صلى الله تبارك وتعالى وسلم على سيدنا محمد بن عبد الله ، خاتم الأنبياء
والرسل . ورضوان الله على أصحابه وأهل بيته الكرام ، وبعد ، فإنه تغمرني
السعادة وأنا أوجه الشكر إلى الله سبحانه وتعالى ، أن أتاح هذه الفرصة لأقوم بكتابة
كلمة التقدّم لهذا الكتاب المعنون " جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الأفريقي
" تأليف الأخ العزيز الأستاذ / عثمان براىما باري . لاشك أن الصحو الإسلامي
الذي يكتسح عالمنا الحاضر وظاهرة العولمة التي تجتاحه في الوقت الحاضر تستدعيان
تضافر جهود المسلمين وتكاتفهم في كافة أرجاء العالم بصورة أكثر من أي وقت
مضى لمواجهة المصير المشترك ، إذ يقول الله تبارك وتعالى : " إن هذه أمتكم أمة
واحدة وأنا ربكم فاعبدون^(١) " وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : " مثل المؤمنين
في توادهم وتراحمهم مثل الجسد إذ اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد
بالحمى والسهر^(٢) " .

وفي هذا الصدد، فإننا في أشد الحاجة إلى معرفة تاريخ ديننا وأممه في كل بقاع
العالم في الماضي والحاضر .

وهذا الكتاب الذي بين يديك ، أيها القارئ الكريم ، يبرز لنا جانبا كبيرا
من مسار حركة الإسلام عبر القارة الإفريقية وخاصة جنوب الصحراء بدءا من
القرن الأول لظهوره في شبه الجزيرة العربية . ثمة حضارات قامت على أيدي

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ٩٣ .

(٢) حديث متفق عليه .

الشعوب الإسلامية في منطقة الغرب الإفريقي بيد أن كثيرا منا لم يتعرف عليها من واقع التاريخ المعاصر، وسنتعرف عليها من خلال صفحات هذا الكتاب بما يريدها وعيا وإدراكا للأدوار التي لعبها المسلمون جماعة وفردا في تأسيس مجتمعاتهم والتضحيات التي قدموها جراء ذلك . ولم يبق لنا في هذا المنعطف إلا الابتهاال إلى الله القادر المقتدر أن يوفق أئحانا ، مؤلف هذا الكتاب لما يرضاه ، كما لا يفوتنا، ونحن في شهر رمضان المعظم الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، أن نحث صفوة آئحرين من أبناء هذه القارة على التثمير عن ساعد الجسد للنهوض بمهمة إبراز أوجه حقائق تاريخهم الإسلامي وأباطيل خصومهم الذين عكفوا ومازالوا عاكفين على كتابات حول تاريخ الإسلام في إفريقيا مع تشويه صورته الحقيقية إبتغاء التضييل والإنتقاص منه . وبالله التوفيق وعليه التكلان ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

كانو : خمسة عشر يوما خلت من شهر رمضان المعظم للسنة ١٤٢٠هـ .

بسم الله الرحمن الرحيم

التقديم

يقول الله تبارك وتعالى في محكم كتابه العزيز :

١- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا
إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾^(١)

٢- ﴿...أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ.. لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى
الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى
وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾^(٢)

٣- ﴿...وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ
إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾^(٣)

وأصلى وأسلم على خير الأنام ، خاتم الأنبياء والرسل ، محمد بن عبد الله ،
القائل : " المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه البعض إذا اشتكى منه
عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " أو كما قال : وأبتهل إلى الله العزيز
المنان الذى عليه ينتهى ثناء الدنيا والآخرة ، أن يحف جلة الصحابة الراشدين وأهل
البيت الكرام وبقية الصالحين من التابعين واللاحقين ، بشامل رحمته . وأن يدخل
السابقين منهم فسيح جنات النعيم . ويرزقنا حسن الخواتم والنجاة من كل كرب
وآفات وابتلاءات الدنيا الصادرة من الإنس والجن تباعا .

(١) سورة الحجرات الآية : ١٢

(٢) سورة يوسف الآية : ١٠٩-١١١

(٣) سورة المائدة الآية : ٢

تغمرنى السعادة إذ أوشك على الانتهاء من مشروع إخراج هذا الكتاب " جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الأفريقي " كإسهام أولى أتوخى أن تتبعه إسهامات أخرى بأقلام بعض الصفوة من المهتمين بشؤون وتاريخ الإسلام والمسلمين ، في صفوف أبناء هذه القارة الفتية ومنطقة الغرب الإفريقي بالذات.

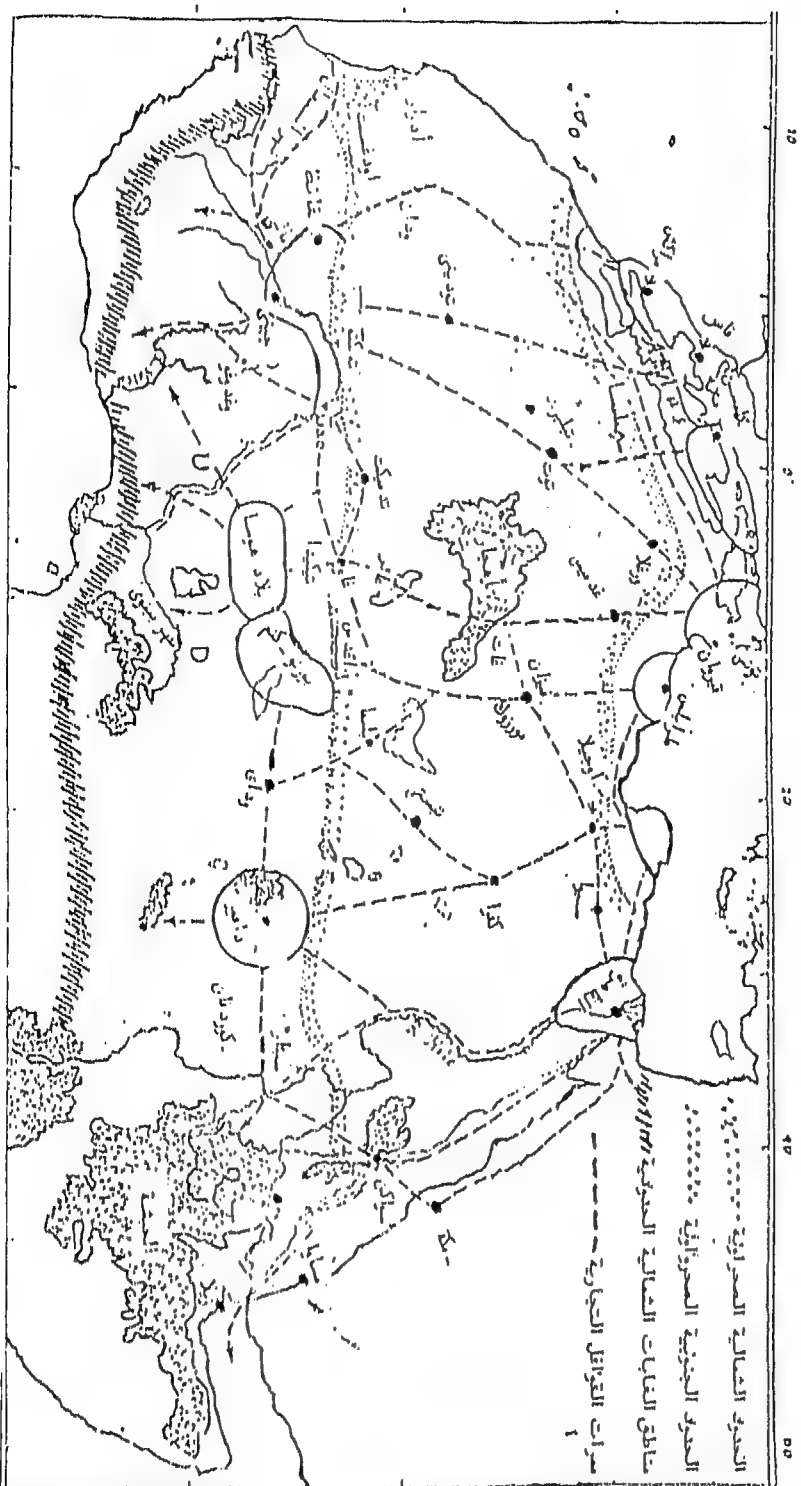
ولا يسعني في هذا المقام ، إلا أن أزجي خالص شكرى ، أولاً وقبل كل شيء ، إلى الله سبحانه وتعالى الذى أنعم على بهذه الفرصة النادرة التى ماكنت لها لمقرناً . وأرجو منه أن يتقبل منى هذه الجهود المتواضعة التى استغرقت قرابة عشر سنوات في البحث والدراسة، ويجعلها خالصة لوجهه العالى الكريم ، وأن تكون ثمارها مواكبة لآمالى وتطلعاتى في تحقيق الصحوّة بين عامة المسلمين .

تقديم الشكر

كما أود في هذا الصدد ، أن أقدم خالص الشكر والتقدير إلى كل الذين ساهموا ، بطريقة أو بأخرى، في إنجاز هذا المشروع وإخراج الكتاب في شكله النهائي. وأخص بالذكر : خالي المرحوم الأستاذ / محمد بيللى الذى استفدت بتوجيهاته، صديق العمر وزميلى الأستاذ محمد عبد النبى الذى شجعتنى نصيحته القيمة، الدكتور/ أحمد كان المحاضر بجامعة عثمان دان فودى بنيجيريا الذى استلهمت منه فكرة كتابة جذور تاريخ الأمة الاسلامية في غرب إفريقيا، وذلك خلال الترجمة التى قمت بها لكتابته : "الأصول الفكرية لجهاد صوكتو" . وكان من المرغوب فيه أن نقوم معا بتأليف هذا الكتاب ، لكن ظروف عملى التى أدت الى إنتقالى من نيجيريا مؤقتا للعمل بمقر منظمة الوحدة الإفريقية بأديس أبابا، قد حالت دون تحقيق تلك الرغبة، الداعية الاسلامى - الشيخ أبى بكر سى، السفير السنغالى الأسبق فى القاهرة الذى قام بمراجعة النصوص الفولانية ، صديقى العزيز السفير محمد محمود ودادى ، الممثل الدائم لجامعة الدول العربية لدى منظمة الوحدة الإفريقية ، الذى قام على الرغم مما أبداه من تحفظات حيال بعض نقاط الكتاب فيما يتعلق بموقفى من السرد التاريخى للطرق الصوفية فى غرب إفريقيا ، ببذل جهود مضيئة ومثمرة ومشكورة للغاية لنجاح المشروع. وأخيرا وليس آخرا ، أقدم التقدير والشكر إلى الأخوة : فاطمة سليمان على محمد ، فوزية حسنين محمد العبد ، أبوسفيان محمد إدريس ، وليد محى الدين سيد أحمد لقيامهم بكتابة الكتاب، بدعا من المسودة الى نسخته النهائية . فجزاهم الله خير جزائه .

ولا يسعنى في هذا المنعطف ، إذ أنا في أواخر عهدي بالعمل في منظمة الوحدة الإفريقية ، إلا أن أمد يد الامتنان والتقدير إلى كل الذين شاءت الأقدار أن نعمل معا ونكتسب خبرات التعايش ، حلوها ومرها ، لاسيما زملاء الكرام ، وأخص بالذكر الأخ محمد مصطفى إندجاي ، في رحاب هذه المنظمة القارية. تلك سنة الله، الواجد الأحد لهذه الحياة. ولا نجد لستته تبديلا. وله الحمد من قبل ومن بعد ، وهو ولى التوفيق.

المؤلف



خريطة : تبين دول شمس أفريقيا ودول أفريقيا جنوب الصحراء .

تتبع عرقيته تجزئة وتقسيم عبر القوافل التجارية في القرن الخامس حتى القرن الثامن عشر الميلادي

الفصل الأول

خلفية تاريخية موجزة

تحقق عن طريق القوافل التجارية عبر الصحراء الكبرى أول اتصال بين الشمال الإفريقي وجنوبه فى بداية القرن التاسع الميلادى . وشهدت تلك الحقب قيام إمبراطوريات القرون الوسطى ، مثل : غانة ومالي وصونغاي فى منطقة السودان الغربي . وانبثقت في أوقات لاحقة اعتباراً من القرن الثامن عشر الميلادي ، عن تلك الإمبراطوريات الممالك الإسلامية الأخرى التي ظهرت هناك. غير أن المؤرخين الإسلاميين يرون أن دولة صونغاي التي قامت ما بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين ، كانت هي أولى الإمبراطوريات الإسلامية ظهوراً في الغرب الإفريقي بمعنى الكلمة . كما كانت هي آخر إمبراطوريات القرون الوسطى الثلاث أى : غانة ومالي وصونغاي في تلك المنطقة .

يعتبر ذلك العصر عظيم الشأن بالنسبة لتاريخ الإسلام فى غرب إفريقيا . ففي تلك الفترة قام ملك إمبراطورية صونغاي أسكيا محمد بن أبى بكر الطورى بإعلان جهاد الإصلاح الديني على مملكة موسى المجاورة ومد نفوذ دين الإسلام إليها ، وسافر هذا الملك بعد ذلك إلى مكة المكرمة فى رحلته الشهيرة لأداء مناسك الحج . وفى تلك الفترة وصل الفقيه محمد المغيلى

التلمساني من شمال إفريقيا^(١) إلى تلك الإمبراطورية ، وقام ، بناءً على طلب
أسيكا محمد بتأليف كتاب يحتوى على نصائح حول الطرائق المثلى لإدارة
الدولة الإسلامية على هدى القرآن والسنة ، يعتمد عليه هو وغيره من الملوك
المسلمين فى السودان الغربي في إدارة دولهم . وكانت مدينة تنبكتو مركزاً
للثقافة الإسلامية والعربية فى تلك المنطقة . وقام العالم أحمد بابا بن محمد
عقيت الذى يعتبر رائد الثقافة العربية فى السودان الغربى آنذاك بتحديد مفهوم
ديار الإسلام التى يجب على المسلم التوجه إليها والتعايش مع أهلها، وديار
الكفر التى يجب أن يتعد عنها المؤمن ليضمن المحافظة على دينه وسلامته في
حالة حدوث مواجهة بين الدارين. وازدهرت الحضارة الإسلامية والنمو
الاقتصادي فى السودان الغربي خلال تلك الفترة إلى أن جاء غزو السعديين
من المغرب الأقصى فى سنة ١٥٩١م في عهد سلطانهم مولاي أحمد
المنصور الذهبي مستخدماً رجال عصابات ومرتزقين من أوربا ضمن جيشه
بقصد نهب ثروات تلك الدولة المتمثلة فى الذهب. وقد أطاح بتلك الأدلة
الإسلامية بعد نهب كميات كبيرة من الكتب وأسر زعمائها وعلمائها وفقهائها
ومن بينهم العالم أحمد بابا بن محمد عقيت السالف الذكر ، وأسيموا سوء
العذاب بعد ترحيلهم إلى مراکش مكبلين بسلاسل من الحديد وعلى رأسهم
أحمد بابا الذى كسرت ساقه من جراء ذلك لكنه ظل مع ذلك رابط الجأش ،

(١) جنوب الجزائر حالياً .

وانتهز أقرب فرصة ليستأنف نشاطه العلمى فى مراكز نفسها. ولم يسمح له بالعودة إلى تنبكتو إلا فى سنة ١٦٠٥م. وقد سجل التاريخ أمجاد أحمد بابا وآثاره العلمية كما سجل العار على ظالميه. وبالقضاء على طلائع الفكر وأصحاب المعرفة والخبرة اضمحلت تلك الدولة، وأخذت فى الانحطاط التدريجى حتى سقطت نهائياً بحلول القرن الثامن عشر الميلادى . وكان من الطبيعي بعد حدوث تلك الكارثة المأسوية أن تشهد المجتمعات الإسلامية فى غرب إفريقيا التردى الخلقى والعلمى والدينى، الأمر الذى أدى الى انبعاث فكر الإصلاح وحركات الجهاد سواء بصفة فردية أو جماعية على أيدي المصلحين من أبناء قبائل الفولانى والماندنغو، لاسيما فى مناطق صوكتو وماسينا وفوتاتورو وفوتا جالو فى كل من نيجيريا ومالى والسنغال وغينيا وموريتانيا(٢). كان هؤلاء الدعاة والمصلحون يستهدفون فيما يقومون به من تلك الحركات تحقيق الإصلاحات الدينية والامتثال للنظريات العقائدية المتضمنة فى أعمال رواد الفكر الأوائل من أمثال المغيلى وأحمد بابا وعثمان دان فودى وأحمد لوبو وعمر الفوتى وسيدى المختار الكونتى ومحمد الأمين الكانيمى، الذين عملوا لإقامة كيانات إسلامية فى منطقة العرب الإفريقى إبتداء من القرن التاسع عشر الميلادى. ومن أهم النجاحات التى حققوها إنشاء ديار

(٢) تعنى كلمة موريتانيا ... أرض السود باللغة اليونانية. MAUROS/MAVROS

الإسلام لإيواء المجاهدين والمهاجرين من المسلمين ، فى غرب إفريقيا ؛ وبذلك استطاعوا إعادة رسم الخريطة الجغرافية للمنطقة برمتها . كما أوجدوا بفضل نشرهم الثقافة العربية الإسلامية فحول العلماء والمجاهدين وكتاب الأدب العجمى الإسلامى ، لمخاطبة الناس ، وكانوا ينظمون من خلاله قصائدهم وخطبهم الدينية ؛ وبرزت نتيجة ذلك ، شخصيات إسلامية إفريقية كثيرة فى تاريخ المنطقة .

طرق وصول الإسلام الى المنطقة

وصلت العلوم الإسلامية والثقافية العربية الى السودان الغربى والوسطى أى منطقة الغرب الإفريقي من الشمال الإفريقي عبر ممرات الصحراء الكبرى . وقد فتح العرب المسلمون سواحل منطقة الشمال الإفريقي وجنوب الصحراء الوسطى فى القرن السابع الميلادى وأقاموا بها الحكم العربى الإسلامى ونشروا الإسلام الذى غطى المنطقة برمتها بل وجاوزها . وفى جنوب الصحراء الغربية كانت قبائل البربر أبناء المنطقة الذين اعتنقوا دين الإسلام، لاسيما قبيلة صنهاجة تزاوّل تجارة الذهب مع قبائل السودان الغربى عبر الصحراء الكبرى . ومن المشرق العربى وصل الإسلام إلى مناطق حزام السّهل فى غرب إفريقيا عبر السودان الشرقى . ومن خلاله وصل إلى الشعوب الأخرى فى تلك المنطقة . وقد اتخذت جهود نشر الإسلام بين سكانها الطابع الفردى من خلال التجار المسلمين فى حلهم وترحالهم ، وعن طريق ممارساتهم للعقيدة الإسلامية حصل معظم شعوب حزام مناطق سهل الغرب الإفريقى وسواحلها على المعارف الإسلامية الأساسية .

هكذا دخل الإسلام إلى مدن وقرى السودان الغربى وتجسّد فيها
بالأسلوب الإقناعى السلمى . بيد أن درجة الاعتناق والممارسة الدينية اليومية
كانت متفاوتة بين أبناء قبائل المنطقة وفئاتها الاجتماعية المختلفة . وكان
اعتناق فرد واحد من أبناء قبائل الفولانى أو السونكى أو الماندنغو الذين
الإسلامى ، على سبيل المثال ، بمثابة تعزيز جديد لمسيرة الدعوة الإسلامية
بكسب داعية يسعى طواعية وبكل همة لاكتساب شخص آخر الى جانبه يعتنق
الإسلام من أبناء قبيلته أو من قبيلة أخرى مجاورة . وكانت جماهير غفيرة
تنجرف وراء ملوكها أو زعمائها متسارعة معهم فى الإقبال على الإسلام
لاسيما أصحاب الامتيازات من أبناء الطبقة العليا فى ذلك المجتمع . كانت
تلك هى الخطوة الأولى نحو إنشاء الدولة الإسلامية فى السودان الغربى ،
وكان هناك بحلول القرن التاسع الميلادى بعض المسلمين من قبائل التكرور
الفولانية ومن أبناء إمبراطورية غانة القديمة ومملكة كانيم الذين أصبحوا
مهيئين للاضططلاع بحركات الإصلاح الدينى الإسلامى . وشهدت مدينتا
أوداغست وكومبى صالح^(٣) من مملكتى مالى وغانة قيام مجتمعات إسلامية
صاحبها ظهور المساجد المبنية بالأحجار والخاضعة للإشراف الإدارى
المحكم الذى كان يتولى تعيين أئمتها الملك شخصياً .

(٣) كانت المدينتان تقعان فيما هو اليوم جمهورية موريتانيا الإسلامية فى غرب إفريقيا.

وقد ارتقى بعض علماء الدين إلى تقلد مناصب وزارية في كنف تلك الدول . لم تكن دولة غانة القديمة إسلامية بمعنى الكلمة ، كما لم يكن جميع سكانها من المسلمين . غير أن وصول الإسلام إلى الجزء الجنوبي للمغرب الأقصى وموريتانيا وانتشار حركة المرابطين التي تبناها أبناء قبيلتي صنهاجة والتكرور الفولانية في حوض نهر السنغال ، قد أعطى الإسلام كياناً صلباً وقوة دفع مما أفضى إلى استيلاء المرابطين على شمال إفريقيا برمته وبلاد الأندلس ابتداء من القرن العاشر الميلادي . وقد كان يحيى بن إبراهيم هو الذي قاد تلك الحركة بتوجيه من عبد الله بن ياسين الداعية الإسلامية الشهير . كما كانت دولة التكرور والفولانية من حيث كيانها السياسي أو الإداري ، في وقت لاحق ، إسلامية الطابع ، لاسيما بعد أن اعتنق ملكها "ور- جابي" دين الإسلام وطبق الشريعة الإسلامية في بلاده . وكان لهذه الحركة التي انضمت إليها قبائل البربر من سكان الصحراء الكبرى والقبائل الفولانية والسوننكية والماندنغية دور حيوي في نشر الإسلام في السودان الغربي . لكن الحروب المختلفة وعوامل الانحطاط أدت إلى سقوط إمبراطورية غانة على أيدي قبائل سوماغورور وسوندياتا البامبريتين وسقوط دولة المرابطين بعد ذلك في السنة ١٠٧٦ الميلادية ؛ الأمر الذي أدى إلى انتشار سكان تلك الدولة ، المسلمين وغير المسلمين ، لاسيما أبناء قبيلة السوننكي الذين كانوا تجاراً أساساً ، في مختلف أرجاء السودان الغربي وعلى مجرى نهر النيجر مما ساعد على انتشاره في المناطق الجديدة التي حل بها هؤلاء المهاجرون النازحون .

عوامل أخرى ساعدت على انتشار الإسلام

إن الركن الأساسى للعقيدة الإسلامية أى إشهار كلمة التوحيد "لا اله إلا الله" التى تنفى وجود أى إله آخر، يستحق توجيه العبادة إليه من دون الله ، قد جاء نقيضاً لكل المعتقدات الدينية التقليدية الأخرى الموجودة فى الغرب الإفريقي قبل ظهور الإسلام فيه . وأن الإسلام لا يعلم الإنسان مبدأ التوحيد فحسب ، بل إنه يوجهه إلى معرفة أسلوب المعاشرة مع أخيه الإنسان . وكان الناس فى تلك البيئات يجعلون لكل ظاهرة من ظواهر الطبيعة آلهة يعبدونها ويقدّسونها ويقدمون لها قرابين . فلكل أسرة أو عشيرة كاهن يقوم بدور الوسيط الذى يأتى إليه الأهالى للحصول على مشورات الآلهة المعبودة حول قضايا خاصة وعامة. لكنهم يعتقدون فى الوقت نفسه بوجود "الإله الأكبر" الذى يهيمن على تلك الآلهة الأخرى الصغيرة مما جعل قبولهم لعقيدة التوحيد عندما جاء بها الإسلام ، أمراً سهلاً .

ومن ناحية أخرى ، كان معظم الذين اعتنقوا دين الإسلام هم من الملوك والأثرياء وأبناء الطبقة العليا فى ذلك المجتمع ، الأمر الذى شجع أناساً آخرين على الاعتقاد بأن "القرآن" الذى يتلوه المسلمون مرات عديدة فى حياتهم اليومية هو سر نجاح الفرد منهم فى تحقيق أهدافه الاجتماعية والاقتصادية والروحية . وكانت لمراسم الإسلام اليومية كما يشهدها إنسان عادى تأثيرها الكبير ، مثل الممارسات العادية المتكررة للمسلمين ، انطلاقاً من الطهارة والوضوء والأذان والصلوات الجماعية أو

الفردية والزكاة للفقراء البائسين والأنشطة الدينية الحافلة طوال شهر رمضان واحتشاد جماهير غفيرة من المصلين في ساحات رحبة ليختتموا تلك الأنشطة عند انتهاء ذلك الشهر المبارك ، وبتنظيم حفلات ومهرجانات طبول ورقصات وإبداء ذوي الإمكانيات منهم استعدادهم للسفر إلى الأراضى المقدسة، حيث يشهدون أداء مناسك الحج وسط أوج التجمع البشرى الذي يهتف بالتهليل والتكبير قائلاً : " لبيك اللهم لبيك .. لبيك لا شريك لك لبيك " .

ويستفسر حجاج الغرب الإفريقي عن معنى هتافات الحجيج ، فيعلمون أن الله الذى يستحق التفريد بالعبادة لا يجوز أن يكون له أى شريك فى الملك أو فى القضاء والقدر : كانت لتلك الأنشطة كلها آثار قوية وإيجابية على نفوس وعقول سكان المنطقة ؛ مما هياهم للاندفاع إلى الإسلام طوعاً. فتزداد عقيدة التوحيد رسوخاً فى نفوس حجيج بلاد السودان الغربى بتشجيع من أهاليهم ثم يعودون ، بعد شهور عدة أو بضع سنوات حافلة بعناءات ومشقات لا يضاهاها عناء أو مشقة . يحمل كل واحد منهم لقب الحاج أو الحاجة ذكراً كان أو أنثى ؛ ويحظى كل منهم باحترام بالغ فى مجتمعه لدى العودة ؛ لأن اللقب يميزه عن سواه الذى لم يتح له استكمال هذا الركن من أركان الإسلام . وليس بوسعنا فى هذه العجالة أن نصف على وجه التحديد ، مدى الفرحة والسرور والابتهاج التى تغمر نفوس المسلمين بسبب تجاربهم الروحية فى رحلتهم

تلك . كما يزداد هؤلاء الحجيج خبرة وسعة أفق حول طريقة التعامل مع الآخرين وأساليب إدارة الحكومة تحت ظل الشريعة الإسلامية .

وبعد أن كان القرن السادس عشر الميلادي فترة ذهبية بالنسبة لتاريخ الإسلام في منطقة السودان الغربى وعموم غرب إفريقيا ؛ بدأ الإسلام يفقد حيويته كقوة سياسية ودينية فى تلك المنطقة بعد سقوط دولة صونغاي من جراء اعتداء دولة السعديين فى المغرب عليها في القرن نفسه .

مرحلة الانحطاط

لجأ الملوك ورعاياهم مع مرور الوقت إلى ممارسة العادات الوثنية الموروثة بعيداً عن ضوء التوحيد الذى أتى به دين الإسلام . وتولى الكهنة وأرباب الشعوذة والأسحار السوداء زمام القيادة الروحية في تلك المجتمعات ، خاصة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين . كما كسبت الأنشطة التبشيرية المسيحية المتسترة بتجارة الرقيق ، قدراً لا يستهان به من أبناء المنطقة . ومع ذلك ، احتفظت أجزاء كبيرة من بلاد الهاوسا ، لاسيما مدنها الكبرى مثل كانو وكاسينا وبورنو ، بشخصيتها الإسلامية مدعمة بوجود كبار علماء الدين فيها . غير أن العقائد والممارسات الإسلامية الممتزجة بالعادات الوثنية الموروثة استمرت لتكون عقبة معرقة أمام جهود الإصلاح الذى نهض به علماء الدين والدعاة في عموم الغرب الإفريقي بما فيه هذا

الجزء . وأذكر فيما يلي نماذج فقط من العادات والممارسات البشعة التي كانت متفشية في تلك المجتمعات والتي استدعت قيام الجهاد الإصلاحي هناك :

أولاً : عند اعتزام أحد الملوك "هابى" الوثنيين خوض معركة ضد أعدائه يقوم عادة باستدعاء كل أبطاله للحرب ، وينظم لهم مأدبة عشاء أمام قصره بحضور حشود من الناس ، ويكون هناك إناء كبير موضوع في وسط فناء يحتوى على قطع من لحم العجل ذات لون فاحم مخلوطة بقطع من لحم الإنسان المجذوم . ويقوم كل بطل من أبطال الحرب وهو في حالة غشيان وهيجان الزار وسط دوى الطبول ، وهتاف الراقصين ، بمد يده إلى ذلك الإناء ويتناول قطعة من اللحم المشوي ويأكلها . ويكررون ذلك إلى أن ينتهى ما في ذلك الإناء من محتويات . ويزعم الكهنة وأرباب الزار أن تلك الممارسة تقوى نفوس وشجاعة هؤلاء أبطال الحرب وتنزع عنهم مشاعر العطف والشفقة في حالة مقابلة العدو .

ثانياً : على المرأة المتوفى عنها زوجها أن تستكمل مدة العدة المعروفة شرعاً أى أربعة أشهر وعشرة أيام فقط . لكنها ، إضافة إلى ذلك ، تقوم عادة ، في اليوم الحادي عشر بعد استكمال العدة وفي منتصف الليل بالتوجه إلى قبر زوجها لإبراء نفسها من ذمته مع أداء طقوس معينة . ومعلوم أن تعليمات الحديث المروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم حول هذا الموضوع واضحة ؛ فهو لم يشر إلى شيء من هذا القبيل ، وهذا نصه : عن أم عطية رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تحدد امرأة على ميت فوق ثلاث ، إلا على

زوج ، أربعة أشهر وعشرأ ، ولا تلبس ثوباً مصبوغاً ، إلا إذا طهرت نبذه من قسط أو أظفار ، متفق عليه وهذا هو لفظ الإمام مسلم . ولأبى داود والنسائي من الزيادة " ولا تختضن وللنساء " ولا تمتشط. (٤)

ثالثاً : كان إذا اتهم شخص أحد المواطنين بسرقة أو انتزاع حق من حقوقه ورفع شكوى عن ذلك إلى قضاة الملك ، مثلاً يؤتى بالمتهم إلى البلاط ليحاكم ؛ وإذا أنكر التهمة الموجهة إليه وأصر على براءته، رغم التخويف والاستفزاز والتعذيب ، يأمر الملك بإحالته إلى غرفة مظلمة يكون بها كاهن يطلقون عليه اسم "دودو" .. هناك يخاطبه "دودو" موجهاً إليه عدة أسئلة وتهديدات مروعة ، ويطلبه بالاعتراف بارتكاب الذنب ، فإذا تمادى في الإنكار ، يأمره بالعودة إلى أهله ويأتى مرة أخرى في غده ويحمل معه قليلاً من الماء في إناء صغير لدى الحضور ، ويقدم إلى الكاهن المقنع الذي يتسلم منه الإناء وبه الماء المطلوب ، ويكرر تهديده وتخويفه له، وإذا رفض أن يعترف بذنبه مرة أخرى ، يرجع إليه الكاهن ذلك الإناء بعد أن يكون قد غمس فيه أصبعه الخنصر الملوث بمادة سامة بدون أن يكون المتهم قد لاحظ ذلك ، ويطلب منه أن يشرب الماء ، ثم يطلق سراحه ، ليموت بعد بضعة أيام من الإفراج عنه وهو مكروه حتى يبين أهله الذين يعتقدون أنه ملعون ، لأن الآلهة قد صبت جام غضبها عليه وانتقامت منه . لذلك مات ذلك

(٤) انظر كتاب : بلوغ المرام من أدلة الأحكام ، تأليف الحافظ بن حجر العسقلاني .

الموت الفجائي ، مع أن هذا المتهم قد يكون بريئاً وبالتالي مظلوماً ، وهو الغالب .

أما بالنسبة لمنطقة السودان الغربي التى كانت مهد الممالك الإسلامية الأولى في غرب إفريقيا ، فقد تعرضت هي الأخرى للصراعات السياسية والقبلية الداخلية التى تأثرت بها مسيرات الإسلام وأوقفت حيويته ، لاسيما بعد سقوط دولة صنوغاي . وأدى هذا الوضع إلى ظهور دويلات قبلية فى بعض أجزائها ، وكان منها دولتا سيغو وكارطة البامبريتان اللتان أسستهما فئات المزارعين المنتشرة على طول أودية مجرى نهر النيجر في جنوب منطقة ماسينا التى نشأت فيها دولة ماسينا الإسلامية والدولة العمرية الإسلامية في وقت لاحق . وقد قويت شوكة الدولتين البامبريتين السالفتي الذكر في القرن السابع عشر الميلادي أى في الفترة ما بين عام ١٦٥٢ و ١٦٨٢ الميلاديين وبسبب نفوذهما شرقاً وغرباً حتى شمل منطقة تنبكتو التى كانت المركز الحيوى للثقافة الإسلامية .

اعتمدت دولتا سيغو وكارطة على ما كانتا تفرضانه من ضرائب باهظة على القبائل المجاورة التى خضعت لهما للحصول على احتياجاتهما الاقتصادية ، معتمدتين على قوتهما . وبات من الطبيعي أن تحتيميا بالشباب الأقوياء لنهب المحاصيل الزراعية والممتلكات من المزارعين الضعفاء ، وقد نشب الخلاف والتنافس بين الدولتين في عهد الملكين " نيا نجولو " و " ينتون كولوبالي " ، مما أدى إلى اندلاع الحرب بينهما . وكان الكهنسة

هم أصحاب قدر كبير من السلطة الروحية والعقائدية فيهما . ومن ثم لم ينحل بيت من بيوتها من قطعة صنم أو أصنام . وتضاف إليهما ممالك هابي في بلاد الهاوسا . ويذكر لنا تاريخ المنطقة أنه عندما أراد أحد ملوكها في تلك العهود ، وهو الملك ما ماري إقامة حصون حول عاصمة دولته استدعى الكهنة واستشارهم بشأن ما يجب عمله لإرضاء الآلهة حتى تكون حصونه قادرة على حمايتهم من هجمات الأعداء ، فنصحوه بضرورة دفن ستين شاباً وستين شابة بكرّاً أحياء تحت الحصون التي ستقام.^(٥) وإضافة إلى مثل هذه الممارسات الوثنية البشعة ، انقلبت فئات من الذين احتضنوا دين الإسلام شكلاً عنه ، ورجعت إلى وثنياتها الأولى في مختلف أرجاء المنطقة ، ولم تعد هناك دولة إسلامية حقيقية باستثناء "بورنو" التي ظلت محتفظة بكيانها الإسلامي كدولة. كان هذا، بالاختصار ، مثلاً للأوضاع السائدة في السودان الغربي والأوسط قبل قيام الجهاد على أيدي الشيوخ : من أمثال سليمان بال وعثمان دان فودي والشيخ أحمد لوبّو والحاج عمر الفتوى .

وإذا أرجعنا النظر إلى مهد دول الإسلام الأولى في الغرب الإفريقي ، نجد أن قبائل البامبرا كانت تشكل جاليات زراعية منتشرة على طول وادي نهر النيجر جنوب غرب منطقة ماسينا قبيل سقوط دولة صونغاي . وكان هناك أخوان من قبيلة البامبرا لعبا دوراً بارزاً في مسرح سياسة سيغو . هما براما

(٥) راجع كتاب شعوب وإمبراطوريات غرب إفريقيا للبروفسور كارولين فيكي.

انغولو ونيا أنجولو، حيث ترأس كل منهما عصابة قوية كانت تعتدى على القبائل المجاورة وتنهب ممتلكاتها وتأسر المستضعفين من أطفالهما ونسائهما .

كان هذا هو الحال إلى أن جاء عهد الزعيم كالاديان كولوبالى الذى فرض نفوذه على منطقة سيغو وقوى شوكته فيها فى الفترة ما بين عامى ١٦٥٢-١٦٨٢م، واستولى على مقاطعة تنبكتو وفرض الضرائب على سكانها . غير أن هذه الدولة لم ترق إلى مصاف الدولة أو المملكة ، بل ظلت مقاطعة ذات قوة حربية فى ظل تلك العصابات القوية . وقد شهدت سيغو اضطرابات سياسية وحرباً أهلية إثر وفاة الزعيم "كالاديان كولوبالى"، ولم تنعم بالهدوء السياسى والاستقرار الاجتماعى إلا فى عهد ملكها بنتون كولوبالى حفيد الزعيم السابق الذى كان شخصية إدارية قوية احتشد حوله شباب البامبرا واعتبروه زعيماً بحكم بنيته القوية وشخصيته الجذابة وذكائه الفذ . وقد شمل نفوذه منطقة سيغو كلها ، امتداداً من نهر النيجر جنوب مدينة "باماكو" حتى الشمال الغربى لمدينة تنبكتو . والزعيم الآخر الذى أدخل الهيكل الإدارى فى دولة البامبرا هو الملك بنتون مامارى حتى أصبحت عاصمتها سيغو مركزاً تجارياً ذا شأن . أسس هذا الملك دولة قوية عرفت بدولة كارطة بفضل مجموعة من الشباب شكل منها عصابة مسلحة عرفت باسم "تونديون" . ونشبت خلافات بين الملك مارى كولوبالى الثانى ، الذى انحدر من الملك براما انغولو وفرع قبيلة ماساسى البامبرية المنحدرة من الملك نيا انجولو حيث شن كولوبالى هجوماً على منطقة "بيلدوجو" وقتل الزعيمين الآخرين ، ففرت

بقية أبناء قبيلة ماساسى بقيادة زعيم آخر يدعى سيبى بامما ، واتجهت صوب الغرب حيث أقامت ذويلة أخرى فى غرب سيغو تحت اسم كارطة الثانية . وظلت هذه الذويلة فى حالة عدااء وتنافس مستمرين مع دولة سيغو . التى لم تكف منذ موت ملكها ماماري كولوبالي الأول عن خوض الصراعات من أجل الحصول على السلطة السياسية .

وقد قتل ابنه الكبير سون دينكورو واثنان من معاونيه شنقاً على أيدي جماعة "تونديون" التى اتهمتهم بالتخلّى عن ديانتهم الموروثة واعتناق دين الإسلام، واستمرت هذه الجماعات المسلحة تستولى على الحكم ويقضي بعضها على البعض الآخر . لكن عندما جاء انجلوديارا إلى السلطة فى عام ١٧٦٦م شهدت مملكته الأمن والاستقرار النسبيين بعد أن تمكّن من القضاء على جماعة "تونديون" وفرض سيطرته على أعضائها، وحظي باعتراف القبائل الفولانية المجاورة فى مناطق ماسينا وجنّيبى وقبائل السوننكى التى خضعت لنفوذه. غير أن مملكة موسى الواقعة اليوم فى جمهورية "بورкина فاسو" استطاعت أن تتصدى لزحفه وتجبر قواته على التراجع حتى وصلت مقاطعة جنّيبى بقرب تنبكتو. ثم جاء الملك منسونج (١٧٩٠م-١٨٠٨م) خلفاً له . وقد تزامن عهد هذا الملك مع وصول المستكشف الاسكتلندي، مونجو-ترك (١٧٧١م-١٨٠٦م) إلى تلك المنطقة (٦) ، واستمر فى شن هجمات

(٦) هو الذى استكشف مجرى نهر النيجر فى عام ١٧٩٥م ومات فى رحلته الثانية أثناء التوغل فى أعماق إفريقيا فى عام ١٨٠٦م .

متقطعة على القبائل المجاورة ، ومن ثم على مناطق قبائل الدوغون وموسى
وتنبكتو إضافة إلى كارطة ويليبدوغو وفولا دوغو . لكن شهد عهد ملكهم الذي
دام من ١٨٠٨م إلى ١٨٢٠م سقوط دولة سيغو وقيام دولة ماسينا الفولانية التي
قضت على تلك المملكة الوثنية ودمجها في الدولة الإسلامية الجديدة بقيادة
المجاهد الشيخ أحمد لوبّو .

الفصل الثاني

دخول الإسلام إلى الغرب الإفريقي

يذكر المؤرخون أن المناطق العليا لنهرى النيجر والسّنگال قد أصبحت تحت النفوذ الإسلامي منذ القرن الثامن الميلادي. وكتب الجغرافيون العرب عن هذا الجزء من العالم منذ ذلك التاريخ. وكان المسعودي أحد هؤلاء المؤرخين الذين كتبوا عن تلك المنطقة. وقد استرعى المسعودي الأنظار إلى ظهور مجتمعات إسلامية في منطقة السافانا بغرب إفريقيا منذ عام ٩٤٧م. وساهمت الأنشطة التجارية عبر الصحراء بين الشمال الإفريقي والممالك القديمة في السودان الغربي في انتشار الإسلام بين شعوب تلك المنطقة بصورة ملموسة.

وبعد أن أرسى الإسلام جذوره وقواعده في هذه المنطقة كان لأهاليها من قبائل الفولاني والبامبرا والسوننكى الذين أخذوا زمام مسؤولية الدعوة الإسلامية، الباع الأطول في انتشار الإسلام بين أبناء منطقتهم وغيرها من المناطق المجاورة في السودان الغربي والأوسط.

وقد ذكر البكري في عام ١٠٦٧ الميلادي أن ملك مملكة غاو^(١) كان مسلماً وأن سكان غاو كانوا لا يؤلّون غير المسلم زمام الحكم في بلادهم.

(١) تقع غاو في شمال جمهورية مالي حالياً ، وكانت عاصمة إمبراطورية صونغاي .

ولا يعني هذا بالطبع أن الشعب برمته كان مسلماً ؛ وإنما كان فيه وثنيون . بل ذكر البكري أن أغلبية شعب تلك المملكة كانت من عبدة الأصنام الوثنيين . كما كانت هناك بقايا العادات الجاهلية التي كانت موجودة قبل ظهور الإسلام بالمنطقة . وأشار مؤرخ آخر هو المحلجي عام (٩٨٥م) إلى أن ملك كوكو (غار) كان مسلماً . وقد بنى مسجداً في عاصمة دولته وخصص ساحة للاحتفال بالمناسبات الدينية الإسلامية فيها . وذكر البكري بخصوص مملكة غانة القديمة ما يلي :

"كانت هناك أحياء إسلامية في أغلب مدن السودان الغربي ؛ من بينها مملكة غانة الوثنية ، وكان الإسلام مقبولاً لدى شعبها ، وشغل المسلمون مناصب هامة في بلاط ملكها . كما ارتفعت منارات المساجد والجوامع في مدنها . " وشهدت مملكة التكرور^(٢) ظهور الإسلام فيها في القرن الحادي عشر الميلادي ، وكان اسم ملكها "ورجابي بن رايس"^(٣) الذي اعتنق دين الإسلام في عام ١٠٤٠ ميلادي . وقد ذكر بن سعيد في القرن الثالث عشر ما يلي : كانت مملكة التكرور التي امتدت عاصمتها حتى شملت ضفتي نهر السنغال ، تحكم عددا كبيرا من

(٢) تطلق الكلمة التكرور التي تجمع ب"التكاير في أوساط العرب الشرقيين، على الذين ينتمون إلى غرب إفريقيا أو يرجع أصلهم إليها . واعتاد المؤرخون الغربيون لاسيما الفرنسيون كتابة الكلمة "بالتكلور" خطأ كما تلفظها قبيلة الولف.

(٣) ور - معناه "الحى" باللغة الفولانية ، بمعنى أن الله الذى عبروا عنه بلفظ الحى قد لبي لهم الرغبة بهدايتهم إلى الإسلام .

المدن . ووصف المدينتين : اهاسيلا وبربا " بأنهما إسلاميتان " . وكان ملكهما مسلماً وهو الذي قاد شعبه في الحروب ضد الشعوب الأخرى في تلك المنطقة .

ويرى المؤرخ الغربي ، ليفينجستون - David Livingstone - (١٨١٢- ١٨٧٢م) أن إسلام مملكة التكرور قد سبق قيام دولة المرابطين التي فرضت هيمنتها على الشمال الإفريقي وصولاً إلى ذلك الجزء في غرب إفريقيا ثم تحالفت معها فيما بعد . وقد ساهم ملوك وسكان تلك المملكة في نشر الإسلام بقدر كبير في تلك المنطقة وكانوا أول من قاموا بمسيرات جماعية بقوافلها في الغرب الإفريقي إلى مكة المكرمة لأداء مناسك الحج .

وتتضمن مؤلفات بعض المؤرخين والرحالة العرب من أمثال ابن بطوطة والعمرى معلومات كثيرة عن انتشار الإسلام بين أهالي الممالك القديمة التي قامت في غرب إفريقيا . ويعتمد كثير من المؤرخين المعاصرين على تلك المؤلفات للحصول على معلومات عن تلك المنطقة. وتذكر لنا بعض المصادر التاريخية أن حكام قبائل المالنكي أو الماندنغو قد اعتنقوا الإسلام قبل عهد الملك سونجاتا كايثا الذي يعتبر ، أعظم ملوك إمبراطورية مالي . ويشير ابن خلدون ، اعتماداً على ما ذكره مؤرخ يدعى الشيخ عثمان إلى أن أول من دخل دين الإسلام من بين ملوك هذه القبيلة هو الملك "بارمنداهس" الذي سافر إلى الأراضي المقدسة لأداء مناسك الحج . كما ذكر في مكان آخر أن شعب إمبراطورية مالي قد أصبح مسلماً بحلول القرن السابع الهجري (القرن

الثالث عشر الميلادي) . ولقد أصبح الإسلام راسخ القواعد في مالي في عهد ملكها منسا موسى (١٣١٢م - ١٣٣٧م) ؛ كما كان هذا الملك مشهوراً في العالم الإسلامي بعد قيامه في عام ١٣٢٤ الميلادي / ٧٢٤ الهجري ، برحلته المشهورة الى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج . وذكر العمري الذي أتى إلى مصر بعد مرور اثنتي عشرة سنة على هذا الحدث التاريخي مزيداً من التفصيل . كما أعطى ابن خلدون آفاقاً تاريخية إضافية للحدث نفسه . وقد كان برفقة الملك منسا موسى آلاف من الأتباع في رحلته تلك ؛ وقام بصرف أموال هائلة ، لاسيما عندما أتى إلى مصر مروراً وأقام بها فترة من الزمان . وكان في موكبه أعداد كبيرة من الناس حتى قيل إنه أفلس أثناء وجوده هناك ، مما دفعه إلى اقتراض أموال من بعض التجار المصريين ، كان من بينهم تاجر يدعى سراج الدين بن كويك الاسكندراني الذي قام فيما بعد بإرسال وكيل له إلى مملكة مالي لاسترداد الأموال المقترضة، لكنه عندما استلم المال امتنع عن العودة إلى مصر وآثر البقاء في مالي . وقرر سراج الدين بعد ذلك السفر شخصياً وابنه الى مالي ، لكن المنية عاجلت الملك منسا موسى قبيل وصوله إلى مدينة تنبكتو ، التابعة لدولة مالي في ذلك الوقت . ولهذه القصة مغزى تاريخي كبير لأنها تشير بوضوح إلى الثروات التي كانت مالي تتمتع بها وتقوى الله الذي وقر في قلوب حكامها وشعبها واستعدادهم لتقديم التضحيات بما يملكونه من الثروات امتثالاً للتوجيهات الدينية . وقد توفي الملك منسا موسى إلى رحمة الله في عام ١٣٣٧م وكانت إمبراطوريته ممتدة حتى شملت مناطق التكرور غرباً وشرقاً ، كما شملت معظم

مناطق الصحراء الكبرى وبعض مناطق الغابات النائية . ثم أخذ نفوذ هذه الإمبراطورية في الانحطاط في بداية القرن الخامس عشر الميلادي بعد أن فقدت سيطرتها على معظم أرجاء منطقة التكرور وتبكتو^(٤). وكانت النزاعات التي نشبت بين أفراد الأسر المالكة من الأسباب التي أدت إلى انحلال هذه الإمبراطورية العظيمة الشأن وسقوطها ، ومن ثم انفصل عنها عديد من الدويلات التابعة لها ، مثل مملكة موسى ومملكة صونغاي والمناطق الخاضعة لنفوذ القبائل البربرية الصحراوية . وقامت دولة صونغاي تدريجياً على إثر سقوط إمبراطورية مالي ، فأصبحت هي الأخرى دولة قوية ذات شأن في منطقة غرب إفريقيا امتد نفوها حتى شمل مناطق شاسعة في السودان الأوسط والغربي مثل مناطق : كيبي وكتسينا وكانو^(٥). وتحولت إمبراطورية صونغاي في عهد ملكها سوني علي (على الكبير) (١٤٦٤-١٤٩٢م) إلى إمبراطورية عظيمة . وكانت فترة حكم ابنه الذي جاء خلفاً له قصيرة الأجل بسبب الانقلاب الذي قام به معاون لوالده يدعي اسكيا الحاج محمد (١٤٩٢-١٥٩٧) وأطاح بحكمه . وتذكر المصادر التاريخية أن اسكيا الحاج محمد بذل جهداً كبيراً في نشر الإسلام في بعض مناطق السودان الغربي، عكس سلفه الملك سوني علي ، الذي قيل إنه اضطهد العلماء في عهده ، على حين تمتع العلماء بالاحترام والاهتمام البالغين في ظل اسكيا

(٤) تقعان حالياً في مالي والسنغال وموريتانيا .

(٥) تقعان حالياً في جمهورية نيجيريا الاتحادية .

الحاج محمد ، الأمر الذي أثار رغبة الشعب في التعليم والاهتمام بالإسلام وازدادت إمبراطوريته شهرة .

وقد قام هذا الملك بالسفر إلى مكة المكرمة حيث أدى فريضة الحج بعد مرور ثلاث سنوات على توليه الحكم . وضم في عهده بعض أجزاء بلاد الهوسا إلى إمبراطورية صونغاي . وفي سنة ١٥٠٢ ميلادية قام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني الذي أتى من الجنوب الجزائري بشمال إفريقيا بزيارة إلى تلك الإمبراطورية وتولى فيها منصب مستشار في بلاط ملكها الذي عينه ممثلاً له في منطقة غار . وقد ألف المغيلي كتاباً في الإدارة الإسلامية سماه " أجوبة وأسئلة أسيكاً " بناءً على طلب الملك . وقد سقطت تلك الإمبراطورية العظيمة في سنة ١٥٩١ ميلادية بفعل الغزو الذي تعرضت له من الحكام السعديين في المغرب الأقصى في سنة ١٥٩١ الميلادية كما ذكرت آنفا .

الأنشطة الثقافية في غرب إفريقيا

كانت الطرق التجارية التي انتشر الإسلام بواسطتها في إفريقيا جنوب الصحراء بمثابة حلقة الاتصال التي ربطت المسلمين في مناطق إفريقيا النائية بالمراكز الثقافية والسياسية الإسلامية في العالم الإسلامي آنذاك . وكانت المدن التجارية في تلك الأماكن هي عينا مراكز التعليم الإسلامي وأنشطته التي ينبعث منها نفوذ العلماء وشهرة الملوك المسلمين . وكانت مدينة تنبكتو إحدى تلك المدن التي اشتهرت بالأنشطة التجارية وبالثقافة الإسلامية في

القرن الرابع عشر الميلادي ، كما أصبحت مدينة ولاته (فى موريتانيا اليوم) المقصد الرئيسي لحركة التجارة عبر الصحراء . وتحولت المدينتان إلى مركز ثقافي إسلامي في الغرب الإفريقي .

تأسست مدينة تنبكتو في القرن الحادي عشر الميلادي على أيدي قبائل الطوارق الصحراوية . ومن حينه بدأت الحركة التجارية تتدفق من شمال إفريقيا إلى تلك المدينة ومنها إلى بقية أجزاء غرب إفريقيا. وفي النصف الثاني من القرن الرابع عشر احتلت تلك المدينة مكان الصدارة وتفوقت على ولاته كمركز تجاري ، ومن ثم أخذت أعداد كبيرة من العلماء تهاجر إليها وتستقر بها تدريجيا . وقد اشتهرت تنبكتو فى القرن الخامس عشر بالأنشطة الثقافية الإسلامية المتميزة، واتصف ملك مالي منسا موسى بالتدين وتقوى الله، وشجع شعبه على طلب العلم وإبداء الاحترام لعلماء الدين وطلبة العلم . وأخذ يرسل كثيراً من طلاب العلم إلى مدينة فاس المغربية لتحصيل العلوم العربية والإسلامية ، وامتاز الملوك المتعاقبون بعده بهذه الخصلة والممارسة إلى أن انهارت تلك الدولة . ويدل الحديث الآتي المنسوب إلى أحد علماء تنبكتو وهو الشيخ سيدي يحيى السقادلي المتوفي سنة (١٤٦١- ١٤٦٢م) على صدق هذا الخبر : " أتى سيدي عبدالرحمن التميمي من الحجاز واستقر في تنبكتو ووجد بها كثيراً من الفقهاء السودانيين^(٦) . ولما شعر

(٦) أهل السودان الغربي أي غرب إفريقيا .

بتفوقهم في علوم الفقه قرر أن يسافر هو أيضاً إلى مدينة فاس لدراسة الفقه ليعود بعد ذلك إلى مدينة تنبكتو ويستقر بها نهائياً " .

وكان هناك مسجدان كبيران بمدينة تنبكتو في نهاية القرن الخامس عشر، وهما الجامع الذي بناه الملك منسا موسى في القرن الرابع عشر وجامع سانكورى الذي أصبح فيما بعد أول جامعة تعليمية في إفريقيا جنوب الصحراء. وكان الجامع المركزي الذى تقام فيه صلاة الجمعة يقع فى الجزء الغربى من المدينة ، بينما يقع جامع سانكورى فى الجزء الشمالى منها. وتعتبر منطقته حيّ المغتربين الذين نزحوا من مناطق ولاتة وجينيّ والمناطق الصحراوية النائية . وقد تحول هذا الجامع فيما بعد إلى مركز ثقافي كبير لدراسة العلوم الإسلامية على غرار الجامع الأزهر بالقاهرة وجامعة القرويين بفاس أو جامعة الزيتونة بتونس . واستوطن أفراد الأسر التي اشتهرت بالتبحر في العلوم الإسلامية بمدينة تنبكتو ، وظهر فيها أجلة العلماء الذين لعبوا دوراً حيويّاً في مجال الثقافة العربية والإسلامية ، وكانوا ينتمون إلى عائلتي العالم عقيت أندق محمد والفقيه محمد . العالم أحمد بابا بن عبد الله أندق بن محمد عقيت، قاضي مدينة تنبكتو الذى عاش في القرن الخامس عشر : كان هو (٧) جدي الأول الذي كرّس حياته في خدمة العلوم العربية والثقافية الإسلامية .

(٧) يقصد عقيت أندق .

وتدل المقولية التالية المنسوبة إلى أحد زعماء تنبكتو في حق العلماء ، على الاحترام البالغ الذي كان يكنّه الحكام في إمبراطورية مالي وزعماء الطوارق للعلماء والاهتمام بهم . وكان هذا الزعيم قد قام عندما علم بعزم الملك سني على غزو مدينة تنبكتو وتدميرها بإحضار ألف جمل لنقل العلماء والفقهاء القائمين بالتدريس في سانكوري بأسرهم وأمتعتهم إلى منطقة بيرو بولاته ، وبرر ذلك بقوله : " إن أمرهم يهمه أكثر من أى شيء آخر ويشعر بقلق بالغ إزائهم " . وكان من بين الذين نقلوا الفقيه عمر بن محمد عقيت مع ثلاثة من أبنائه عبد الله وأحمد ومحمد وعمهم الفقيه أندق محمد . وقد تخرّج كثير من أجلة العلماء من جامعة سانكوري . وكان أحد أئمة جامعة سانكوري ويدعى الشيخ موسى كاطب من بين العلماء الذين أرسلوا إلى فاس في أوائل القرن الخامس عشر لاستكمال دراستهم هناك . كما كان هناك عدد كبير من خريجي جامعة سانكوري الذين سافروا إلى القاهرة والتحقوا بجامعة الأزهر لمواصلة الدراسة . وقام كثير منهم بعد تخرّجهم ، بالتدريس في المشرق والمغرب العربيين وبلاد الهوسا . وكان أحمد بن عمر جود الأمين من بين الذين سافروا إلى المشرق العربي في عام ١٧٥٨ الميلادي . وقد عاد إلى السودان الغربي بعد أداء فريضة الحج وزار مدينة كانو وغيرها من مدن المنطقة . والعالم الآخر الذي يذكره التاريخ هو الشيخ مخلوف البيالي ، الذي كان قاضياً وعالماً جغرافياً ، وقد تتلمذ على ابن الغازي المغربي . وقام فيما بعد بزيارة مدينتي كانو وكاتسينا بشمال نيجيريا . ومحمد بن أحمد التزختي هو أيضاً أحد علماء تنبكتو المشهورين ،

وقد جاء إلى كاتسينا بعد عودته من أداء فريضة الحج واستقر بشمال نيجيريا وحظي بالاستقبال الحار والاحترام البالغ لدي وصوله إلى كاتسينا حيث عين فيما بعد قاضياً في الفترة ما بين عامي ١٥٢٩ - ١٥٣٠ الميلاديين . ويرجع كثير من المؤرخين الفضل في جهود محو الأمية بين أهالي منطقة السودان الغربي إلى بعض الجماعات المهاجرة ، مثل قبائل التكرور والفولاني والماندنغو أو الونغا . وقد وصل نفوذ هذه الجماعات إلى منطقة السودان الوسطى . كما قامت أعداد أخرى من هؤلاء العلماء بالهجرة صوب الشرق بعد الاضطرابات السياسية التي شهدتها عهد الملك منسا سليمان ملك إمبراطورية مالي . ووصل علماء قبيلة الماندنغو أو الونغا وتجارهم إلى مدينة كانو بشمال نيجيريا في القرن الخامس عشر . وتنقل بعضهم حتى بلغوا منطقة "سينيغا ميا" غرباً وغابات غينيا جنوباً . وقد شكلت هذه الفئة من العلماء الطبقة المثقفة في وسط المجتمع الأمي الشاسع . وكانوا يقومون بتأسيس مراكز تجارية ومدارس لتعليم أبنائهم كلما حلوا بآماكن جديدة . وعنهم قال المؤرخ جويش في القرن السابع عشر :

"اتصفت هذه الفئة بحمل كميات من أمهات الكتب والمخطوطات العظيمة التي تتعلق بثقافتهم الإسلامية . شاهدنا جماعة منهم ومعهم أحمالاً عظيمة من هذه المخطوطات القيمة عندما أتوا إلينا ونزلوا علينا ضيوفاً وكانوا ينتقلون من مكان إلى آخر في أعداد أسرية كبيرة يرافقهم أبناءهم الصغار الذين يتلقون الدروس في حفظ وتلاوة القرآن ومبادئ العلوم الفقهية في كل مكان يحلّون به " . وقد ظلّت مدينة تنبكتو طوال القرنين الخامس عشر

والسادس عشر رغم الاضطرابات السياسية التي كانت تشهدها مركزاً عظيماً لتلقي العلوم الإسلامية في السودان الغربي وعموم غرب إفريقيا . وكان الفقيه أحمد بابا أحد العلماء البارزين في منطقة السودان الغربي والأوسط الذين حصلوا على ثقافتهم الإسلامية في جامعة سانكوري التنبكتوية، وينتمي إلى أسرة مثقفة وكبيرة هي أسرة الفقيه محمد عقيت التي اشتهرت بوجود علماء وقضاة بين أفرادها . وقد ولد أحمد بابا في ٢١ ذي الحجة لسنة ٩٦٣ الهجري الموافق ٢٦ أكتوبر عام ١٥٥٦ الميلادي وتلقى العلم في صباه عن والده، كما تعلم من عميه أبي بكر وأحمد بن محمد بن سعيد ، وهما من أجلة علماء تنبكتو ، وتلمذ على محمد يغوغو الذي درّسه أكثر من خمسة وعشرين كتاباً في مختلف فروع العلوم الإسلامية ، ومنحه إجازته العلمية . وتقدر مؤلفات أحمد بابا بأكثر من أربعين كتاباً ، من بينها مجمعه الشهير المسمى " تطريز الديباج " . الذي ألفه في عام ١٥٩٦ الميلادي عندما كان معتقلاً في مراکش حيث أطلق سراحه في ١٩ مايو ١٥٩٦ الميلادي بعد قضاء سنتين في الحجز المغربي . وبقي في نفس المدينة بعد الإفراج عنه للقيام بالتدريس وإصدار الفتاوى لفائدة المسلمين هناك . وأخذ الناس والعلماء وجماهير الطلبة يتدفقون عليه لتلقي العلم والمعرفة . واكتسحت شهرته منطقة شمال غرب إفريقيا بطولها وعرضها خاصة في السودان الغربي والأوسط ، مما جعل بعض رجال القضاء والإفتاء الذين يعيشون في كبريات مدن المغرب يتوجهون إليه لسماع الفتاوى الدينية التي تصدر منه . وفي نهاية الأمر أذن الأمير زيدان ، شقيق السلطان أحمد

المنصور الذهبي لأحمد بابا بمغادرة المغرب والعودة إلى مسقط رأسه ،
تنبكتو التي وصلها في ٢٦ من فبراير عام ١٦٠٦ الميلادي . وهناك عالم آخر
من أبناء تنبكتو اشتهر اسمه في السودان الغربي ، هو عبد الرحمن السعدي
(ولد في ١٥٩٦ الميلادي ، وهو صاحب كتاب " تاريخ السودان ") ، وكان
السعدي هو الإمام الراتب لأحد مساجد تنبكتو . ويتناول هذا الكتاب تاريخ
الأنشطة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في الممالك السودانية في
الغرب الإفريقي . وهناك محمود كعت ، أحد كبار علماء المنطقة . وهو أيضاً
من خريجي جامعة سانكوري التنبكتوية . وقد بدأ تأليف كتابه تاريخ الفتاش
في ١٥١٩ الميلادي . ولكن فاجأته المنية قبل أن يكمله ، فقام أحد أحفاده
في عام ١٦٦٥ الميلادي باستكمال التأليف . والكتاب عبارة عن الأنشطة
العلمية والسياسية التي شهدتها بعض أجزاء منطقة السودان الغربي ، ابتداءً من
عهد ملكها منسا موسى السالف الذكر . وتعد حيازة الكتب بصفة عامة كنزاً
قيماً وعظيماً في مجتمع السودان الغربي حيث . كان الأثرياء والمقتدرون
يقومون بشراء كميات كبيرة من الكتب الدينية والفقهية ويحتفظون بها
ويتوارثونها كابراً عن كابر افتخاراً وإجلالاً وحُباً للعلم . وقد ذكر أحمد بابا
في أحد أعماله شخصاً يدعى يحيى بن جوداله قال إن جده الأكبر كان يمتلك
كمية كبيرة من الكتب ، وإن ذلك كان من دواعي السرور والابتهاج والافتخار
لأفراد العائلة برمتها ، وإن بعض تلك الكتب قد نسخت باليد مما يشير إلى
الأهمية التي يعلقها أهل المنطقة على العلم وتحصيله ، ومدى استعدادهم لبذل

قصارى جهدهم للحصول عليه . وذكر الشيخ يحيى هذا أن جدّه المذكور قد ترك عند وفاته أكثر من سبعمائة مجلد .

وكان طلاب العلم يستعرون الكتب من أساتذتهم كما يستعير الأساتذة من بعضهم البعض. وتدل القصة الآتية على مدى استعداد العلماء للتعاون فيما بينهم بإعارة كتبهم على الرغم من شغفهم الحاد وحرصهم الشديد على عدم مفارقة تلك الكنوز القيمة . " كان الفقيه أبوبكر (١٥٢٤ - ١٥٩٣م) سخيّاً للغاية، ولم يتردد في إعطاء نواذر كنزه المتمثلة في الكتب القيمة إلى كل من يتقدم إليه ويطلبها منه. ولم يكن يستردها في الغالب، مما أدى إلى فقدانه للكثير منها. وفي ذات يوم أتى أحد طلبة العلم وطرق بابَه سائلاً استعارة بعض كتبه ، فأعطاه إياها دون أن يعرف من أين أتى ذلك الطالب". وكان الشيخ شغوفاً بحيازة الكتب سواء عن طريق الشراء أو الاستنساخ . وقد تم العثور على عدد كبير من بقايا تلك الكتب . وكان الملوك يقومون بإهداء الكتب والأموال إلى من يطلبها من العلماء. وكان الملك أسكيا داود ملك إمبراطورية صونغاي يُعين أشخاصاً من الكتاب الذين يقومون بنسخ المخطوطات والكتب المطبوعة ليقوم بتوزيعها على العلماء والطلبة مجاناً. وكان هو أول من أنشأ مكتبة عامة للمطالعة في هذا الجزء من العالم .

وأبرز المؤرخ ليون الإفريقى (الحسن بن محمد الوزان) الذي قام بزيارة تنبكتو في أوائل القرن السادس عشر المستوى العالي الذي وصلت إليه جهود محو الأمية وتوفير الكتب والمراجع الإسلامية في تلك المنطقة . إذ قال

يصف تلك الحالة : " ثمة أعداد هائلة من الأساتذة والقضاة ورجال الدين والعلماء الذين يقوم الملك والدولة بالتكفل باحتياجاتهم المالية ورفاهيتهم الخاصة ، كما تقوم الدولة باستيراد كميات كبيرة من أمهات الكتب والمخطوطات من البلدان الإسلامية لبيعها للشعب . وكانت تلك الكتب تمثل عروضاً تجارية رابحة وبالغة الأهمية " .

تجسيد الشخصية الإسلامية لمنطقة الغرب الإفريقي

يسهل علينا بعد هذا العرض الموجز للأنشطة الثقافية ، أن نقف على مختلف ألوان التشويه التي أدخلتها السلطات الاستعمارية على الفكر الإسلامي في منطقة غرب إفريقيا بعد بسط نفوذها عليها. لكن يجب علينا قبل الدخول في هذا البحث أن نشير إلى أهم المجتمعات الإسلامية في منطقة غرب إفريقيا التي كانت موجودة عبر الصحراء الكبرى قبل ظهور الاستعمار هناك ، وأن نشير إلى أن الفكر الإسلامي قد تجسد في حياة أفراد المجتمع الإفريقي في تلك المنطقة . ولعل النقاط التالية تساعد على إبراز هذه الحقيقة :

١- يجمع الإسلام بين منهج التفكير وأسلوب الحياة . وقد وصل إلى الغرب الإفريقي في القرن الأول من ظهوره في الجزيرة العربية . فقد أمر معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية واليه في شمال إفريقيا القائد الشهير عقبة بن نافع الفهري بأن يختار مكاناً مناسباً ينشئ فيه مدينة إسلامية تكون معسكراً للجيش ومقراً للمسلمين. فاختار عقبة أحد الأودية البعيدة عن الساحل

وأنشأ سنة (٥٠) في مدينة القيروان التي تقع اليوم في تونس ، مما مكن الإسلام من إرساء قواعده فيما يعرف اليوم بالجزائر ثم المغرب وموريتانيا ومالي .

٢- ذكر المؤرخون أن الولاة الذين تعاقبوا على هذه الدولة كانوا يغتنمون فرص فترات السلم في المنطقة ليقوموا بنشر دين الإسلام بين أهاليها . وكان الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز من أكبر المتحمسين لذلك . وقد اختار لهذا الغرض عشرة فقهاء من جيل التابعين لإرشاد أهالي تلك المنطقة وتعليمهم اللغة العربية والدين الإسلامي . وقد قدم هؤلاء الفقهاء إلى إفريقيا سنة ١٠٠ (مائة) بعد هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام وانتشروا في مختلف أرجائها . وأقبل الناس على اعتناق الإسلام أفواجا بفضل ذلك الجهود ، حتى أصبح عدد كبير منهم نابغين في علوم الدين الإسلامي والثقافة العربية .

٣- كانت أهم الممالك التي قامت في تلك المنطقة خاضعة للقيادة الإسلامية واعتنقت أهاليها دين الإسلام في وقت مبكر من ظهوره في الجزيرة العربية عبر شمال إفريقيا . وهذه الممالك هي : غانة ومالي وصونغاى . ثم قامت بعدها ممالك : مويسى والهاوسا وغاو (صونغاى) وبورنو وفولاني .

أ - إمبراطورية غانة : (٨) يرجع تاريخ دخول الإسلام إلى هذه الإمبراطورية إلى القرن الأول الهجري . وذكر البكري في كتابه "المسالك والممالك" أن الأمويين دخلوا في تلك الدولة في صدر الإسلام؛ وأن عاصمتها

(٨) معنى كلمة غانة أرض الملح بلغة صونغاى القديمة.

انقسمت إلى جزئين . جزء يسكنه المسلمون وجزء يسكنه الوثنيون . وكان الجزء الذى يعيش فيه المسلمون هو الأكبر ، ويضم اثنى عشر مسجداً أكبرها هو الجامع المركزي الذي تؤدى فيه صلاة الجمعة . ويوجد بكل مسجد مؤذن وإمام خاص به . كما يجتمع فيه طلاب العلم وعموم الناس للاستماع إلى تلاوة القرآن وتفسيره . وقد تميزت المدينة بوجود علماء التفسير والفقهاء وأهل اللغة . ويوضح المؤرخ الغربي بانيكار PANIKAR قائلاً إن بني أمية عندما أحكموا قبضتهم على مراكش بالمغرب شنوا هجوماً على مملكة غانة فيما بين عامي ٧٣٤ و ٧٥٠ ميلادي (١١٦ و ١٣٣ هـ) لأسباب سياسية، وكانت هذه هي الحملة المراكشية الأولى ضد دولة من دول غرب إفريقيا . بيد أن الحملة لم تصادف نجاحاً ، وكان أحفاد الجنود الذين استخدموا في شن ذلك الهجوم هم الذين حكم عليهم القدر والتاريخ فأثروا البقاء في تلك الدولة وعرفوا فيما بعد بالمهجنين .

الإسلام في غانا (٩) الحديثة

يستحسن قبل الحديث عن مملكة صونغاي، الإشارة إلى أن إمبراطورية غانة القديمة التى ازدهرت من القرن التاسع حتى القرن الثالث عشر الميلاديين، لا تمت بصلة ، فى الواقع التاريخي أو الموقع الجغرافى بجمهورية غانا الحديثة التى نالت استقلالها السياسى من المملكة المتحدة في ٦ مارس

(٩) يلاحظ أن الكلمة "غانا" تكتب للجمهورية الحديثة و"غانة" للإمبراطورية القديمة.

عام ١٩٥٧ الميلادي . ويتشكل النسيج السكاني لجمهورية غانا الحديثة من ارتباطات تاريخية وعرقية تكونت من ثلاثة عناصر قبلية رئيسية :

(١) العنصر الشمالي (٢) والعنصر الوسطى (٣) والعنصر الجنوبي . ومن المرجح جداً أن يكون العنصر الأول أى الشمالى قد شكل جزءاً من إمبراطوريات السودان الغربي التى قامت في القرون الوسطى . وقد اعتقد بعض المؤرخين المعاصرين ، بالتحديد الدكتور جوسيف بوتشوى دانكواه (١٠) (ديسمبر ١٨٩٥م - فبراير ١٩٦٥) صاحب كتاب " مفهوم الفكر الإلهي عند قبيلة أكان الغانية " ، أن قبائل العنصر الثاني " قد انحدرت من إمبراطورية غانة القديمة بعد انهيارها في القرن الثالث عشر الميلادي " . غير أن هذا الافتراض لا يقوم على دلائل تاريخية دامغة . وثمة افتراض آخر يشير الى انحدر قبيلة " أكان " بفروعها الثلاثة أي "غنواه وفانتى وتشويه" من مملكة غوانجا القديمة التي ازدهرت في الشمال الغربي لما هو اليوم جمهورية غانا . لكن من المرجح أن تكون تلك المملكة قد شكلت ، ضمناً ، جزءاً من إمبراطورية موسى الآتفة الذكر أيضاً . ويرى بعض المؤرخين التقليديين ، لاسيما رواة الأساطير الشعبية أن أجداد هذا العنصر الذي نحن بصدد دراسته قد انحدروا من قدماء المصريين الفراعنة . وقد انبنى هذا المعتقد على التشابه القائم في بعض عادات وممارسات أفراد هذه القبيلة وقدماء المصريين

(١٠) الدكتور جى بى دانكواه ، هو الذى اقترح تسمية ساحل الذهب بغانا عندما حصلت على الاستقلال في عام ١٩٥٧م

الفراعنه ، سيما فيما يتعلق بمراسم دفن ملوك كل من الجانبيين ، وكذلك الاعتقاد في استمرارية الحياة بعد انقضاء الحياة الدنيوية الانتقالية بالموت . ومن ثم إجبار الزوجة المفضلة للملك وافراد من خدمه على الرحيل معه عند موته والاستقرار في مقره الجديد أى قبره ، وذلك تعظيماً له وتضامناً معه . وسنتحدث الآن عن ملوكهم (قبيلة غانا) الذين اعتنقوا الإسلام .

أولاً : الملك محمد زنجينا (١١) :

كان الملك محمد زنجينا حامل لقب " يانا " (ملك الملوك) أعظم شخصية إسلامية برزت في مملكة دوغومبا التى قامت فيما هو معروف اليوم بالشمال الشرقي لجمهورية غانا في القرن الثامن عشر الميلادي . وحظى دين الإسلام بتشجيع منقطع النظر في عهده . وبرغم كونه الوريث الرابع لعرش تلك المملكة من عائلته ، بدءاً من والده " يانا " توتو غرى ؛ والسادس عشر لجملة ملوك مملكة دوغومبا قاطبةً ، إلا أنه يعتبر المؤسس الأول والحقيقي لتلك المملكة في ظل دين الإسلام .

ولد محمد زنجينا وثنى العقيدة والممارسة . وكان اسمه " وونبى " قبل اعتناقه الإسلام . وعندما تولى العرش سافر إلى بلاد الهاوسا التى تشمل اليوم

(١١) الكلمة هوساوية الأصل ، وهي مشتقة من كلمة "دنگنا" أى التوكل ، وتستعمل ككنية لكل من يحمل اسم عثمان .

شمال نيجيريا وجمهورية النيجر ، وهناك اتصل ببعض علماء الدين من بينهم فقيه يدعى مالام (المعلم) محمد الكسناوى ، الذي أدخله دين الإسلام وأعطاه اسم محمد زنجينا. استقدم الملك محمد زنجينا عدداً من علماء الدين وأصحاب الحرف من الحدادين والنساجين والبنائين وغيرهم من الحرفيين ، من بلاد الهاوسا الذين رافقوه لدى عودته إلى بلاده ؛ واندمجت هذه الفئة من الهاوساويين والفولانيين في مجتمع دوغومبا في شمال غانا مما ساعد في إنعاش الحيوية الإسلامية في تلك المنطقة . وعندما قامت مملكة غوانجا المجاورة بغزو الجزء الغربي لمملكة دوغومبا في عام ١٧١٣ الميلادي ، تنحى المملك محمد زنجينا عن العرش لصالح ابن عمه أندانى سيغلى . توفي (محمد زنجينا) بعد ذلك بفترة وجيزة في بلدة أغباندى حيث دفن . وبرغم قصر عهد ملكه ، كان الملك محمد زنجينا متميزاً وفذاً في العمل من أجل تجسيد الشخصية الإسلامية في بلاد دوغومبا بدرجة لم يبلغها خلفاؤه من ملوكها .

ثانياً : الملك أوساى بونسو :

ولد الملك أوساى بونسو فى ملك مملكة أسانتى (١٧٧٩ - ١٨٢٤م) ، وهو الملك السابع لهذه المملكة وأعظم ملوك أسانتى في القرن التاسع عشر الميلادي . حالة العداء التي قامت بينه وبين المسلمين في ظل حكمه ، حظى المسلمون في عهده بنوع من النفوذ السياسى على عرش أسانتى . فكان المسلمون هم القائمون بالمكاتبات والمراسلات بين مملكة أسانتى والملوك

الآخرين في الممالك المجاورة ، الأمر الذي دفعه إلى التجاوب وإبداء التفاهم مع المسلمين . وكان يعتمد عليهم في الدعوات أثناء حدوث الحروب والخلافات الأسرية. شهد عهده الإنماء الإسلامي في مجتمع أسانتي. ولولا التقاليد والممارسات الجدّ وثنية والطقوس المناوئة للعقيدة الإسلامية جذرياً والتي ترتبط ارتباطاً كلياً بالحكم بين قبيلة أسانتي، المتمثلة في تقديم القرابين بالدم البشري والإفراط في استخدام الخمر أثناء تلك الطقوس وعدم الجواز لأي إنسان مختون أن يتولى الحكم فى هذه القبيلة، من ناحية وطموحات البقاء على العرش من ناحية أخرى ، لأصبح الملك أوساى بونسو مسلماً في فترة ملكه .

ثالثاً : باباتو

باباتو ؛ عرف فى تاريخ الغرب الإفريقي باسم محما (محمد) طن عيسى. ولد ببلدة "إندونغا" الواقعة في جمهورية النيجر من أبوين ينتميان الى قبيلة جرما/زبرما، في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي. لعب باباتو دوراً رئيسياً في تأسيس دولة غرونشى الإسلامية بشمال غرب جمهورية غانا. هاجر باباتو، من مسقط رأسه في النيجير إلى بلاد غرونشى حيث استوطن في حوالى عام ١٨٦٠ الميلادي . كانت هناك جماعات من قبيلته قد هاجرت قبله إلى تلك المنطقة. اشتهرت بالبطولات الحربية. وكانت بقيادة زعيمين ، هما الفقيه هانو والفقيه غزارى. لذا دخلت الجماعة في تحالف مع قبيلة سيسالا في حروب داخلية كانت دائرة في أوقات متلاحقة يسن تلك القبائل؛ خاصة في

أنشطة الاسترقاق : وتمكنت هذه الجماعة من فرض سيطرتها ونفوذها على كل مناطق غرونشى التى شملت مناطق قبائل : سيسالا، بويلسا، كاسينا ، نانكانى ، أوونا ، دغاتى ومجموعات القبائل الأخرى غير المسلمة التى احتلت كل المناطق الواقعة تحت نفوذ دويلات موسى فيما يعرف اليوم ببوركينا فاسو ومانبروسى فيما يعرف اليوم بشمال غرب غانا، ودوغومبا، بشمال شرقها، وغوانجا فيما هي فى الشمالين الشرقي والغربي لها ، وواه فى الشمال الغربي لها أيضاً . وقد احتلت قبيلة زبرما (جرما) بصفة تدريجية وسلمية وعن طريق تحالفها مع بعض قبائل هذه المناطق كلها في وقت لاحق . وعندما قتل زعيم قبيلة زبرما الحاكمة وهو ألفا (الشيخ) غزارى في إحدى تلك الحروب حوالى عام ١٨٨٠ الميلادى خلفه باباتو الذي كان بطلاً حربيًا ذكيًا . وفى تلك المرحلة انضمت إليه جماعات من قبائل الفولانى ، الهاوسا ، الوالا ، اليوربا ، الموسي ، الغرونشى ، فكون جيشاً قوياً وأعلن الجهاد الإسلامى . غير أنه لم يكن فقيهاً وعالمًا بالدين، مثل سابقه ألفا غزارى الذي كان متفهماً في الدين . ومن ثم ركز باباتو اهتمامه على الزحف العسكرى دون أن ترافقه أنشطة التوعية والدعوة إلى اعتناق الدين الإسلامى ؛ كما بالتحالفات التى كانت قائمة بين الجماعة التى يتزعمها والدويلات الأخرى ذات العناصر الإسلامية وقياداتها ، مثل سيتى ، واه ، ليمبيلى ، بوروما ، هابو . واستطاع باباتو ، رغم هذا التقصير من جانبه ، مدّ نفوذه وسيطرته إلى أقصى مناطق الشمال الغربي . بيد أن قوته أخذت في الضعف تدريجياً مما شجع بعض القبائل الكبيرة ، مثل

سيسالا ودوغومبا على التمرد ضده . لكنه تمكن بعد وقت قصير من استعادة السيطرة عليهما وشدد قبضته على دولة غرونشى أيضاً . وارتقت قبيلة (جرما) المسلمة إلى كتلة قوية باسطة نفوذها على كافة شمال غانا في عهد هذا الملك . وقد أقام معسكرات لجيشه في مدنها الكبرى مثل لالى وواه .

ورواجه باباتو نوعاً من الانتكاس والتردى بسبب تزامن امتداده العسكرى مع توغل قوات زعيم آخر من ناحية الجنوب الشمالي الذى يعرف اليوم بجمهورية غينيا ، وهو السامورى تورى الذى وصل إلى منطقة بوركينافاسو الحالية . وصادف هذا الزحف أيضاً قدوم الاستعماريين من الإنجليز والفرنسيين والألمان إلى منطقة الغرب الإفريقي . واشتبكت قوات المجاهد الإسلامى محمد باباتو مع تلك القوى الاستعمارية الثلاث في جهات مختلفة ، لكنه اضطر إلى التراجع واللجوء إلى مدينة ياندى عاصمة دولته ، بيد أن الاستعماريين تمكنوا من التغلب عليه في نهاية الأمر .

وقد شهدت مناطق شمال جمهورية غانة ، في عهد الإمام محمد باباتو ، تشييد المساجد والمدارس الإسلامية مع استقدام الفقهاء وعلماء الدين من نيجيريا ومالي والسنغال الذين ساهموا في نشر الثقافة الإسلامية التى استمرت في جمهورية غانة . كما توطدت العلاقات التجارية والثقافية بين دولته في شمال غانة والمجتمعات الإسلامية الأخرى المجاورة . وعندما احتلت قوات الاستعمار الإنجليزى والفرنسى تلك الدولة في عام ١٨٩٠ الميلادى كان الإسلام قد أثبت وجوده فيها وترك بصماته دامغة على هوية سكان تلك المنطقة .

ب- إمبراطورية مالي : (١٢) قامت هذه الإمبراطورية في منطقة السودان الغربي . وكان أشهر ملوكها سوندياتا كايता (١٢٣٠ م - ١٢٥٥ م) ومنسا موسى (١٣١٢ م - ١٣٣٧ م) وذلك بعد سقوط إمبراطورية غانة . وقد نهضت إمبراطورية مالي وأنجزت الكثير في ميادين التجارة والبطولات الحربية ، سيما بعد أن أصبح دين الإسلام ديناً رسمياً فيها . ولعب علماء الدين أدواراً كبيرة في تشجيع انتشار الإسلام في ظل ملوكهم المسلمين ، ومن بينهم الملك منسا موسى الذي كان شهيراً ومحروباً عند عموم المسلمين وعلمائهم ، والملك سوندياتا كايता هو المشيد الحقيقي لهذه الإمبراطورية التي قامت كسابقتها غانة في منطقة تضم الشرق الموريتاني الحالي حيث تقع عاصمتها والشمال الغربي لحوض نهر النيجر .

وبحلول عام ١٢٥٥ الميلادي عند وفاة الملك سوندياتا كايता امتد نفوذ تلك الدولة وشمل المناطق الشاسعة التي غطاها نفوذ مملكة غانة سابقاً ، وأصبحت بمثابة ممرات للقوافل التجارية . وكانت أراضيها غنية بالثروات المعدنية مثل النحاس والذهب والفضة والملح ، كما كانت عاصمتها نياني إلى جانب مدنها الكبرى مشهورة مثل ولاته وغاو وجيني مراكز تجارية في السودان الغربي . وازداد نفوذ الإسلام ترسخاً في عهد ملكها منسا موسى الذي حكم في الفترة من ١٣١٢ - ١٣٣٧ ميلادية .

(١٢) معنى كلمة مالي : البرنيق أى فرس النهر بلغة البامبرا .

ويعتبر كتاب " مسالك الأبصار في ممالك الأمصار " لشهاب الدين أبي العباس بن أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (١٣٠١م - ١٣٤٩م) من أقدم مصادر تاريخ السودان الغربي المزدهر . وقد أشار العمري إلى أنه كان لهذه المملكة ملك يسمى سليمان تولى العرش بعد انقضاء حكم أخيه الملك منسا موسى . وكانت أراضي مملكته شاسعة . وأدخل أهلها دين الإسلام ، وقام بعد ذلك بتشييد المساجد والجوامع ذات المآذن الشامخة التي يجتمع الناس فيها للعبادات والاحتفال بيوم الجمعة في كل أسبوع . واستقدم العلماء والفقهاء من مذهب السادة المالكية إلى بلاده لاستشارتهم في أمور الدين والدنيا . ومن ثم أصبح من أشهر ملوكها المتشبهين بالعلوم الإسلامية والثقافية العربية . كان هناك ملك من بين ملوك هذه المنطقة يعرف عند أهل الشرق العربي ، سيما في مصر بالملك التكرور ويعرف شعبه بالتكروريين ، ويعتبر أعظم ملوك المسلمين في منطقة السودان الغربي والوسطى^(١٣) ؛ حيث شمل ملكه منطقة شاسعة مترامية الأطراف وامتاز عهده بوجود جيش وافر العدد من الرجال والعتاد، وكان أكثر الملوك عدالةً في توزيع خيرات البلاد على مواطنيه . وكانت أشهر المقاطعات التي ضمتها مملكته : غانة، زافون، بيرفكا، تيرنكا، تكرور، سنغها بامبوى ، زرقتبانا، دامورا، زغها، كبورا، بوغهرى وكاوكاو . وعرفت عاصمتها الجديدة ب : بيتى . التى بلغ عدد مدنها وقراها الكبرى أربع عشرة . وذكر العمري أنه

(١٣) هو الملك سليمان بال أو محمد أسكيا فى أغلب الظن .

قابل شيخاً تقياً يدعى أبا عثمان بن سعيد الدوكالي الذي عاش في مدينة بيتي هذه طيلة خمس وثلاثين سنة. وقد ذكر أنه كانت لتلك المملكة مساحة شاسعة تقطعها القوافل من وإلى المغرب الأقصى والمحيط الأطلسي . كما وصف المؤرخ والجغرافي الإسلامي المشهور محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي ، المعروف بابن بطوطة في كتابه: تحفة النظار في غرائب الأمصار ، الشهير بـ : "رحلة ابن بطوطة " شعب مملكة مالي قائلاً : " وصلت إلى مدينة مالي حضرة ملك السودان فنزلت عند مقبرتها ، وعن ذكر سلطانهم : وهو السلطان منسا سليمان ، ومنسا معناه السلطان ، وسليمان اسمه ، وهو ملك بنخيل لا يرجي منه كبير عطاء ، وأنى أقمت هذه المدة ولم أره بسبب مرضي ، ثم إنه صنع طعاماً برسم عزاء مولانا أبي الحسن ، رضى الله عنه ، واستدعى الأمراء والفقهاء والقاضى والخطيب ، وحضرت معهم ، فأتوا بالربعات وختم القرآن ، ودعوا لمولانا أبي الحسن ، رحمه الله ، ودعوا لمنسا سليمان ، وأعلمه القاضى والخطيب وابن الفقيه بحالى فأجابهم بلسانهم . فقالوا لى: يقول لك السلطان: اشكر الله، فقلت : الحمد لله ، والشكر على كل حال ... والسودان (مالي) أعظم الناس تواضعاً لملكهم وأشدّهم تذلاً له ، ويحلفون باسمه فيقولون : "منسا سليمان كى" . فإذا دعا أحدهم يأخذه لحراسه عند جلوسه بالقبة التي ذكرناها . نزع المدعو ثيابه ولبس ثياباً خلقة ، ونزع عمامته وجعل شاشية وسنخة ودخل رافعاً ثيابه وسراويله إلى نصف ساقه ، وتقدم بذلة ومسكنة ، وضرب الأرض بمرفقيه ضرباً شديداً ، ووقف كالراكع يسمع

كلامه . وإذا كلم أحدهم السلطان فرد عليه جوابه ، كشف ثيابه عن ظهره ورمى بالتراب على رأسه وظهره كما يفعل المغتسل بالماء . وكنت أعجب منهم كيف لاتعمى أعينهم استمر ابن بطوطة قائلاً : فمن أفعال السودان الحسنه قله الظلم فهم أبعد الناس عنه ، وسلطانهم لايسامح أحداً في شيء منه ، ومنها شمول الأمن في بلادهم ، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب ، ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان ولو كان القناطير المقنطرة ، إنما يتركونه بيد ثقة من البيضان حتى يأخذه مستحقه، ومنها مواظبتهم للصلوات ، والتزامهم لها في الجماعات وضربهم أولادهم عليها . وإذا كان يوم الجمعة ولم يكر الإنسان إلى المسجد ، لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام . ومن عاداتهم أن يبعث كل إنسان غلامه بسجاداته فيبسطها له بموضع يستحقه بها حتى يذهب إلى المسجد ، وسجاداتهم من سعف شجر يشبه النخل ولاثمر له ؛ ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة ؛ ولو لم يكن لأحدهم إلا قميص خلقة غسله ونظّفه وشهد به الجمعة...، ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم ، وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه ، فلا تفك عنهم حتى يحفظونه . ولقد دخلت على القاضى يوم العيد ، وأولاده مقيدون . فقلت له : ألا تسرحهم ؟ فقال : لا أفعل حتى يحفظوا القرآن . ومررنا يوماً بشاب منهم حسن الصورة ، عليه ثياب فاخرة ، وفى رجله قيد ثقيل فقلت لمن كان معى : ما فعل هذا ، أقتل ؟ ففهم عنى الشاب وضحك، وقيل لى : إنما قيد حتى يحفظ القرآن ؛... وكان دخولى إليها (مالى) فى الرابع عشر لجمادى الأولى

سنة ثلاث وخمسين ، وخروجي عنها فى الثانى والعشرين لمحرم سنة أربع وخمسين (١٣٥٣م) ، ورافقنى تاجر يعرف بأبى بكر بن يعقوب . وقصدنا طريق ميمة ، وكان لي جمل أركبه لأن الخيل غالية الأثمان يساوى أحدها مائة مثقال ، فوصلنا إلى خليج كبير يخرج من النيل ، لايجاوز إلا فى المراكب ، وذلك الموضع كثير البعوض ، بالليل ، والليل مقمر^(١٤). ويضيف العلامة عبد الرحمن ابن خلدون من ناحيته قائلاً : إن تلك الإمبراطورية شهدت فى عهد ملكها "مارى جاطه" انتشار الإسلام وتشجيع علمائه على نشر علومه بين سكان المناطق الساحلية لغرب إفريقيا . وقد سافر إليها آلاف من التجار والعلماء المسلمين من مختلف أرجاء المنطقة وبلاد المغرب الأقصى وشمال إفريقيا عن طريق الصحراء . وأثارت الانتصارات التي حققتها الدولتان الكبيرتان - دولة مالي ودولة صونغاى في غرب إفريقيا اهتمام ومطامع السعديين الذين كانوا حكاماً فى المغرب الأقصى مما تسبب فى زعزعة استقرارهما . وكانوا يحصلون على الأسلحة من إنجلترا لفترة طويلة. ويقرر الأستاذ ورد - فى كتابه " تاريخ انتشار الإسلام في غرب إفريقيا " بأن الحضارة فى بلاد السودان الغربية كانت أرقى من الحضارات التى شهدتها بلاد السودان الأخرى ، لكنها أخذت تتضاءل بسبب الاعتداءات والحروب المتواكبة عليها والخلافات الداخلية ، بينما أخذت أوربا تتقدم فى تلك

(١٤) كتاب : رحلة ابن بطوطة - طبعة دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٣٨٤هـ -

العصور بفضل ما تعلمته من علماء المسلمين . ومن الإنصاف التاريخي أن نشير إلى أن تلك الاعتداءات والهجمات المتكررة قد ساهمت في القضاء على الثقافة الإسلامية في الغرب الإفريقي بسبب اضطهاد علمائه من أمثال أحمد بابا الذي اقتيد في أغلاله إلى مراکش بدون ذنب أو إثم ارتكبه كما سبق أن ذكرنا . وبذلك فقدت مدينة تنبكتو وضواحيها كميات كبيرة من كتبه ومؤلفاته خلال تلك الأعمال المأسوية التي كسرت ساقه من جرائها .

وظل مع ذلك رابط الجأش ، وانتهر أقرب فرصة ليستأنف نشاطه العلمي في مراکش نفسها . ولم يسمح له بالعودة إلى تنبكتو إلا في سنة ١٦٠٥ الميلادي في عهد ملكها مولاي زيدان .

ج - إمبراطورية صونغاي :

قامت إمبراطورية صونغاي في منطقة وسط نهر النيجر بغرب إفريقيا في القرن السابع الميلادي ، وكانت تلك الدولة قوية اقتصادياً . وقد اعتمدت على المنتجات الزراعية وصيد الأسماك ، لهذا ارتبطت مجتمعاتها في بادئ الأمر بتقديس الأنهار . يقول المؤرخ باسيل دافيدسن Basil Davidson إن أول ملك اعتنق الدين الإسلامي يسمى ضياء كوسوى (سنة ١٠٠٩م) . وأن ذلك كان قبل قيام دولة المرابطين . ويقرر كذلك أن قدوم التجار والدعاة المسلمين إلى تلك الإمبراطورية قد سبق تلك الحقبة . ويذكر أيضاً أنه تم العثور في سنة

١٩٣٩ - في بلدة "ساني" على بعد حوالي أربعة أميال من مدينة غاو على
قبور ملوك يعود تاريخهم إلى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي ، وكتب
على أحد هذه القبور ما يلي : هنا يرقد جثمان الملك أبي عبد الله بن محمد
الذي دافع عن دين الله وهو الآن في رعاية الله ورحمته . وكان ذلك في سنة
٤٩٤ هـ (١١٠٠م).

وجاء انتشار الإسلام بصورته الواسعة إبان حركة المرابطين التي خدمت
الإسلام في البلاد التي سقطت في أيديهم والمناطق الأخرى المجاورة .
وشهد قيام إمبراطورية صونغاى تدفق حركات الهجرة عبر الصحراء الكبرى
بسبب تحول عاصمتها "كوكيا" إلى مركز تجاري ذي شأن عظيم في منطقة
السودان الغربي . وكانت ثمة قبائل نازحة ووافدة من أقصى شمال الصحراء
الكبرى من بقايا القبائل البربرية ، سيما قبيلتي " زأ " و " ديا " . واستطاعت
هاتان القبيلتان انتزاع السلطة والحكم من أيدي أبناء المنطقة الأصليين ونقلوا
بالتالي عاصمة الإمبراطور من كوكيا إلى غاو في القرن التاسع الميلادي .
واشتهرت غاو باجتماع الأنشطة التجارية عبر الصحراء الكبرى واستقرار
المهاجرين فيها . وتحولت مجتمعات تلك الإمبراطورية بحلول القرن الحادي
عشر الميلادي إلى مجتمع إسلامي كامل المعالم ، مما أدى إلى إغراء مطامع
مملكة مالي المجاورة بفرض سيطرتها عليها . ولكن استطاعت الإمبراطورية
بنهاية القرن الرابع عشر الميلادي تخليص نفسها من نفوذ مملكة مالي بقيادة
أسرة الملك سونّي على . فأخذت في التوسع المستمر واكتساح المناطق التي

كانت خاضعة لمملكة مالي في الفترة ما بين (١٤٦٤ و ١٤٩٢) الميلاديين. واستطاع الملك سونّي علي من خلال حملاته ضم معظم المراكز التجارية والثقافية إلى مملكته الجديدة واستولى على أشهر المدن التجارية الأخرى مثل تنبكتو وجينّي وغيرهما من المدن الواقعة على ضفاف نهر النيجر . كما نجح من قبل في ضمان أمن حدود دولته ضد الغزاة الذين يهددونّها من قبائل الموسي جنوباً والبربر والفولانيين من سكان مرتفعات هومبوري في الجنوب الشرقي . ولم يتركز النجاح الذي أحرزه الملك سونّي علي على حنكته السياسية وحيويته وأنشطته فحسب، بل على قدرته المتميزة في التنظيم والإدارة .

وقد أحرز الدين الإسلامي تقدماً ملموساً في تلك الدولة في عهد الملك سونّي علي المذكور . وبالرغم من حالات العداء التي كانت قائمة بين مملكته وسائر القيادات السياسية والإسلامية في منطقة السودان الغربي ، كان سونّي علي متمسكاً بالإسلام كدين لدولته . واستعان بالعلماء المسلمين في إدارتها . غير أن طموحاته السياسية هي التي أشعلت حالة العداء بينه وبين علماء الدين والقيادات الإسلامية في مجتمعه . وقد قام أحد جنوده يدعى محمد ناوري بالإطاحة بحكم ابن الملك سونّي علي الذي تولى الحكم بعد موت أبيه ، وبذلك قام حكم أسكيا الحاج محمد (١٥) الذي أرسى اللبنات الأساسية لدين الإسلام في إمبراطورية صونغاي ، فنهض بتطبيق الشريعة الإسلامية على هدى

(١٥) منحه مولاى العباس، شريف مكة لقب "خليفة" عندما حجّ في سنة ٩٠٢هـ .

القرآن الكريم وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكرّس معظم أوقاته ونشاطه لإقامة المدارس التي تخرج منها الفقهاء وأهل اللغة ورجال الثقافة الإسلامية بصفة عامة . وشيّد عروة الصداقة بين إمبراطوريته ودول شمال إفريقيا ، مما شجع تدفق العلماء من تلك المنطقة من أمثال المغيلي إلى دولته واشتراكهم في تعميم الثقافة الإسلامية على السّكان في منطقة السودان الغرب والوسطى . كما مكّن العلماء من تكوين الطبقة الامتيازية الخاصة بهم ومن إيجاد مراكز الثقافة الإسلامية وانتعاشها في مدن تنبكتو وجينى وكاتسينا وكانو وصوكتو إلى آخره . ولكن حدث في أواخر القرن السادس عشر الميلادي أن تردت الإمبراطورية سياسياً بسبب نشوب النزاعات الداخلية بين أبناء الحاج محمد أسكيا وأقاربه، الأمر الذي مهد قيام دولة السعديين المغربية بغزوها والقضاء عليها في السنة ١٥٩١ الميلادية طمعاً في فرض السيطرة على مواقعها الاستراتيجية المتمثلة في الممرات التجارية والاستيلاء على مناجم الملح والذهب . وقد امتد نفوذ إمبراطورية صونغاي في زروة مجدها ، من الجزء الشرقي لسابقتها مملكة مالي حتى منطقة كّبي وبعض أجزاء من بلاد الهاوسا في السودان الوسطى حيث جمهورية نيجيريا الاتحادية وجمهورية الكاميرون الحاليّتين .

الفصل الثالث

آثار التربية الاستعمارية على الفكر الإسلامي في منطقة الغرب الإفريقي

أستهل هذا الفصل مشيراً إلى ثلاثة أشياء لها أهمية قصوى في فهم مضمونه. أولها الآثار "IMPACTS" التي كتبناها بصيغة الجمع لتكون شاملة ، وثانيها COLONIALISM التي تعني "الاستعمار" . وثمة ترابط بين الآثار والتربية EDUCATION ، لأنهما متلازمان جوهرياً في فلسفة التربية وعلم النفس . فالتربية لا تجدي مالم يكن هناك أثر لها على الإنسان المربي (بفتح الباء) ، كما أن الأثر لا يتأتى على تكوين الفرد إلاّ كوليّد للتربية ؛ سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة . وكلمة "الاستعمار" Colonialism من اسم مجرد يقول عنه البروفسير باتريك هنكس Patrich Hanks في موسوعته اللغوية - هاملن - إنه مشتق من كلمة "Colony" أى مستعمرة التي تدل على مكان استقرت فيه مجموعة من الناس أتت من بلادها واستوطنت مكاناً جديداً ، مع الاحتفاظ بصلة القرابة التي تربطها بوطنها الأم . وتدل كلمة التربية Education في مفهومها اللغوي على التوجيه والتدريس والتعليم والتدريب . كما تحمل في طيتها معنى التهذيب الخلقي والنمو الجسمي والإدراك العقلي الذي يتم عن طريق تلقين واكتساب المعرفة . وتتضح من هذا

المنطلق الكيفية التي قام بها الفكر الأجنبي الاستعماري بتلقيق العقل الإفريقي والإسلامي منه على وجه الخصوص فى منطقة الغرب الإفريقى ، مفهوم الحياة القائم على القيم المادية البحث الذى تبنته الثقافة الاستعمارية .

مفهوم الاستعمار

كان البابليون هم أول من عرفوا ومارسوا فكرة الاستعمار بمعناها الموضح أعلاه ، ثم جاء الرومانيون من بعدهم فأقاموا مستعمرات على طول السواحل الإيطالية في حوالي سنة ٣٣٨ قبل ميلاد عيسى عليه السلام بدعوى ضمان أمن إمبراطوريتهم من غزاة أجنب أو اعتداءات خارجية . وما لبث أن انحرف هذا الهدف الأمني إلى مجرد قيام أفراد وجماعات من أبناء كبريات دول العالم بهجرات من أوطانهم الأصلية إلى دول أقل منهم قوة ، هرباً من ضغوط اقتصادية واجتماعية أو اضطهادات دينية أو سياسية والاستيلاء عليها . وكان البرتغاليون من بين الأمم الأوروبية ، أول من تعرّفوا على الشعوب الإفريقية في القرن الخامس عشر الميلادي عن طريق الاسترقاق متستري وراء نشر الدين المسيحي ، ثم أتى من بعدهم الأسبان فالإنجليز فالهولنديون فالفرنسيون في منطف القرن السابع عشر الميلادي . ثم السويديون والدانماركيون والبروسيون الذين أتوا في القرن الثامن عشر الميلادي . وكانت المطامع الاستعمارية التي تسترت وراء الرغبة في نشر العقيدة المسيحية هي التي دفعت المغامر هنري (١٤٦٠-١٣٩٤م) ابن الملك جون الأول ، ملك البرتغال إلى اكتشاف الشعوب

الإفريقية في سواحل غرب إفريقيا في القرن الخامس عشر الميلادي . وحصل هنري هذا على وسام "السيد العظيم للقيادة المسيحية"^(١) من معقل الكنيسة الكاثوليكية وهو ابن ست وعشرين من العمر . وقد جاءت النكبة الأولى لإفريقيا المسلمة عندما تولى هذا الملك منصب حاكم المغرب الأقصى في عام ١٤١٥ بعد سقوطه على أيدي البرتغاليين بقيادة ملكهم جون الأول والد هنري المذكور . ففي عام ١٤٢٠ الميلادي بدأ هنري بتحريك سفنه الحربية التي تحمل العلامات الكبيرة المميزة للصليب كشعار له من ميناء لاجوس النيجيري متوجهة إلى مناطق السواحل الغربية بهدف اكتشاف مزيد من المدن الإفريقية على سواحل المحيط الأطلسي والمحيط الهندي بغرض فرض سيطرته عليها وتوسيع مجال تجارة الرقيق ونشر الدين المسيحي بين شعوب تلك المنطقة . وقد ظهرت الحكومة البريطانية على مسرح تجارة الرقيق في إفريقيا بنشاط وحماس في القرن السابع عشر الميلادي عندما تولى قائدها البحري سيرجون هوكنس (١٥٣٢ - ١٥٩٢م) تجارة الرقيق لصالحها مما جعله يحوز على وسام التقدير التشجيعي ومكافأة مالية من ملكة إنجلترا إليزابيث الأولى . وكان سيرجون هوكنس يزاول تجارته تلك على متن سفينة الملكية الشهيرة باسم "المسيح" التي تحمل علامات الصليب . وقد تضمن السجل الأمريكي الخاص بتجارة الرقيق في إفريقيا ما يشير

(١) هو وسام يمنح للذين قدموا خدمات متميزة لمسيرات الدعوة الصليبية المسيحية . راجع دائرة المعارف البريطانية مادة المسيحية .

إلى قيام الإمبراطورية البريطانية في الفترة ما بين ١٦٨٠ و ١٧٠٠ الميلاديين .
بنقل حوالي ٣٠٠,٠٠٠ (ثلاثمائة ألف) رقيق من إفريقيا . وقد ذكر المحلل
السياسي ولتر رودني Walter Rodney في كتابه " كيف كانت أوربا سبباً في
تحلف إفريقيا " : أن السلطات البريطانية كانت تنظم أناشيد لتحطيم الروح
المعنوية لضحاياها من الإفريقيين الذين تنقلهم في سفنها لبيعهم في أمريكا
وجزر الهند الغربية . ومن بين هذه الأناشيد ما يلي :

احكمي يابريطانيا	" احكمي يابريطانيا
احكمي أمواج العالم	احكمي أمواج العالم
ابنك عبداً أبداً. " (٢)	كلا ثم كلا لن يكون

أهمية التربية في حياة الفرد

للتربية أهمية قصوى في كل المجتمعات الإنسانية للحفاظ على حياة
أفرادها وهيكلها الاجتماعية . وبالتربية يتم التطور ويتحقق التغيير الاجتماعي
الذي يعكس أنماط الحياة التي ينبغي أن يعيشها الفرد في مجتمعه . وأهم ما
امتازت به التربية الإفريقية بصفة عامة ، قبل مجيء الاستعمار ، هو مواءمة
نمط تلك التربية لنوعية حياة الفرد في المجتمعات الإفريقية . كما كانت ذات
ظاهرة شمولية تتصل اتصالاً وثيقاً بحياة الأفراد في مجتمعاتهم روحياً ومادياً .

"HOW EUROPE UNDER DEVELOPED AFRICA" BY WALTER RODNEY (٢)

وقد ذكر البروفسير ريتشاد ومول Richard Wamol في كتابه "إفريقيا الحديثة التغيير والاستمرار" : أن التربية أياً كانت ترتبط ارتباطاً وثيقاً بعقائد وأديان الشعوب التي تمثل لتلك التربية . ومن هذا المنطلق كانت السياسات التربوية التي وضعتها مختلف السلطات الاستعمارية من بريطانيا وفرنسا وبلجيكا والبرتغال وألمانيا للشعوب التي استعمرتها ، قائمة بطريقة أو بأخرى على معتقدات وتقاليد تلك السلطات . أى المسيحية الأوروبية واتجاهاتها التبشيرية التي أثرت على الفكر الإفريقي الإسلامي وغير الإسلامي . وكانت الغالبية العظمى من المدارس التي أسستها السلطات الاستعمارية للقيام بمهمة تربية الشعوب الإفريقية خاضعة لإشراف إدارة الكنائس والمنظمات التبشيرية إلى أن حصلت تلك الشعوب على استقلالها السياسي بدءاً من الخمسينيات . إذن لابد من الوقوف على مفهوم التربية في الفكر الإسلامي الذي كان متصلاً في القارة الإفريقية كمنهج ثابت للتفكير قبل الاستعمار ، مقارنة بينه وبين الفكر الغربي الاستعماري المسيحي الأجنبي عليهما .

مفهوم التربية في الفكر الإسلامي

قام مفهوم التربية الإسلامية على الهدف الأساسي من خلق الإنسان ، كوحدة متكاملة تقع عليها مسؤولية مشتركة فرضتها حقيقة وجوده على متن هذا الكوكب الدنيوي ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ﴾

إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا» (٣) ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ... وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ، فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . (٤)﴾

صدق الله العظيم .

ولما كان الإنسان خليفة لله سبحانه وتعالى في هذا الكون ، فقد خولته هذه الصفة أن يكون مسؤولاً ذا هدف محدد في هذه الدنيا بخلاف ما ظنته الملائكة في بادئ الأمر من أن الإنسان قد جاء ليسفك الدماء وينشر الفساد في الأرض ، لكنه سبحانه وتعالى أفهم الملائكة بأنهم على خطأ في ظنهم هذا . حيث قال "إني أعلم ما لا تعلمون" مؤكداً بذلك وجود هدف في جعل الإنسان خليفة له في هذا الكون ؛ وبين لنا ذلك الهدف المحدد أى توجيهه

(٣) الآية : ٧٢ من سورة الأحزاب .

(٤) الآية : من ٣١-٣٩ من سورة البقرة .

العبادة المخلصة له ، إذ قال : ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾. (٥) ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. (٦)

إذن هذا هو الأساس وهو لب المفهوم الذي انبني عليه الفكر التربوي الإسلامي . ولاتستهدف الذِّكْرُ ، إلا إعداد الإنسان عقلاً وروحاً وجسداً . ذلك هو مدلول التربية التي لاتتم العبادة الصحيحة إلا بها . ومن هنا نفهم أن سبب خلق الإنسان قائم أصلاً على عبادة الخالق الأزلي ، وأن الأنشطة التي يقوم بها بالوعي والتعقل طيلة حياته التي يقضيها على متن هذا الكوكب هي ذاتها عبادة ما لم تنحرف عن التوجيهات الإلهية الأصلية التي تلقاها أبو البشر آدم وزوجه حواء عليهما السلام كما جاء في الآية المذكورة ، وأن هذا المفهوم هو أصل ومبدأ الخير كله ، وعدم انقياد الإنسان للشيطان حتى لا يكون فريسة له وهو أصل ومبدأ الشر كله . ولا يكفي التعقل والوعي بمفردهما لتنزيه العبادة لله وحده ، فلا بد من امتثال للمنهج الذي رسمه الله حتى تكون هذه الأنشطة التي يقوم بها الإنسان مستوفية لشروط العبادة الموجهة لله وحده . من هنا كان الدين منهجاً رسمه الله ليسترشد به الإنسان في جميع ما يقوم به من الأنشطة ؛ ذلك لأن الدين يستهدف الحياة الحقيقية المستديمة وهي التي تكون بعد هذه

(٥) الآية : ٥٥ من سورة الذاريات .

(٦) الآية : ٥٦ من سورة الذاريات .

الحياة الدنيوية الانتقالية المؤقتة . يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَإِنَّ الدَّارَ
الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٧)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا
أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٨) لهذا كان الدين
السمّوى كله شيئاً موحداً أنزله الله سبحانه وتعالى في صور شرائع على
الرسل والأنبياء ليمثل له البشر طاعة وانقياداً لله وحده . قال تعالى : ﴿شَرَعَ
لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ
وَمُوسَى وَعِيسَى أَن أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ
إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ (٩)

منهج الإسلام التربوى

تتخصر العقيدة الإسلامية في المرحلة الثانية، تحمل مسؤوليته الأولى،
للنمو الفكرى التربوى الإسلامى في الأمور الآتية على ضوء الآيات المذكورة:

(أ) الاعتقاد أو الإيمان بوجود خالق هذا الكون وسائر الموجودات
الأخرى ، وبأن هذا الخالق هو الله الذى يستحق توجيه العبادة إليه وحده .

(٧) الآية : ٦٤ من سورة العنكبوت .

(٨) الآية : ٢٤ من سورة الأنفال .

(٩) الآية : ١٣ من سورة الشورى .

(ب) الإيمان بوجود الأمور الغيبية الدنيوية والأخروية وهي : عالم الملائكة والجن وعلاقتهم بالوحي والأنبياء والرسل .

(ج) الإيمان بالبعث : الحياة الأخروية .

(د) الإيمان بالجزاء والعقاب .

أما المرحلة الثالثة والأخيرة في هذا المبحث التربوي للفكر الإسلامي فتتمثل في الدور الذي يجب على الإنسان أن يلعبه في تعمير هذا الكون . فباعتباره خليفة الله والمسؤول الأول من بين الخلائق كلها في هذه الأرض ، دوراً ينتظره في هذه الحياة الأولى ، كما جاء في قوله تعالى :

﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ . (١٠)

وكما جاء في المأثورات : (اَعْمَلْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا وَاعْمَلْ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَدًا) . إن الفكر الذي يرفض العمل من أجل الاستمرار الأبدى في الدار الآخرة بل يعد نفسه بما تستلزمه هذه الحياة فقط من الإمكانيات العلمية والروحية والمادية هو الذي يدعو إليه الفكر التربوي الأوروبي الاستعماري الغربي ، بغض النظر عن معتقداته الدينية . كما يدعو أساساً إلى أن يكون الإنسان حريصاً على ضمان مصلحته شخصياً أولاً وقبل كل شيء . وبالمثل يجب على الفكر الذي يعتبر هذه الحياة مرحلة انتقالية ، كما جاء في الآثار وأنها مؤقتة ، ألا يغمس فيها (الحياة) بطريقة تعميه

(١٠) الآية : ٧٧ من سورة القصص .

بجوهرها المادي عن رؤية حياة الخلود التي تنتظره بعد هذه المرحلة الانتقالية ، وأن يعمل من أجلها ويعدّ نفسه لها . وهكذا فإن العامل الأساسي الذي يتميز به الفكر التربوي الإسلامي هو ضرورة تجهيز النفس بالعلم والمعرفة والخبرة بعد الإيمان المبني على عقيدة التوحيد . فقد خصّ الله سبحانه وتعالى الأمة الإسلامية بهذا الفضل على نحو ما ورد على ذلك في الآيات الآتية :

أ- ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (١١)

ب- ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (١٢)

ج- ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (١٣)

د- ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (١٤)

(١١) الآية : ١١ من سورة المجادلة .

(١٢) الآية : ٩ من سورة الزمر .

(١٣) الآية : ١٢٢ من سورة التوبة .

(١٤) الآية : ١١٤ من سورة طه .

هـ- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. (١٥)

وهناك أقوال مأثورة كثيرة تحت المسلمين جماعة وأفراداً على ضرورة طلب العلم . منها :

١- اطلبوا العلم من المهد الى اللحد .

٢- اطلبوا العلم ولو في الصين .

٣- ومن قول الرسول عليه الصلاة والسلام :

من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة .

٤ - قال هلال بن يسار : رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم يقول

لأصحابه شيئاً من العلم والحكمة ، فقلت : يا رسول الله أعد لي ما قلت لهم .

فقال هل معك محبرة ؟ قلت معي محبرة . فقال : هلال لا تفارق المحبرة .

فإن الخير فيها وفي أهلها الى يوم القيامة. (١٦)

آثار الفكر الإسلامي الحضاري على الحضارة الأوروبية :

انتقلت آثار الحضارة الإسلامية الى أوروبا وأيقظتها من سباتها فكرياً

وحضارياً وعمرانياً، وتم هذا الانتقال عبر الوسائط التالية :

(١٥) الآية : ٤٣ من سورة النحل .

(١٦) حديث متفق عليه .

١- عن طريق الطلبة الأوربيين الذين كانوا قد درسوا في جامعات ومعاهد الأندلس في كل من قرطبة وأشبيلية وطليطلة وغرناطة ، ثم عادوا إلى أوطانهم في أوروبا حاملين فنوناً من العلم والمعرفة والحكمة .

٢- بواسطة الذين يعرفون بالمدجنين ، وهم المسيحيون الذين عاشوا في كنف المسلمين قبل سقوط غرناطة على أيدي المسيحيين حيث نقلوا خبراتهم وثقافتهم إلى مختلف أرجاء العالم الغربي وأفادوا مجتمعاته ، بشتى أنواع المعرفة والحضارة .

٣- عن طريق المستعربين أو المستشرقين من أبناء أوروبا الذين حصلوا على الثقافة الإسلامية العربية من خلال تعايشهم مع مسلمين في المجتمعات الإسلامية في ظل حكم المسلمين .

٤- عن طريق المسلمين الذين آثروا البقاء في الأندلس ، وهم المعروفون بالموريسكيين ؛ وقد ارتدوا عن دين الإسلام بسبب اضطهاد أنظمة الحكم المسيحية التي دانت لها السيطرة على الأندلس ، وثمة جماعات من "الموريسكيين" ظلوا على دينهم سرّاً حفاظاً على حياتهم وبقائهم في تلك المجتمعات . وقد تأثر الفكر الغربي المسيحي بالفكر الإسلامي في شتى مجالات العلوم . مثل الرياضيات والفلك والأدب والفنون الموسيقية والمعمارية .. إلى آخره . وأذكر فيما يلي أهم الوسائل الفكرية التي تم بها هذا التأثير . فثمة أربعة كتب في تاريخ الفكر الإسلامي للعالم الفلكي الإسلامي، أبي معشر (٧٨٧ - ٨٨٦م) . وأشهرها كتابا : "المدخل إلى علم أحكام النجوم" و "أحكام سني الموالييد" ، ويعتبر أبو معشر من أكبر



الفلكيين الذين برزوا في هذا المجال. وكتاب آخر ترك أثره على العقلية الغربية ، هو جدول الرياضيات الذي أعده عالم الرياضيات الإسلامي "الخوارزمي" (٧٨٠ - ٨٥٠ م) . وقام العالمان الأوروبيان : أدلار الباثي (ADELARD OF BATH) ويوحنا الأشبيلي (JOHN OF SEVILLE) بترجمة تلك المؤلفات إلى اللغة اللاتينية ، كما قام أفلاطون التريقولي بترجمة الجدول الفلكي الذي وضعه البستاني وأعاد ألفنسو العاشر (ALFONSO) - (١٢٢١-١٢٨٤م) ترجمته . كذلك قام العالم جرارد الكرموني بترجمة كتاب الهيئة لابن جابر . وقد نُشر هذا الكتاب في أوروبا في عام ١٥٣٤ الميلادي ؛ وتضمن نظريات فلكية متقدمة عن أعمال بطليموس الأوروبي . وبالمثل انتقلت نظريات فلسفية للعلماء المسلمين إلى الفكر الفلسفي الأوروبي .

وإلى جانب هذه الأعمال التي نقلت إلى الفكر الغربي هناك نظريات كثيرة أخرى في مجال الفلك وضعها المفكرون المسلمون من أمثال أبى بكر الرّازى والقابس والبستاني والفرغاني وغيرهم وكانت لهذه الأعمال والاكتشافات العلمية آثار واضحة على الفكر الأوروبي وإسهام كبير فى تقدمه . وقد حلت الجداول الفلكية التي وضعها العلماء المسلمون محل الجداول اليونانية والهندية التي كانت أوروبا تعتمد عليها من قبل . ظهرت آثار الجهود الفكرية للعلماء المسلمين حتّى على الحضارة الصينية . كما نشهدا في أعمال العالم البولندى (١٤٧٣-١٥٤٣م Copernicus)، وعنه انتقلت إلى الصين . وقد تمت بنهاية القرن الثاني عشر الميلادي ، ترجمة أهم مؤلفات العلماء المسلمين في النظريات الموسيقية إلى اللغة

اللاتينية خاصة في مدينة طليطلة TOLEDO ، ولاتزال آثار هذه الأعمال المترجمة تشكل جزءاً من النظريات الموسيقية الأوربية حتى الوقت الحاضر . وقد اعترف أحد كبار علماء الموسيقى الأوربيين وهو فرانكو الكوبوغاني (FRANCO OF GOBOGANI) ولد في عام ١١٩٠ (الميلادي) ، بأنه تتلمذ على أعمال العالم الإسلامي " الكندي" ، في الموسيقى .

وبالمثل انتقلت نظريات فلسفية للعلماء المسلمين إلى الفكر الفلسفي الأوروبي . ولقد أظهر كل من روجر بيكون ROGER BACON (١٢٩٤-١٢١٤) و كاردانوس CARDANUS اهتمامات كبيرة بنظريات الكندي الفلسفية والخاصة بوحدة العالم وتربطه ، حيث أكد الكندي أن مصدر العلم والمعرفة للإنسان ينقسم إلى : الحواس (١) العقل (٢) الخيال (٣) .

وتبنت مدرسة إيمانويل كانط KANT الألمانية (١٧٢٤-١٨٠٤م) هذه النظرية . وتعمل بها المدارس الفلسفية في العالم حتى الوقت الحاضر . ومن ناحية أخرى ، ذكر الفيلسوف الغربي كارادى فوكس (CARRADE VOWX) أن نظرية الفارابي المنطقية قد تركت أثراً عظيماً على عقلية الباحثين الأوروبيين بصورة عامة . وقد أخذ الفيلسوف اليهودي، موسى بن ميمون نظرية الفارابي حول إثبات وجود الله ، واعتمد الفيلسوف المسيحي (توماس أكويناس THOMAS AQUINAS) (١٢٢٤-١٢٧٤م) على هذه النظرية للغرض نفسه . وقد نشرت مدرسة الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط المذكور (١٧٢٤-١٨٠٤م) هذه النظرية عبر أوروبا . ولابن سينا ، الفيلسوف الإسلامي ،

(٩٨٠هـ. ١٠٣٧هـ) تلاميذ كثيرون في العالم الغربي ، تأثروا بأفكاره وأخذوا بمنهجه في الفلسفة اللاهوتية ونظرياته الطبية . ومن تلاميذه الفيلسوف اليهودي موسى بن ميمون والقسيس توماس أكويناس المذكوران آنفاً والبرتوس مغنوس الماني (١٢٠٠م - ١٢٨٠م) الملقب "بالعظيم" . كذلك تأثر الفكر العربي بنظريات الفيلسوف الإسلامي ، أبي بكر محمد المشهور بابن طفيل (١١٠٠م - ١١٨٥م) ، وكانت أبرزها تلك المتضمنة في كتابه "حي بن يقظان" ، وتشير تلك النظرية إلى أنه يمكن للإنسان التوصل إلى معرفة الله بدون رسول . وقد أصبحت هذه النظرية الفلسفية شائعة في أوروبا وتبناها كثير من المفكرين الغربيين بعد قيام فرنسيس بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦م) بترجمة الكتاب الى اللغة اللاتينية ونشره بجامعة أكسفورد في عام ١٦٧١م بانجلترا . ويظهر أثر كتاب "حي بن يقظان" بوضوح في أعمال الكاتب الروائي الإنجليزي ، دانيال ديفو (DANIEL DEFOE) (١٦٦٠ - ١٧٣١م). لا سيما في روايته - روبنسون كروزو ROBINSON CRUSOE التي ظهرت في عام ١٧١٩م . أما بالنسبة للفيلسوف الإسلامي ، ابن رشد (١١٢٦م - ١١٩٨م) فقد أظهر مفكرو أوروبا اهتماماً بالغاً بنظرياته الفلسفية ، حتى أصبحت هي النظرية الفلسفية الرسمية هناك في القرن السادس عشر الميلادي .

وهناك كثير من الكلمات والمصطلحات العلمية والمعمارية والإدارية من أصل عربي وإسلامي وصلت إلى الفكر الأوروبي عن طريق نقل التراث الفكري ، أذكر فيما يلي بعض الأمثلة عليها :

الكلمة في اللغة الأوروبية	المجال	أصلها باللغة العربية
ADMIRAL	الإدارة العسكرية	أمير البحر
ALCOHOL	الكيمياء	الكحول
ALCHEMY	الكيمياء	اللخمياء
ABELMOST	الزراعة	حب المسك
ACHERNAR	الفلك	آخر النهر
BARBORRY	الزراعة	البرباريس
BETELGEUSE	الفلك	منكب (الجوزاء)
BORAX	الكيمياء	البورق
BERSEEM	الزراعة	البرسيم
CABLE	المواصلات	حبل / مرسة / فلس
CAMPHER	الطب	الكافور
CARAT	الوزن	القيراط
GONDY	الزراعة	كراميل / سكرنيات
DENEB	الفلك	ذنب الدجاجة
ELIXIR	الفلسفة	الإكسير
EMIR	الإدارة	الأمير
GIRAFFE	الزراعة	الزرافة
GUITAR	الموسيقى	القيثارة

نرجع الآن الى الأثر التربوي الإسلامي على مجتمعات الغرب الإفريقي ، فنقول إن جامع "سانكورى" الذى بناه الملك منسا موسى في مدينة تنبكتو (مالي) في القرن الرابع عشر الميلادى ثم تحول فيما بعد إلى جامعة تعليمية على غرار الجامع الأزهر في القاهرة ، كان بمثابة مركز تبلورت منه الثقافة الإسلامية . وكان المسلمون ينظرون إليه كمنازة للعلم والإرشاد . وكان يتم فيه تدريس كثير من العلوم الإسلامية الأساسية من التفسير والحديث والفقه إلى جانب العلوم الأخرى المتصلة بحياتهم كالتاريخ وعلم الفلك والطب التقليدى والجغرافيا والفلسفة والمنطق ... إلى آخره . فكان من الطبيعى أن تترك تلك الجامعة آثارها التربوية على المسلمين والإفريقيين في منطقة الغرب الإفريقي . ولا يغيب عن أذهاننا أن جامعة "سانكورى" هي الأخرى امتداد للحضارة الإسلامية في بلاد الأندلس والشمال الإفريقي . غير أن زوال تلك المنارة في الغرب الإفريقي خلّف الفجوة التى حاولت التسلل منها جهود الاستعمارية المسيحية بكل ما أوتي لها من القوة، من أجل استبدال منهج الحياة وأسلوب التفكير اللذين ألفتهم شعوب الغرب الإفريقي آمادًا طويلة ، بمنهج آخر غريب عنها .

ويمكن الاعتراف بأن السلطات الاستعمارية المسيحية ، الإنجليزية منها أو الفرنسية أو البرتغالية قد استطاعت إضعاف روح التربية الإسلامية في نفوس عديد من الأجيال اللاحقة في مجتمعات الغرب الإفريقي على مر الزمان . وذلك إمّا عن طريق التنصير الكامل أو بإضعاف روح الإسلام في أوساط الفئة المتشبثة بالثقافة الغربية أو تعميم الجهل بين المسلمين بصفة

عامة ؛ وكانت هذه الجهود الاستعمارية الهادفة إلى استئصال جذور الإسلام
الراسخة في الغرب الإفريقي تتم بوسائل الإغراء التالية :

أ- تشجيع النشء على الإقبال على المدارس التبشيرية التى تمولها
المنظمات التبشيرية العالمية التى تمتلئ مناهجها الدراسية بأساليب التنصير
والاستهزاء بالعقيدة الإسلامية والاستخفاف بهوية المسلمين .

ب - توفير المنح الدراسية لأبناء المنطقة لمواصلة الدراسة في المعاهد
التعليمية التبشيرية في قرى وعواصم الدول الأوروبية والأمريكية مجاناً ، أو
برسوم دراسية مخفضة ، الأمر الذى يؤدي بالنشء إلى الانخراط في بوتقة
العقيدة المسيحية المحرفة أو إضعاف الإيمان بالإسلام .

ج - تسليم مقاليد الحياة العصرية المريحة والهيمنة على الزمام الاقتصادي
والسياسى والتربوى والأكاديمي إلى أبناء المنطقة المسيحيين أو المتنصرين
ذوي الإيمان الضعيف من أبناء المسلمين .

د - إقامة الحواجز المصطنعة بين المجتمعات الإسلامية في الغرب
الإفريقي وشقيقاتها في البلدان الأكثر تقدماً نسبياً في العالم الإسلامي . ومن
ناحية أخرى ، كان إقبال المسلمين على اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن في
إفريقيا جنوب الصحراء شديداً للغاية ، حتى أصبحت هي لغة الثقافة والفكر
والتوثيق والمكاتبات بين دولة وأخرى إضافة إلى كونها لغة العبادة . وقد
ظهر بين مسلمي المنطقة أدباء وشعراء وكتاب ، علاوة على حفاظ القرآن
الكريم الذين لا يمكن حصرهم من الكبار والصغار . ولولا الجهود المضنية

التي بذلها الاستعماريون لنشر لغتهم في المنطقة وقطعهم وشائج الود بين الشعوب الإسلامية بعضها بالبعض ، لكنت مكانة اللغة العربية أرفع وانتشارها أعم .

الشخصية المسيحية في الغرب الإفريقي

نعود الآن إلى مكانة الديانة المسيحية وثقافتها في منطقة الغرب الإفريقي على وجه الخصوص ، وفي إفريقيا عامة ، لنقارن بين الديانتين وثقافتهما في هذه القارة قبل مجيء الاستعمار الأوروبي إليها . يؤكد لنا التاريخ أن الديانة المسيحية قد دخلت إلى القارة الإفريقية من خلال أحد الحواريين من أتباع عيسى عليه السلام ، " مرقص Mark " الذي ينسب إليه نقل أحد الأناجيل الأربعة من العهد الجديد ، عن عيسى عليه السلام . وعندما جاء مرقص إلى مصر في القرن الأول للميلاد أسس أول كنيسة له في مدينة الإسكندرية ، ومن هناك انتقلت الديانة المسيحية إلى بلاد الحبشة (اثيوبيا) . وكان هذان المكانان هما الرابط الأول والأخير بين القارة الإفريقية بالديانة المسيحية قبل ظهورها في القارة من خلال الاستعماريين الأوروبيين . أمّا ما يشير إليه بعض المصادر التبشيرية المسيحية من أن الديانة المسيحية قد وصلت إلى شمال القارة عن طريق الغزاة البيزنطيين الذين اتخذوا مدينة "قرطاجة" المطلة على البحر الأبيض المتوسط عاصمة لهم ، فإنه ادعاء عار من الصحة .

كان الذين أتوا إلى الشمال الإفريقي من الدولة البيزنطية هم العساكر الذين كانوا في الواقع وثنين أكثر من كونهم مسيحيين ، كما أنهم كانوا

منعزلين عن شعوب المنطقة بسبب ارتباطهم المستمر بمعسكراتهم ، فلم يتركوا أي أثر ثقافي أو تقليدي ذي بال على شعوب المنطقة بعد رحيلهم عنها . أمّا فيما يخص الغرب الإفريقي فإنّ الدولة الوحيدة التي أصبحت مأوى لأبناء القارة الإفريقية الذين تم تحريرهم في الولايات المتحدة الأمريكية وبعض البلدان الأوروبية بمقتضى قانون تحريم تجارة الرقيق في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي فهي دولة ليبيريا^(١٧) . وكانت هذه الفئة من الإفريقيين هي فقط متشبثة بالعقيدة المسيحية ، علماً بأن معظم سكان المنطقة الأصليين هم من المسلمين ، من قبائل الماندنغو والسيرى والفولاني .

نستخلص من هذا العرض السريع أنه لم يكن للشخصية المسيحية أي وجود حقيقي ملموس في غرب إفريقيا مماثل ما كان للإسلام قبل وصول الاستعمار الأوروبي إليه ، ونفهم من هذا المنطلق أنّ نمط المسيحية السائد في الوقت الحاضر بين أبناء منطقة الغرب الإفريقي ما هو إلا انعكاس للعادات والتقاليد الأوروبية أكثر منه ديناً .

وقد رافق ظهور الفكر التّربوي الاستعماري تكثيف الجهود التبشيرية المسيحية في الغرب الإفريقي . ففي القرن السادس عشر الميلادي أخذت الأنشطة التبشيرية الكاثوليكية تظهر بدعم وتشجيع من الحكومة البرتغالية المنغمسة في أنشطة الاسترقاق على طول سواحل المنطقة . وأنشأت الكنيسة

(١٧) معنى ليبيريا هو "Liberty area" أي منطقة الحرية .

الكاثوليكية لتكون أول مركز لها للتنصير في جزيرة "ساوتومي" بالقرب من نيجيريا في عام ١٥٧١م لتدريب الإفريقيين على طرائق القيام بمهام التنصير . وتوغلت هذه الكنيسة في المنطقة بحلول القرن السابع عشر الميلادي حتى وصلت إلى غينيا والسّنغال ومدغشقر في المحيط الهندي ، وقامت بفتح أول بعثة تنصيرية لها في السّنغال في عام ١٧٦٥م. ثم تحولت أنشطة الاسترقاق بعد صدور الاتفاقية الدولية بشأن تحريمه إلى الحركات الدينية المسيحية في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا باسم المنظمات المعنية بإنقاذ الرقيق المحررين من التخلف العقيدي في إفريقيا ، علماً بأن هؤلاء الرقيق المحررين كانوا محرومين من التردد على الكنائس عندما كانوا في أمريكا وأوروبا ، لأنهم رجس لا يحق لهم التعبد في نفس المكان الذي يتعبد فيه أسيادهم البيض ، كما يزعمون . وكان الأساقفة "جون تشارلستون" (John Charleston) الإنجليزي "فرانسيس بي. كنريك" (Francis B. Canrick) والأمريكي "وادوارد بارون" (Edward Baron) من بين المنصرين الأوائل الذين أتوا إلى الغرب الإفريقي لمباشرة مهمة تنصير أبناء المنطقة . وفي عام ١٨٦٨م قام القسيس "تشارلس كاردينال لافيجير" (Charles Cardinal Lafiger) بإنشاء جمعية تنصيرية من أجل إفريقيا ، عرفت بجمعية القساوسة ذوي القلوب البيضاء ، مهمتها تنصير أبناء منطقة الغرب الإفريقي. (١٨) وفي أوائل عام ١٨٧٦ توجه ثلاثة من أعضاء هذه الجمعية إلى

(١٨) لهذه الجمعية أكثر من ألف وخمسمائة كنيسة (١٥٠٠) وتليها كنيسة روح القدس الكاثوليكية بألف كنيسة (١٠٠٠) تم علم مريم الغراء الكاثوليكية التي يبلغ عدد كنائسها مائة (١٠٠) في إفريقيا ، تنتشر في الوقت الحاضر ألوف من كنائس الرياضة الروحية من أصل أمريكي في غرب إفريقيا.

مدينة تنبكتو وضواحيها بقصد التنصير . على الرغم من أن هذه المنطقة بالذات معروفة بأصالة تاريخها الحضاري وثقافتها الإسلامية . لكن الله كان لهم بالمرصاد ، فمكروا ومكر الله ، وكان الله خير الماكرين . فلم يتمكن الرجال الثلاثة من بلوغ هدفهم المنشود وتنفيذ مخططاتهم الماكرة لأنهم ماتوا جميعاً وهم على مشارف مدينة تنبكتو "البريئة" ، نتيجة ضربات الشمس . فكفى الله المؤمنين القتال . ولم يبق بعد ذلك أحد من رجال التبشير المسيحي بمعاودة المحاولة مرة أخرى . ثم جاء الاستعمار الفرنسي بعد ذلك ونهب أكثر من مائتي ألف مخطوط (٢٠٠,٠٠٠) من التراث الإسلامي من تنبكتو وضواحيها ، ونقلها إلى مكتبات باريس .

دور الاستعمار الإنجليزي

كان اللورد فريدريك جون لوجارد (FREDERICK JOHN LUGARD ١٨٥٨ — ١٩٤٥م) هو الذي لعب دوراً حيوياً في المغامرات البريطانية الاستعمارية في منطقة غرب إفريقيا وشبه القارة الهندية في الفترة من عام ١٨٨٨ حتى عام ١٩٤٥م . كما لعب دوراً أساسياً في توحيد شطري دولة نيجيريا الشمالي والجنوبي . وقد ذكر لوجارد في مذكرة أعدها لحكومته حول مستعمراتها أن الجزء

الشّمالي الذي يسكنه المسلمون هو الذي يتمتع بالكيان السّياسي المتكامل وتسوده المدنية والتّحضر، بسبب وجود عدد كبير من العلماء وانتشار الوعي الثقافي والسياسي والإداري والدّيني . وفى ضوء الانطباعات قام " لورد لوجارد " بتخطيط منهج التعليم التوجيهي التربوي لأبناء ذلك الجزء من دولة نيجيريا .

ويستحسن قبل المضى قدماً أن الإشارة إلى خلفية تاريخية لهذا الشخص حتى نفهم الدواعي التي دفعته إلى وضع المناهج التعليمية والتربوية للمسلمين فى نيجيريا .

ولد هذا الشخص فى الهند حيث كان أبواه يعملان فى بعثة تنصيرية مسيحية ، وترعرع هناك فى ظل الأنشطة التنصيرية ، ثم أتى إلى بريطانيا وهو فى عنفوان شبابه ، وواصل تعليمه فى ظل الحكم المتعطش للمطامع الاستعمارية التنصيرية ، ثم تزوّج من امرأة كانت محنكة فى رسم المخططات التنصيرية والاستعمارية ، وهي التي قامت باقتراح إطلاق اسم نيجيريا على تلك الدولة (١٩) ؛ واهتم لوجارد بدراسة أحوال المسلمين دينياً وثقافياً واقتصادياً فى غرب إفريقيا عموماً وفى شمال نيجيريا على وجه الخصوص . فبدأ بإحصاء عدد المدارس الإسلامية وكتاتيب تحفيظ القرآن الكريم . وقد ذكر أن عدد تلك المدارس والكتاتيب بلغ فى ذلك الوقت ، أكثر من خمسة وعشرين ألفاً

(١٩) River Niger Area أى منطقة مجرى نهر النيجر .

(٢٥,٠٠٠) في شمال نيجيريا فقط ، وأن عدد التلاميذ والطلبة الذين يدرسون بها يبلغ حوالي مائتين وخمسين ألفاً (٢٥٠,٠٠٠) . أى عشرة أضعاف عدد المدارس الموجودة . وعلى هذا الأساس قام "لورد لوجارد" بوضع منهجه وسياسته التعليمية لتوجيه الشعوب الإسلامية في نيجيريا على الوجه الآتي :

أ- يجب أن يستهدف التعليم تهيئة الفرد لشغل حيز في بيئته بحيث يمكنه تحقيق السعادة والرفاهية لشخصه فقط ، مع ضمان عدم عصيانه على السلطات الشرعية للسلطات الاستعمارية .

ب- يجب تضافر جهود وكالات تنفيذ سياسات التعليم المحلية (المدارس التنصيرية) والوكالات الخاضعة مباشرة للحكومة الاستعمارية بغية تحقيق الأهداف المشتركة بينها ، وهي التنصير .

ج- يجب الاهتمام بالذين اهتماماً كبيراً ، بحيث يكون هو الهدف الأساسي ، مع الاحتفاظ بالعلمانية في الظاهر حتى يتأكد من الحصول على التجاوب والتعاون من أولياء الأمور وآباء الطلبة .

د- إن نجاح هذا المنهج يجب أن يعتمد بقدر كبير على الموظفين والمدرسين الأوروبيين في المقام الأول ، وأن يعادل عددهم عدد مدارس المتعلمين المسلمين من أبناء البلد . ويتعين زيادة عدد المدارس التنصيرية والحكومية الاستعمارية وتوسيع نطاقها ، ونشرها في المناطق التي يكثر فيها عدد المسلمين .

دور الاستعمار الفرنسي في المنطقة

وبالمثل ، لعب حاكم دولة السنغال ، قائد القوات الاستعمارية الفرنسية ، الجنرال فيدارب لويس (FADHERBE LOUIS) (١٨١٨ - ١٨٨٩ م) دوراً رئيساً في المغامرات الاستعمارية للحكومة الفرنسية في منطقة غرب وشمال إفريقيا . فهو الذى قام بتأسيس ما يعرف اليوم بدولة السنغال . وإنشاء عاصمتها دكار في عام ١٨٥٧م لتصبح عاصمة للمستعمرات الفرنسية في غرب إفريقيا ، كما كانت تحلم بها تلك الحكومة . وكان فيدارب حاكماً عسكرياً للسنغال وغيرها من المستعمرات الفرنسية في السودان الغربي . كما عمل حاكماً لحساب الحكومة الفرنسية في الجزائر قبل نقله إلى غرب إفريقيا . وقد منحه السلطات الاستعمارية الفرنسية لقب " بطل الحرب للجمهورية الفرنسية " جزاء الخدمات الاستعمارية الكثيرة التى قدمها لتحقيق مطامع الحكومة الفرنسية في مستعمراتها في إفريقيا ، ومن بينها :

١- القضاء على الثورات التى كانت تقوم ضد السيطرة الفرنسية على المنطقة .

٢- تجنيد القبائل الإفريقية التى قام المجاهد الحاج عمر تال الفوتي في بلاد السودان الغربية بتعبئتها وشكل منها دولته . وهكذا أسهم الجنرال فيدارب فى القضاء على تلك الدولة وتفتيتها نهائياً بعد تعرضها لحمولات فرنسية متكررة دامت عدة سنوات .

٣- اعتبار مستعمرة السنغال جزءاً من جمهورية فرنسا مما أدى إلى اعتبار أبناء تلك المستعمرة الإفريقية المسلمة فرنسيين سود ، تشريعاً لهم على حد زعمهم (٢٠) .

٤- أدى هذا الزعم إلى السماح لرئيس السنغال السابق ليوبولد سيدار سنغور والسيد لامين جيى بخوض الانتخابات والمشاركة في البرلمان الفرنسي صفهما نواباً فيه . وقد ساهما في وضع دستور جمهورية فرنسا لعام ١٩٤٦ .

٥- قضى لويس فيدارب فترة من الزمان يضلل المسلمين في تلك المستعمرات أثناء عمله وتنقلاته متوغلاً بين صفوفهم ، كما فعل مستكشف فرنسي اسمه "رني كاي" كان أول من زار مدينة تنبكتو في عام ١٨٢٢ . وقيل أنه تظاهر بأنه مسلم ، بل ومن أولياء الله الصالحين، وأنه كان يؤمهم في صلواتهم ؛ لأنه كان يجيد اللغة العربية .

٦- كان من بين الخطط الاستعمارية التنصيرية الفرنسية إغراء رؤساء القبائل وأعيان بلاد المسلمين في الغرب الإفريقي عن طريق أخذ أبنائهم باسم التعليم ثم تدريبهم في فرنسا ليكونوا عملاء للسلطات الفرنسية ووكلائها بعد العودة إلى المنطقة .

(٢٠) جاءت التسمية من اسم قبيلة صنهاجة التي كانت الشريحة الأساسية لحركة المرابطين التي اكتسحت المنطقة .

ويجوز لنا بعد هذا العرض التاريخي الموجز أن نقول إنَّ النظم الاستعمارية عموماً وأساليبها التربوية خاصة ، قد تركت أثراً عميقاً على هوية منطقة الغرب الإفريقي التي تأصلت فيها جذور الحضارة الإسلامية عبر التاريخ . (٢١)

ولم تكن الجهود التبشيرية المسيحية العالمية صادرة عن دولة أوروبية معينة أو منظمة تبشيرية واحدة ؛ بل كانت ولا تزال جهوداً مشتركة بين البلدان الأوروبية والأمريكية ومنظماتها . كما لم تكن تلك الجهود تعمل لحساب أجيال محددة ممن تستهدف تنصيرهم أو تهويدهم أو إضعاف إيمانهم بالله المعبود الأحد بالحق .

ولسنا بحاجة إلى أن نطلب من التاريخ أن يعيد نفسه ، لأنه في غنى عن مثل هذا الطلب . إن تاريخ المواجهة بين الإسلام ومنجزاته العقيدية والحضارية من ناحية ، ومغامرات الطاغوت وانجرافه المتفاني في الماديات من ناحية أخرى ، قديم قدم الصراع بين الحق والباطل . إذ لا تغيب عن أذهاننا تأهبات الحركات الصليبية من وقائع القادسية إلى عين جالوت ومن القدس إلى الأندلس ، ومن إسطنبول إلى أنطاكية ، ومن صوكتو إلى ماسينا ، ومن الجزائر إلى بياfra ومن البوسنة إلى كوسوفا أو الشيشان ، فالهدف واحد على اختلاف الأزمنة والأمكنة " فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس " .

(٢١) مثل الداء الذي ألمَّ ببعض أبناء الشمال الإفريقي الذين تحدّثوا باللغة العربية لساناً وعاشوا فرنسيين عقلاً وعقيدة .

أما بالنسبة للآثار الفكرية والاستعمارية على العقلية الإسلامية الإفريقية فإن الاستعمار الذى فرض سيطرته على هذا الجزء من العالم لم يستطع الوقوف أمام الإنماء العقلي للمجتمعات الإسلامية هناك وإزالة عوامل تنشيطها الفكرى فى مهاوى فحسب ، بل نجح فى نصب مصيدة الاستدراج بأبنائها للإيقاع الانتحار العقلي التدريجى عن طريق الانغماس فى النزعات الطائفية والمذهبية والاعتماد على المناهج التربوية البالية التى تعقم التفكير القائم على محاسن الأخلاق ومخافة الله . ونستخلص من هذا أن الاستعمار الغربى وحلفاءه قد عمدوا إلى تحقيق الأمور التالية من خلال وجودهم فى الغرب الإفريقي .

١- فصل الإنسان الإفريقي المسلم عن مجتمعه الزراعي والرعى المتسم بروح العمل الجماعي وتحويله إلى فرد يهتم بشخصه وأبنائه فقط ، ويعمل على تحقيق سعادته وحده . الأمر الذى أدى إلى تفشى روح التنافس العقيم من أجل كسب الدنيا ومادياتها المغرية . وبالطبع أدى هذا إلى تفشى الفساد بين الناس .

٢- ركود الأنشطة الفكرية وانتفاء الانبعاث الفكري بين صفوف المسلمين . وقلة الاهتمام بالتأليف وكتابة المقالات حتى باللغات الوطنية المحلية ، فضلاً عن العربية . فأصبح الناس لا يستطيعون القيام بالكتابة والتأليف بهذه اللغات بسهولة كما كان الأمر من قبل . وباتت الغلبة للأنشطة الثقافية المنتشرة التى تعكس العادات الاستعمارية وتقاليدها وتتم من خلال مصادرها الثقيفية . لكن الأحوال بدأت

تتحسن شيئاً ما بالنسبة لدولة نيجيريا على الأقل بفضل جهود النخبة من القيادة الإسلامية الواعية .

٣- معلوم أن مناهج التربية التي رسمتها السلطات الاستعمارية للمناطق الإسلامية في غرب إفريقيا ، تعكس المعلومات والنظريات التي تشير إلى هيمنة الحضارة الغربية المسيحية .

وبذلك يصبح الطالب الإفريقي المسلم ملماً بمعلومات عن جغرافية إنجلترا وفرنسا وبلجيكا وألمانيا والبرتغال وأمريكا أكثر مما يعرف عن جغرافية بلاده ، ناهيك عن البلدان الإفريقية المجاورة والمسلمة الأخرى . فنجده يعرف عن أنهار: لاسين (La Seine) بفرنسا والتايمز (Thames) في إنجلترا والراين (Reine) في ألمانيا ، أكثر مما يعرف عن أنهار النيجر والسنغال وفولتا في غرب إفريقيا ونهر زمبيزي في جنوب إفريقيا . كما يعرف الطالب تاريخ حياة الملك جورج الأول في إنجلترا ونابليون في فرنسا أكثر من معرفته لصلاح الدين الأيوبي أو محمد بن عبد الوهاب في المشرق العربي أو المجاهدين من أمثال : عثمان دان فودي أو الإمام الساموري توري أو أحمد المسنوي أو الحاج عمر تال أو سيدى المختار الكونتى أو محمد الحافظ العلوى وغيرهم من الذين ظهروا بمنطقته (الطالب) في الغرب الإفريقي . على كل أخذ الوضع في التحسن النسبى منذ عهد الاستقلال عندما قامت الحكومات الوطنية بوضع مناهجها التربوية المستقلة واستردت مهمة توجيه أبنائها تربوياً من المنظمات الأجنبية التبشيرية . وكانت نسبة التعليم في الأوساط الإسلامية في نيجيريا الشمالية عند استقلالها في عام

١٩٦٠م ٩٪ (تسعة في المائة) مقابل ٧٥٪ (خمس وسبعين في المائة) في الجنوب . وقد بدأت هذه الحكومة الإفريقية الوطنية تهتم اهتماماً كبيراً بوضع مناهج التربية التي تعكس تقاليد المجتمعات الإفريقية الأصيلة وتنظيم التدريبات المهنية التي تتماشى مع متطلباتها ، بدلاً مما كانت عليه تلك المناهج في عهد الاستعمار حيث كانت المنظمات التبشيرية تحتكرها ، وحيث كانت مركزاً على الدراسات اللاهوتية وتاريخ أوروبا وجغرافيتها والقانون الغربى وكانت أصول التدريس "البيداغوجيا Pedagogy" مبنية على العادات والتقاليد الأوروبية وأخلاقياته .

٤ - عمدت السلطات الاستعمارية في عهدها إلى محاربة روح الثقافة الإسلامية وجعلت أبناء المسلمين يشتمزون من تلك الثقافة، وذلك عن طريق الاستهزاء بروادها. لكن ظهور الشخصيات الإسلامية على ساحة السياسة الدولية ، من أمثال أحمد سيكوتورى (غينيا) وأبوبكر تافاوا بليوا وأحمد ساردونا (نيجيريا) وأحمد بن بيلال (الجزائر) وموديبوكايتا (مالي) والأمين جيبى (السنغال) ، وغيرهم من المفكرين المسلمين السياسيين في النضال التحريرى، قد أعاد إلى نفوس الشباب الإسلامى الروح المعنوية المرتفعة والثقة بالنفس ، لأنهم أدركوا أن الخبرة والثقافة لم تعد محتكرة في أيدي الذين أفرختهم التبشريات المسيحية واليهودية بسبب انتمائهم إلى منظمات وحركات مثل الماسونية وغيرها . فعاد الحماس الديني يظهر بين الشباب المسلمين ، وبدأت معاهد وجامعات الدراسات الإسلامية واللغة العربية تنتشر في

طول المنطقة وعرضها ، وأخذ عدد الذين يحملون الشهادات فوق الجامعة ويحتلون كراسى الأستاذية في الدراسات الإسلامية يزداد يوماً بعد يوم .

يقول الله جل جلاله وهو أصدق القائلين : (١) ﴿ يَأْيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ (٢٢) .

(٢) ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢٣) .

(٢٢) الآية : ٥١-٥٢ من سورة المائدة .

(٢٣) الآية : ٢٢ من سورة المجادلة .

(٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن
يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ﴾. (٢٤)

(٢٤) الآية : ٥١-٥٢ من سورة المائدة .

—

1

2

3

4

5

6

7

8

9

10

11

12

13

14

15

16

17

18

19

20

21

22

23

24

25

—

الفصل الرابع

الممالك الإسلامية التي قامت في الغرب الإفريقي

ألف - دولة بورنو :

وصل نفوذ الإسلام إلى منطقة كانيمى "بورنو" من طرابلس الغرب ومنطقة كاوارا في القرن السابع الميلادي . وتشير بعض المصادر التاريخية إلى أن ملك كانيمى الذى يدعى (ميسى) أو ميسى جيلمى هو أول ملك اعتنق دين الإسلام ومعه أفراد أسرته وحاشيته على يد فقيه يدعى حامد محمد مانى في حوالى عام ١٠٨٤م. وبذلك أصبحت دولته أول مكان استقبل فيه الإسلام في بلاد السودان الغربي والأوسط . وتقع بلاد "بورنو" اليوم في أقصى الشمال الشرقي لجمهورية نيجيريا الاتحادية . وقد عاش الشيخ حامد بن محمد مانى فى بلاد بورنو قرابة خمس سنوات، عاصر خلالها ملوكها الثلاثة إضافة إلى الملك "بولو". وهم : أربى لمدة ست سنوات ، كاري هوامى لمدة أربع سنوات وأومى لمدة أربع عشرة سنة . وكان أول من قام بأداء فريضة الحج من أسرة الملك "ميسى" مرتين هو الأمير ميسى دوناما ابن الملك أومى جيلمى . وعند حاجته الثالثة توفي إلى رحمة الله غرقاً في البحر الأحمر .

حالف الدين الإسلامي إقبال واسع لدى الطبقة الحاكمة وفي بلاط أسرة مبي المالكة وفي عهد الملك محمد الأمين كانيمي بحلول القرن الثالث الهجري . وفي عام ١٤٨٣م تحولت عاصمة كانيمي من "ودين" (أو وداي) بشمال بحيرة تشاد إلى "انغزرغا" بغربها وذلك بسبب الاضطرابات السياسية التي شهدتها العاصمة القديمة وقيام ثورة كبرى في عهد ملكها مبي إدريس ألوما (١٥٧٠ - ١٦٠٢م) . وقد قام أحد علماء المملكة ويدعى الشيخ أحمد بن فارتوا الذي كان الإمام الراتب وكبير العلماء في عهد مبي إدريس ألوما بوضع نظم الملك والإدارة . وتشير بعض مؤلفات الشيخ فارتوا إلى الاهتمام البالغ الذي أبداه الملك إدريس ألوما بنشر الإسلام في مملكته . كما قام بإدخال التحسينات الإدارية الأساسية في ربوعها . واعتنق معظم كبار الشخصيات والأعيان في بلاده الإسلامي في عهده فأصبحت الغالبية العظمى من السكان مسلمة بحلول القرن الثامن عشر الميلادي . وأنشأ محاكم وضعها تحت إشراف القضاة الشرعيين ، كما توطدت الروابط التجارية والسياسية بين دولة بورنو والإمبراطورية العثمانية التركية في القرن السادس عشر الميلادي . وتحديث المؤرخ الفشتالي (١٥٤٩م - ١٦٢١م) عن زيارة ودية قامت بها بعثة من مملكة بورنو إلى المغرب الأقصى . وكان لعلماء بورنو اليد الطولى في انتشار الإسلام ومحو الأمية بين سكان المناطق المجاورة .

مكانة العلماء والثقافة الإسلامية في دولة بورنو :

اشتهرت منطقة بورنو بعدد كبير من العلماء، وأتقن كثير من سكان المناطق المجاورة لها تلاوة القرآن الكريم وأحكامها وذلك حتى وقت ظهور المجاهد الكبير الشيخ عثمان دان فودى ببلاد السودان الغربي والأوسط .

وقام عدد كبير من علماء "بورنو" بدور هام في الأنشطة السياسية والاجتماعية لتلك المملكة . وحصل بعضهم على تشجيع من أسرة مبي المالكة بتعزید جهودهم في نشر الدين الإسلامي بين أهالي المملكة . ولعب العلماء دور مجلس الشورى لدى الملك وحاشيته حول القضايا التي تتعلق بالحياة الدينية والسياسية والاجتماعية والإدارية للدولة . ومن أشهر هؤلاء العلماء أحمد بن عبدول الذي تقلد منصب قاضي قضاة بلاط الملك مبي علي غاجي . وعمر بن عثمان مسبارما وآدم بن إبراهيم والقاضي محمد بن علي غاجي ويعتبر البكري أحد العلماء الذين لعبوا دوراً قيادياً في دولة بورنو . وكان قد تلقى تعليمه الأولي في بلدة "باندوتو" ثم واصل التحصيل على يد عالم آخر يدعى علي تأقيت السّومني . وهناك عالم مشهور آخر هو أبو بكر الباكوم ، صاحب مؤلفات كثيرة، منها كتاب شرب الدّلّول . ومن بين كبار العلماء الذين اشتهرت بهم تلك الدولة أيضا محمد ابن الحاج عبد الفهام البرّناوي (المتوفي في عام ١٧٥٥م) ، وله مؤلفات كثيرة منها كتاب " الكوكب الدرّي في نظم ما جاء في الكتاب الأخضر " وهو عبارة عن شرح للمختصر الفقهي لكتاب ألفه عالم جزائري هو عبد الرحمن الأخضرّي الذي عاش في القرن السادس عشر الميلادي .

وكذلك الطاهر بن إبراهيم الفولاني الذي كان من بين فحول العلماء ، حيث كان تبجّره في العلم واتصافه بالتقوى سبباً في رفعة شأنه وذيوخ شهرته في جميع أرجاء تلك الدولة وخارجها . وظهر كثير من أجلة الفقهاء وأهل اللغة والتاريخ خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر وحتى القرن التاسع عشر في تلك المنطقة ، وحظوا دوماً بتشجيع ودعم الحكام والملوك لاسيما من أسرة مبي المالكة . وسافر عدد كبير منهم إلى مصر والحجاز لتحصيل العلم . واشتهر بعضهم هناك ، وقد افتتح أحد أفراد تلك الأسر المالكة يدعى مبي قاسم بيرى (١٢٤٢م - ١٢٦٧م) مدرسة إسلامية في مصر ، عرفت بمدرسة ابن رشيق، وخصص بها رواقاً لاستقبال الطلبة الوافدين من "بورنو" وحجيجهم العابرين بمصر. وتميز نمط انتشار الإسلام في منطقة السودان الأوسط بطابع تدريجي وسلمي في آن واحد. ورواد الفتوحات الإسلامية الذين وصل بهم الجهاد إلى اجتياز أجزاء من الغرب الإفريقي بقيادة التابعي الجليل عقبة بن نافع الفهري لم يتجاوزوا منطقة كوار، على أرجح أقوال المؤرخين، علماً بأن بداية فتح القارة كان في عهد عمر بن الخطاب، ثانی الخلفاء الراشدين رضي الله عنه ، وذلك عندما قام واليه على مصر عمرو بن العاص بفتح أجزاء من الشمال الإفريقي في السنة الثانية والعشرين الهجرية . وعندما آلت الخلافة إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه ازداد الفتح الإسلامي توغلاً في أعماق الشمال وأطراف الشمال الغربي للقارة . وفي السنة الخمسين الهجرية أي عام ٧٠٦م تكلل جهاد عقبة الذي واصل الزحف وأنشأ مدينة القيروان في ولايته الأولى بالنجاح . ثم وصل إلى وادي يحلى في

بلاد السوس الأقصى حيث أقام مسجداً بها وذلك فى ولايته الثانية .
وذكرت بعض المصادر التاريخية أنه نزل من درعه إلى بلاد صنهاجة ثم إلى
بلاد هسكورية فأغمرات وريكة وإلى وادى نفيس المتاخمة لأودية بلاد
فوتاتورو حول ضفتى نهر السنغال ، وكانت القوافل تقطع تلك المسافة فى
ثلاثة أشهر . وذكر الأستاذ الخليل النحوى فى كتابه إفريقيا المسلمة -
الهوية الضائعة - نقلاً عن الشيخ سيدى محمد المختار الكونتى ، أن
عقبة بن نافع وصل مدينة " ولاته " التى عرفت فى ذلك الوقت بـ
" سير " أو " بيرو " فى السودان الغربى ، وخلف بها ابنه المسمى العقاب .
وفى سنة ١١٤ هـ قام أحد أحفاده ويدعى حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة
بن نافع أو عبد الرحمن بن حبيب بحملة استهدفت مواصلة الفتوح حتى وصلت
إلى منطقة تخوم السودان . وقد شمل الإسلام على مر الزمان أجزاء القارة
الإفريقية مكتسحاً مناطقها المعمورة دون الاعتماد على قوة السلاح أو
المؤسسات التبشيرية . بل أخذ ينتشر بانتشار الإفريقيين أنفسهم ، سالكاً
مسالكهم التجارية حتى وصل مناطق السودان الأوسط ووصل الإسلام إلى
مملكة بورنو فى السودان الأوسط ماراً بنفس المسالك التى اجتازتها
الفتوحات الإسلامية الأولى ، مستكملاً بذلك ربط أجزاء شمال القارة بجنوبها
وعرفت الدولة التى قامت فى تلك المنطقة وحول بحيرة تشاد بدولة السيفارا ،
أخذت هذه الدولة التى قوت شوكتها فى القرن العاشر الهجرى ، تتوسع حتى

وصلت حدود فزان^(١) شمالاً ، ومنطقة وادي شرقاً وحوض النيجر جنوباً . وكانت الدولة خاضعة لسلالة مسلمة من القبائل الفولانية التي عرفت أيضاً ببنى حومي أو السيّفاوا (نسبة إلى سيف بن ذي يزن) ، حسب بعض الروايات .

وقد عاهد ملوك دولة السيّفاوا ، المتعاقبون ، أنفسهم بنشر الإسلام بين سكان منطقة السودان الأوسط وما جاررها متقلدين للقب " مبي " اقتداءً بمليكيهم الأوّل هومي جيلاني " مبي " . أما في بلاد الهاوسا غرباً ، فقد وصل الإسلام إلى هناك عن طريق التجّار المسلمين من أبناء قبيلة الماندنغو^(٢) الناطقين بلغة جولا ، الذين كانوا في طريقهم إلى الأراضي المقدسة لأداء مناسك الحج ، ووصلوا إلى مدينة كانو مارين ببلاد غوبروكاتسينا .^(٣) وكان ملوك ؛ هذه البلاد من أمثال الملك "ياجى طن طسامبا" (١٣٤٩م - ١٣٨٤م) هم وأسرهم وعائلاتهم ورجال بلاط حكمهم وأسرهم كانوا من أوائل الذين اعتنقوا دين الإسلام في تلك المناطق . وكان هذا هو النمط العام الذى اتصف به انتشار الإسلام في السودان الأوسط . لكن تضاربت الآراء حول الزّمان الذي وصل فيه الإسلام إلى بلاد الهاوسا على وجه التحديد . إذ تذكر بعض مصادر أن التجار المسلمين من أبناء قبيلة "الماندنغو" غادروا موطنهم الأصلي في السودان الغربى (مالي) في سنة

(١) هي إحدى كبريات ولايات الجماهيرية العربية الليبية اليوم .

(٢) ويطلق عليها الوانغر أو البامبرا أيضاً .

(٣) تقعان فى شمال نيجيريا .

٨٣٥ الهجرية الموافقة لسنة ١٤٣١م ووصلوا إلى بلاد الهاوسا لاسيما مدينة كانو، في عهد ملكها محمد رونفا (١٤٦٣ - ١٤٩٩م). غير أن مصادر تاريخية أخرى تشير إلى أنه كان للإسلام الوجود العملى في مدينة "كانو" قبل تولى هذا الملك حكمها بفترة طويلة وأنّ عهد الملك يعقوب بن عبد الله بورجا الذى استغرق زمان ملكه إحدى عشرة سنة (١٤٥٢ - ١٤٦٣م) قبل مجيء الملك محمد رونفا قد شهد تدفق علماء الدين من أبناء القبيلة الفولانية الذين هاجروا من السودان الغربى ، إلى بلاد الهاوسا حيث قاموا بتدريس العلوم الإسلامية من التفسير والحديث والتوحيد والفقه واللغة العربية .

إسهام الملوك في نشر الإسلام في السودان الأوسط

ثمة ثلاثة ملوك ارتبطت أسماؤهم بجهود نشر الإسلام في السودان الأوسط . هم "مبي دونما" الذى عاش في القرن الثالث عشر الميلادي و"مبي على غاجي" ، الذى حكم في القرن الخامس عشر الميلادي و"مبي إدريس ألوما" الذى عاش في القرن السادس عشر الميلادي . ولم يكتف الملوك الثلاثة بإبداء الاهتمام بانتشار الإسلام والحفاظ على مكانته الاجتماعية في داخل بلدانهم فحسب ، بل عملوا على توطيد العلاقات الثقافية والتجارية والسياسية بين دولهم والأمم الإسلامية الأخرى الشهيرة وقتئذ ، مثل مصر ومقر الخلافة العثمانية^(٤) وتونس وطرابلس الغرب (ليبيا) والعراق . وتميز عهد الملك "مبي

(٤) كانت تركيا مقر الخلافة الإسلامية في ذلك الوقت.

إدريس ألوما" خلال الربع الأخير للقرن السادس عشر، على وجه الخصوص، بتصاعد الدعوة الإسلامية في السودان الأوسط لاسيما في بورنو مما أضفى على دولته صفة إسلامية على غرار الخلافة العثمانية ودولة الأشراف بالمغرب الأقصى . واتسمت المملكة البورنوية في عهد الملك "مبي إدريس ألوما" المذكور بإعلان الجهاد ضد القبائل الوثنية المجاورة ، التي كانت تعرقل مسيرة الدعوة الإسلامية ، لاسيما في الجزء الجنوبي لدولته .

وقد عثر الأستاذ م.أ. الحاج الذي كان محاضراً بجامعة "بايرو" النيجيرية في عام ١٩٦٦م على نسخة من رسالة كان قد وجهها السلطان العثماني مراد الثالث (المتوفي عام ١٥٧٥م) ، إلى الملك "مبي إدريس ألوما" حول العلاقة التي كانت قائمة بين الدولتين .

وبالمثل تؤكد المصادر التاريخية وجود تبادل مبعوثين دبلوماسيين بين "مملكة مبي إدريس ألوما" ودولة الأدارسة في المغرب الأقصى في عهد مولاي أحمد المنصور الذهبي. فقد توجه سفير الملك "مبي إدريس ألوما" إلى مراکش في عام ٥٨٢هـ حاملاً رسالة من سيده يطلب فيها تزويد مملكة "بورنو" بجيش ومعدات حربية ، ووافق السلطان السعدي على ذلك الطلب شريطة موافقة الملك البورناوي ، أيضاً على مبايعته بوصفه الخليفة الشرعي للمسلمين . وتشير المصادر المذكورة إلى أن سفير الملك "مبي إدريس ألوما" كرر زيارته إلى المغرب مرتين ، وفي المرة الثالثة عاجلته المنية وهو في طريقه إلى مراکش ، فواصل أعضاء وفده السفر إلى المغرب الأقصى . ولم يثبت تاريخياً أن الملك "مبي إدريس ألوما" قد

قام شخصياً بأي سفر إلى هناك لإعلان المبايعة المطلوبة ، أو أوفد أحداً للقيام بتلك المهمة ، غير أن مملكة "بورنو" ظلت ذات سيادة واستقلال بين الأمم الإسلامية الأخرى في ذلك الوقت ، كما احتفظت بعلاقات سياسية وثقافية معها . أما في الوسط الغربي ، فقد ظهر ملوك عظماء دفعوا عجلة الدعوة الإسلامية إلى الأمام ، منهم "محمد كاورو" ، ملك كاتسينا والملك "رونفا" ، ملك كانو ، والملك محمد رابو ، ملك زاو زاو . كما اضطلع هؤلاء الملوك بأدوار حيوية ملموسة لإرساء الوجود الإسلامي وإصلاح مؤسساته التشريعية والاجتماعية خلال القرن الخامس عشر الميلادي ، وتجدر الإشارة إلى أنه كان للملك "دوناما بملى" البورنوي ، اليد الطولى في تعزيز العلاقة الثقافية والسياسية بين بلاد السودان الأوسط والعالم الإسلامي . فهو الذي أنشأ وقفاً ورواقاً تابعين لمدرسة ابن رشيق في مصر لتوفير الدعم المادي والمعنوي للطلاب الوافدين من الغرب الإفريقي للدراسة في مصر . وقام برحلته الشهيرة إلى أرض الحجاز لأداء مناسك الحج في قافلة ضمت أعداداً كبيرة من رعاياه رجالاً ونساء ، فعقد في عهده صداقة شخصية بينه وبين ملوك وأمراء البلاد الإسلامية ، في تونس ومصر وليبيا والعراق ، وامتد نفوذ دولته حتى وصل إلى حدود فزان شمالاً وبحيرة تشاد غرباً . وقامت الأمصار الإسلامية في المشرق والمغرب بإيفاد عدد من العلماء إلى بلاد السودان الأوسط لنشر الثقافة الإسلامية . وكان ذلك بفضل الجهود الشخصية التي بذلها الملوك والحكام في الغرب الإفريقي . وكانت الحروب الأهلية والاضطرابات الداخلية بين القبائل المتناحرة في المنطقة ، وبين دولة

السيفافا وقبائل بولالا، هي التي أدت إلى نقل مقر دولة بورنو - من شرق بحيرة تشاد إلى غربها في القرن الرابع عشر الميلادي . وسرعان ما عادت حالة الاستقرار السياسي النسبي إلى المنطقة الشرقية فانتقل مقر الحكم إليها مرة أخرى في عهد ملكها الجديد ، "علي غاجي" في نفس القرن ، وأصبحت مدينة بيرنين - "إنغزرغا" عاصمة جديدة ثم مركزاً ثقافياً وتجارياً . وقد تدفق عليها علماء المسلمين من شمال إفريقيا ، ومن بينهم الشيخ أبو القواط والشيخ عمر عثمان اللذان تقلدا مناصب في البلاط . واستمرت شهرة المدينة في التزايد إلى القرن التاسع عشر الميلادي . ويعتبر الملوك والحكام المسلمون في بلاد السودان الأوسط والغرب الإفريقي رواد انطلاق الدعوة الإسلامية ، والمصلحين الاجتماعيين ، وقد قام الملك "محمد رونفا" (١٤٦٣م - ١٤٩٩م) ملك كانو بتأسيس مدارس لتطبيق نظم الإدارة الإسلامية في بلاده . كما شهد عهده تصاعد العلاقات الثقافية والتجارية مع بلدان الشمال الإفريقي . وكان محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني الجزائري من أشهر العلماء الذين وصلوا إلى بلاد الهاوسا في السودان الأوسط في القرن الخامس عشر الميلادي ، وأقام في مدينة كانو حيث تولى منصب المستشار الديني والقاضي الشرعي في بلاط الملك محمد رونفا . ونهض أثناء إقامته في كانو ، بتأليف كتابين ذاعت شهرتهما ، وهما " تاج الدين فيما يجب على الملوك " الذي يعالج مسائل الحكم والإدارة على ضوء القرآن والسنة النبوية الشريفة . و " جمل مختارة " الذي يتعلق بجانب تطبيق العدالة الاجتماعية .

الإسلام في بلاد الهاوسا

تشير المصادر التاريخية عن غرب إفريقيا إلى أن الإسلام قد دخل بلاد الهاوسا قبل القرن الخامس عشر الميلادي ، وكانت طبقة الملوك والحكام في طليعة الذين اعتنقوه وتبعهم المجتمع بأسره . ولعب أبناء قبيلة الوانغارا (الماندنغو) من التجار المذكورين آنفاً دوراً رئيسياً في نشره في تلك البلاد التي شملت مناطق كانو وكاتسينا وزازو وغوبر وداورا ورانوابيرام الشرقية. ويؤكد مصدر تاريخي من "كانو" أن تجار الوانغارا الذين أتوا من مالي بزعامة فقيه يدعى عبدالرحمن زيتي هم الذين نقلوا الدين الإسلامي إلى هذا الجزء من بلاد الهاوسا . وتشير مصادر أخرى إلى أن ذلك كان في عهد ملكها الحادي عشر ، "ياجي" (١٣٤٩ - ١٣٨٥م) . وقد شهد القرن الخامس عشر الميلادي هجرة جماعية لقبيلة الفولاني أو الذين نزحوا من أقصى الغرب الإفريقي إلى وسطه وشرقه ، حيث بدأت الأنشطة الثقافية ومحو الأمية ، على أيديهم ، خاصة بين الطبقة الحاكمة والأرستقراطية . وأصبح الإسلام ديناً رسمياً للدولة في عهد الملك "محمد رونفا" الذي أبدى اهتماماً بالغاً بنشره: متعاوناً في ذلك مع العلماء ، كما أدخل إصلاحات دينية كثيرة في سياسة وإدارة دولته والمناطق المجاورة لها ، فاستبدل العادات والممارسات الوثنية القديمة السائدة بين الناس بالممارسات الإسلامية . وشهدت المنطقة بنهاية القرن الخامس عشر قدوم أجلة العلماء المسلمين من المغرب العربي والسودان الغربي إلى المنطقة وقيامهم بالتدريس ونشر

الوعي والثقافة الإسلامية بين أهاليها . ومن بين الذين استقدموا إلى مدينة كانو وضواحيها الجد الأكبر للشيخ أحمد بابا التنبكتوي الشيخ أحمد بن عمر بن عقيت في عام ١٤٨٧ م . كما وصل العالم الشهير محمد بن عبد الكريم المغيلي إليها قبيل نهاية ذلك القرن حيث طلب إليه الملك رونفا أثناء وجوده فيها وضع كتاب يضم إرشادات حول الإدارة والسياسة الإسلاميتين اللتين تساعدان على تسيير شؤون دولته . فألف كتاباً سماه " الجملة المختصرة " . كما نهض كل من حاكم دولتي زازو وكتسينا محمد براو ومحمد كوراو اللذين كانا معاصرين للملك محمد رونفا ، بإدخال الإصلاحات المماثلة في بلديهما تحقيقاً للرعاية السليمة لشعبيهما . وكانت مدينتا كانو وكتسينا بحلول القرن السادس عشر الميلادي وصاعداً مركزين للتعليم والثقيف الإسلاميين انجذب إليهما كثير من العلماء من المغرب والمشرق والسودان الغربي . فعلى سبيل المثال ، أتى إليها العالم المغربي عبد الرحمن سوقيني الذي تتلمذ على ابن الغازي ، وهو عائد إلى كانو من مصر ، وقد قام بالتدريس في إحدى مدارسها العربية . وبالمثل ، جاء عالم آخر يدعى التزاختي (متوفى عام ١٥٠٣) من المشرق واستقر في مدينة "كتسينا" وشغل فيها منصب القاضي الشرعي وقام هو الآخر بتأليف وتفسير نصوص بعض المختصرات الفقهية مثل " مختصر خليل " في الفقه المالكي . وشهدت بلاد الهاوسا في القرن السابع عشر انتشار حركة التأليف بين علمائها من أمثال محمد الكتسيناوي المعروف بـ طن مرينا ، وابن السباغ المشهور في بلاد الهاوسا وما جاوزها في منطقة السودان

الغربي والأوسط في النصف الثاني من ذلك القرن . وقد وصفه محمد بللو في كتابه " إنفاق الميسور " بأنه شاعر ومفسر ، ولامع في العلم والمعرفة . ولا تزال معظم هذه المؤلفات موجودة . وعالم آخر ذاعت شهرته في المنطقة هو محمد طن ماسينا الذى ولد في كاتسينا في عام ١٨٥٩ م ، وتعلم على يد الشيخ محمد طن مرينا المذكور . وقد أشار كل من محمد بن أبى بكر البرتيلي في كتابه " فتح الشكور " ومحمد بللو في كتابه " إنفاق الميسور " إلى بعض مؤلفات محمد طن ماسينا . ومن بينها " النفحات العنبرية " الذى يشرح فيه متن كتاب العشرينيات لألفا الزازى الأندلسى وكتاب " شفاء الربا " في تحرير فقهاء يوروبا " . إذ يبدو من عنوان الكتاب الأخير أن المؤلف يعالج قضايا تاريخية أدبية لعلماء بلاد يوروبا . وفي القرن الثامن عشر ظهر عالم آخر اشتهر في المنطقة وهو محمد بن محمد الفولاني الكاتسيناوى (توفي عام ١٧٤١م) الذى ولد في مدينة كاتسينا ، وعاجلته المنية في مصر عندما كان عائداً من أداء فريضة الحج ماراً بالقاهرة . وذكر المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتي (١٧٥٤-١٨٢٢م) أن محمد بن محمد الفولاني جاء إلى مصر والتحق بدائرة علماء اللغة والفقه والعلوم الفلكية بواسطة والده حسن الجبرتي ، وأن والده قد أخذ بدوره كثيراً من مختلف فروع العلم والمعرفة من محمد بن الفولاني الذى نزل ضيفاً عليه إلى أن التحق بالرفيق الأعلى . وأضاف أنه كان عالماً متبحراً في شتى مجالات العلم والمعرفة . بعض مؤلفاته مدونة بقائمة كتب المكتبة الخديوية الأميرية بالقاهرة . من بينها : كتاب منح القدوس ، وهو عبارة عن منظومة شعرية في

علم المنطق وكتاب بلوغ الأرب من كلام العرب الذى تناول فيه قواعد اللغة العربية ونظريات صوفية .

وبعض هذه المؤلفات محفوظ في مكتبة دار الكتب المصرية بالقاهرة ونيجيريا ومكتبة جامعة لندن بإنجلترا . وأشار الشيخ عبد الله بن فودى^(٥) في كتابه " إيداع النسخ مما أخذت من الشيخ " إلى عديد من كبار العلماء الذين برزوا في القرن الثامن عشر في السودان الغربي . ومن بينهم الشيخ جبريل بن عمر الذي أخذ عنه الشيخ عثمان دان فودى وأخوه الشيخ عبد الله العلم . ولم يكن الشيخ جبريل هذا عالماً فحسب ، بل كان مصلحاً اجتماعياً بادر بإدخال إصلاحات دينية واجتماعية في بلاد الهاوسا . ومنه استوحى ، كما تشير بعض المصادر التاريخية ، الشيخ عثمان دان فودى فكرة الجهاد الذى اضطلع به فيما بعد . وقد حظي الشيخ جبريل بأداء فريضة الحج مرتين في حياته ، وقضى قرابة عشرين سنة متنقلاً بين الحجاز ومصر لتلقي العلم وازدياد المعرفة . وقد عاجلته المنية في بلدة "أغديس" بالنيجر أثناء رحلته قاصداً الأراضي المقدسة للمرة الثالثة . وعنه يقول المستشرقان ، بيجار وهسكيت : "قام الشيخ جبريل بإسهام كبير في الأدب الديني المعاصر له، كما نلمس ذلك في كتاب الشيخ عثمان بن فودى " نصائح الأمة المحمدية " حيث استشهد بكثير من مقولاته ومؤلفاته ، خاصة كتابيه " المتن في القصائد " والمنظومة في الشعر " .

(٥) هو أخ الشيخ عثمان دان فودى ، مؤسس دولة صوكتو في غرب إفريقيا ، انظر ما أوردناه عن تلك الدولة .

وقد ظهرت مراكز ثقافية في بلاد الهاوسا في القرن الثامن عشر الميلادي خاصة في مدنها الرئيسية مثل زاريا و كانو وكاتسينا وياند وتوتو ديجيل . وكان العلماء يتنقلون بينها إما للتدريس أو لتحصيل العلم . وكانت منطقة السودان الغربي ويبتها - بحلول القرن التاسع عشر - مهينة لاندلاع الثورات الدينية والاجتماعية ، التي تمثلت في حركات جهاد عثمان بن فودي واحمد لوبا بارى وعمر الفتوى في الغرب الإفريقي .

باء - دولة صوكتو

بدأت حركات الهجرة التدريجية لجماعات الجنس الفولاني من مواطنها الأصلية بفوتا تورو الواقعة في منطقة مجرى نهر السنغال ، متجهة صوب الشرق منذ بداية القرن الثالث عشر الميلادي ، حيث اجتازت أرجاء السودان الغربي وصولاً إلى الحجاز عبر مناطق وسط إفريقيا وجنوبها وشرقها ، واستقر بعضها في مناطق الحزام السهلي الذي يشمل بلاد الهاوسا في شمال نيجيريا وجمهورية النيجر وشمال الكاميرون وذلك بحلول القرن السادس عشر الميلادي . وقد تميزت هذه الجماعات ، منذ تعرفها على الدين الإسلامي ، بالحماس والاندفاع نحو اكتساب ثقافته ونشره بين قبائل إفريقية أخرى مجاورة لها . وحظي أفراد منها بهذه الثقافة وأصبحوا ضالعين في العلوم الإسلامية واللغة العربية خاصة في الغرب الإفريقي .

ويقسم المؤرخون وعلماء الجنس البشري أبناء الجنس الفولاني إلى قسمين . قسم يقوم بتربية الماشية ، بعيداً عن الحياة الاجتماعية الحضرية ، وقسم يزاول الزراعة والتجارة وينخرط في الحياة الاجتماعية الحضرية ، ويتولى الأنشطة الدينية المتصلة بالدعوة الإسلامية . وثمة ترابط عرقي وانتماء لغوي وعادات موروثة توحد بين القسمين . وقد أوجدت هذه العوامل روح التضامن التي استغلتها

قيادة الجهاد الذي اكتسح بلاد الهاوسا في وقت لاحق ووصل إلى مناطق أخرى نائية في غرب إفريقيا . وتجدر الإشارة إلى أنه كانت هناك ظروف هيات إعلان الجهاد من قبل المصلح عثمان دان فودى .

فقد واجهت الأمة الإسلامية في غرب إفريقيا صدمة سياسية ودينية وتشتت شمل بسبب انهيار إمبراطورية صونغاي التي كانت تتمتع بالقيادة الإسلامية الحيوية والنشيطه حتى القرن السادس عشر الميلادي . وفقدت شعوب المنطقة اتجاهها العقيدي الإسلامي الثابت ، فأخذ أفرادها يتظاهرون طوراً بالدين الإسلامي شكلاً خاصة في الأعياد والمناسبات المماثلة ، وينتكسون إلى عبادة الأوثان وممارسة العادات المناوئة للإسلام طوراً آخر . وأصبحت عامة الناس على دين ملوكهم . وكانت دولة البورنو هي الوحيدة التي اتصفت بالقيادة الدينية الإسلامية بفضل ملوكها المسلمين الذين كانوا يحملون لقب "مبي" . وبحلول القرن الثامن عشر الميلادي أخذ الحماس الديني الإسلامي والانقياد له يفتر مما استدعى انبعث حركات التجديد الإسلامية من قبيل حركة الجهاد التي قادها الشيخ عثمان دان فودى .

عثمان دان فودى ، مؤسس دولة صوكتو .

ميلاده ونشأته

ولد الشيخ عثمان في بلدة "مراتا" الواقعة اليوم في جمهورية النيجر في يوم الأحد من شهر صفر سنة ١١٦٨ الهجرية الموافق لشهر ديسمبر ١٧٥٤

الميلادي ، وكان جده الأكبر الذي يدعى موسى جوكوللى من بين الجماعات الفولانية التى هاجرت من موطنها الأصلي في "فوتا تورو" بشمال السنغال واستوطنت بلاد الهاوسا فى القرن الخامس عشر الميلادي. وقد سكنت تلك القبيلة في الوهلة بادئ الأمر ، في مكان يعرف بـ "كونى" قبل انتشارها في بقية أرجاء تلك البلاد، ومن بينها منطقة "مراتا"، حيث ولد الشيخ عثمان .

تلقى الشيخ عثمان تعليمه الأولي من خلال الأسلوب التقليدي السائد في المجتمعات الإسلامية عبر القرون، والمتمثل في حفظ القرآن ثم دراسة الفقه واللغة العربية. وقد وصف المؤرخ التربوي البروفسور إيفور ويلكس هذا المنهج التعليمي قائلاً^٦: ترسل جماعة من قبيلة جولا(٦) المسلمة أبنائها الذين تتراوح أعمارهم ما بين ٦ و ١٤ سنة إلى المدارس التقليدية التى تفتح بمجرد من يقوم بالتدريس، ويتلقون العلوم الإسلامية الابتدائية بدءاً من تلاوة القرآن وتحفيظه عن ظهر قلب . ويستمر التلميذ في التحصيل السريع حتى يستوعب قواعد اللغة العربية من نحو وصرف وآدابها من شعر ونثر. كما يأخذ مبادئ الفقه المالكي مع التعمق النسبي كلما تقدم في النمو والتحصيل. ولا يصل إلى المرحلة المتقدمة جداً من الثقيف إلا ندرة من التلاميذ والطلبة. بينما يرسب معظمهم ، مع اكتساب بعض الخبرات المبسطة في كتابة اللغة العربية وقراءتها ولو بطريقة خاطئة . ويتنقل الماهرون الطموحون منهم، بعد

(٦) هي فرع من قبيلة البامبرا أو الونغارا المنتشرة في غرب إفريقيا.

هذه المرحلة إلى علماء آخرين وقيمون معهم لمواصلة التحصيل حتى يترسّخوا في الفروع العلمية . حينئذ يمنحون إجازات تؤهلهم للقيام بتدريس تلك العلوم . وبهذا الأسلوب يحصل الطالب الطّموح على عدة إجازات من مختلف المرشدين والمدرسين ، ومن ثم يحظى بالاعتراف من عامة الناس مع ذبوع الشهرة ، وتدفع طلبة العلم عليه ، سواء في حالة الحل أو التّرحال .

تتلمذ عثمان دان فودى في قراءة القرآن الكريم وتجويده على والده محمد بن صالح فودى ، ودرس كتاب العشرينيات والكتب الأخرى المماثلة على أستاذ آخر يدعى بيدو الكباوي . وشملت هذه الدراسة أيضاً قواعد اللغة العربية من نحو وصرف من كتاب الخلاصة . كما أخذ من شيخ يدعى عبد الرحمن بن حمادى ودرس كتاب مختصر الخليل فى فقه المذهب المالكي من خاله بدورى بن الأمين بن عثمان بن حمّا بن علي . وكان هذا الأخير من بين العلماء الذين شهد الناس لهم بتقوى الله ومخافته ، الأمرين بالمعروف والنّاهين عن المنكر ، مما دفع عثمان دان فودى إلى الاقتداء به تشبّهاً بمكارم أخلاقه ، حيث لازمه قرابة سنتين ، مقتدياً به في أساليب الدعوة والإرشاد . وكان يصحح أخطاء عثمان عند مراجعة الدّروس معه دون الاطلاع على الكتب ، لأنه كان حافظاً لمحتوياتها عن ظهر قلب . وانتقل الشيخ عثمان بعده إلى أشهر مشايخه وهو الشيخ جبريل بن عمر ، واستمر معه لمدة سنة تقريباً ، إلى أن وصلا فى أحد

أسفارهما إلى بلده أغديس^(٧). ثم عاد بعد ذلك إلى أهله بينما واصل أستاذه الرحلة إلى الأراضي المقدسة لأداء فريضة الحج . ومن المعتقد أن عثمان دان فودى تأثر في أفكاره الثورية بأستاذه هذا إلى حد كبير وقد اصطدم الشيخ جبريل مع الحكام والأمراء في بلاد الهاوسا بسبب انتقاده الشديد للعادات المناهضة للإسلام وأساليب الاستبداد السائدة هناك ، وحاول الشيخ جبريل في الوهلة الأولى، إعلان الجهاد لاستئصال هذا النظام المناوئ للإسلام ، ولكن الحظ لم يحالفه ، فأبعده حكام قبائل الطوارق من المنطقة كلياً قبل حجته الثانية وقام بحملة شديدة بعد العودة ، ضد العادات والتقاليد الوثنية المتجسمة في حياة الغالبية العظمى من شعوب بلاد الهاوسا ، وكان عثمان دان فودى يكنّ لأستاذه جبريل بن عمر المذكور الإجلال والاحترام وعظيم التقدير لغزارة علمه وصدق إخلاصه في الدعوة إلى الإصلاح الديني والاجتماعي بين الشعوب في الغرب الإفريقي. إلا أن ذلك لم يمنع من نشوب بعض الخلافات في وجهات النظر الفقهية بين الشيخ عثمان وأستاذه في وقت لاحق .

يذكر عبد الله بن فودى، شقيق عثمان في كتابه إيداع النسخ عن الشيخ جبريل قوله : " ذكر لي أخي، الشيخ عثمان أنه أخذ علم تفسير القرآن عن أحد أعمامنا وأخواننا يدعى الشيخ أحمد بن محمد بن الأمين، وأنه حضر مجلساً (حلقة دراسية) لشيخ يدعى هاشم الزنفري حول تفسير القرآن من أوله

(٧) تقع اليوم في جمهورية النيجر .

لآخره ، وأخذ علوم الحديث عن عمنا ونخالنا الحاج محمد بن راجي بن مودبو بن حمّا بن علي . وقد درست (يقول عبد الله بن فودي) كتاب صحيح البخاري بكامله عنده".

أنشطته الخاصة بالتدريس والدعوة

بدأ عثمان دان فودي الدعوة والإرشاد في سنة ١١٨٨هـ الموافقة ١٧٧٤م ، في عمر لم يتجاوز عشرين سنة . وكان يقوم بالتدريس جنباً إلى جنب مع الدعوة والإرشاد في تجمعات عامة . وشد الرحال إلى أماكن مختلفة بعيدة وقريبة، يدعو الناس إلى اعتناق الإسلام والابتعاد عن الوثنية ، وإرشاد المسلمين منهم إلى ترك ممارسات وعادات الشرك المتفشية هناك آنذاك . وكان يطلب منهم الاستنارة بمبادئ التوحيد الغراء . وقد وصف عبد الله دان فودي في كتابه " تزيين الورقة " احتشاد الأصفياء من المسلمين حول أخيه الشيخ عثمان قائلاً :

"قمنا جماعة وأفراداً بتأييد الشيخ عثمان في جهوده لنصرة الدين الإسلامي الحنيف. وقد اضطلع في هذا الصدد بسفريات شرقاً وغرباً يدعو الناس إلى دين الله الحنيف قولاً وعملاً. دعاهم بلغة عادية ، كما دعاهم من خلال قصائد ومنظومات شعرية بلهجات محلية مختلفة ، من بينهما الفولانية والهاسوية ، داعياً بذلك إلى تحطيم العادات والتقاليد المناوئة للشريعة الإسلامية السمحة . واستجابت له جماعات من المناطق والبلدان المجاورة

لدى السّماع عنه وذهبوا إليه مشجعين ومؤيدين له". وسافر في أول الأمر إلى بلاد "كبيي" ودعا أهاليها إلى إصلاح أمور دينهم والعمل بالإسلام ديناً والتحلّي بالعبادات الحسنة والأعمال الصالحة خلقاً وتجنب الطالحة منها. وتدفقت عليه جماهير غفيرة لإعلان الولاء والمبايعة وللإستفادة من ينابيع العلم والمعرفة ، يستمعون إليه بالاهتمام والاعتناء الكاملين وهو يلقي عليهم دروسه . وتوجه في سفره الثاني إلى منطقة "زنفرا" حيث قضى مايربو على خمس سنوات يدعو خلالها أهاليها إلى احتضان الإسلام . إذ يذكر عبد الله بن فودي فيما نقل عنه أيضاً ما يلي : "أن الجهل بأمور الإسلام كان يسود منطقة "زنفرا" وأن غالبية أهاليها لا تعرف عن حقيقة الإسلام شيئاً. فقام الشيخ بتنظيم حلقات دراسية لهم. وعندما كانوا يحضرون تلك الدروس ترافقهم نساءهم اللاتي يحتلطن بالرجال أحياناً. فحاول الشيخ عثمان منع ذلك الاختلاط قائلاً لهم إن ذلك يتعارض مع تعاليم الإسلام. لكنه فشل وتعرض لانتقادات شديدة من بعض علماء الدّين من جراء ذلك، ومن بينهم مصطفى الغواني أحد كبار علماء بورنو حيث طلب من الشيخ عدم السّماح للنساء بحضور محاضراته وحلقاته الدراسية ، ودوّن عبد الله بن فودي في كتابه "تزيين الورقة" هذا الانتقاد المنظوم . وهو كما يلي :

عليك منّا تحيات مباركة شمن مسكاً وسكا من يلاقونا
أيا ابن فودي قم تنذر أولى الجهلاء لعلهم يفقهون الدنيا والدّنيا
فامنع زيارة نسوان لو عظك إذ خلط الرجال بنسوان كفى شينا

لا تفعلن مايؤدى للمعاييب إذ لم يأمر الله عيباً كان يؤذينا
آيات المصفيى "يج" يتممها في عام "رش" مع زيد العدّ يكفيننا
عندما تلقى الشيخ هذه القطعة الشعرية طلب من أخيه عبد الله أن يعد رداً
عليها ، فنظم الردّ التالى :

أيهاذا الذي قد جاء يرشدنا	سمعاً لما قلت فاسمع أنت ما قلنا
نصحت جهدك لكن ليت تعذرنا	وقلت سبحان هذا كان بهتاناً
إن الشياطين جاءوا لمجلسنا	هم ييثون سوء القول طغياناً
لسنا نخالط بالنسوان كيف وإذ	كنا نحذر لكن قلت سلّماناً
إن كان ذاك ولكن لا أسلم إذ يتركن	بالجهل حملاً كان إحساناً
إذ إرتكاب أخف الضرر قد حتما	يكفر الجهل إنّ ذاك كان عصياناً
هذه البلاد وجدنا قومها غرقوا	في الجهل نمنعهم أن يفقهوا الدّينا
قد قيل تحدث للأقوام أقضية	بقدر ما أحدثوا خذ ذاك ميزاناً
الحمد لله ذي الأنعام هاديننا	ثم الصّلاة على المختار هاديننا
وآله صحبه أيبائنا كملت	وعدها حبّ والتاريخ نشفنا

دافع عبد الله دان فودى عن ضرورة توعية النّساء بأمور الدّين وتعاليمه .
فقال إنّ تركهن في الجهل بما يجب عليهن معرفته في دينهنّ ودنياهنّ أكثر
ضرراً من اختلاطهن بالرجال مع ضمان التعليم والوعى ، وبرر الاختلاط قائلاً
إنّ الضرر الأول قد يعد من كبائر الإثم لأنه يتعلق بصميم الدّين أي الإيمان

والأوامر والنواهي والأعمال الصالحة . بينما يتعلق الضرر الثاني أي الاختلاط بين الجنسين بالأخلاقيات وهو أخف الضررين . غادر الشيخ وأتباعه منطقة "زنفرا" بعد قضاء خمس سنوات عائدين إلى منطقة كَبِّي. وتجاوزوها حتى وصلوا منطقة "مجرى كوارا" (في وسط ولاية النيجر) وإيلو غرباً، قبل رجوعهم إلى بلدة ديجيل. كما قاموا بزيارة "زابو" (سوجو) مارين بمنطقة زاوما، وهناك قابل الشيخ حاكم المنطقة الذي اعتنق الإسلام. أحسّ الشيخ عثمان بحلول عام ١٧٩٣م بضرورة إبقاء مركز دعوته في "ديجيل" لاستقبال الناس الذين يتدفقون إليه آخذين العلم والمعرفة ، أو للإعلان عن اعتناقهم دين الإسلام. يرى الدكتور فتحي المصري أنه من الأسباب التي دعت الشيخ إلى اتخاذه هذا القرار بالبقاء والاستقرار في بلدة "ديجيل" هو انتشار أصحابه وتلاميذه في القرى والأمصار داعين إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة تمشياً مع الخطط التي رسمها لهم معلمهم الرشيد ، واستطاع الشيخ عثمان أن يثبت نفسه كعالم جليل كرّس جهده باذلاً لكل غالٍ ورخيصٍ في سبيل إعلاء كلمة الله وإحياء سنة نبيه عليه أفضل الصّلاة والسّلام وللقضاء على كل الأعراف والممارسات المناوئة للإسلام والسائدة في تلك المنطقة . وقد تمكّن تدريجياً من إزالة تلك الأعراف والممارسات الموروثة من الآباء والأجداد كابراً عن كابرٍ. وقد وجه انتقاداته بادئاً ذي بدءٍ ، إلى الحكام الذين بسطوا أيديهم على أرض الله طغياناً وتمكّنوا من المساس بحرية عباد الرّحمان جزافاً، دون مراعاة لله إلاّ أو ذمة . وكان جنود هؤلاء الحكام والمداوين التقليديين وبعض علماء الدّين الذين اشتروا الضّلالة بالهدى واتخذوا إلهم

هواهم فأضلّهم الله على علم، موضع انتقاداته في المقام الثاني . ويلي هذه الفئات صنف آخر من الناس وهم الذين ادّعو الإسلام قولاً، لكن أعمالهم وتصرفاتهم لاتمت للشرعة الإسلامية بصلة من قريب أو بعيد . وأخذت شهرة الشيخ عثمان في الذبوع والانتشار حتّى شملت أصداءها ربوع بلاد الهاوسا ، وأخذ الناس ينزحون إليه من كل فج عميق معلّنين ولاءهم ومبايعتهم له، إيماناً منهم بأنه قد نجاهم بإذن الله ، من الهلاك ، إلى برّ الأمان ، ومن العبودية الحمقاء والاستغلال البشع إلى الحرية والكرامة الإنسانية .

علاقته مع الحكام في بلاد الهاوسا

لم يبد الشيخ عثمان في بداية أنشطته في الوعظ والإرشاد أي اهتمام بالأمراء والحكام أو الاكثراث بشؤونهم أو القيام بزياراتهم ، بل كان - كما ذكره ابنه محمد بللو - يحاول تجنبهم والابتعاد عنهم قدر المستطاع ، وكان شغله الشاغل هو الاهتمام بتعليم وتوعية الشعب الكادح من عامة الناس، والقضاء على العادات المبتدعة الدّخيلة على الإسلام. وعندما عظمت شوكرته ونما نفوذه وازدادت شعبيته لافي بلاد الهوسا فحسب، بل في منطقة غرب إفريقيا برمتها، عقد العزم على الإقدام على مواجهة الملوك والأمراء، لإفهامهم حقيقة الإسلام بعيداً عن الشوائب والانحرافات المضللة، فاتصل في أول الأمر بحاكم "غوير"، الأمير "باوا نفاتا" وعرض عليه تطبيق الشريعة الإسلامية السمحة وإقامة العدل فيما بين رعاياه. عاد الشيخ بعد ذلك إلى بلده "ديجيل"

حيث واصل اكتساب مزيد من المعجيين به والمؤيدين له ، وكانت زيارته لحاكم "غويزر" شيئاً مشجعاً لجماعته ومعزراً لجهوده، وقد قال أخوه عبد الله في هذا الصدد إن الذين لم يمثلوا لأوامر الشيخ مخافةً لله، فعلوا ذلك خشية من السلطان "باوا". وثمة قصة تحكى عن حدث وقع في أواخر سنة ١٢٠٣هـ، ١٧٨٩م ؛ مفاده أنه في حدة تصعيد أنشطة الشيخ عثمان وجماعته في الوعظ والإرشاد في منطقة "زنفرا" أحس حاكمها السلطان "باوا" بخطورة الأمر وما قد يسفر عنه من تهديدات لملكه ونفوذه . وعندما أتى عيد الأضحى طلب السلطان احتشاد جميع علماء سلطنته ومن بينهم الشيخ عثمان في ساحة تعرف بساحة "مغانى" حيث تؤدى صلاة العيد. وتبين فيما بعد ، أن هناك مؤامرة دبرها السلطان في تلك المناسبة لاغتيال الشيخ، ونفر من جماعته لكنها فشلت ، ومن ثم لجأ السلطان إلى الإغراء والخدعة عن طريق تقديم الرّشوة، فقدم إلى الشيخ عثمان هدية تضمنت خمس مائة (٥٠٠) مثقال من الذهب. لكنّ الشيخ ومن معه رفضوها وعرضوا على السلطان النقاط الخمس التالية للموافقة عليها بغية تحقيق التعايش السلمى بين الطرفين :

- ١- السّماح للشيخ وجماعته بدعوة الناس في سلطنته إلى دين الإسلام .
- ٢- عدم اعتراض أو منع أى شخص يعتزم التّجاوب مع تلك الدّعوة واعتناق الدين الإسلامى طوعاً من عمل ذلك .
- ٣- احترام السّلطان وحاشيته جماعة الشيخ، وأي شخص يرتدي العمّة التى اتخذها الشيخ وأتباعه شعاراً خاصاً بهم .

٤- إطلاق سراح جميع الذين اعتقلوا من قبل السلطان بحكم انتمائهم إلى الجماعة .

٥- تخفيف عبء الضرائب المقررة على أهالي السلطنة .

وافق السلطان "باوا" على الالتزام بهذه المطالب ، وقيل إن السبب هو تقدمه في السن، و عجزه بدنياً عن مواصلة المقاومة . وأعلن أكثر من ألف شخص من الأعيان والعلماء في سلطنة "غوبر" انضمامهم إلى الجماعة أثناء الاحتفال بعيد الأضحى لتلك السنة .

تعرض الشيخ وجماعته للاستفزاز والإهانة والتعذيب من أعدائهم بسبب نماء جماعتهم المطرد وذيوع شهرتهم بين الناس، فلجأ الحكام والسلاطين، بعد اليأس والإحباط إلى تحريض الناس عليه وجماعته. وعن ذلك ذكر محمد بللو أن الحكام ومعاونيهم قد بدأوا بتعذيب أفراد الجماعة وتحريض أناس آخرين ضدهم وإساءة معاملتهم، وأرادوا الحيلولة بين جماعة الشيخ وبين عامة الناس، ومنعهم من اعتناق الدين الإسلامي، والتحلي بأخلاقياته، تعرضت ممتلكاتهم للاستيلاء ، وهددوا بالقضاء عليهم ما لم يمتنعوا عن مواصلة دعوة الناس إلى الإسلام وتشجيعهم على الانضمام إلى صفوفهم. ففي هذه المرحلة من المضايقة والتهديد والعدوان السافر التي بلغت الذروة، لم يجد الشيخ وجماعته بداً من اللجوء إلى المواجهة والتصدي المسلح لملوك بلاد الهوسا وأعوانهم دفاعاً عن النفس والعقيدة. وعندما شعر الشيخ بازدياد حالة العداء من طرف الحكام ونماء جماعته وقوة شوكتهم ونفوذهم في وجه التهديد بالخطر

المحتوم ، أخذ يسدى إلى جماعته النصائح بضرورة التسلح والاستعداد لخوض معارك محتومة دفاعاً عن الأنفس والأعراض والممتلكات ، امثالاً لآيات الذكر الحكيم والأحاديث النبوية الشريفة. يقول الله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (٨)

وعن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ((جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم واستنكم.)) (٩) وعن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله.)) (١٠) وتحدياً للشيخ وجماعته قرر السلطان نفاتا ، سلطان "غوبر" الجديد السماح للشيخ فقط بالقيام بالوعظ، وعدم السماح لأي شخص آخر أن يعتنق الإسلام أو ينضم إلى صفه، مالم يكن مسلماً أصلاً. وطالب بإرجاع الذين دخلوا في الدين الإسلامي مؤخراً وإعادتهم كرهاً إلى دياناتهم السابقة، وأخيراً عدم السماح لأي من رجاله ارتداء العمامة أو للنساء بارتداء الحجاب أو الخمار . قد نجا الشيخ بأعجوبة ، من مؤامرة اغتيال دبرها السلطان، يونفا الذي خلف السلطان "نفاتا" بإطلاق بندقية عليه ، عندما دعا الشيخ لزيارته ذات يوم . وتشير كل هذه الأمور والتصرفات إلى مدى عدم التسامح وضيق الصدر والمكيدة ، التي كان

(٨) الآية : ١٩ من سورة البقرة .

(٩) رواه أحمد والنسائي وصححه الحاكم .

(١٠) متفق عليه .

ملوك الهاوسا ونظراؤهم يضمرونها للشيخ وجماعته عندما شعروا بالخطر المتربص بمصالحهم وحتمية القضاء على النظم الاستبدادية السائدة في بلادهم. ونتيجة للنجاحات التي أحرزتها الجماعة والشهرة التي تزداد لحركتهم يوماً بعد يوم، قام الملوك بكل مaldiهم من القوة بمحاولة للحيلولة دون انتشار آراء الشيخ وجماعته بين الناس، لكن هذه المحاولات باءت بالفشل الذريع بسبب انتشار تلك الأفكار والآراء على طول البلاد وعرضها من خلال تلاميذه والمعجبين به . وكان عام ١٧٩٥م نقطة التحول التاريخي للجهاد الذي أعلنه الشيخ عثمان دان فودي في بلاد "الهاوسا" وتردد صده عبر إفريقيا جنوب الصحراء والعالم أجمع . لقد قرر الشيخ وجماعته في هذا العام وضع الحد القاصل بين الكفرة والمشركين وحماتهم من الحكام الطغاة وبين الأتقياء المسلمين عباد الرحمن المستضعفين .

وقد ذكر أنه رأى في منامه إرهابات ذلك الجهاد قبل اندلاعه بسنة واحدة ؛ وفي ذلك يقول في مقالة بعنوان "الورد" أو "ولما بلغت" : "عندما بلغت أربعين سنة وخمسة شهور وبضع ليال من العمر أرانى الله في منامى إعلاى وتقرّبى إليه سبحانه وتعالى وهناك أدركت مقاماً رأيت فيه سيد الأنام والجان ، محمد بن عبد الله عليه السلام وأفضل صلوات الله، وكان معه نفر من أصحابه الكرام ورسّل الله وأوليائه الصّالحين. أظهروا لى عظيم التّرحاب وأجلسونى بين أيديهم، حينذاك شهدت الزّعيم الروحى الصوفى للعالمين الإنسى والجنى، الشيخ عبد القادر الجيلانى ويده رداء أنحضر اللون كتب عليه

كلمة " لا إله إلا الله ومحمد رسول الله". وشمر عثمان دان فودي، من ذلك التاريخ، عن ساعد الجد وشد الرّحال على المضى قدماً في تنفيذ ما يرى أنه مكلف به لإعلاء كلمة الحق بمواجهة أعداء الله نداً بند .

نستخلص مما سبق أن الشيخ عثمان قد تأثر روحياً، في جهاده ضد الطغاة والكفرة ، بالشيخ عبد القادر الجيلاني . واعترافاً منه بهذا الفضل حيث يراه أهلاً للمقام ، خصص الشيخ عثمان كتابه المعنون بـ : " تبشير الأمة المحمدية ببيان بعض المناقب القادرية " لتمجيد الإمام عبد القادر الجيلاني حيث يضم بعض مثله العليا ونبذة عن حياته وفضائله .

قيام الجهاد ونشوب الاقتتال :

كان الشيخ عثمان أحد المترددين على بلاط السلطان "باوا" برغم وجود بعض الخلافات بينهما ؛ وعندما توفي السلطان وخلفه ابنه "نفاتا" الذي كان أحد أتباع الشيخ قبل وفاة والده انقلب الوضع وتصاعدت حدة التوتر واتسعت هوة الخلاف والنزاع بين الطرفين مما دفع الشيخ إلى الإنقطاع عن البلاط والذهاب إلى بلدة "ديجيل" بغية الانطلاق بنشاط الدّعوة في جويّتسم بحرية أكثر . هنالك استمر في الوعظ والإرشاد مع توجيه إنتقادات لاذعة للتصرفات الاستبدادية الطاغية لملوك بلاد الهاوسا بصفة عامة والملك "يونفا باوا نفاتا"، ملك "غوبر" على وجه الخصوص . أدى هذا النزاع المتواصل مع ازدياد حدته إلى تخطيط الملك يونفا باوا مؤامرة لاغتيال الشيخ والتخلص منه، بالتالي

إحساد نيران الثورة التي كانت وشيكة الاندلاع. غير أن تلك المؤامرة قد فشلت . ونجا الشيخ بأعجوبة ، كما ذكرنا سابقاً . وكانت المؤامرة الفاشلة هي الشعلة الأولى للمواجهة المسلحة بين الطرفين وإعلان الشيخ عثمان وجماعته الجهاد المفتوح ضد الأنظمة الملكية القائمة في كافة بلاد الهاوسا (في نيجيريا والنيجر) ؛ ومن الواضح أن هدفه المباشر هو استئصال القيادات الملكية الظالمة، وبناء مجتمع إسلامي نزيه ينقاد للشرعية الإسلامية. بهذه الأهداف حظي الشيخ وجماعته بتأييد شعبي منقطع النظير، حتى من بين العناصر غير الإسلامية من سكان المنطقة؛ لقد كان الناس، تحت تلك الأنظمة الملكية الطاغية، يعانون من وطأة الضرائب الباهظة التي كانت تفرضها تلك الأنظمة على الشعب البائس المغلوب على أمره. كما أنها كانت أنظمة مرتكزة على الرشاوى والاستغلال والاستبداد وإنعدام العدالة. إضافة إلى ذلك، هو شيوع النمط الإسلامي الممتزج بالوثنية والشعوذة والخرافات البالية التي انبنت عليها أسس ودعائم تلك المجتمعات في بلاد الهاوسا، سيما قياداتها السياسية والاجتماعية . وبالطبع، لم يجد الشيخ عثمان وجماعته، لمحاربة تلك العادات والتقاليد وأنظمتها القيادية ، أي بديل آخر .

مراحل الجهاد وانتشاره

يمكننا تقسيم المراحل التي اجتازها جهاد الشيخ وتوجهاته في نيجيريا وبعض مناطق غرب إفريقيا إلى المراحل الثلاث التالية :

المرحلة الأولى وتشمل الفترة من عام ١٨٠٤م حيث تم القضاء على دويلات هابي^(١١) الوثنية أو الشبه الوثنية واستئصال قياداتها . المرحلة الثانية ، واتسمت بالمواجهة المسلّحة ، في الفترة ما بين عام ١٨٠٥م وحتى عام ١٨١١م ، بين دولة صوكتو العثمانية الحديثة الإنشاء ومملكة "بورنو" التي كانت فريدة النفوذ والسّلطة الدّينية الإسلامية المعتبرة في تلك المنطقة قبل ظهور الأولى .

جاءت تلك المواجهة بين الطرفين بسبب انحياز مملكة البورنو إلى دويلات "هابي" المعادية للجهاد ومساندتها، وفي ذات الوقت أصبح الإسلام في بلاد "بورنو" منغمساً في معتقدات منحرفة. فكانت البيئة الاجتماعية برمتها في أمس الحاجة إلى الإصلاح والتطهير من الشوائب الوثنية والشرك بالله. وفي يونية ١٨٠٤م، انتصر جيش الشيخ عثمان دان فودي على جيش مملكة "غوبر" في موقع يعرف بـ"تاين كواتو"، رغم تفوق جيش مملكة "غوبر" على جيوش المجاهدين رجالاً وعتاداً.

لذا كان هذا الانتصار حافزاً مشجعاً لمختلف فئات المسلمين وبداية تدفقها للانضمام إلى صفوف المجاهدين، لاسيما أبناء العشائر الفولانية، الذين تسلم كل زعيم منهم راية الجهاد ، مع تعيينه من قبل الشيخ عثمان رائداً لتوصيل الجهاد والدعوة إلى المناطق المجاورة والنائية التي لم يصلها الإسلام بعد ، ومواصلة العمل في سبيل استئصال ما تبقى من الآثار الوثنية والشرك،

(١١) هابي الجمع وكاطو المفرد ومعناها الوثني بلغة الفولاني .

وكانت استجابة القبائل في المناطق المفتوحة إيجابية ومشجعة . شهدت كافة أرجاء بلاد الهاوسا وشمال نيجيريا عامة، بحلول عام ١٨٠٨م وبعد خضوع كبريات ممالكها مثل: "زازو" و"كانو" و"كاسينا" لنفوذ وسلطان الجهاد وسيطرته المحكمة عليها، قيام إحدى أعظم إمبراطورية تحت راية الإسلام في عموم إفريقيا جنوب الصحراء والغرب الإفريقي على وجه الخصوص. وعندما لاحظت القبائل الفولانية التي كانت تعيش في كنف مملكة "بورنو"، وجود تحالف سرى بين تلك المملكة وممالك هابى الوثنية التي تحارب دولة صوكتو الإسلامية وأحست بالخطر المتربص بمصير الجهاد من جراء ذلك ، قامت تلك القبال بتدبير ثورة داخلية بزعامة أحد منهم يدعى "أرطو ليرليما" ضد الملك مي أحمد، البرناوى وانتصرت على قواته في مدينة "إنغورو" البورنوية، بينما قامت مجموعة أخرى من نفس العشائر بزعامة غوانى مختار، بمد زحف الجهاد إلى اعماق المملكة البورنوية واحتلت عاصمتها "إنغازار غومو" في عام ١٨٠٨م^(١٢). فرّ الملك مي أحمد، ولجأ إلى المناطق الحدودية الشرقية الشمالية بين تشاد وليبيا حيث يعيش خليط من القبائل الإفريقية والعربية التي كانت فى ظل المملكة الكانيمية القديمة التي أخذت بنهاية القرن الرابع عشر الميلادى ، في الانحطاط المستمر حتى قضت عليها مملكة صونغاي نهائياً

(١٢) من الإنصاف التاريخى أن نشير إلى أن مسألة المواجهة المسلحة بين الدولتين الإسلاميتين - فى صوكتو وبورنو - تعد مأسوية وانتكاساً لمسيرة الإسلام فى تلك المنطقة بغض النظر عما تكون لها من مبررات. (المؤلف) .

بقيادة ملكها الشهير الحاج محمد أسكيا في القرن السادس عشر الميلادي. امتدت مملكة الكانيمي المذكورة وشملت مناطق ضفتى بحيرة تشاد شرقاً وغرباً .

استنجد الملك مبي أحمد، بالقبائل الكانيمية بزعامة ملكها محمد الأمين، (لامينو) الذى ولد في فزان بليبيا الحالية. وتمكّن محمد الأمين وقواته من استرجاع عاصمة بورنو بعد قتل الزعيم غوانى مختار. بذلك أفلتت تلك المملكة من قبضة دولة صوكتو العثمانية. بذلك كان محمد الأمين الكانيمي هو مؤسس دولة بورنو الحديثة وأول من تقلّد لقب "شيهو بورنو" أى شيخ (زعيم) أهل بورنو. وقد توفى شيهو محمد الأمين في عام ١٨٣٥م وتولى ابنه عمر الأمين الحكم خلفاً له. ثم جاء رابح زبير، مولى سلطان مصر زبير باشا رحمة منصور^(١٣) وقائد قواته في السودان الشرقي ، وأطاح بحكم عمر الأمين واستولى على تلك الدولة في عام ١٨٩٣م. قامت القوات الاستعمارية الفرنسية بقتل رابح زبير في تشاد في ٢٢ إبريل ١٩٠٠م، بينما استولت القوات الاستعمارية الإنجليزية على زمام الأمر في بورنو . استمر بعض الأجزاء من مملكة بورنو في الخضوع لسيطرة دولة صوكتو. قام الشيخ عثمان دان فودى بتعيين محمد منغا نجل الزعيم الفولاني غوانى مختار، قائداً جديداً لجماعته في مملكة بورنو، وقام القائد الجديد ، بتأسيس عاصمة جديدة ببلدة داوترو^(١٤)

(١٣) هو من أصل حلاسي أي زنجي وعربى .

(١٤) هى كلمة فولانية. تعنى (داو تورو) أى بكرو إنحن (على البئر في صباح مبكر) لتجلب الماء منه، ثم حُرِفَت الكلمة الى "داماترو".

كما أخضع منطقة "ميساو" لنفوذه". وفي الجنوب والجنوب الغربي لمملكة بورنو الكانيمية أى في منطقة "غومبى" نهض أحد تلاميذ الشيخ عثمان دان فودى يدعى بوبا يرو بنشاط دعوة الوثنيين إلى دين الإسلام. تمكّن، هو الآخر من إخضاع تلك المنطقة برمتها للانقياد لراية الجهاد في ظلّ دولة صوكتو العثمانية. وبالمثل قام المعلم يعقوب أحد أتباع الشيخ الأربعة عشر الذين تسلموا أعلام الجهاد منه لنشر الإسلام - بتوصيل نفوذ الجهاد إلى منطقة باوتشى وصولاً إلى مناطق أنهار بينوى وغونغولا والجزء الشمالى لجمهورية الكاميرون الحالية .

وفي عام ١٨١٠م وصل الجهاد إلى بلاد "نوبى" في الجنوب الأوسط، من خلال المعلم ديندو الفولانى . وعندما توفى ملك بلاد "نوبى/نوفى" في عام ١٨١٨م، تولى المعلم ديندو حكم تلك البلاد . وقد انتقل إلى رحمة الله في عام ١٨٣٢م تاركاً وراءه كل بلاد نوبى خاضعة لدولة صوكتو. وأصبحت كافة أرجاء ما هو اليوم شمال نيجيريا قاعدة الشريعة الأساسية للإمبراطورية الإسلامية الفولانية التى امتدت غرباً حتى شملت أجزاء لما هو اليوم جمهورية بينين والجنوب الغربي لجمهورية النيجر وبلاد آداما وفي الشمال الغربي لجمهورية الكاميرون الحالية .

وفي الجنوب الغربى وصل الجهاد إلى مملكة "أويو" ومقاطعة "الورين" اللتين شكلتا جزءاً من تلك الإمبراطورية . انتقل الشيخ في عام ١٨٠٩م من

مدينة "صوكتو" عاصمته إلى مدينة السيِّفاوا التي تبعد عنها بحوالى أربعين ميلاً واستقر هناك ، وقام في عام ١٨١٢م بتقسيم مسؤولية إدارة شؤون دولته إلى قسمين :

- ١- وضع الجزء الشرقي الذي يشمل مناطق "باوتشي"، "داورا"، "كانو"، "كتاغون"، "كاتسينا" و"زانفرا" تحت الإشراف المباشر لنجله محمد بللو.
- ٢- وضع الجزء الغربي الذي يشمل مناطق "غواندو"، "برغو"، "ديندي"، "إلورين"، "ليبتاكو" وبلاد نوبى، تحت الإشراف المباشر لعبدالله دان فودى شقيقه.

اتسمت الدولة الإسلامية الجديدة فى صوكتو بالأمن والاستقرار لامثالها للشفافية فى القيادة ، والعدالة الاجتماعية والمسؤولية الفردية والجماعية وفقاً لأحكام الشريعة . وشهدت منطقة الغرب الإفريقى فى ظلّ تلك الدولة التى أطلقوا عليها تسمية الخلافة ، نهضة ثقافية وحضارية لم يسبق لها مثيل فى تاريخها (المنطقة) .

عندما توفى الشيخ عثمان فى عام ١٨١٧م، انتقل زمام الحكم إلى ابنه محمد بللو^(١٥) الذى تقلد لقبى أمير المؤمنين والسُّلطان خلفاً لوالده . استمر حكمه زهاء عشرين سنة. وتوفى فى عام ١٨١٧م. وجاء من بعده أخوه أبوبكر العتيق الذى حكم من عام ١٨٣٧م إلى ١٨٤٢م . ثم تولى، من بعده نجل محمد بللو ، على بابا، من ١٨٤٢م إلى عام ١٨٥٩م. ظلّ نظام الحكم

(١٥) بللو كلمة فولانية ومعناها المساعد أو المعاون .

الذى تركه الشيخ عثمان واستمر به نجله محمد بللو مثلاً يحتذى به للقيادة المثالية المبنية على إخلاص النية والعدل والأمانة. وقد تضاءلت حيوية تلك الدولة الإسلامية فى بداية القرن العشرين بمجىء الاستعمار الأوروبى الغربى وفرض سيطرته على المناطق الشاسعة المترامية الأطراف التى غطتها تلك الإمبراطورية بغرب ووسط إفريقيا.

المنهج الفكرى لجهاد عثمان دان فودى

كان الشيخ يرى أن كل جهاد ماهو إلا ثورة يقوم بها نفر من الناس ، بهدف إحداث تغيير لواقع اجتماعى معين ، ومن ثم يجب أن تكون لكل ثورة مناهجها لتحقيق الأهداف التى تصبو إليها . لذا حدد هو وجماعته النقاط الخمس التالية لتكون أهداف جهادهم المعلن فى الغرب الإفريقى :

١- السعى لتصحيح المعتقدات والمفاهيم الخاطئة عن الإسلام والتى يتمسك بها بعض الطبقة المتعلمة؛ لاسيما علماء الدين وطلبة العلم . وتشمل هذه المعتقدات جوانب إيمان الإنسان المسلم بالله وانعكاسات ذلك على حياته .

٢- تطبيق الشريعة على كافة مجتمعات المسلمين فى ذلك الجزء من العالم على ضوء كتاب الله وسنة رسوله الكريم ، كما أنزلها الله وأوضحها الرسول قولاً وعملاً .

٣- تشجيع الناس على إتباع السنة المحمدية والامتنال لها قولاً وعملاً والحرص على انتشار مفاهيمها الصحيحة بين عامة المسلمين .

٤- السّعي من أجل القضاء على البدع الشيطانية الدخيلة على عقيدة المسلمين ؛ والعمل للتخلص من العادات والتقاليد المناهضة للأسس الصّحيحة للشريعة، وعدم الانسياق لممارسات الشّعوذة والخرافات العقيمة .

٥- السّعي من أجل نشر الوعي الإسلامى بين عامة النّاس ، وذلك عن طريق الاعتماد على مؤلفات وآراء أجلة العلماء المجتهدين والمتعلقة بتفسير القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشّريفة وتوضيحها وشرحها .

ويتحقق هذا المنهج الفكرى وأهدافه السّامية فى إطار دولة إسلامية ذات ثلاثة عناصر أساسية هى: (١) العلماء الذين يقومون بدور التوجيه . (٢) عامة النّاس الذين يقومون بالامتثال لهذا التوجيه . (٣) الحكام الذين يشرفون على مسيرة هذا التوجيه والامتثال له .

ويتعين على تلك الدولة أن تكون كاملة النضوج الإنمائى الذى تجتاز خلاله المراحل الثلاث التالية لكي تتمكن من إنجاز أهدافها المذكورة على الوجه الأكمل :

١- المرحلة المبكرة : وهى ما قبل إعلان الجهاد العام. وهى مرحلة توجيه الأمة، وتنسم بالاعداد الثقافى والروحى لعامة الناس عن طريق الوعظ والإرشاد والتعليم ونشر الوعي بصورة عامة .

٢- المرحلة المتوسطة : وهى المرحلة التأسيسية للدولة ، وتتميز بالسّعي من أجل التخلص من العناصر السلبية الفاسدة من الحكام . والتركيز على إصلاح أخلاق النّاس وإنعاش الجوانب الرّوحية فيهم .

٣- المرحلة الأخيرة : وهى أعلى مرتبة اكتمال قيام الدولة ، وتميز بوضع المنهج الفكري والعملى للحياة بصفة عامة ، علما بأن الناس منقسمون بطبائعهم وظروفهم إلى ذوى الاستعداد للانسياق إلى التوحيد الخالص ، وهم العلماء . والفئة الثانية هم عامة الناس الذين ، وإن كان لهم الرغبة فى هذا الانسياق ؛ فهم فى حاجة إلى تقليد واتباع العلماء .

صراع فكري بينه وبين علماء عصره

تشير المناهج والأساليب المرنة التى التزم بها الشيخ عثمان فى نشر آرائه الدينية فى غرب إفريقيا ، لاسيما فيما يتعلق بجوانب الحياة الاجتماعية والسياسية ، إلى أنه كان ، منذ قيام الجهاد مهتماً اهتماماً خاصاً بمصالح الدهماء ومصيرهم. ولا يعنى هذا أنه كان يقر كل العادات والأعراف الموروثة بين الناس، بل كان ينتقد كل التقاليد المناوئة للتعاليم الإسلامية عبر مؤلفاته باللغتين العربية والفولانية وغيرهما . ومن خلال حلقاته الدراسية ومحاضراته الدينية، وبأساليب اتسمت باللطف والتفهم، امتثالاً لقوله تعالى : (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة). وقد حظى الشيخ عثمان بتأييد الجماهير لرأيه وانضمامهم إليه بفضل هذا الأسلوب السّمح، الذى استخدمه فى الدّعوة ، والذى أغاظ به ، من ناحية أخرى فئة من العلماء ، كان لها نفوذ وقدر كبير من السّلطة، وتريد إبقاء الحال على وضعه ، حتى تضمن استمرار

استغلالها للشعب ، الذى ظلت مهيمنة عليه سنين طوال. ويمكننا تقسيم هذه الفئة من العلماء إلى المجموعات الثلاث الآتية :

(أ) الذين أرادوا استغلال الشعب عن طريق استخدام مآلديهم من المعارف والفقهية الجامدة .

(ب) الذين يدعون بأنهم أصوليون ويحاولون تبرير المفسدات السياسية، والانحلال الخلقي بجميع أنواعه بغية تحقيق مصالحهم الخاصة .

(ج) والآخرون هم الذين نصبوا أنفسهم رواداً للبدعة ، بتشجيع التقاليد والعادات البالية المناوئة للشريعة . وكانت ثمة مواجهة صارمة بين الشيخ عثمان وأتباعه من ناحية ، وهذه الفئة من العلماء من ناحية أخرى ، وأراد هؤلاء العلماء تلبس الحق بالباطل فاتهموا الشيخ وجماعته بالنفاق والابتزاز وإثارة الفتن ، وطلبوا الاستنجد بالحكام لمنعهم من ممارسة أنشطته الدينية وبحث آرائه حول الإصلاح الديني والاجتماعي .

مؤلفات الشيخ عثمان دان فودى

بلغت مؤلفات الشيخ عثمان دان فودى ألفاً ومائة ما بين الكتب والمقالات. وقد قام بكتابة هذه الأعمال، التي عالجت القضايا الدينية السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، خلال فترة استغرقت أربعين عاماً . وقد كان هناك جهود تبذل منذ بداية القرن التاسع عشرة ، لوضع قائمة لها . ومن الأوائل الذين قاموا بذلك ابنه محمد بللو ، في كتابه "إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور " .

وقد ذكر فيه حوالي ثمانية عشرة مؤلفاً تتعلق بالمرحلة التكوينية لجهاد صوكتو التي تميزت بالتدريس والوعظ والإرشاد، قبل تأسيس جماعته التي عرفت فيما بعد " بالجماعة "، وأشار محمد بللو في آخر تلك القائمة إلى أن مؤلفات (كتب) والده قد بلغت أكثر من مائة . ويمكن تقسيم أهمها وأهدافها الرئيسية والمباشرة ، وأطرها الزمانية إلى الثلاثة مجموعات التالية :

أولاً : مؤلفاته خلال الفترة من ١٧٧٤م إلى ١٨٠٤م. وعالجت قضايا الإيمان والكفر في الغالب، وإحياء السنة النبوية الشريفة، ومحاربة البدع الداخلة على معتقدات المسلمين، بواسطة عاداتهم وتقاليدهم، وحقوق المرأة المسلمة وضرورة تربيتها دينياً وثقافياً. وحملت مؤلفاته حول هذه القضايا العناوين التالية :

أ - إحياء السنة وإخماد البدعة .

ب - بيان البدعة الشيطانية التي أحدثها الناس في أبواب الملة المحمدية .

ج - تنبيه الإخوان على جواز اتخاذ المجلس من أجل تعليم النساء الفرائض الدينية .

ثانياً : مؤلفاته خلال الفترة من ١٨٠٤م إلى ١٨١٠م. وتناولت أعماله في هذه الفترة ، موضوعات ومسائل فكرية عقائدية . مثل دواعي الهجرة والجهاد ، ظهور المهدي المنتظر ، مبادئ العدالة الاجتماعية إلى آخره . ومن تلك الكتب :

أ - بيان وجوب الهجرة .

ب - النبأ الهادي إلى أخبار الإمام المهدي .

ج - أصول العدل لأولات الأمور وأهل الفضل .

ثالثاً : تضم مؤلفاته لهذه المرحلة كتاباته في الفترة من ١٨١٠م إلى ١٨١٧م. عالج فيها الأصول الفكرية للمؤسسات الإسلامية التي تقوم عليها الدولة المبنية على قواعد الشريعة في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وممارسات الصحابة عليهم رضوان الله سبحانه وتعالى. بررت هذه المؤلفات قيام الجهاد في تلك المنطقة والأهداف التي يرمي إليها ومنجزاته الملموسة ، وأهم الكتب الصادرة في هذه الفترة هي :

أ - كتاب الفرق .

ب - نجم الإخوان .

ج - سراج الإخوان .

د - نصيحة أهل الزمان ، إلى آخره ...

وفي الخلاصة ، أشير إلى أن الأعمال الأدبية والدينية والاجتماعية التي قام بها الشيخ عثمان قد تراوحت ما بين مائة كتاب ، وأربعمائة وثمانين قطعة شعرية . وبلغت جملة ما ألفه أصحابه وخلفاؤه وأفراد عائلته ومن بينهم أخوه عبد الله وابنه محمد بللو وبنته أسماء ، أكثر من خمسمائة (٥٠٠) عمل أدبي وديني واجتماعي وسياسي .

آثار دولة صوكتو الثقافية على الشعوب المجاورة

قال الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه العظيم :

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ
كََمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ
مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ
هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١٦) صدق الله العظيم

وعن ابن عباس رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : ألا أخبركم
بخير الناس ؟ رجل مسك بعنان فرسه في سبيل الله . ألا أخبركم بالذي
يتلوه : رجل معتزل في غيمة له يؤدي حق الله فيها .

إنه لمن الإنصاف والأمانة العلمية والتاريخية أن نعترف بفضل جهاد
الإصلاح الديني والاجتماعي والنهضة الثقافية والفكرية الذي قام في منطقة
السَّهْل الشمالي لغرب القارة الإفريقية تحت قيادة المجاهد الكبير الشيخ عثمان
دان فودي ، ولايزال دوي ذلك الجهاد يتردد في جميع أرجاء المنطقة حتى
يومنا هذا ، وسيستمر إلى ماشاء الله تحقيقاً لما وعد الله به المؤمنين .

إذ لا يغيب عن أذهاننا أنه كانت هناك ممالك وإمبراطوريات ذات شأن
سبقت دولة صوكتو إلى الظهور في منطقة الغرب الإفريقي بقرون . وكانت
هناك نهضات ثقافية وحركات تجارية وإصلاحات اجتماعية وانطلاقات فكرية

(١٦) الآية : ٥٥- من سورة النور .

ترافق مسيرات تلك الممالك الإفريقية هبوطاً وصعوداً ، بحيث يجوز لنا أن نطلق على تلك الأحداث التاريخية اسم "الحضارة". ونذكر على سبيل المثال إمبراطوريات : غانة (١٠٦٨م) ومالي (١٢٣٠م) وصونغاي (١٢٧٥م) وهاوسا (١٣٤٩-١٣٨٥م) وبورنو (١٢٥٩م) وأشانتي (١٦٨٠م) ويوربا (في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي) الخ . وكانت هناك ، قبل هذه الدول إمبراطورية ظهرت على ضفة نهر السنغال ووصل نفوذها حتى غامبيا في الألفية الأولى قبل الميلاد ، وعرفت بإمبراطورية التكرور ، نسبة إلى مدينة التكرور ، عاصمتها. كما كانت أعظم شأننا من بين الممالك والإمبراطوريات الإفريقية التي ظهرت إلى حيز الوجود في تلك المنطقة فيما بعد، مما جعل المؤرخين الأوائل ينسبون جميع شعوب المنطقة إليها تجاوزاً (١٧) .

غير أنه ، وللحق نقول إن الحقبة التاريخية أى الفترة ما بين عام ١٨٠٠م إلى عام ١٩٠٣م التي عاشتها دولة صوكتو الإسلامية ، وعلى الرغم من قصر عمرها تعتبر "عصرًا ذهبيًا" بالنسبة لإفريقيا جنوب الصحراء ، على غرار العصور الذهبية الأخرى التي سجلها التاريخ في مختلف مدار النهضة الثقافية والحضارية ، الإسلامية منها وغير الإسلامية . وبالتالي يمكن ، في رأينا ، أن نقارن على سبيل المثال عصر دولة صوكتو بالعصور الذهبية الآتية :

(١٧) يطلق على كل إنسان ينتمى إلى غرب إفريقيا ، اسم "التكرور" وتجمع الكلمة على "التكارير".

أولاً : العصر العباسي الأول (سنة ١٤٣ هجرية) في تاريخ الإسلام ، حيث قام فحول العلماء والمثقفين المسلمين في تصنيف الحديث والفقه والتفسير وكتب اللغة العربية والأدب والتاريخ وأيام الناس الخ . وكان من أشهر علماء ذلك العصر الذهبي ، الإمام مالك رضي الله عنه الذي ألف كتابه المشهور "الموطأ" ، وابن إسحاق الذي كتب السيرة النبوية الشريفة ، وأبي حنيفة الذي صنف في الفقه والرأى الخ ... يصف لنا البروفسير نيكولسن NICHOLSON في كتابه "تاريخ الأدب العربي - a Literary History of the Arabs" هذا العصر الذي بلغت فيه نهضة الثقافة الإسلامية ذروتها قائلاً : " كان جلة الباحثين وطلاب العلم من المسلمين يرحلون في حماس وشغف وينتشرون في أوساط القارات الثلاث أى إفريقيا وآسيا وأوربا التي كانت تمثل العالم المعروف بأسره آنذاك . ثم يعودون إلى أوطانهم كما يعود النحل جماعات إلى قفيرها حاملة عسلاً شهياً . فيجلس هؤلاء الباحثون ليروا شغف الجماهير التي كانت تنتظر عودتهم لتلتف حولهم وتنال من علومهم ومعارفهم زاداً وفيراً وخيراً عميماً . كما كان هؤلاء الباحثون يعكفون أحياناً على تدوين ما جمعوا أو سمعوا من المعلومات ثم يخرجون للناس كتباً قيمة هي بدوائر المعارف أشبه مع نظم شعرية ونثرية وبلاغاتها العذبة . وكانت تلك الكتب هي المصادر الأولى للعلوم العصرية في ذلك الوقت ، بأوسع ما تحتمله الكلمة من المعنى . وهي مراجع العلماء والباحثين يستمدون منها فنوناً من الثقافة والمعارف بصورة أوسع مما يظنه الناقدون . "

ثانياً : العصور الذهبية في الثقافة الأوروبية الآتية :

أ - الأدب اللاتيني القديم في حوالي عام (٧٠) قبل ميلاد عيسى عليه السلام حتى حوالي عام ١٣٣ بعد الميلاد ، أى في عهد ملكي الدولة الرومانية سيسروني (Cicernian Period) وأوغوستن (the Augustan period). شهدت هذه الفترة التاريخية في الحضارة اليونانية القديمة منجزات أدبية وفكرية عظيمة. وكان من أشهر علماء هذا العصر الذهبي ، فيجيليوس ساروا المعروف بـ (VIRGIL) الذي يعتبر أعظم شاعر روماني في مجال الشعر عموماً. (Epic) وقد اشتهر بقطعته الشعرية : أينيد (Aeneid) التي لم تمتاز بالإيقاعات الموسيقية والبلاغة الأدبية فحسب ، بل فاقت بقصص روائية مما حملت الأمة الرومانية على الاعتقاد بأن عليها تقع مسؤولية سماوية لقيادة سائر الأمم الأخرى إلى التمدن والحضارة . والشاعر ، كونتوس هورا سيسوس فلاكوس المعروف بـ (Horace) : الذي رفع مكانة الأدب اللاتيني في الشعر الغنائي العاطفي الوطني والدعوة إلى الامتثال لأخلاقيات المحبة والإخاء والوئام والسّم الروحي في إتقان الشعر اللاتيني الرفيع .

ب - العصر الذهبي في الأدب الأسباني في حوالي أعوام (١٥٠٠) حتى حوالي عام ١٦٨١ الميلادي بلغ الحماس الوطني والدعوة إلى التمسك بالقيم الروحية والامتثال للحماسة الشعرية التي اشتهرت بها الثقافة اليونانية القديمة . ذروة وكان من أشهر أدباء هذا العصر الذهبي ، الكاتب الروائي ميغيل دي سرفانتس بحورج والأديب فرانسيسكو غوميز دى كوفيدو . كما تعتبر الفترة

من ١٥٤٧م إلى عام ١٦١٦م أعظم شأناً في تاريخ الحماس الأدبي لأسبانيا،
لاسيما في كتابة القصص الروائية التي تأثر بها الأدب الأوروبي بصفة عامة في
الأوقات اللاحقة .

خلفية ثقافية لدولة صوكتو

تأثرت هذه الإمبراطورية بالثقافات الإسلامية السائدة في منطقة الغرب
الإفريقي من خلال المجتمعات الإسلامية التي ظهرت في تلك المنطقة منذ
قرون . واستمرت آثارها تتبلور مع اتساع النمو الاجتماعي . لكن امتازت
هذه الآثار عن سواها، كما أشرت إليه سابقاً بفضل الحيوية التي اتسم بها
علماء وأدباء تلك الدولة في الإنتاج الأدبي والفكري الإسلاميين ، وكانت
سمة هذه الحيوية هي الحماس الجماعي الذي تجسم في عقلية قيادة الخلافة
رجالاً ونساءً . وقد عكف قائد الجهاد الشيخ عثمان دان فودى على التأليف ،
و التف حوله أصحابه وإخوانه وأبنائه وبناته وتلاميذه ، هم أيضاً عاكفون على
التصنيف والوعظ والإرشاد ، وأخذوا في التفاني في تمجيد العلم وإعزازه ،
وكانت تلك هي سر نجاح خلافة صوكتو وخلود آثارها على مر الأزمنة ،
ولمزيد من إلقاء الضوء على هذه الشخصية العلمية الجاذبة (Charisma) لخلافة
صوكتو تتعين الإشارة إلى المفهوم الحماسي الجماعي أو الفكر الجماعي
الذي اتسمت به قيادة تلك الدولة وسكانها جماعةً وأفراداً . لقد عرف
البروفيسير روبرت ع. بارك (١) ROBERT E. PARK عالم الاجتماع
الأمريكي ؛ السلوك الجماعي بأنه ذلك التصرف الذي ينتهجه الأفراد استجابة

لتأثير أو دافع مشترك ، أي هو تصرف الفرد بصفته عضواً في مجتمعه ، مع كون الحافز الذي يستجيب له ناجماً عن خبرة جماعية مشتركة من واقع تفاعل اجتماعي معين . ويرى كل من العالمين الاجتماعيين رالف هـ . تيرنر (Ralph H. Turner) ولويس م. كيليا : (Lewis M. Killia) أن السلوك الجماعي ماهو إلا ردود فعل الأفراد لمجتمع معين لمسايرة التطورات والممارسات أو التصرفات التي تحدث تلقائياً على نقيض العادات والتقاليد المألوفة في ذلك المجتمع. أما المفكر التربوي نيل جي سملسير (Neil J. Smelser) ، فإنه يرى أن السلوك الجماعي لا بد أن يتخذ أسلوباً مبنياً على العقيدة التي تستهدف إعطاء مفهوم جديد للتفاعل الاجتماعي . بينما يطلق العالم الاجتماعي الإسلامي الإفريقي الشهير عبد الرحمن ابن "خلدون" على النتائج التي يسفر عنها السلوك الجماعي اسم الميلاد الجديد للمجتمعات البشرية. وكان اندلاع جهاد عثمان دان فودي حقاً ميلاداً جديداً لمجتمع شمال نيجيريا ومنطقة الغرب الإفريقي برمتها ، وما كان لذلك الجهاد بد من أن يترك أثراً ملموساً على المجتمعات المجاورة وما جاوزها في تلك المنطقة على الوجه التالي :

أولاً : تنطبق كل التعريفات المذكورة آنفاً على مميزات الجهاد الذي أعلنه الشيخ عثمان ؛ إذ نجد هذه الجماعة (جماعة عثمان دان فودي) على الرغم من أن الوسائل المتوفرة لديها للتعبئة كانت محدودة في ذلك الوقت إلا أن درجة ردود الفعل وتجاوب الأفراد والجماعات لها كانت عالية للغاية،

مما يؤكد بدون شك ، وجود أسباب كامنة ومهيئة وظروف قابلة للانفجار في بيئتهم تلك ترحاباً بذلك الجهاد .

ثانياً : كانت أنشطة الثقيف التي شهدتها تلك الدولة في فترة قاربت عشرين سنة في التوعية والوعظ والإرشاد مثمرة وناجحة . كما كانت ذات أثر كبير ومنقطعة النظير ، فكانت تمثل فترة التعبئة تلقائية لروح معنويات الشعب وحشدها .

ثالثاً : لم يكن مجتمع منطقة السهل الشمالي التي شملها نفوذ إمبراطورية صوكتو فيما بعد ، خارج نطاق التأثير الثقافي والاجتماعي اللذين تأثرت بهما مناطق السهل الغربي والساحل الجنوبي ، والتي كانت ذات علاقة بنفوذ دولة المرابطين التي أسسها المسلمون بمساعدة قبائل صنهاجة وامتدت سيطرتها على الشمال الإفريقي والأندلس ، وكانت متأثرة بالتيار الثقافي الذي هب عليها من المشرق العربي .

رابعاً : أوجد ظهور إمبراطورية صوكتو بعد انتصاراتها الكبيرة على ملوك الهاوسا ، في نفوس أتباع الشيخ عثمان والجماعة حماساً جديداً وشغف الانتماء إلى الإسلام والاستعداد للدفاع عنه والرغبة في مواصلة الجهاد والاندفاع للتثقف والثقيف . كما رفع الروح المعنوية لجيشه فأقبل المسلمون من القرى والأمصار يشتركون في ذلك الجهاد طوعاً .

آثارها الثقافية على المناطق المجاورة

العامل الأول : يعتبر عام ١٨٠٤م عامًا حاسمًا بالنسبة للدولة الإسلامية التي أسسها المجاهد عثمان دان فودي وأتباعه والتي عرفت فيما بعد بخلافة صوكتو . وهو العام الذي بدأت فيه حركة الجهاد تتخذ شكلًا جديدًا واستراتيجيًا خاصًا بها . ففي ذلك العام أعطى الشيخ أعلام الجهاد إلى لفيف من أتباعه وتلاميذه وأقاربه ، وأخذ منهم المبايعة ، كما تعاهدوا على نصرته والعمل لإعلاء كلمة الله ونشر الوعي الديني بين الناس ؛ وكان لهذا العمل أثر كبير في انتشار نفوذ تلك الخلافة وآثارها على غرب إفريقيا عمومًا . توجه عدد كبير من دعااتها إلى مختلف أرجاء البلاد ، مدنها وقراها، لنشر الدعوة الإسلامية أثناء مسيرة الجهاد ، ومنهم :

- ١- عمر دلاجي إلى إقليم كاتسينا وضواحيها .
- ٢- سليمان إلى إقليم كانو وضواحيها .
- ٣- المعلم موسى إلى إقليم زاريا وضواحيها .
- ٤- غواني مختار إلى إقليم بورنو وضواحيها .
- ٥- سامبو دجسا . ابن أرطو أبدووي من بلاد ماسينا توجه إلى إقليم هطيجا .

- ٦- مودبو آدما إلى إقليم آد ماوا .
- ٧- بوبا يرو إلى إقليم غوامبي .
- ٨- المعلم زاكي إلى إقليم كتانغوم .

- ٩- عبد العليم (عبد العظيم) إلى إقليم إلورين .
١٠- محمد (أهي - بولو) إلى إقليم بغامي كلفو .
١١- المعلم إسحاق إلى إقليم دورا وضواحيها .
١٢- الشيخ يعقوب إلى إقليم باوتشي وضواحيها .

وكان لكل واحد من الدعاة والمجاهدين والقواد رجال مقاتلون تحت قيادته وقاموا بدورهم بتسليم وتوزيع إعلام الجهاد إلى أفراد آخرين، للتوجه إلى الأقاليم الأخرى التي لم يتم فتحها بعد. وكانوا مجهزين أنفسهم بما لديهم من كتب ومصنفات علماء صوكتو وغيرهم. فمن خلال إقليم "لاردين آدماء" (بلاد آدماء) الواقع في أقصى الجنوب الشرقي من مقر الخلافة انتقلت آثارها إلى المناطق الساحلية في غرب إفريقيا . حيث وصل الفقيه مودبو آداما ، أحد كبار تلاميذ الشيخ عثمان ومعه علم الجهاد ، وأسس دولته هناك على نمط دولة صوكتو . وأصبحت كتب ومؤلفات علماء صوكتو هي المراجع الأساسية، إلى جانب القرآن والسنة النبوية، لعلماء لاردين آدماء . كما نشهد ذلك حتى الآن في مدنها الكبرى مثل "يولا وغيرى ونستارى" وغيرها . ومن خلال إقليم "إلورين" في بلاد اليوربا الواقعة على الجنوب الغربي لصوكتو ، وصل الشيخ صالح بن محمد بن جنتا المشهور بالشيخ عبد العليم الذي كان من كبار علماء صوكتو ومن أقرب الشخصيات لقائد الجهاد الشيخ عثمان . وقام بتأسيس أول مسجد لمدينة "إلورين" ، حيث نشأت أول حكومة إسلامية ، ومن خلاله وصل نفوذ صوكتو إلى المنطقة الجنوبية في نيجيريا .

العامل الثاني : إدارة الدولة

عندما انتقل الشيخ عثمان دان فودى من مدينة غواندو "GWANDU" بعد فتحها، كانت مدينة صوكتو العاصمة الجديدة لتلك الدولة. ثم انتقل منها إلى مدينة السيّفاو حيث يقيم شخصياً وولى أخاه عبد الله بن فودى مسؤولية الإشراف على شؤون البلدان المفتوحة فى المنطقة الغربية للخلافة متخذاً غواندو عاصمة لها . وولى ابنه محمد بللو مهمة الإشراف على شؤون البلدان الواقعة على المنطقه الشرقية متخذاً صوكتو عاصمة له . وأصبح كل واحد منهما يعمل جاهداً لتوسيع رقعة الخلافة ومد نفوذها .

العامل الثالث : حث المسلمين على الهجرة

كانت الهجرة الطّوعية التي حث الشيخ عثمان دان فودى جماعته على القيام بها عند اقتضاء الحاجة من أهم العوامل التي ساعدت على نقل الآثار الثقافية لخلافة صوكتو إلى مناطق أخرى في كثير من بلاد الغرب الإفريقي . وقد جاء في كتابه "مسائل مهمة" أنه يجب على المسلم أن يهاجر من دار الكفر إلى دار الإسلام . شجع هذا التوجيه العام جمهوراً من أتباعه على أن يكونوا مستعدين للانتقال من مكان إلى آخر وأن يكونوا ذوى إحساس شديد بما يمس كرامتهم وشخصيتهم ، حتى ولو لم تصل درجة المضايقة حد الانتقال والهجرة . وحظت خلافة صوكتو بوجود أعداد كبيرة من العلماء والفقهاء . إذ يذكر لنا الوزير غيطاطو (المتوفي سنة ١٨٥١م) في كتابه " بسط الفوائد " أنه كان هناك مالا

يقل عن أربعمائة وخمسة وعشرين (٤٢٥) عالماً وفقهياً اشتهروا في تلك الخلافة . إذن من البديهي ، بعد أن وضعت الحرب أوزارها ألا يبقى كل هذا العدد من الفقهاء في صوكتو . لاسيما بعد وفاة قائدهم الشيخ عثمان . فغادر بعضهم ، إما لخلافات شخصية أو لحافز اقتصادي أو خلافهما ، لكن أهم عامل هو نزعة الهجرة التي اتسم بها كبار شخصيات الخلافة جراء سقوطها في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي على أيدي المستعمرين الإنجليز ، الذين اعتبرهم المسلمون ، خاصة العلماء منهم ، كفرة ، ويجب الابتعاد عنهم ، الأمر الذي جعل معظمهم يرتحلون عن الدولة إلى أماكن أخرى حاملين معهم ثقافتهم الإسلامية والعربية .

منافذ تلك الآثار الثقافية

بالقاء النظر إلى جغرافية غرب إفريقيا نجد أن هناك طرقاً عرفها الإنسان الإفريقي واستخدمها في نقل عروضه التجارية عبر التاريخ ، وبالطبع لم يلعب الإنسان الإفريقي دوراً أساسياً في بناء هذه الطرق التجارية عن قصد ، كما كان الأمر بالنسبة للشعوب الأخرى . بل كانت ظروف الطقس من مواسم سقوط الأمطار والجفاف هي التي تحكمته في رسم تلك الطرق ، التي تسلكها القوافل التجارية ويستخدمها الأفراد في الحل والترحال ، ويمكننا تقسيم هذه الطرق التي عرفها الجغرافيون بالحزام التجاري الذي ربط بين مناطق السّهل وجنوبها امتداداً مما هو اليوم شمال نيجيريا ، مكتسحاً جمهورية النيجر ووصولاً حتى المناطق الواقعة في أقصى الشمال الجنوبي والغربي للقارة الإفريقية . كما يمكننا تقسيم هذا

الحزام إلى قسم يشمل مناطق مجرى نهر النيجر مؤدياً إلى بلاد نوبي (NUPE) في المناطق المدارية ووصولاً إلى مناطق الغابات الكثيفة ، وكان التجار يستعملون هذه الطرق في موسم الجفاف لحماية عروضهم التجارية المتمثلة في الناترون (NATRON) والكحل وحبوب الكولا، والحيوانات التي يعتمدون عليها في نقل تلك العروض لحمايتها من الرطوبة المرتفعة والأمطار الغزيرة. وأما القسم الثاني فيشمل المناطق الصحراوية والسهول التي تربط بين شمال نيجيريا وجيرانها من مناطق السهل الأخرى من النيجر وشمال بينين وتوغو وغانا وسواحلها وحتى صحراء إفريقيا الكبرى وصولاً إلى الشمال الإفريقي (١٨). يصلح هذا الجزء لمرور القوافل التجارية في فصل الشتاء وموسم الأمطار الخفيفة لقلّة رطوبة طقسها وجفاف أجوائها. وبالمثل ، انتقلت الآثار الثقافية والاجتماعية لخلافة صوكتو من خلال هذه المنافذ إلى المناطق الأخرى المجاورة في الغرب والوسط الإفريقيين ، نذكر فيما يلي بعض الأمثلة لتلك الآثار في بعض بلدان المنطقة .

جمهورية توغو وغانا

المبحث الأول : الهيكل الاجتماعي

١- إذا أخذنا المجتمع الإسلامي في هذين البلدين نجد أن ثمة ثلاثة عناصر أساسية هي التي تشكل نواته . ويتكون العنصر الأول من أهالي البلاد

(١٨) انظر الخريطة التي تبين تلك الطرق في هذا الكتاب .

الأصليين الذين اعتنقوا الدين الإسلامي على أيدي المهاجرين الذين نزلوا عليهم من البلدان المجاورة وهم أقلية .

٢- والعنصر الثاني هم المهاجرون الذين أتوا إلى هذه البلاد واستوطنوها وتصاهروا مع الأهالي الأصليين وهم الأغلبية .

٣- أما العنصر الثالث فهو متمثل أيضا في المهاجرين لكن من الذين لم يطل بهم الإقامة والاستقرار ، وبالتالي لم يتصاهروا مع أهالي البلاد الأصليين ، وهم أقلية مميزة من حيث الثقافة اللغوية والعادات والتقاليد، لأنهم متمسكون بتقاليدهم وعاداتهم المتميزة .

المبحث الثاني : الآثار الاجتماعية

لا يختلف اثنان حول كون الدين الإسلامي قد دخل إلى هذه البلاد قبل ظهور دولة خلافة صوكتو إلى حيز الوجود ، بقرون . كما لا ينكر أحد أيضا كون هذه البلاد قد تأثرت بالعادات والتقاليد الإسلامية التي وصلتها من شرق المنطقة حاملة في ثناياها ملامح تلك الخلافة . غير أنها ، ومن خلال علمائها وتلاميذهم على التعاقب قد تركت آثاراً دينية واجتماعية على هذه البلاد عقب اتصال الطرفين . وكان ولا يزال للمجتمع الإسلامي سيمات يتميز بها في هذه المناطق ، أولها أحياء أو أماكن الإقامة التي يطلقون عليها (زنغو ZANGO) (١٩) بلغة الهاوسا . وهي أحياء خاصة بهم تتميز بسيمات .

(١٩) معنى "زنغو" "محطة" بلغة الهاوسا .

ثانيهما : حكومة صورية يشكلونها على غرار خلافة صوكيو في صورة مصغرة حيث يقوم أفراد الجالية بمبايعة واحد منهم، في الغالب يكون هو أسبقهم وصولاً إلى المكان - رئيساً لهم ويطلقون عليه اسم (سركين زنگو) بلغة الهاوسا، يختارون من بينهم شخصاً يعاونه ويطلقون عليه اسم "غاللا ديما" أي الوزير ، وإلى جانبه ثمة شخصيات يضمهم مجلس رئيس الجالية ، منهم القائد الروحي ، الذي يطلقون عليه : إمام الدين ونائبه ، "وسركين دوغراي" الذي يكون بمثابة رئيس جهاز الأمن . إلى آخره . كذلك تضم الحاشية كبار شخصيات البلدة أو الحي ، يختارهم رئيس الجالية معتمداً على السن وحياسة الثروة والتفقه في المبادئ العامة للإسلام والنفوذ . ويكون لأصحاب الحرف والمهن رؤساء هم ، كل مجموعة على حدة . مثل رئيس الحلاقين ، رئيس الأطباء ، رئيس المزارعين ورئيس الحدادين الخ . ويقوم رئيس الجالية بمخاطبة كل فئة من خلال رئيسها .

ليس ثمة رواتب أو مكافآت شهرية تخصص لأصحاب هذه الوظائف الطوعية التشريفية . ولا يعدو هذا أن تكون هناك تبرعات وهبات وزكوات تأتي إلى المجلس من أفراد الجالية وتوزع على رجال الحاشية، وبالمثل يكون كل واحد من الرؤساء المهنيين والحرفيين مسؤولاً عن جماعته وممثلهم أمام رئيس الجالية ، ويحمل ولي العهد أو الابن الأكبر لرئيس الجالية لقباً مثل : تشيروما (CHIROMA) أو يريما (YARIMA) .

هناك ألقاب أخرى استعملت في خلافة صوكتو لكنها لاتستعمل في هذه البلاد نظراً لاختصاصات أصحابها أصلاً . فالألقاب مثل : "تراكي ، مادواكي ، برادى" الخ .. لم تستعمل في المهجر لأنها تتعلق بالشؤون الحربية التي تنعدم ، بالطبع في هذه الجاليات الإسلامية في المهجر . ولاغرو ، إن كانت هذه النظم الاجتماعية التي ذكرناها في هذه المجتمعات الواقعة بعيداً عن مهد خلافة صوكتو لكنها تعكس صورة مصغرة لطراز الحكومة الإسلامية التي أسسها المجاهد الكبير الشيخ عثمان دان فودى وجماعته .

المبحث الثالث : الآثار اللغوية

تعتبر لغة الهاوسا - إلى جانب تشكيلها اللغوى الإسلامى لكثرة مفرداتها العربية الأصل - أكثر لغات غرب إفريقيا انتشاراً ، (٢٠) وذلك لعوامل عديدة منها : التجارة . وبالنظر ، عن كثر إلى فروع لغة الهاوسا ، التي كانت اللغة السائدة في شمال نيجيريا آنذاك ، وبرزت أثناء الانتقال الثقافي ، نجد أنها وصلت إلى المنطقة المجاورة من خلال الوسائل الثلاثة الآتية :

١ - التجارة .

(٢٠) تتكون مفردات هذه اللغة أساساً ، من المصادر الثلاثة الآتية :

الفولانية والعربية والهاوسية ، وينتمي الشيخ عثمان دان فودى إلى القبيلة الأولى وهى من أقوى لغات إفريقيا جنوب الصحراء متانة وتعبيراً وتنوعاً . يمكن للقارئ الرجوع إلى آخر الكتاب عن الجنس الفولانى واللغة الفولانية .

٢- العساكر الذين كانوا في خدمة الحكومة الاستعمارية البريطانية والذين نقلتهم من مختلف قبائل شمال نيجيريا إلى مستعمراتها الأخرى في حوالي عام ١٨٨٨م لقمع حركات العصيان والانتفاضات الشعبية ضدها.

وقد كان ساحل الذهب (غانا) من بين تلك المستعمرات التي استقبلت قوات الاستعمار البريطانى لقمع الاضطرابات والانتفاضات الوطنية الداخلية .

٣- علماء الدين من نيجيريا ومعظمهم من صوكتو أصلاً أو من المناطق الأخرى التي كانت خاضعة لنفوذ خلافة صوكتو، لذا كانت لهجتهم هي الغالبة في الأوساط الإسلامية في المهجر وهي تنقسم إلى :

أ - اللهجة العامية التجارية التي تضم بعض مفردات محلية ، ذات طابع تجاري ، وأحياناً تتخذ تركيب الجمل أى (MORPHOLOGY) للغات أو لهجات القبائل المحلية. وهذه اللهجة هي أكثر انتشاراً في هذه المناطق .

ب - لهجة ثكنات الجيش أو الشرطة ، وهي التي يستعملها أفراد الجيش والشرطة الذين قلما يوجد منهم من هو هاوساوى القبيلة، لكن معظمهم من القبائل المعروفة "بغواراوا" فى نيجيريا . وهذه اللهجة ركيكة بصفة عامة ولا يفهمها ، غالباً ، إلا من يختلط بالمتحدثين بها. وفيما يلي بعض الأمثلة لهذه التركيب اللغوى : يقولون (KAYI WAWA) بدلاً من (KAI WAWA NE)

أى أنت غبي (KAYI HAUKA) بدلاً من (KA HAUKA CE) أو (KAI MAHAUKACI NE) أى أنت مجنون . قولهم (NA GANIKA YA DADE) بدلاً من (NA DADE DA GANINKA) أى لم أرك منذ وقت طويل . أو

يقلّبون بعض الحروف ويستبدلونها بحروف أخرى مثل قولهم:
(KAI MIZINI) بدلاً من (KAI NA MIJINE) أي أنت رجل (شجعان) أي
بإقلاّب الجيم إلى الزاء الخ ...

ولما كان معظم الذين يلتحقون بخدمات الجيش والشرطة للسلطات
الاستعمارية في هذه المنطقة غلبت لهجتهم في الغالب في التحدث بلغة
الهاوسا ، مما جعل لغة الهاوسا المتداولة هناك متميزة ، ومعروفة بلهجة
الجيش أو لهجة الشمال^(٥) . ومن ثم عمت لهجتهم هذه كل ثكنات الجيش
والشرطة . كما غلبت على السنة من لهم صلة بهم من الناس حتى خارج بيئة
تلك الثكنات .

ج - اللهجة الدّينية : وهي أفصح اللهجات ، لأنها أصلية ولغة علماء
الدين ، يتم تفسير القرآن الكريم بها . وبها ويتم شرح كتب الأدب
والأحاديث والفقه والتّاريخ وهي لغة المراسلات أيضاً ، كما يتم بواسطتها
قرض الشّعور وسرد القصص وقول الحكم والأمثال إلى آخره .

ولما كان معظم الذين يقومون بهذه المهمة أي تدريس العلوم الدّينية هم
ممن أتوا من صوكتو أو شمال نيجيريا ومتحمسين للشيخ عثمان دان فودي ،
أصبح من الطبيعي أن تكون لهجتهم هي الغالبة وذات أثر قوى على تلاميذهم
في المهجر . ولكونهم القائمين بالوعظ والتوعية والدّعوة الدّينية فلهم آثار

(٥) يقصد به شمال غانا وتوجو وبينين .

ملموسة على لهجة عامة المسلمين هناك . إذ نلمس في الأمثلة التالية مدى تأثرهم بالشيخ عثمان دان فودى والاحترام البالغ الذى يكونه له، على مدار التاريخ؛ وينقسم إنتاج هؤلاء الدعاة إلى :

١- الرثاء والمناجاة .

٢- السرد التاريخي :

٣- الشريعة من حيث شرح الأصول والفروع الفقهية .

ويستحسن أن أشير إلى أننى لا أقصد بهذا التقسيم الإيحاء بوجود نوع من التخصص في أدبيات خلافة صوكتو، وإنما أريد فقط التلميح إلى هذه الاتجاهات الثلاثة في شخص واحد ، وقد تتفاوت ملكتها فيه أيضاً ، كما قد تتساوى هذه الملكة فيه . ولا نقصد بهذا التقسيم أيضاً حصر الملكات الأدبية في شخصيات علماء تلك الدولة أو غيرها في منطقة الغرب الإفريقي .

لقد صنّف بعضهم ، كما يفعل البعض الآخر حتى الآن ، في مجالات أخرى ، مثل الفلك والحساب واللغة والفقه إلى آخره . بيد أن هذه المصنّفات لاتصل مستوياتها درجة التخصص في العلوم المعنية.

المبحث الرابع نماذج أدبية دينية

أ - تجدر الإشارة ، قبل ذكر بعض الشخصيات الأدبية ونماذج من أعمالهم في هذا الميدان ، إلى أن الدين الإسلامى، لاسيما النزعة الصوفية وعلوم الشريعة منه هي المجال الأساسى للأنشطة الأدبية في تلك المنطقة

عموماً . كما لم تخرج دائرة اهتمام علمائها من إطار دراسة اللغة العربية وآدابها التي تؤدي إلى الفهم المتعمق لهذا الدين فحسب .

النموذج الأول :

يشمل الاتجاه الأول المدح والتسييح والإجلال ومناجاة الله سبحانه وتعالى، والنزعة إلى التوحيد والتوكل في حالات الحزن أو السرور والتزهد. حيث يغلب عليه الطابع الصوفي بصفة عامة. كما نلمس من أبيات الرثاء الآتية للسيدة نانا أسماء بنت المجاهد الشيخ عثمان، تغمدها الله برحمته. ترثي فيها السيدة عائشة بنت عمر الكموي زوجة أخيها محمد بللو:

- ١- إلى الله أشكو من صنوف البلايل ثوت في سويداء قلبي داحل
- ٢- لفقد شيوخ قادة الدين سادة وأخوتنا أئحداً خير ونائل
- ٣- وذكّرني موت الحبيبة من مضت من الإخوات الصالحات العقائل
- ٤- وزادت كربى وانفرارى ووح شتى وسكب دموع فوق خدى هواطل
- ٥- بفقد العائشة الكريمة يالها من امرأة حازت جميع الفضائل
- ٦- من الصالحات القانتات لرّبهم من الحافظات للغيب ذات النوافل

النموذج الثاني :

يشمل الاتجاه الثاني الاهتمام بتسجيل الأحداث التاريخية التي تقع في زمانهم أو أزمنة غيرهم ، سواء في نفس المنطقة أو في المناطق الأخرى المجاورة . مثل مجيء الاستعمار . وقد ذكر معظم أدباء وعلماء خلافة

صوكتو (في المهجر) سواء في النثر أو الشعر باللغات الأهلية والعربية هذا الحدث التاريخي المشئوم في نظرهم . وستأتي بعض الأمثلة عن ذلك عند دراسة بعض الشخصيات الأدبية في منطقة الغرب الإفريقي ، إذ يعتبر كتاب "إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور" لمحمد بللو أحد كتب الأدب التاريخي . فلنستمع إليه وهو يصف إحدى غزواتهم في الآيات الآتية :

- ١- سائلو عنا وعن أعدائنا
 - ٢- قد تركناهم بها مثل الهبا
 - ٣- ولكم كربه فرساننا
 - ٤- إذا رجعنا لهم وقت الضحى
 - ٥- وكان الخيل في أرجائها
 - ٦- فلقيناهم وأوغلنا بهم
- يوة دار الحرب كانوا الحفر
أو كأحطام الهشيم المحتظر
في صناديد "كيارا" المنكسر
بجنود كجراد منتشر
حداً تخطف أشلاء البقر
برماح وسهام كالمنظر
- الخ

بينما يغطي كتابا الشيخ عثمان نفسه "إحياء السنة وإخماد البدعة، وحصن الأفهام من جيوش الأوهام" جانب الفقه والشريعة. اتخذ الاتجاه الأدبي لعلماء وأدباء منطقة الغرب الإفريقي الطابع الصوفي أو الزهد بصفة عامة وأيام الناس والفقه والشريعة. وبما أن هناك قواسم مشتركة بين علماء المنطقة ، يسهل تأثير عالم أو فقيه على نظرائه من خلال تيارات فكرية وأدبية ، إذا أخذنا

شخصية الشيخ أحمد بامباه الخديم في السنغال، على سبيل المثال (١٨٥٠م - ١٩٢٧م) وهو صوفي النزعة، الذي كان متزامناً مع التيار الأدبي الإسلامي لخلافة صوكتو، نجد اتجاهه الفكري متأثراً بتلك الخلافة بشكل أو بآخر. فبالمقارنة بين المقتطفات التي تلي من قصيدته الرائية والأخرى الدالية للشيخ عثمان نجد القصيدتين متشابهتين جملة وتفصيلاً؛ فلنبداً بقطعة الشيخ عثمان دان فودي حيث يقول :

النموذج الثالث

- | | |
|-------------------------------|--------------------------|
| ١- هل لي مسيرة نحو طيبة مسرعا | لأزور قبر الهاشمي محمدا |
| ٢- لما فشنا رياه في أكنافها | وتكمش الحجاج نحو محمدا |
| ٣- غودرت الهمل الدموع موبلا | شوقا إلى هذا النبي محمدا |

إلى أن قال :

- | | |
|------------------------------|---------------------------|
| ١- مالشمس شيء والخسوف يزورها | دمعي يفيض لفقد هذا السيد |
| ٢- تهمني دموعي إن ذكرت فناءه | قد ذاب قلبي إن ذكرت محمدا |
- السخ ...

النموذج الرابع (للشيخ أحمد بامباه) :

- | | |
|----------------------------------|-------------------------|
| ١- قلبي له في عتاب الجسم تكرار | لأنه للمهدى والنور جرار |
| ٢- يلوم جسمي دأباً في الجلوس بلا | علم ولا عمل والنفس غرار |

- ٣- مازال للخير يدعوه ويجذبه وللسعادة دأباً وهو غرار
٤- يلومه وهو غير وفي كبل بأذن ربي والمحسوس مبرار
٥- قد عاق جسمي عما القلب يطلبه من المناقب تسويف وإصدار

إلى أن قال :

- ١- ذاك الملاذ الذي أرجو النجاة به دنيا وأخرى فليت حوله جار
٢- وهو الذي عيق جسمي عن زيارته لكن لساني كالقلب زوار
..... الخ .

لاشك أن هاتين القطعتين متشابهتان في الاتجاه الفكري الواحد .
وتكادان تكملان بعضهما البعض كأنهما صدرتا عن شخص واحد . ومعروف
أن الشيخ عمر الفتوى الذي أسس دولته في أقصى الغرب الإفريقي وهو من
منطقة ضفة نهر السنغال ، كان زعيماً سياسياً واجتماعياً وروحياً وأديباً ، وكان
له أتباع كثيرون في بلاد السودان الغربية . وقد ثبت أنه زار صوكتو أكثر من
مرة . وأن هناك صلة المصاهرة بينه وبين قيادة تلك الخلافة .

ومن المرجح أن يكون الشيخ أحمد بامباه قد تأثر بهذا التيار الأدبي من
خلال أعمال الشيخ عثمان دان فودي وأتباعه التي وصلت إلى تلك المنطقة
بواسطة الشيخ عمر الفتوى وأتباعه وغيرهم .

النموذج الخامس (للشيخ محمد بللى الفتوى - ١٦/١٢/٢٠ - ٢٨/٤/٩٩)
 إنّ أحد الذين تشملهم دراستنا في هذه المنطقة هو الشيخ محمد بللى من
 بلدة طليما الواقعة في أقصى شرق منطقة صوكتو . ولد في غانا من أصل
 نيجيرى. ترعرع في كانو وعاش فيما بين غانا وتوغو ثم عاد إلى كانو في
 نيجيريا حيث استقر أخيراً وتوفي هناك يوم الأربعاء ١٢ محرم للسنة ١٤٢٠
 الهجرية، الموافق ٢٨ إبريل عام ١٩٩٩ م . نقتبس فيما يلى أبيات من قصيدته
 اللامية التي تمثل نموذجاً من اتجاه الصّوفية والمناجاة ، الغالب في الأدب
 الإسلامى الذي اشتهر به علماء غرب إفريقيا .

تستهل قصيدته اللامية :

- ١- إلهي لا اله سـواه ربّي تعالى لا تمثله العقول
 - ٢- إلهي قلب ادعوني أجبكم فهك العبد يدعو يا وكيل
 - ٣- إلهي ظاهراً أدعوك ربّي كذلك باطناً أنت الحليل
 - ٤- إلهي فاز من ناداك ربّي أتاه الخير حقاً والقبول
 - ٥- إلهي حفني باللفظ يا من له الغفران والفيض الجزيل
 - ٦- إلهي زحزح الأسواء عني وكن لي ناصراً نعم الوكيل
- وقال أيضاً في قصيدته الثائية :

- ١- يارب أهلني لحبك والتقى واجعل رضاك منتهى رغباتي
- ٢- واملأ فؤادي باليقين وكن معي دوماً وسلمنى من الآفات

٣- وأدم غداك علىّ واجعلني به ممن يريد رضاك بالحسنات

٤- وأدم علىّ الفضل واحفظني وخذ بيدي وأمني من العثرات

النّـمـوج السّادس : (على محمد براو توفي في عام ١٩٥٥م)

هو الشّيخ عليّ بن محمد، المعروف باسم مالاام (المعلم) برو الصلغوي. أتى والده من بلدة براؤ الواقعة على شرق بلاد صوكتو لكنّه ولد في غانا وتوفي فيها سنة ١٩٥٥م . تعلم على يد الشّيخ الحاج عمر ناكرتشي الكاتسناوى المولود في مدينة كانو بشمال نيجيريا وعاش في غانا وتوفي فيها عام ١٩٣٤م. كان الشّيخ علي محمد برو ، مثله مثل معظم علماء غانا وتوغو والمناطق المجاورة لهما الذين تأثروا بأعمال خلافة صوكتو . قام المعلّم على بن محمد برو بترييع قصيدة (هل لي مسيرة) للشّيخ عثمان دان فودى التى ذكرنا مقتطفات منها سابقاً . وأصبحت ترييعته معروفة بين علماء المنطقة . وعثرت على مخطوط هذه القطعة من جامعة ليجون الغانية وهى النسخة التى كتب لها المقدمة التالية :

"بسم الله الرحمن الرحيم . وصلى الله على النّبي الكريم . قال الفقير لرحمة ربه الراجي لغفران ذنبه علي بن محمد المشهور بالحاج برو الصلغوي : هذا تشطير على قصيدة "هل لي مسيرة" من نظم ولي الله عثمان دان فودى تغمده الله برحمته آمين " . بلغت أبيات التشطير مائة وخمسة وعشرين بيتاً ، قام بتنظيمها في سنة ألف وثلاث وسبعين بعد الهجرة ، ويقول فيها :

- ١- هل لي مسيرة نحو طيبة مسرعاً لأشم رائحة ضريح محمد
- ٢- هل لي رحيل للبقيع مهرولاً لأزور قبر الهاشمي محمد
- ٣- لما فشا رياه في أكفافها أربحت الحمي بين محمد
- ٤- وتعطرت وتنورت أرجاؤها وتكمش الحجاج نحو محمد

إلى أن قال في آخر القصيدة :

- ١- بعون رب العالمين ختمتها ورصعت فيها بعض مدح محمد
- ٢- وبحمد رب العالمين شطرتها بلغت بذلك ضعف سن محمد (٢٢)
- ٣- في عام فش بعد فنج فافهما تاريخ متن قصد شيخ مجدد
- ٤- تشطيرها في عام شرف فاعلمها من هجرة الهادي النبي محمد

النموذج السابع (للشيخ عمر أبي بكر - ١٨٥٠م - ١٩٣٤م) :

إن الشخصية الأدبية السابعة والأخيرة هو أديب وفقه اشتهر في غرب إفريقيا. وهو الشيخ عمر بن أبي بكر الكباوي، المشهور بالحاج ألفا عمر ناكركي (كيتي كراتشي). ولد بمدينة كانو، شمال نيجيريا في عام ١٨٥٠م وتوفي في ساحل الذهب (غانا) في ٣٠ يونيو عام ١٩٣٤م. ويذكر لنا التاريخ أن جده الأكبر قد أتى من بلاد غوبر النيجيرية، وكان من كبار تلاميذ الشيخ عثمان دان فودي، كان والده أبوبكر يزاوول تجارة حبر كولا (غورو)

(٢٢) يقصد بذلك تمديد العمر الزمني للاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم.

متنقلاً بين نيجيريا وغانا ، واستقر ابنه الحاج عمر في غانا حيث نشأ وترعرع. كما اشتهر بأعماله الأدبية الإسلامية، وكان ناقدًا اجتماعيًا وسياسيًا ، ويعتبر من أعظم العقول الأدبية التي ظهرت في منطقة غرب إفريقيا في مجال الفكر الإسلامي في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . ناهزت مصنفاته بين الشعر والنثر مائة مطبوعة ومخطوطة . ويوجد بعضها بمكتبة ليغون الغانية وجامعة أبادان النيجيرية ومتحف تاريخي ، في كدونا بشمال نيجيريا، وهو محلّ اهتمام باحثين من المستشرقين الأوروبيين الذين يتوافدون إلى منطقة الغرب الإفريقي بحثاً عن مؤلفاته . وقد أثر الشيخ عمر ناكركي على الفكر الإسلامي تأثيراً كبيراً في غانا وتوغو على وجه الخصوص ، والمجتمعات الإسلامية المجاورة .

ومن أعماله الأدبية تريبعته في كتابي "الزهد والوصية" المنسوبين إلى علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم. وكتاب قصيدة "البردة" للبصيرى في مدح النبي عليه الصلاة والسلام يشعر الشيخ عمر ناكركي بالافتخار بانتمائه إلى أدياء خلافة صوكتو، واعتبر نفسه من تلاميذ الجيل الثالث للشيخ عثمان دان فودى. كما نلمس ذلك في قصيدته المعنونة: "بحق رب الورى" التي يعاتب فيها أحد علماء عصره بسبب خلاف نشب بينهما حول مسألة فقهية :

- ١- بحق رب الورى ياقوم انتبهوا فإنّ في دهرنا هذا أباليسا
- ٢- جاعوا وحلوا بأقوال محرفة وكل أقوالهم إلفك متى قيسا
- ٣- هجموا على مدرستنا سفهاً على سفح وصار مازوروا فينا وساوسا

وقال :

- ١- يستنصر الخبث لا فينا وإن لنا نقل نميز به إنسانا وطاوسا
- ٢- فإن أستاذنا عثمان علمنا فقها اذا قيل جاموسا فجاموسا
- ٣- بجاجة من أتى كيما يكذبنا ولو أتى من بعيد الطوف أو طوسا
- ٤- يلم إثماً وغيظاً من غباوته ألهوكة بين أهل الله إن قيسا

إلى أن قال :

- ١- من جاعنا بمكيدات وحيلته لو أتانا بتيجان وبرنيسا
- ٢- يخيب فيما نواه من تعنتنا لما درسناه على عثمان تدريسا

لم يكن الشيخ عمر ناكر كي أدبياً و ناقداً اجتماعياً فحسب، بل كان مؤرخاً محنكاً في تدوين أحداث تاريخية، وتعتبر قصيدته ذات شطرين التي تتكون من مائتي بيت بلغة الهاوسا من أكبر مصدر تاريخ دخول الاستعمار الأوروبي إلى غرب إفريقيا بقلم أحد أبناء المنطقة. كما نلمس فيها مهارة فنية في وصف وتسجيل المواجهات الحربية بين الأوروبيين الغزاة والإفريقيين الذين تصدوا لهم، دفاعاً عن أوطانهم وأنفسهم. يذكر لنا الشيخ عمر مجابهة تلو

مجابهة بين الطرفين وجبهة تلو أخرى ، وزعماء مختلف القبائل ومواقفهم
الباسلة في خوض تلك المعارك الدامية ، إلى أن استشهد من استشهد منهم
وسقط من سقط منهم أسيراً . ونذكر فيما يلي بعضاً من هذه القصيدة بلغتها
الأصلية لإبقاء الذوق والأيقاء .

- 1- ABINGA DA YATTAHO SHI, ZAMU TSARA
KU SAURARA GA LABARIN NASARA
- 2- DA SUNAN RABBANA MUKAFARA AIKI
SHI GERU SHI ZAMO DA KYAU INDA TSARA
- 3- MU GAIDA MUHAMMADU BABBANMU BAYI
SAHABAINEN DA ALAI MASU GARA
- 4- MUNANAN DUNIYARMU CIKIN KASARMU
FA BABU BATUN YAHUDU BALE NASARA
- 5- ANANAN ANKACE AIBABU GORO
ANA FITINA "ASHANTI"DA ANNASARA
- 6- ANANAN ANKACE KUMA BA "ASHANTI"
KASAR DUK TA PASHE DOMIN NASARA
- 7- FA BAYI SUN ZAMO YEYA DA MURNA
SUNA YIN TAKAMA DOMIN NASARA

إلى أن قال في أماكن أخرى :

- 1- DA SUNKATAHO KASAN NUFU ZASU MULKI
SAI ABUBAKARINMU YAKI BIN NASARA

- 2- NAN YAYI KOKARI YA KASHE GUDANSU
TO; ASHE BABU KYAU AKASHE NASARA
- 3- DA DE SUNKA JA DA BAYA, SUNKA SHIRYO
TO ABIN NAN BAYIKKYAU BA ZUWAN NASARRA

وقال أيضاً :

- 1- KASAN GOBIR MAZANE MASU YAJI
DA YAJINSU SUNYI GUDUN NASARA
- 2- DA SUNKA TABOSU SUNKAGA SUN BUWAYA
MAKAMAI BASU KAI GA WAGEN NASARA

وأنهى القصيدة بقوله :

- 1- FA YA SATTARU YA RABBAL IBADI
KA TSARSHEMU GA TASKUN ANNASARA
- 2- DA ALFARMAN MUHAMMADU NUHU MUSA
DA RUHULLAHI ISSA MAI NASARA.

الترجمة : بقلم مؤلف الكتاب

- ١ - في ذكر الأحداث نورد القول يا قوم استمعوا أخبار النصارا (٢٣)
- ٢ - باسم ربنا نستهل العمل ليكون موفقاً وخير المنذرا
- ٣ - الصلاة والسلام لسيد الأنام وصحبه وأهله الخيارا

(٢٣) الكلمة مأخوذة من كلمة مدينة الناصرية ، أى مسقط رأس عيسى عليه السلام . ويقصد بها هنا الاستعماريين الأوروبيين .

- ٤- إذ في بلادنا كنا جلساء لا نعلم عن اليهود ولا النصارا
 ٥- إذ قيل توقف الاتجار في "كولا" لفتنة بين "أشانتي" (٢٤) والنصارا
 ٦- ثم قيل إنها قد دمرت "أشانتي" مع الدنيا غير النصارا
 ٧- فإن العبيد قد تحرروا فهم سعداء بإتيان النصارا
 ٨- فكل شخص قائم بذاته مفتخر من أجل هذا النصارا

إلى أن قال وصفاً للمواجهة بين المستعمرين وقبائل المنطقة :

- ١- لدى اقتحامهم بلاد "نوبى" تصدى عبد الكريم لملك النصارا
 ٢- فتجراً بقتل جند منهم ذاك إذ تطفن خبث النصارا
 ٣- أعدوا عدتهم ثم عادوا فعرف القوم بعدئذ شر النصارا

ثم قال فيما بعد :

- ١- رجال "غوبز" هم شجعان قوم لكنهم فروا من مواجهة النصارا
 ٢- عندما جربوا الهجوم عليهم أخفق سلاحهم صوب النصارا

ثم ختم القصيدة بقوله :

- ١- فيا السّتار يارب العباد قنا وأهالينا شر النصارا
 ٢- بحاه محمد موسى ونوح وروح الله عيسى رب النصارا

(٢٤) اسم أكبر قبيلة فى غانا .

وأود أن أشير أخيراً إلى قصيدة له بعنوان "تنبيه الإخوان في ذكر الأحزان للألفا" (٢٥) الحاج عمر ناكركي . نظم القصيدة في حوالى عام ١٨٩٢م عندما اندلعت الحرب الأهلية في تلك المنطقة . تقع القصيدة في حوالى ثلاث مائة بيت باللغة العربية . وتدور حول تلك الأحداث المأسوية التي أودت بحياة مئات الأبرياء وتدمير مدينة "بولغا" التي كانت معقل تجارة حبوب "كولا" . وكان الاتجار في هذه الحبوب (٢٦) هو السبب الرئيس لوجود معظم أبناء قبائل الهاوسا والفولاني والكانورى أو البورناوى والنوفي اليوروبا وغيرهم من الذين سافروا إلى غانا والمناطق الموصلة إليها واستقروا بها وأصبحوا فيما بعد من مواطنيها بحكم التزاوج والتوالد . نذكر فيما يلى بعض أبيات من القصيدة التي تستهل بـ :

الحمد لله الذي توحدنا	في ملكه أموره ووكد
ليس له مساعد في حكمه	ولا له مشاور في أمره
يصرف الدهر كيفما شاء	ويحكم السرور والإساء
وقال حول الموضوع نفسه :	

بداية الأمر إذا نظرت	تجده سهلاً كما سمعت
ووسطه أشكال لو فهمت	وطلعت عقول بثبوت

(٢٥) من أصل كلمة "ألفام" التي تطلق على العالم أو الفقيه . ثم اختصرت لدى التداول بين أهل المنطقة فأصبحت "ألفا" .
(٢٦) منها يصنع مشروب "الكوكاكولا" .

طارت عقولنا بهذه الحرب وضعضع الأقوام بالتخريب
حتى تراهم بلا عقول ولا يشاورون أهل العقول
يأتمر الأقوام في السّوال ويختتم القرآن بالأموال
ويجمع العلماء للدعاء في السّر والجهر بلا جفاء
وتصدق الأموال للفقراء والعض والأعور والنساء
وللتلاميذ وللأعراج أيضاً إلى القرباء وللإعلاج
إلى آخرها.....

توفي الحاج عمر بن أبي بكر ناكركي في ٣٠ يونيو عام ١٩٣٤م بعد
عمر مديد حافل بإنجازات أدبية مثمرة وخلف وراءه تلاميذ كثيرين.

وأقول في ختام هذا البحث عن آثار رجال دولة صوكتو وأمثالها في
الغرب الإفريقي وغيره الذين أثّروا على مجريات تاريخ أممهم في هذه المنطقة
والمجتمعات الأخرى: هكذا يستخلف الله رجاله هذه الأرض ويرثهم إياها،
ويمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، فتتجاوز شخصياتهم المعتبرة حدود
حياتهم البيئية العادية والزمانية القصيرة والقاصرة ليصل نفوذهم وآثارهم إلى
مجتمعات وأفراد ، جدّ بعيدين عن تلك البيئات والمجتمعات التي عاشوا فيها.
تصل ذكراهم ونفوذهم إلى أماكن لم تخطر ببالهم إذ هم أحياء .

لم يكونوا يعرفون بأنّ لهم آماذ تتجاوز أعمارهم الزمانية . هؤلاء هم
صانعو التاريخ وليس التاريخ بصانعهم . لذا يعرفون بالشخصيات التاريخية.

أما رسل الله وأنبيأؤه الكرام المعصومون، فهم ليسوا منتمين إلى هذا الصنف من مسميات التاريخ، لأنهم يسبقون التاريخ إلى الوجود كما يتجاوزونه في مجريات الأحداث. ومن ثم، ليس للآثار البيئية والاجتماعية عليهم الفضل والرجحان في مدار تكوين شخصياتهم وصيرورة حياتهم. بل إليهم يرجع رجحان الموازن والفضل على ييمات الإنسان ومجتمعاته. ففي طي مهام الرسل والأنبياء أمور تفلت عن مدارك التاريخ وكيونة الأحداث. بل تخضع لغيبيات المعلوم التي تختص بها المصادر اللدنية التي يعلمها خالقها فحسب. إذن الرسل والأنبياء فهم بحكم الاختصاصات المنوطة بهم، خارجون عن دائرة مباحث البشر وتحليلاته التجريبية. فهم ينجزون أعمالاً ذات شؤون مؤثرة على مصائر الشعوب والأفراد المعاصرين لهم والمتعاقبين في أمكنة وأزمنة لا يعمل لها حسابان. لكن ذاك هو وعد الله للمؤمنين. وكان وعده مفعولاً. ولقد اعتاد التاريخ أن يطلق على رجاله "الأولياء" الأتقياء الصالحين باللغة الصوفية، والعباقرة عند الفلاسفة ذوى العقيدة المجردة؛ والأدباء بلغة أصحاب النثر والشعر؛ والمجاهدين في المجابهة المادية؛ والمجتهدين في مجال البحث الفقهي الديني واستنباط الأحكام وصنع القوانين؛ والمواطنين في النظريات السياسية. لكن سواء هذه التسمية أو تلك فإنها عوارض كلها. والجوهر الذي يخلد بعد إخفاء أصحاب تلك الألقاب والمسميات هو حقيقة كونهم عاشوا للمبدأ الذي لم يجدوا أمامهم له بديلاً آخر فماتوا من أجله. ألا هو "الإخلاص والتفاني"، عاشوا بنصرة الحق بالإخلاص. فورثهم الله أرضه

ومكّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وأخلف من ورائهم أناسا يؤازرون ذلك المبدأ ويعضدونه أملاً في أن يرثهم الله أرضه كما ورثها لأسلافهم من قبل. فكانوا خالدين عبر التاريخ والأجيال اللاحقة فباتوا من الشخصيات التاريخية.

لم تكن الشخصيات التاريخية التي أنبتتهم تربة الغرب الإفريقي الإسلامية من أمثال المجاهدين الكبار أحمد بابا ، الأمين محمد الكايمي ، عثمان دان فودي ، أحمد لوبّو ، عمر الفتوى وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ، لم تكن هذه الشخصيات متصورة في عقول أسلافها ، كما لم تخطر ببالها أيضاً أنها تكون ذات أثر يتجاوز حدود بيئاتها التي ألفتها أو الظروف التي أحاطت بها . لكن الله صاحب الوعد الحق، قد اختص بعلم لا يعرفه سواه ، علم يتجاوز حدود الزّمان والمكان فضلاً عن البيئات والأفراد . وهو القائل :

أ- ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا، يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾. (٢٧)

ب- ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٨)

(٢٧) الآية : ٥٥ - سورة النور .

(٢٨) الآية : ١٢٠ - سورة هود .

ج- ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الدِّينِ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٩)

صدق الله العظيم

(٢٩) الآية : ٢٦ - سورة النساء .

"جيم"

دولة ماسينا

"أحمد لوّبو باري"

تقع ماسينا في الشمال الغربي لمنطقة السودان الغربي أى في جمهورية مالي حالياً فى منعطف نهر النيجر . ثمة تفسيرات عدة لمعنى كلمة "ماسينا" . ولكن من المرجح أن تكون الكلمة قد اشتقت من كلمة "موسينى" أو "موينى" أى أرضعت باللغة الفولانية. وأطلقت الكلمة على منطقة رعى المواشى. توجي هذه الخصلة ، أى تربية الماشية التي طبع عليها أبناء قبيلة الفولانى سكان المنطقة ، أن يكون إطلاق التسمية على البلاد قد جاء توصيفاً لنعمة خصوبة أراضيها وصلاحياتها للزراعة وتربية المواشى . كان هناك خليط من شتى الأجناس من أقوام مسلمين ووثنيين من البامبرة والسوننكى والصونغاي والبربر ، سكان الصحراء الكبرى ، يشاركون قبائل الفولاني الأصليين ، التعايش في تلك المنطقة . تأثرت ماسينا بالثقافة العربية الإسلامية المتأصلة بفضل وجودها، بجوار مركزين امتازا بتلك الثقافة في السودان الغربي آنذاك. هما مدينة "جينى" التي أسست في القرن الثالث عشر الميلادي ومدينة تنبكتو التي اشتهرت منذ القرنين الرابع عشر حتى السادس عشر الميلاديين ، الأمر الذي هيا إمارة ماسينا إلى أن تنهض في نهاية القرن الثامن عشر بدور ملموس في نشر الدعوة الإسلامية ، سيما بين الأميين الذين لا

يجيدون الكتابة والقراءة ، من خلال تعليمهم قصائد ومنظومات شعرية ينظمها الدعاة والمدائحون بلغتهم الفولانية . استطاع علماء ماسينا ، بهذا الأسلوب الارتجالي تلقين شعوب المنطقة الثقافة الدينية الإسلامية الأساسية من التوحيد والفقه والسيرة النبوية الشريفة . وكان ثمة عالم صوفي انحدر من شمال شرق تنبكتو في منطقة "أزواد" بمالي الحالية، يدعى سيدى المختار الكونتى الكبير (٣٠) هو الذي قام بنشر الطريقة

(٣٠) هو الشيخ سيدى المختار بن أحمد بن أبي بكر المعروف بالكبير تمييزاً له عن حفيده الذى كان يحمل نفس الاسم ؛ (١١٤٢هـ/ ١٧٣٠م - ٤ جمادى الأولى ١٢٢٦/ ٨ مايو ١٨١١م). عاش في منطقة أزواد بين تنبكتو ، وغاو (مالي) ولعب دوراً رئيسياً في نشر الطريقة القادرية في غرب إفريقيا والصحراء ، خاصة في مالي، وغينيا ، والسنغال ، وموريتانيا .

كانت له علاقة مع دولة "صوكتو" التى تأسست فى شمال نيجيريا ، وأمراء "بورنو" وسلاطين المغرب الأقصى ، كما كان له نفوذ كبير على أمراء الطوارق والقبائل العربية فى غرب إفريقيا.

ترك بعد وفاته ثروة هائلة من مؤلفات كثيرة بلغت فوق الثمانين ورسائل وقصائد شعرية في شتى العلوم ، فيما يلي أمثلة منها :

في التفسير : كشف النقاب على فاتحة الكتاب ، في التوحيد : الشموس الأحمدية ، فى الفقه : هداية الطلاب على فتح الوهاب ، في اللغة : شرح المقصور والممدود لألفية ابن مالك، في التصوف : الكوكب الرقاد في فضل المشايخ والأولاد ، وجزوة الأنوار في الذب عن أولياء الله الأحيار .

يعتبر الشيخ المختار الكنتى الكبير مجدد الطريقة القادرية التي ورثها من أحد أجداده وهو سيدى عمر الشيخ سيدى أحمد البكاي الذى أخذها عن الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني المعروف . وسميت طريقته بالبكاية أو الكنتية . وقد تخرج على يده عدد كبير من العلماء والمشايخ، حتى سمي شيخ المشايخ ، كان له علاقة قوية مع أسراء ماسينا، استمرت بعد وفاته مع أبنائه وأحفاده ، الذين دافعوا بالقلم والسيف عن إمارتها الإسلامية بقيادة آل لبو، حيث نالوا نصيبهم من الكارثة التي سببها الصراع المولم بين تلك الإمارة وإمارة الحاج عمر الفتوي في النصف الأخير من القرن الماضي.

الصّوفية القادرية بصورة أكثر مما كانت عليه بين أهالي ماسينا وغيرهم من سكان الغرب الإفريقي . كانت القادرية هي أقدم الطرق الصّوفية في غرب إفريقيا وأكثرها انتشاراً بين أهالي المنطقة قبل ظهور الطريقة التجانية التي ازدادت شهرتها وذبوعها في المنطقة مؤخراً . أولت القادرية اهتماماً كبيراً بشؤون التعليم والدعوة بينما ركّزت التجانية على جوانب التربية الروحية للذين ينتمون إليها . انتشرت الطريقة القادرية بين أهالي منطقة مجرى نهر النيجر الأوسط عن طريق بعض أفراد مشايخها من قبيلة كونتة الصحراوية، بحلول القرن السابع عشر الميلادي . اتخذت الطريقة صورة منظمة ثابتة معروفة الهوية بين السكان المسلمين هناك في منتصف القرن الثامن عشر . وقد لعب سيدى المختار الكبير الكونتى الذي يعتبر أحد المشايخ الذين تأثر بهم الشيخ عثمان دان فودى، دوراً رئيسياً في نشرها في منطقة غرب إفريقيا . تعرّف الشيخ عثمان دان فودى على الشيخ الكونتى فيما يبدو ، عن طريق بعض تلاميذ هذا الأخير . وفي كتابه "السّلاسل القادرية" ذكر الشيخ عثمان أنه أخذ ورد القادرية عن أكثر من شخص واحد، لكنه أشاد بالتعاليم الصوفية التي حصل عليها بواسطة الشيخ سيدى المختار الكونتى . وكان للشيخ المختار الكونتى أثر كبير على الفكر الصّوفي القادري لعلماء ماسينا ، ومن خلالهم وصل إلى أرجاء إفريقيا الغربية . وفيما يلي قصيدة رائية ينسبها أتباعه إليه ويتلونها لتحقيق الانتصار على الأعداء عند المجابهة : "اللّهم صلّ على سيدنا محمد وأهله وصحبه وسلم . هذه القصيدة للسيد مختار الكونتى القادري .

تقرأ صباحاً ومساءً مرة واحدة لحفظ النفس وقهر الأعداء وللحماية والوقاية من كل مكروه . ومن أكثر أعداؤه وحساده فعليه أن يلازم قراءتها ثلاث مرات صباحاً وثلاث مرات مساءً بعد قراءة سورة قريش ثلاث مرات وحسبنا الله ونعم الوكيل أربعمئة وخمسين مرة قبل الشروع في قراءتها كل يوم . فإن الله ينصره عليهم ويذلهم بمشيئته . ولها كيفيات أخرى . وتسمى السيف القاطع " .

- | | |
|--------------------------------------|------------------------------|
| ١- " يَا ذَا الشَّنَا لَا يَنْحَصِرُ | إِنِّي غُلِبْتُ فَأَنْتَصِرُ |
| ٢- فَأَبْعَثْ عَلَيَّ أَعْدَائِنَا | سَوْطَ عَذَابٍ مَعَهُ صِرُ |
| ٣- وَارْسِلْ أَبَايِلَ الْبَلَاءِ | عَلَيْهِمْ فِي يَوْمٍ عَسِرُ |
| ٤- وَعَمَّهُمْ بِنَقْمَةٍ | وَبِعَذَابٍ مُسْتَطِرُ |
| ٥- يَرْمِيهِمْ مِنْ جَوْ السَّمَاءِ | بَحَجَرٍ لَمْ يَنْحَجِرُ |
| ٦- مُسْرِمِدًا عَلَيْهِمْ | فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرُ |
| ٧- يَغْشَاهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ | شَرَّ عَبُوسٍ قَمْطَرِيرُ |
| ٨- يَأْعِدْتِي فِي شِدَّتِي | لِكُلِّ مَارِدٍ مُضِرُ |
| ٩- مَزَقَ وَفَرَقَ شَمْلَهُمْ | كَشْمَلٍ عَادَ إِذْ تُثْرِ |
| ١٠- أَوْ كَسَبَا إِذْ مَزَقُوا | بَسِيلَ يَمِّ مُنْهَمِرُ |
| ١١- أَوْ كَثُمُودَ إِذْ مَزَقُوا | غُثَاءَ سَائِلٍ مُنْحَدِرُ |
| ١٢- سُنَّتُهُ فِي مَنْ مَضَى | كَذَلِكَ مَنْ يَأْتِي دُبُرُ |
| ١٣- مُقْتَدِرٌ لِمَا بَقِيَ | أَبَادُهُ الْقُومُ التَّتِرُ |

- ١٤- يَارَب يَارَب تَرَى
 ١٥- أَنْتَ وَكِيلِي يَا وَكِيلُ
 ١٦- فَخُذْ بِأَرِي مِنْهُمْ
 ١٧- وَاطْمَسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ
 ١٨- فَقَدْ طَغَوْا مَعَ ذُلِّهِمْ
 ١٩- إِنَّكَ لَا تَبْغِي عَلَيَّ
 ٢٠- فَصَيِّرْهُمْ عِبْرَةً
 ٢١- شَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ
 ٢٢- يَا مَنْ حَمَاهُ فِي هَنَا
 ٢٣- أَنْتَ الْمُحِيطُ غَيْرُهُ
 ٢٤- وَيَا شَدِيدَ الْبَطْشِ يَا
 ٢٥- أَنْتَ غَيُورٌ أَنْ يُرَى
 ٢٦- فَارْدُدْ يَدَ الْعَادِينَ مِنْ
 ٢٧- جَدِي إِغَارَةَ الْعَزِيرِ
 ٢٨- وَبَدِّدْ حَمْعَ الْعَدَى
 ٢٩- وَصَلْ يَارَب عَلَيَّ
- مَا مَسَّنِي مِنْ ذِي بَطَرٍ
 عَلَيْهِمْ يَا مُقْتَدِرُ
 بِسَيْفِ نَقْمَةٍ بَتَرٍ
 بِالْجَدْبِ وَالْقَحْطِ الْمِبَرِّ
 وَغَاثُوا غَوْثًا مُعْتَكِرُ
 الظُّلْمِ وَلَا عَلَيَّ النُّكْرُ
 لِكُلِّ عَبْدٍ مُنْزَجِرُ
 حَتَّى يَكُوبَ مُنْكَسِرُ
 نَحْنُ حَمَاكَ الْمُسْتَجِرُ
 وَأَنْتَ خَيْرُ مُنْتَصِرُ
 مُنْتَقِمِ عَلَيْنَا غَرُ
 حَمَاكَ غَيْرُ مُنْجَبِرُ
 قَبْلَ الْوُصُولِ لِلنَّحَرُ
 بِالْبَيْضِ وَالْقَنَّا السُّمُرُ
 عَنَّا كَلَمَحَ بِالْبَصَرُ
 خَيْرَ نَبِيٍّ مِنْ مُضَرٍّ (٣١)

(٣١) انظر نظم القادرية ونظرياتهما في الفصل الخاص بها في هذا الكتاب. قيل أن سيدي الكونتي نظم هذه القصيدة في شبابه، عندما أرسله شيخه ذات يوم في طلب إرجاع إبل نهبتة لإحدى القبائل الصحراوية لكنها رفضت أن ترد إليه الإبل مما جعله يتوسل إلى الله بهذه القصيدة، فاستجاب له الله بتسليط قبيلة أخرى أقوى على تلك التي أخذت الإبل منه واستردته إليه. ومن ثم صار أتباعه يستنجدون بها للانتصار على أعدائهم.

التيارات الفكرية التي

سادت المنطقة

شهدت منطقة سليمانى في فوتا جاللو ، الواقعة اليوم في جمهورية غينيا، تدفق جماعات من قبائل الفولاني وعلمائهم من الدول والبلدان المجاورة، لاسيما منطقتى ماسينا وفوتاتورو في كل من مالي والسنغال وموريتانيا. كانت تلك الجماعات تقوم بتأسيس أماكن للاستيطان فى أوقات معينة لفصول السنة وفق ما يلائمهم من احتياجات القيام بالأنشطة الزراعية وتربية الماشية . ومن بين تلك المستوطنات منطقة تعرف بـ "فوغومبا" حيث تجتمع أعداد كبيرة من الجماعات وزعمائها لتناقش وتداول حول قضايا تتصل بحياتها في حالتى الحل والترحال . وكانت حلقات التدريس والوعظ والإرشاد ودور تحفيظ القرآن تلحق دوماً بتلك المستوطنات . ومن خلال تلك الحلقات والندوات برز فقيهان تميزا فيما بعد بقيادة حركات إصلاح الدين الإسلامى في غينيا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادى ، هما : الشيخ إبراهيم موسى ، المعروف في تاريخ الغرب الإفريقي بألفا باه والشيخ إبراهيم سورى المعروف هو الآخر ببطل حرب الإصلاح الدينى . وعندما أراد الزعيمان على التوالي تأسيس دولة تكون قائمة على مبادئ وأصول الشريعة

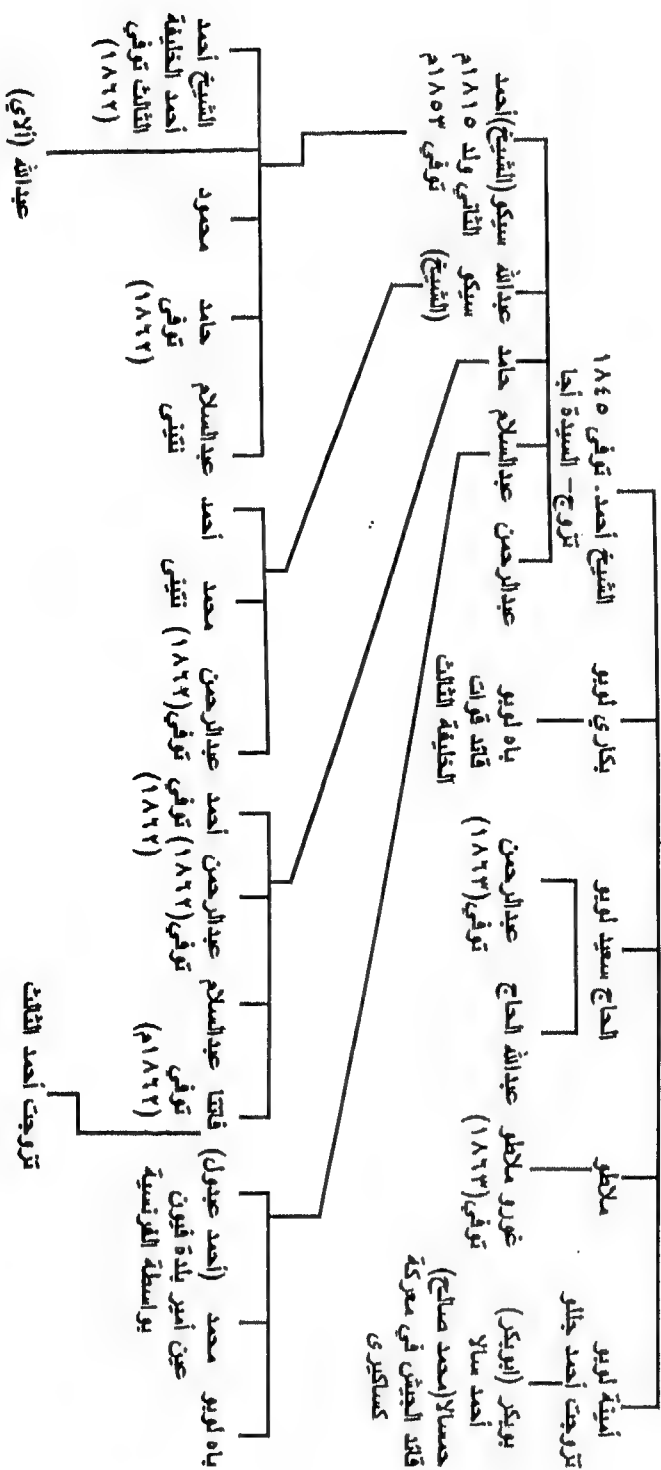
الإسلامية ، انضم أحد زعماء تلك الفصائل الفولانية يدعى "أرطو كيكالا" (١٧١٥م - ١٧٨٠م) وجماعته إلى صف ، إبراهيم موسى المذكور، مما شجع هذا الأخير على الاندفاع لتوسيع نطاق دعوته لكنّه واجه معارضة شديدة من بعض القبائل الأخرى المجاورة . فقام في عام ١٧٢٥م بإعلان الجهاد ضد القبائل الوثنية والمرتبطة منها عن الإسلام مع العمل على إصلاح أحوال المسلمين دينياً واجتماعياً . لم يستطع الشيخ إبراهيم موسى تحقيق رغبته في تأسيس دولة إسلامية كما كان يصبو إليه، لكنّه ظلّ مناضلاً ومرشداً لجماعته إلى أن عاجلته المنية في عام ١٧٥١م بعد عمل دعوب دام قرابة خمس وعشرين سنة. وتم اختيار مودبّو (المعلم) إبراهيم سورى خلفاً له كزعيم جديد لجماعة الدعوة والإصلاح الديني . غير أن نزعة الدكتاتورية جعلته يفقد ثقة شعبه ، مما أدى إلى اندلاع حركة عصيان وتمرد قامت بهما تلك الجماعة بزعامه فقيه يدعى "مودبّو مادا" وأطاحت بحكمه. وتولى الزعيم الجديد تحت لقب "الإمام" ، لكونه فقيهاً وحاكماً في نفس الوقت .

لم تدم ولاية الفقيه "مودبّو مادا" لفترة طويلة أيضاً ، بل انقسمت صفوف المجاهدين، وضعف نفوذهم في النهاية بسبب الخلافات والنزاعات السياسية الداخلية التي أدت إلى نشوب الحرب الأهلية . أخذت تلك الفتنة السياسية والانقسامات الداخلية تختفي حيناً وتظهر حيناً آخر ، الأمر الذي دفع كثيراً من المجاهدين وعامة الناس إلى القيام بهجرات من تلك الدولة إلى المجتمعات والدول المجاورة البعيدة والأكثر أمناً واستقراراً . لكن احتفظت

تلك الجماعات وأفرادها بأملهم في إنشاء دولة تكون قائمة على أسس الشريعة الإسلامية أينما حلّوا . وقد توصلوا ، نتيجة تجاربهم السابقة إلى ضرورة الاعتماد على مبدأ الشورى في تنصيب القائد أو الزعيم الذي ما برحوا يطلقون عليه لقب "الإمام" . وكان يتم اختيار الامام بواسطة أربعة من أعيان البلاد الذين يتم اختيارهم مباشرة من بين جماهير محتشدة ، ويقوم الأشخاص الأربعة، بعد إجراء مشاور فيما بينهم ، بترشيح أحد العلماء ليكون "الإمام والأمير" ، ثم يطلبون إلى الجماهير المحتشدة مبايعته علناً . اعتمد ذلك الترشيح على نزاهة الشخص المرشح وتركية الناس له بتقوى الله ومخافته وقدرته على ممارسة الحكم المخول له وقدرته على اتخاذ قرارات حاسمة وعادلة والإشراف على مصالح الأمة وشؤونها. والعمل على توفير الحماية والأمن من الأعداء والمعتدين ؛ ويقوم الإمام وفق هذا المبدأ ، بدوره باختيار ولاته الذين يطلق عليهم اسم "لامبيى" الجمع و"لاميطو" المفرد ليقوموا بالإشراف على مصالح المواطنين في مختلف المقاطعات الخاضعة لهم . وأهم ما تميز به هذا النظام هو إصرار الجماعة وفريق تنصيبه على أن يكون الإمام فقيهاً وعالماً بأحكام الشريعة ، وملماً بخبرات الحياة حتى تطمئن الجماعة بأن قائدها على بينة من منطوق كتاب الله وتوجيهات رسوله الكريم ، ومتمسكاً بتعاليم دينه ومتحلياً بأخلاق تليق بمنصبه كإمام أو حاكم ، وكانت حركة الإصلاح التي انبعثت في "فوتا جلولو" هي الأولى من نوعها التي قضت على رواسب الوثنيات القديمة والأعراف المناوئة للتعليمات الإسلامية الصحيحة في

تلك المنطقة وأدت إلى إنبعاث أشعة حركات أخرى أكثر صلابة واتساعاً للإصلاح الاجتماعي والدعوة إلى الدين في المجتمعات المجاورة . فثمة حركة الدعوة الإسلامية والإصلاح التي اندلعت في إمارات فوتا تورو بزعامة فقيه آخر يدعى سليمان بال الذي أعلن جهاده الإسلامي ضد بعض القبائل الفولانية التي امتنعت عن الاستجابة للدعوة وعمدت إلى إعاقة جهود فيها في القرن الثامن عشر الميلادي . وقد استطاع الفقيه سليمان بال تأسيس دولة إسلامية مبنية على كتاب الله وسنة نبيه المطهرة قبيل وفاته في عام ١٧٦٩م ؛ فجاء الفقيه ألفا عبد القادر خلفاً له ومد نفوذ تلك الدولة حتى شمل مناطق تمرکز قبائل ألولوف والسونكى والبامبرا (الماندنغو) المجاورة . ففي ظل تلك التيارات الثورية والتطلعات لإنشاء دولة إسلامية تعم كل غرب إفريقيا ، ولد أحمد لوبو وترعرع . انهارات إمارة ألفا عبد القادر في عام ١٨٦٤م بسبب نزاعات وخلافات نشأت بين أبناء الأسرة المالكة مما أدى إلى انشقاق صفوف قيادة الدولة وضعفها وتشتت شمل زعمائها ، وكان دين الإسلام الذي اعتنقه أبناء هذه القبيلة بحماس وحيوية ، عاملاً أساسياً في بناء كيان الشخصية الوطنية المتميزة لجماعة الفولاني . شكلت هذه القبيلة النواة الأولى للإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء . كان الدافع الديني وراء هجراتهم الجماعية في داخل القارة الإفريقية ورغبتهم في نشر هذا الدين بين سكانها الذين لم تصلهم الدعوة أو لتجديد حيوية هذا الدين وإصلاح أمره بينهم .

جدول رقم (۱)



الشيخ أحمد لوبّو بارى (برى)

مؤسس دولة ماسينا الإسلامية

مولده ونشأته :

يذكر لنا بعض المصادر التاريخية عن غرب إفريقيا، أن مملكة ماسينا دامت أكثر من خمسمائة سنة قبل ظهور الشيخ أحمد بن محمد بن سعيد بارى، الذي عرف أيضاً: بأمير المؤمنين أحمد لوبّو (أى أحمد الطيب)، كداعية ومصلح ديني واجتماعي في تلك المملكة وماجاورها. وأنه قد تعاقب خلال تلك المدة أربع وعشرون ملكاً كلهم من المسلمين إلى أن وصل الدور إليه لكن لم تقم هناك دولة إسلامية قبله. وكان ابنه "أحمد مو أحمد" آخر هؤلاء الملوك وأكثرهم شهرة وأصغرهم سناً لأنه قتل وهو في السابعة عشرة من العمر .

ولد الشيخ أحمد بن محمد بن سعيد بارى، المعروف بأحمد لوبّو ببلدة بامغال (٣٢) باقصى الشمال الأوسط بمجمهورية مالي حالياً، في ١٧٧٥م. نشأ الشيخ أحمد يتيماً لأنه فقد أبويه وهو في سن الطفولة فكفله أخواله بنفس البلدة . حفظ أحمد لوبّو القرآن الكريم وهو في سن الصبا كما هي العادة لدى العائلات المسلمة المتدينة في الغرب الإفريقي في ذلك الوقت. واستمر في تحصيل الفقه وقواعد اللغة العربية مع أبناء أخواله الذين كان يرعى لهم

(٣٢) تشير بعض المصادر إلى أنه ولد في بلدة كايال أو "ملاغال" الجبلية .

الماشية من البقر والغنم . وشوهد فيه منذ المرحلة الأولى من نشأته ، حب حياة العزلة والانطواء و الزهد ، لذا كان يوجه انتقادات ضد حياة الترف واللهو ، سيما العادات الوثنية التي كان يتباهى بها أبناء الأثرياء والمترفين . وبعد فترة من الزمان التي استغرقها أحمد لوبو في تحصيل المعرفة وإحراز التقدم في طلب العلم مع تقوى الله ، بات الشاب فخوراً بثقافته الدينية والعربية .

فأخذ يعظ أتباعه من الفتيان ويسدى إليهم النصيح ويدعوهم إلى التحلى بالأخلاقيات الإسلامية الحميدة والفاضلة والابتعاد عن الرذائل وأعراف الشرك البالية . ورأى الشاب ، أحمد لوبو ، في منامه ذات ليلة أن الله جل جلاله يأمره بالنهوض وإنقاذ أبناء جلدته من الانحراط في الممارسات الوثنية الشائعة في بلاده ومجتمعه آنذاك . وعندئذ شمر وهو في سن الكهولة عن ساعد الجد ليجهز نفسه بالتبحر في العلم وكسب المعارف والإلمام بالتنظيم الإداري أولاً ، ثم بتعبئة الشباب والرجال ثانياً . فسافر من مسقط رأسه متوجهاً إلى مدينة "جيني" حيث تركز علماء الدين من أهل اللغة والفقه بغية تحقيق رغبته في العلم والمعرفة . وبعد ذلك انتقل إلى بلدة "روندى سيرو" بماسينا حيث استقر وأخذ يعظ الناس ويدرس النشء . ومن المرجح أن أحمد لوبو الذي أصبح يعرف "بالإمام والشيخ" قد تأثر بالتيارات الفكرية الثورية الإسلامية التي كانت سائدة في العالم الإسلامي وقتئذ وبتوجهات خلافة صوكتو بقيادة الشيخ عثمان دان فودى ، مؤسس تلك الدولة الإسلامية وأخيه عبد الله ، الذين كانا متأثرين ، أيضاً بآراء الإمامين أبى حامد الغزالي وابن تيمية . وقيل إنه سافر بالفعل إلى بلاد

الهاوسا بشمال نيجيريا في عام ١٨٠٥م وانضم إلى الجهاد الذي كان الشيخ عثمان دان فودي وجماعته قد أعلنوه في تلك المنطقة .

عودته إلى ماسينا وتأسيس الخلافة

كان هناك عديد من المسلمين من قبيلتي الفولاني والسوننكي في منطقة ماسينا التي تعيش معاً جنباً إلى جنب وبجوارها قبيلتا الماندنغو والبوزو حيث يوجد من بينهم وثنيون وذلك في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي . وكانت ثمة حالة من العداء والتناحر القائمة بين القبائل المسلمة وغير المسلمة . ومن ثم باتت المنطقة مشحونة بمواجهات واصطدامات من وقت لآخر وبالتالي أصبحت بيئتها قابلة لانفجارات دموية ونشوب حروب أهلية ، وكانت زعامة إمارات ماسينا وتتمثذ في أيدي عشيرة فولانية حاملة لقب "جللو" وتنافسها في الزعامة عشيرة فولانية أخرى حاملة لقب "برى أو بارى" . وإلى هذه الأخيرة ينتمى الشيخ أحمد لوبو ، لكن شاءت الأقدار أن تنتقل حكم ماسينا من أيدي أبناء العشيرة الأولى إلى أيدي أبناء العشيرة الثانية . ومن ناحية أخرى، كانت هناك مجموعة تدعى "الرمة/الرمة" انحدرت من بقايا الحسين المغربي وكان لها نفوذ قوى في تلك المنطقة بعد هيمنتها على شؤونها إثر سقوط مملكة صونغاى في عام ١٧٩١م . ووقع خلاف بين الشيخ أحمد لوبو وزعيم الرمة الذى أبعد الشيخ أحمد كلياً عن أراضي صونغاى التي كانت خاضعة لسلطانه . وتوجه الشيخ الى بلدة "سييرا" الواقعة في إمارات ماسينا حيث

استقر وأخذ في التدريس والوعظ والإرشاد . وهناك احتشد حوله لفيف من طلبة العلم والأتباع العاديين الذين أصبحوا يزدادون حشوداً يوماً بعد يوم . وفي ذات يوم وبمشيئة الأقدار ، تشاجر أحد طلاب الشيخ أحمد مع ابن "أرطو" الذي كان حاكماً لإحدى مقاطعات ماسينا . وضرب الطالب ابن الحاكم وأرداه قتيلاً . وأراد الحاكم أخذ الثأر عن ابنه القتل وطلب من الشيخ أحمد لوّبو تسليم الطالب القاتل إليه . لكن الشيخ أبى وإمتنع عن الأمثال لمطالب الحاكم . فتفاقم الموقف بين الطرفين ، فانتاب الحاكم "أرطو" الخوف لكنّه أصر على مقاتلة الشيخ أحمد لوّبو وجماعته إذا تمادى في عناده ورفضه تسليم الطالب القاتل والتخلص عنه . لكنّ الشيخ رفض تلبية رغبة الحاكم ، الذي استنجد بمملكة سيغو البامبرية لأنها كانت خاضعة لزعامة ماسينا . وانشغل الشيخ في تلك الأثناء بأنشطته في الوعظ والإرشاد والدعوة . وأرسل أحد تلاميذه إلى أراضى "الرّمة" لدعوة الناس إلى دين الإسلام ، كما كان يفعل بالنسبة للمقاطعات الأخرى ، ولم يرفض زعيمهم السّماح بالقيام بتلك الأنشطة الدينية فحسب ، بل أمر باعتقال رئيس الدعاة وقتله على الفور، تحسباً وخوفاً من ألا تتأثر منطقته بدعوة الإصلاح الذي ينهص به الشيخ أحمد وجماعته . وقام الشيخ ردّاً على تلك الجريمة وردعاً لعدوان حاكم إمارات ماسينا وحليفه ملك مملكة سيغو ، بإعلان الجهاد الذي عم المنطقة برمتها . فاحتل مدينة "جيني"، وأسس عاصمة جديدة لدولته الفتية وسماها "حمد الله" في عام ١٨١٩ م . وأخذت مملكة ماسينا الجديدة بقيادة الشيخ أحمد لوّبو بارى بعد انتصاره على أعدائه ، تنمو شيئاً فشيئاً إلى أن أصبحت

دولة عظيمة الشأن ومترامية الأطراف شرقاً وغرباً ، وشملت كل مجرى نهر النيجر الأوسط، من منطقتي جينى وتبكتو وصولاً إلى المناطق التي تسكنها قبائل البامبرا والبوزو والدوغون الخ .

لم تكن أهمية مملكة ماسينا بسبب اتساع مساحتها أو عمرها الزمنى وفق معايير الممالك التي قامت في إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى ، بقدر ما اشتهرت وامتازت به من حسن الأنظمة الإدارية المحكّمة . إنّ الشخصية الإسلامية التي اتصفت مملكة ماسينا وخلافتها بها هي التي مهدت الجو الثقافي والعقيدى المناسبين وأرست الأبنية البيئية الدينية الأساسية التي انبنى عليها الجهاد اللاحق للشيخ عمرتال الفتوى ، مؤسس الدولة العمرية في السودان الغربي . فعلى سبيل المثال ، قام الشيخ أحمد لوبّو بتشكيل مجلس تكون من عضوية أربعة وستين عالماً وقاضياً . نحول لهذا المجلس سلطة تشريعية وتنفيذية لكنّه ظلّ خاضعاً للمجلس الآخر الذي ترأسه الشيخ نفسه ويضمّ عضوين آخرين ، وكان من شروط العضوية ألا يقل عمر العضو عن أربعين سنة . كان لكل مقاطعة من مقاطعات الدولة أمير ومعه قاض وأمين الخزانة يقومان بمساعدته في تسيير شؤون مقاطعته ، وكانت إيرادات الدولة تأتي من حصيلات الضرائب وغنائم الجهاد والغرامات وتركات الوقف والثروات أو الممتلكات التي تتم مصادرتها شرعاً .

العوامل الحافزة إلى إعلانه الجهاد

كان الجهاد الذي أعلنه الشيخ أحمد لوبّو جزءاً من الجهود الرامية إلى إحياء الدين الإسلامي في الغرب الإفريقي؛ انطلاقاً من مختلف حركات الدعوة إلى الإسلام أو لإصلاح أمور المسلمين في الغرب الإفريقي ، ابتداء من القرن الثامن عشر الميلادي . ونذكر فيما يلي أهمها :

أ- عدم ارتياح المسلمين بالانقياد والخضوع للحكومات غير الإسلامية مهما عظم شأنها التي كانت منتشرة في معظم أنحاء السودان الغربي .

ب - اعتبار المسلمين دينهم الإسلامي أرقى وأسمى من أى دين آخر بغض النظر عما يتمتع به غير المسلم من الثروة أو السلطة أو الجاه أو النفوذ أو غير ذلك من المناصب الاجتماعية والسياسية تحت الحكومات التي لا تطبق الشريعة أو الوثنية .

ج - إجادة المسلمين القراءة والكتابة بالحروف العربية بفضل تعلمهم القرآن الكريم إلى جانب تعليم الفقه مما جعلهم يشعرون تلقائياً بضرورة أن تكون للقيادة الدينية والحياة الدينية الإسلامية الأفضلية والأسبقية في مجتمعاتهم الإفريقية في الغرب الإفريقي مهما كلفهم ذلك .

د - اشمزاز المسلمين من دفع الضرائب إلى الحكام والملوك الذين لا يحترمون الشريعة أو الوثنيين الذين يقومون بتقديم القرбан إلى أصنامهم ويصنعون الأسلحة بالأموال المحصلة من تلك الضرائب لتقوية دويلاتهم القائمة على عقيدة الكفر والطغيان الضالة .

هـ- اعتقاد الكهنة وعبدة الأصنام في أن دين الإسلام دخيل عليهم وبالتالي فإن نموه في أوساطهم ، يهدد مصالحهم الاجتماعية والاقتصادية ، كما يؤدي إلى انتزاع الاحترام والتقدير والطاعة التي يضمنها السكان لهم ولعاداتهم الوثنية ؛ لذا اعتبروا الدين الإسلامي عملاً عدوانياً .

و- عدم إبداء الملوك الكفرة الاستعداد أو الرغبة في التخلي عن المعتقدات والعادات الوثنية والتمادي في إضمار حالات العداء ضد الإسلام والتواطؤ ضد المسلمين . ومن بين ذلك التواطؤ والتآمر ضد المسلمين وإغراء بعض الأفراد من المسلمين السذج واستدراجهم للتآمر ضد عقيدتهم وإخوانهم من المسلمين لصالح أولئك الملوك وإمدادهم بأدوات حرية .

ز- إضفاء الحماس القبلي أو الوطني على دين الإسلام في تلك الحقبة من تاريخه ومكانه . إذ اعتبر أبناء بعض القبائل المسلمة الجهاد كأنه جهاد من أجل حماية قبيلتهم ورفع مكانتها ؛ اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً . من بينها قبائل الطوارق الصحراوية والصونغاى والماندنغو والفولانى . ولا غرابة في ذلك ، لأنه عندما جاء الإسلام إليهم وجدوه يدعوا إلى السجاية والأخلاق الحميدة التي توافق وتنسجم مع ما ألفوه من العادات كتكريم الضيف وحمايته واحترام العدالة الاجتماعية وضرورة حماية المرأة والمستضعفين من العجزة ضد الاستغلال البشع في مجتمعاتهم .

قيام دولته

وفي بداية القرن الثامن عشر عندما أخذت ثروات الرعاة والمزارعين من قبائل الفولاني تقل تدريجياً بسبب القحط والجفاف المستمرين ، أراد بعض الإقطاعيين من تجار البامبرا والفولاني من سكان "جيني" وغيرها من المدن التجارية الشهيرة ، أن يستغلوا ثمار جهود صغار المزارعين والرعاة الذين يعيشون في المنطقة ، وذلك عن طريق فرض الضرائب العشوائية المغرضة عليهم ونهب ثرواتهم عنثاً ، وإبان تلك الأوضاع ظهر أحمد لوبو باري الذي أخذ في الدفاع عن هذه الفئة الكادحة من الشعب بغية إزالة الظلم عنها. فطالب بتطبيق الشريعة الإسلامية والعمل بمنطوق كتاب الله وسنة رسوله الكريم . واستطاع في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي أن يشكل جيشاً مؤلفاً من الشباب المتحمسين للدين الإسلامي والغيورين عليه في منطقة جيني .

واجه الطغاة الظالمين من حكام المنطقة وحقق النصر عليهم بهزيمة جيش البامبرا في عام ١٨١٨ م ، وبعدئذ أقام دولته الإسلامية . وفي غضون بضع السنوات التي تلت ، استطاع أحمد لوبو الذي تقلد لقب "الشيخ" القضاء على معاقل الوثنية . وفي عام ١٨١٩ م أقام عاصمة جديدة لدولته وسماها "حمد الله" . ووضع نظم انضباط تنقلات رعاة المواشي وأدخل الإصلاحات الدينية وأنشأ مجلساً استشارياً مكوناً من العلماء والفقهاء ذوي النزاهة التاريخية للإشراف على شؤون رعاياه على ضوء الكتاب والسنة . فحظر الاتجار في المسكرات والتبغ إلى آخره . كما أوصى بتحديد اختلاط

الرجال بالنساء الا في حالات ضرورية . كما حظر تبرج النساء بارتداء الملابس التي لا تليق بهن وإظهار السلوكيات المنحرفة . كانت دولة ماسينا، خلاف الدويلات الأخرى في المنطقة ، متميزة بمركزية النظم الإدارية وتحصيل الضرائب وتوفير المصالح العامة وتنظيم القوى الأمنية والعسكرية . استطاع الشيخ أحمد لوبو بارى بحلول عام ١٨٢٥م ، مد نفوذه شمالاً حتى شمل منطقة مجرى نهر ديبو ومنطقة تنبكتو التي كانت تحت سيطرة قبيلة كوننة الصحراوية . اشتهرت تنبكتو بالتجارة وكملتقى للثقافة الإسلامية ، وقد تمتعت فيما بعد باستقلالها النسبي وبدء التعاون والتفاهم بين علماء ماسينا وعلماء تنبكتو في مختلف القضايا التي تهم الطرفين إغرازاً لتقدم الإسلام في بلاد السودان الغربي والأوسط .

انتقل الشيخ أحمد لوبو إلى رحمة ربه المنان في يوم الجمعة الموافق اثنى عشر من شهر ربيع الأول للسنة ألف ومأتين وست وسبعين الهجرية (١٢٧٦م) بعد العمل الدؤوب الذى دام عشرين ونيف سنة في الاجتهاد والجهاد والإصلاح الاجتماعي . غمده الله بواسع رحمته . هو الذى أضفى الشخصية الإسلامية على الشخصية الفولانية حتى أصبحت كلمة "الإسلام" مرادفاً لكلمة الفولانى في إفريقيا جنوب الصحراء . استخلف الشيخ أحمد لوبو بارى قبيل وفاته ابنه أحمد الثانى الذى تولى الحكم بعد والده في عام ١٨٥٢م . وعرف بأحمد "مو" أحمد أى أحمد بن أحمد .

نشأة أمير المؤمنين أحمد "مو" أحمد لوّبو.

ولد الأمير أحمد مو أحمد بمدينة حمد الله المذكورة آنفاً التي كانت مقر خلافة الإمامية الماسنوية في حوالى سنة ١٢٦٠ الهجرية الموافق عام ١٨٤٤ م . حفظ القرآن الكريم عن ظهر القلب عند والده في بواكير حياته ولم يكن قد جاوز العقد الأول من العمر . كان أكبر أبناء والده ذكوراً . ونظراً لما كان يتمتع به من الذكاء واتزان الشخصية والشغف للعلوم والتّدين الذي فطن عليه ، حظي بحب مفرط من والده ورجال بلاط الخلافة الإسلامية بإمارات ماسينا مما جعل كل من يرزق من المسلمين الفولانيين بأول مولود له ذكر يسميه أحمداً تخليداً لذكرى ذلك الاسم ، حتّى أصبحت العادة عند الفولانيين أن يلقّبوا ابنهم الأول "بأحمد" حتى وإن كان له اسم آخر . تلقى الأمير أحمد تعليمه الأوّل فى مدينة "حمد الله" ، لكن لم تشأ الأقدار أن يستمر على عرش الإمامية لإمارة ماسينا مدة طويلة .

تعاهد التاريخ مع صانعيه ليطول الأمد ببعضهم ويقصر بالبعض الآخر . مات الأمير أحمد بن أحمد لوّبو في السن السابع عشر من العمر ، أى وهو في عنفوان شبابه نتيجة حرب وقع هو ضحية لها . ولم يكن له فيها ناقة ولا جملاً بل وجد نفسه متورطاً فيها لمواجهة الشيخ عمر تال الفوتى الذى كانت تلك الحرب ، بطبيعة الحال ، كرهة له أيضاً . تولى الأمير أحمد مو أحمد ، عرش ماسينا خلفاً لوالده الشيخ أحمد لوّبو ، وهو ابن خمسة عشرة سنة . كانت تلك الحرب التي أطاحت بعرشه مفاجأة ولم يتخذ لها خطوات التحسب

بحكم حداثة سنه وقلة خبرته فى الحياة . وكان يعلم أن عرشه الذي ورثه من أبيه ، قد أسس ليخفق علم الإسلام في كل ربوع الإمارة وما جاورها . لم يكن متحسباً للحرب ، لاسيما من خصمه الذي كان منذ عهد قريب والدًا له وضيئاً مشرفاً نزل على والده الشيخ أحمد لوبّو وعلى عرش ماسينا وأهلها. قضى أمير المؤمنين ، أحمد مو أحمد قرابة سنتين فقط على عرش ماسينا. وهي نفس الفترة التي قضّاها خصمه على العرش نفسه بعد سقوطه (العرش) من يده وانتقل إلى يد الشيخ عمر تال الفوتى الذي توفى نتيجة ثورة قام بها أهل ماسينا عليه بعد مرور سنتين فقط على استيلائه ذلك العرش . رحمهما الله وكل من كانوا معهما من المسلمين والمسلمات جميعاً وأدخلهم فسيح جنات النعيم .

السبب المباشر للحرب :

أشير ، باختصار إلى السبب المباشر لنشوب تلك الحرب المشؤمة بين الشيخ عمر تال الفوتى وأمير المؤمنين أحمد مو أحمد ، نجل الشيخ أحمد لوبّو، مؤسس خلافة ماسينا . أدت تلك الحرب في نهاية الأمر إلى انهيار ثلاث دول إسلامية خضت بثقافة إسلامية وعربية رفيعة المستوى . كما أودت بحياة ما يقرب من ثمانين ألف قتيل من أبناء المسلمين وسقوط زعماء الممالك الثلاثة في السودان الغربي ؛ أى أحمد مو أحمد ، عمر الفوتى ، الشيخ سيدى المختار البكاى الكونتى .

كان هناك خلاف قد وقع بين الشيخ عمر الفوتى ، أثناء تجواله وهو شاب ، طلباً للعلم على أيدي علماء وفقهاء مالى ، وقبل سفره إلى الحجاز

وبلاد المشرق العربي ، وبين الملك "فارما على مونزو ويتلا" ملك دولة سيغو البامبرية . فأمر الملك باعتقال عمر تال الفتوى واحتجازه ثم أراد قتله فيما بعد . لكنّ زوجة الملك حالت دون ذلك وطلبت إلى زوجها إطلاق سراح سجينه ، فلبّى لها تلك الرغبة وأفرج عنه . واصل الشيخ عمر الفتوى سفرياته بعد ذلك ماراً بكل من دولة صوكتو العثمانية في نيجيريا والدولة المهدية بالسودان الشرقي ، وصولاً إلى الأراضى المقدسة بالحجاز والأردن ومصر . وعندما عاد إلى المنطقة كداعية إسلامي وخليفة الطريقة التجانية وقوت شوكته وأصبح شيخاً ، بوجود أتباع ومريدين كثيرين ، كانت دولة سيغو أحد الأهداف الرئيسية للهجوم والقضاء على ملكها من قبله . وبالطبع ، تعرضت تلك الدولة ، كغيرها ، من الدويلات البامبرية الأخرى الوثنية القائمة في المنطقة ، للمواجهة مع الجيش العمرى . دخل جيش الشيخ عمر الفتوى مدينة سانساندنغ ، عاصمة مملكة سيغو واحتلها في السنة ١٢٧٣هـ الموافقة للعام ١٨٥٦م ، بعد هزيمة جيش البامبرا بقيادة ملكهم "فارما على مونزو ويتلا" . اختفى الملك ويتلا مختبئاً في مكان مجهول عن الشيخ عمر وأتباعه . وبعد مرور خمسة أشهر من احتلال بلاده لجأ الملك ويتلا إلى مملكة ماسينا المجاورة ، وطلب إلى ملكها (الصبي) "أحمد مو أحمد" أن يحميه من الشيخ عمر الفتوى وجماعته ، قائلاً إنه أسلم وإعتنق دين التوحيد . طلب الشيخ عمر الفتوى إلى أمير المؤمنين ، ملك ماسينا أن يعيد إليه "ويتلا" خصمه ، لأنه كافرٌ ولا زال على عقيدته الوثنية ، على رغم تظاهره بدين الإسلام . لكنّ الأمير "أحمد مو أحمد" رفض هذا الطلب من الشيخ عمر الفتوى . واستفتى

علماء الذين أفتوا إليه بعدم جواز تسليم خصم استجار بإنسان مسلم إلى من قد يقضى على حياته ، لا سيما أنه كان زعيم قوم ، ولو كان كافراً وبينهما حالة عداة قديم . ويجب عدم إفساح المجال لتصفية حسابات قديمة . واستدلوا بآراء كثيرة منها :

أن الله سبحانه وتعالى قال في سورة التوبة :

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

ب- وقال في سورة النساء : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيْنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتُ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَيْنُوا إِنْ اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ .

وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: " إِنْكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ فَلْعَلْ بَعْضُكُمْ أَنْ يَكُونَ الْحَنَ بُحْجَتَهُ مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِي لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ مِنْهُ ، فَمَنْ قَطَعْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ " حديث متفق عليه .

وجاء في صحيح البخارى : عن عمرة عن عائشة رضى الله عنها، عن النبى ﷺ . قال : "ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه " .

وعن أبي شريح الخزاعي ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت .

في سيرة ابن هشام : أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد سمح للعباس رضي الله عنه أن يجير أبا سفيان عند فتح مكة ، وكان أبو سفيان يومئذ مشركاً وزعيم قومه . بل أكرمه رسول الله ﷺ أمام قومه . فقال : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن " . (٣٣)
أعلن الشيخ عمر الحرب على دولة سيغو وإمامية ماسينا وإمامية كونتي .
استشهد الزعماء الثلاث من جراء تلك الحرب وتشرد الآلاف الباقون من أتباعهم الذين ظلوا على قيد الحياة ، إلى مجاهيل التاريخ .

كان للجهاد الذي قام في السودان الغربي تحت إمامية ماسينا ، حصيلة إيجابية في تاريخ انتشار الإسلام في غرب إفريقيا . منها : تعميم تحفيظ القرآن على قرى وأمصار تلك الدولة والمناطق المجاورة لها . كما ارتفعت نسبة الحفاظ وأهل الفقه وعلماء اللغة بين مختلف طبقات المجتمع . كان التعليم بصفة عامة متجاوباً مع تطلعات الحكومة المركزية لتلك الدولة باختيارها المستشارين والإداريين معتمدة في ذلك على الكفاءة العلمية

(٣٣) مخطوطات عشر عليها المؤلف أثناء زيارته إلى مدن : تنبكتو وموبتي ، وحمد الله ، بجمهورية مالي في يوليو عام ١٩٩٠ م .

والخبرة . كما انتعشت الحركة الأدبية في الشعر والتاريخ باللغة المحلية التي كانت تكتب بالحروف العربية. يقدر بعض المصادر التاريخية عدد العلماء والفقهاء المشهورين في دولة ماسينا بنيف وثلاثمائة . لكن معظم إنتاجاتهم العلمية والأدبية قد اندثرت بفعل الحرب الأهلية التي نشبت هناك . وفيما يلي قصيدة نونية نظمها أحد أدباء ماسينا - يدعى الشيخ أحمد حمّا بركى ، أجمل فيها بعض فحول علماء بلاط الدولة .

- ١- بِحَمْدِ اللَّهِ "حَمْدُ اللَّهِ" وَطَنِي
 - ٢- وَفِي حَافَاتِ حَمْدِ اللَّهِ قَوْمٌ
 - ٣- وَجَدَدَ سُنَّةً فِي عَامِ شَرْجَلُ
 - ٤- لَقَدْ أَحْبَبْتُهُ حُبًّا يَلِغَا
 - ٥- وَحُبُّ الشَّيْخِ مُقْتَلِعٌ بِقَلْبِي
 - ٦- خِلَافَةُ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ كَبِجٌ
 - ٧- أَحْمَدُ وَعَبْدُ اللَّهِ مُؤَبَّرٌ
 - ٨- مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ذُو حَظٍّ
 - ٩- وَمُدَّةُ سَبْطِهِ كَطٍّ وَطَاءٌ
 - ١٠- وَحَامِدُ شَيْخٌ كَذَا عَبْدُ السَّلَامِ
 - ١١- وَمَحْمُودُ الَّذِي قَدْ بَلَغَ الْعُلَى
 - ١٢- وَبَالُوْبُو كَرِيمٌ سَيِّدٌ مِنْ
 - ١٣- كَذَا الْحَاجُّ مَعَ غُرُورٍ سَعِيدٌ
- وَمَسْقَطُ جِهَتِي وَمِفْتَاحُ عَيْنِ
كَرَامٍ لَمْ يَنْلَهُمْ كُلُّ شَيْنِ
أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بَغِيرِ مَيْنِ
لِمَنْ قَدْ كَانَ صَلَّى الْقِبْلَتَيْنِ
إِلَى صَدْرِي وَمَوْضِعِ مَنْحَرَيْنِ
وَمُدَّةُ عُمْرِهِ لَوْ مَرَّتَيْنِ
حَيَاتُهُمَا كَانَتْ جَوْهَرَيْنِ
كَذَا عَلَى شَيْخٍ كُنَّا عَابِدَيْنِ
خِلَافَةُ أَحْمَدٍ مِنْ أَحْمَدَيْنِ
بَعِيدَيْنِ الْمَلَامِ وَأَجْدَرَيْنِ
سَخِيٍّ يَدٍ مِنْ سَيِّدَيْنِ
خِيَارِ الْقَوْمِ وَصَافِي الْوَالِدَيْنِ
وَأَحْمَدُ لَوْ بُو مُنْبَسِطُ الْيَدَيْنِ

- ١٤- كَذَا أَلْفَا سَعِيدٌ وَجَاجِي إِخْوَانُ
 ١٥- كَذَا أَلْفَا عَلِيٌّ شَهِيرٌ عَلِيمٌ
 ١٦- أَلْفَا حَمَّا مَسَارُ سِينِ
 ١٧- وَأَلْفَا نُوحٌ ذُو عِزٍّ وَجَاهِ
 ١٨- كَذَلِكَ "هَنْبَرُكِي" ذُو عِلْمٍ وَعَدْلٍ
 ١٩- وَعَبْدُ الْقَادِرِ الْجِيلَانِي مَعَا
 ٢٠- "لَيْتَنِي" تَسْأَلُ بَنِي الْحَمْدِ طَرًّا
 ٢١- وَسِيرِي الْغَلِي وَبَرُكِي "إِخْوَانُ"
 ٢٢- وَأَلْفَا مَلِكُ ابْنِ الْحَاجِّ عُمَرُ
 ٢٣- سُلَيْمَانُ لَهُ فِي الْبَيْتِ قَبْرٌ
 ٢٤- وَأَلْفَا وَلَدٌ وَلَعُ الْمُحِبَّةِ
 ٢٥- رَاعَانَا "الْفُولَانِي" بِطَاعَةِ
 ٢٦- أَلَمْ تَرِ بَعْضَهُمْ إِلَّا يَقِينًا
 ٢٧- أَلَا بَلَّغُوا عَنِّي يَا بَنِي الْفُولَانِي
- وَنَحَلًا حَمَّا كَانَا عَابِدَيْنِ
 صَاحِبَا الشَّيْخِ وَنِعَمَ الصَّاحِبَيْنِ
 شَاهِدُ الشَّيْخِ وَنِعَمَ الشَّاهِدَيْنِ
 وَأَلْفَا مُؤَبَّرٌ كَانَا زَاهِدَيْنِ
 يَقُومُ لَنَا مَقَامَ الشَّاهِدَيْنِ
 كَانَا بَعِيدًا عَمَّا يُوصِلُهُ لِلرَّيْنِ
 لَقَالُوا أَنَّهُ مِنَ الْمُبَارَكِينَ
 مَشْهُورَيْنِ كَانَا فَائِزَيْنِ
 عَمِيقُ الْعِلْمِ بَيْنَ الْعَالَمِينَ
 وَأَلْفَا بُوبَا كَانَا فَائِزَيْنِ
 لَخَيْرِ الْعَالَمِينَ جَدِ الْحُسَيْنِ
 أَمْرٍ يُوصِلُنَا لِرَبِّ الْعَالَمِينَ
 وَإِيمَانًا بِرَبِّ الْمَشْرِقَيْنِ
 أَبْطَالُ حَمْدِ اللَّهِ كَانُوا فَائِزِينَ

لقد حظي علماء الدين والثقافة العربية والإسلامية بصفة عامة، بتشجيع واهتمام بالغين في اطل إمامية الشيخ أحمد لوبو . ضرب بذلك مثلاً يحتذي به . وسقوط تلك المملكة بالصورة التي حدثت تعتبر حقاً مأسوية تاريخية ونكسة التردى ألفت بها مسيرة الإسلام في الغرب الإفريقي .

كانت مدينة "حمد الله" في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي تماثل في السودان الغربي ما مثلته عواصم العالم الإسلامي من أمثال: بغداد ودمشق والقاهرة بالنسبة للنهضة الإسلامية في المشرق العربي في القرون الوسطى. كانت تلك العاصمة ذات حيوية ثقافية آهلة بحفاظ القرآن وفحول العلماء والفقهاء وأهل اللغة . كما كانت تفتخر بمآذنها الشامخة والمنتشرة على طول العاصمة وعرضها حيث يسمع منها دوى أصوات المؤذنين في أوقات الصلوات المتوالية . لكن أصبحت اليوم مدينة خاوية على عروشها وكأنما لم تكن قط . تشهد على أنقاضها قبور الشهداء وآثار المساجد والحصون . وفيما يلي قصيدة نونية نظمها أحد علماء إمامية ماسينا يدعى ألفا يحيى موسى لوبو يرثى فيها مدينة "حمد الله" وأميرها أحمد مو أحمد :

- ١- هجوم أخ على أخيه جنون غدر أخ انظر كيف يكون
- ٢- من ظن أن العار يذهب سدا دعه واعلم أن ذاك جنون
- ٣- من قال إن الذنب يخفى لأعين فثق بأن ذاك صار جنون
- ٤- إن الذي طمع في شرب دم أخيه احذره واستيقن بأنه سيخون
- ٥- وبقدر ما استطعت تجنب وعده فاسرع واتق شر الخائنين
- ٦- ففي شهر عيد الله والقتال حرام أباحوا دم شقيق بدون حصون
- ٧- ياليت لو اعتبروا شوال المحرم مدينة سلم رضية رب العالمين
- ٨- وكل يهتف والدموع تسيل لغدر أخ على أخيه جنون
- ٩- وكل يهتف بحمد الله ترحمًا بأميرها أحمد كفيل أحمدين

- ١٠- ارتجفت مآذن كانت لله وقفاً وتعانقت القلوب بماء جفون
 ١١- أى مدينة بعد حمد الله تقوم ؟ ثناء لله وهبة رب العالمين
 ١٢- تألفوا مع الدوغون هابى هيرى والبورزو والتومبو (٣٤) جماعة الأوثان
 ١٣- لم يكونوا الحلفاء الصالحين بل كان حلفاً لمدائن الأوثان
 ١٤- انخدعت الدوغون والبورزو والتومبو حلفاء شر تحطيم مدينة أحمددين
 ١٥- فارتشوا بحلية أساوير ذهباً وفضاً كئمن لاغتيال ابن أحمددين
 ١٦- ذاك الولى ، بل ونجل الصالحين تقى الله رضيع أحمددين
 ١٧- سقطت شهيداً في نهر مانى صار مأوى لرفات الصالحين

"دال"

الدولة العمرية الفتوية

بلاد فوتاتورو :

تقع بلاد فوتاتورو^(٣٥) في الأودية الوسطى لنهر السنغال فيما بين صحراء موريتانيا ومنحدرات منطقة السنغاميا على بعد حوالي ١٠٠ ميل شمال المحيط الأطلسي . يتميز موقع بلاد فوتاتورو بأحسن الممرات الداخلية والأراضي المنبسطة والمستنقعات الصالحة للإنتاج الزراعي بأقل درجة سقوط الأمطار مرتين خلال السنة . لذا اشتهرت بلاد فوتاتورو بالمحاصيل الزراعية والثروة الحيوانية التي تجذب المهاجرين إليها من أهالي مختلف مناطق السودان الغربي والمغرب العربي وسكان الصحراء الكبرى عبر القرون . يمتد حزام أوديتها بحوالى ٢٥٠ ميلاً شرقاً وبحوالى ٢٠ ميلاً غرباً . ليس هناك حواجز طبيعية تحمي أراضيها الشاسعة من هجمات وغارات متكررة في الماضي بين مختلف قبائلها والقبائل المجاورة التي اكتسحت أجزاءً من موريتانيا وصولاً إلى المغرب

(٣٥) هناك أربعة أقسام من بلاد فوتاتورو ، وهي : (١) فوتاتورو الموجود في السنغال وموريتانيا (٢) وفوتاتو جلولو في غينيا (٣) وفوتاتو بوندو في مالي (٤) وفوتاتو ملّي في بلاد آداماوا بنيجيريا والكاميرون حالياً .

والجزائر. أدى هذا الوضع البيئى ، في العصور الغابرة ، بمختلف قبائل الفولاني في بلاد فوتاتورو إلى الانتقال من المناطق الشمالية النائية الأكثر تعرضاً لتلك الهجمات وتوجه صوب مجرى نهر السنغال جنوباً في المناطق الوسطى حيث أقامت دولتها المركزية التى أصبحت قوية تدريجياً واستطاعت الصمود أمام تلك الغارات وردعها . استطاعت دولة التوروبى (٣٦) تجسيد الشخصية الإسلامية لنفسها في أواسط القرن الثامن عشر الميلادى عن طريق النشاط التعليمي والاهتمام بالثقيف ونشر الإسلام ، حتى أصبحت كلمة "التوروطو" مرادفاً لكلمة "الفقيه" أو العالم بالشريعة الإسلامية . تميز عهد ملكها ألفا (أى ألفاهم) سليمان بال بأنشطة الدعوة وإقامة القوة العسكرية التي استطاعت الصمود أمام تهديدات دولة المرابطين في المغرب العربى وإلغاء ولاء شعب فوتاتورو لتلك الدولة في مطلع القرن الثامن عشر الميلادى . جاء ألفا عبد القادر خلفاً لألفا بال في زعامة دولة التوروبى ، فواصل مسيرة سلفه في نشر دين الإسلام عن طريق التوعية والثقيف في هدوء واستقرار . فكان أول من تقلد لقب "إمام الدين" (ألمامى بلغة الفولانى) في تلك الدولة لدى بلوغه السن الخمسين من العمر المديد . ومن ذلك التاريخ أصبحت الإمامية التوروية في مقدمة حركات الجهاد الإسلامية التي تعاقبت في منطقة السودان الغربى والأوسط . أحرزت الإمامية التوروية انتصارات كثيرة في مجالات الدّعوة الإسلامية بقيادة الإمام

(٣٦) المفرد = التوروطو ، نسبة الى بلاد فوتاتورو .

عبد القادر الذي عرف أيضاً بعبدول (٣٧) ففي سنة ١٨٩٦م قامت دولة التّوروي بقيادة عبدول بعد استرجاع الجزء الشرقي من تلك البلاد من سيطرة قبيلة جاننكي وإنهاء الاحتلال الموريتاني لشمال ضفاف نهرها . دخلت الإمامية التّوروية في معاهدة مع السلطات الاستعمارية الفرنسية التي احتلت مناطق شاسعة في غرب إفريقيا . تقوم بموجبها تلك السلطات بدفع رسوم للإمامية على العروض التجارية التي تحملها عبر الأراضي الإمامية شريطة عدم تعرض المسلمين من رعاياها للاسترقاق من جانب تلك السلطات الاستعمارية بيعاً أو شراءً . امتد نفوذ تلك الدولة حتّى اكتسح مناطق قبائل "ولفو" وقبائل سيرى غرباً ومقاطعات بوندو وغاجاغا وخاسو شرقاً . قام الإمام عبدول بتعيين دعاة وفقهاء وأئمة المساجد وقضاة للعمل في المناطق الخاضعة لنفوذه . وطلب من زعماء قبائل تلك المناطق أن يقوموا بحماية دعاة وأهاليهم وممتلكاتهم أثناء وجودهم في تلك المناطق . كما عرض عليهم قبول دين الإسلام والامتثال لشريعة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة . وبعد مرور قرن واحد من الزّمان على قيام دولة الإمامية التّوروية وأجهت تلك الدولة مرحلة الاضمحلال والانخراط بسبب خلافات داخلية . ففي تلك المرحلة ولد الشيخ عمر الفتوتى الكدوى (٣٨) مؤسس الدولة العمرية .

(٣٧) إختصاراً لإسمه الكامل (عبد القادر) .

(٣٨) أضاف الشيخ عمر الفتوتى هذا اللقب إلى اسمه . ويشير إلى المقاطعة التي ينتمى إليها في بلاد فوتاتورو .

قامت الدولة العمرية على يد داعية إسلامي ومجاهد ظهر في بلاد السودان الغربي في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي . وهو الحاج عمر بن سعيد بن عثمان بن مختار بن أحمد الفتوى . ويعرف أيضا في تاريخ الحركة الإسلامية في الغرب الإفريقي بالحاج عمر تال .

مولده ونشأته

ولد الحاج عمر الفتوى في قرية هلوار الواقعة في مقاطعة فوتاتورو بشمال جمهورية السنغال لأبوين مسلمين ينتميان إلى القبيلة الفتوية الفولانية في حوالي سنة ١٢١٠هـ، والموافقة للسنة ١٧٩٦م. نشأ الحاج عمر في كنف والده الشيخ سعيد تال الذي قام بتحفيظه القرآن الكريم ولم يكن قد جاوز سن البلوغ بعد . تلقى دراساته الأولية في الإسلام من التوحيد والفقه واللغة العربية لدى أفراد عائلته وعلماء قرية هلوار . وفي عام ١٨١٥م سافر إلى بلاد فوتا جلولو الواقعة في غينيا واستقر في قرية تسمى كرموسنتانا حيث قضى فترة من الزمان يعلم أبناء المسلمين العلوم الإسلامية. هناك التقى بأحد مشايخ الطرق الصوفية يدعى الشيخ عبد الكريم بن أحمد وأخذ عنه الأوراد التجانية ومبادئ علم العروض . سافر بعد ذلك إلى موريتانيا ، حيث التقى بشيخ آخر يدعى الشيخ مولود فال الذي جدد له العهد بتلك الأوراد التجانية . ارتحل بعدئذ قاصداً الأراضى المقدسة لأداء فريضة الحج مع شيخه عبد الكريم بن أحمد المذكور . مر الحاج

عمر ، خلال سفره هذا، بعدة عواصم ومدن بلاد السودان الغربي والأوسط ، انطلقاً من مدينة "حمد الله"، عاصمة دولة ماسينا ووصولاً إلى مدينة صوكتو مقر خلافة صوكتو الإسلامية . هناك استقبله السلطان محمد بللو ، أمير تلك الخلافة. كانت صوكتو في ذلك الوقت مزاراً للأدباء والفقهاء ورجال السياسة من مختلف أرجاء بلدان الغرب الإفريقي. أتيح للحاج عمر الفوتي أثناء تواجده هناك، فرصة مقابلة شخصيات من العلماء والزوار، من بينهم الشيخ أحمد (٣٩) سيدى البكاي بن الشيخ سيدى المختار الصّغير بن الشيخ سيدى محمد بن الشيخ سيدى المختار الكونتى الكبير زعيم الطريقة الصوفية القادرية في تنبكتو. كما قابل "هوج كلابرتون" Clapperton Hugh (١٧٨٨-١٨٢٧م) المستكشف

(٣٩) هو الشيخ سيدى أحمد البكاي بن الشيخ سيدى محمد بن الشيخ سيدى المختار الكنتى الكبير (١٨٠٣-١٨٦٥) الخليفة الثالث للطريقة القادرية . ترعرع في أحضان جده ، ثم في مدرسة والده ، حيث كان أحد العلماء وأكثرهم مهابة وصولاً في الحق ، وأحد الشعراء المفلّحين ، ورث الزعامة الزمنية والروحية التي تحولت له. ولعب دوراً سياسياً حاسماً في المنطقة خلال النصف الثانى من القرن الأخير .

كان الزعيم الروحي لأمرء المنطقة وخاصة أمرء "ماسينا" والطوارق والعرب ؛ وطد علاقته مع محمد بللو أمير "صوكتو" ، إستمراراً للعلاقات التي كانت قائمة بين والده وجده مع زعماء تلك الخلافة .

كانت له مراسلات مع سلاطين المغرب الأقصى وأمرء موريتانيا ، وملكة بريطانيا ، حيث أجاد فن الرسائل الدبلوماسية التي كانت إحدى استنباطات جده ، لدعم العلاقات الخارجية ودعم نفوذه .

كان حليف أحمد شيخ الثانى أمير ماسينا في الصراع المرير مع الحاج عمر الفوتي ، حيث قاد الجيوش التي حررت عاصمته "حمد الله" ومتبعتها من معارك . ظل سيد تنبكتو والمنطقة الصحراوية حتى وفاته .

الإنجليزى الذي جاء ليمهد احتلال تلك الدولة الإسلامية من قبل الحكومة الاستعمارية الإنجليزية . وكان هوج كلايبرتون هذا قد تعلم اللغة العربية كعادتهم لتضليل المسلمين . ومن صوكتو توجه الحاج عمر إلى فزان بليبيا ومنها إلى مصر حيث التقى بأحد الأثرياء المسلمين الذي ساعده بما يمكنه من الزاد لمواصلة سفره إلى الأراضى المقدسة . ولدى وصوله إلى مكة المكرمة التقى بشيخ يدعى محمد الغالى مغربى الأصل وأحد تلاميذ الشيخ أحمد التجانى ، مؤسس الطريقة الصوفية التجانية . توجه الاثنان ، بعد انقضاء موسم الحج لتلك السنة (١٢٤٣هـ) ، إلى المدينة المنورة لزيارة مسجد الرسول عليه أفضل الصلوات . قضى الحاج عمر الفتوى قرابة ثلاث سنوات هناك في خدمة شيخه محمد الغالى تبركاً به . أشار إلى هذا في هامش كتاب جواهر المعاني - تحت عنوان : "رماح حزب الرحيم" قائلاً : أسلمت له ، أى الشيخ محمد الغالى ، نفسي ومالي وألقيت إليه القيادة وبقيت أخدمه ثلاث سنين . وبعد انقضاء هذه المدة عينه الشيخ محمد الغالى خليفة الشيخ أحمد التجانى . قال الحاج عمر الفتوى في نفس الكتاب : "ولما بلغ أوان الفطام وانتهى ما قدر الحليم العلامة جعلني (شيخه) خليفة من خلفاء الشيخ (٤٠) رضى الله عنه" . سافر الشيخ عمر بعد ذلك إلى مصر مرة أخرى حيث قضى فترة من الزمان . وارتحل عنها عائداً إلى غرب إفريقيا مع التوقف في كل من دولتي بورنو وصوكتو . وشارك أثناء وجوده في

(٤٠) يقصد به الشيخ أحمد التجانى .

صوكتو في بعض حروب الجهاد مع مجاهدي تلك الخلافة ، مثل معركة داكوراوا بقيادة محمد بللو نجل الشيخ عثمان فودى مؤسس دولة صوكتو العثمانية . وعندما عاد إلى مدينة "حمد الله" عاصمة دولة ماسينا نزل ضيفاً على أميره الشيخ أحمد لوبو برى حيث قضى فترة من الزمان ، والتقى ، خلالها ، بالشيخ سيدي البكاى الكونتى القادري التنبكتوى للمرة الثانية . غادر "حمد الله" متوجهاً إلى مملكة سيغو البامبرية في عهد ملكها "فاما نيفولو" . وقع خلاف بينه وبين الملك ، فأمر الملك باعتقاله واحتجازه . ثم أطلق سراحه فيما بعد ، بسبب تدخل زوجة الملك ؛ وقيل أن الملك قد أراد قتل الشيخ عمر ولكن زوجته حالت دون ذلك . عاد الحاج عمر الفتوى بعد تلك الحادثة إلى بلاد فوتا جلولو وأقام في مدينة كنكان الغينية لمدة اقتربت من سنتين . هناك أخذ يعظ الناس ويعلم الصبية والنساء . ثم انتقل إلى بلدة كندى ومنها إلى بلدة جغنكو بمقاطعات غينيا حيث قضى قرابة أربع سنوات مواصلاً لأنشطته في الوعظ والإرشاد والتدريس . من هناك عاد إلى مسقط رأسه في فوتاتورو ماراً بمقاطعة غامبيا مستخلفاً وراءه أفراد أسرته في غينيا . عندما علم الحاكم الاستعماري الفرنسي في السنغال ، الكولونيل (العقيد) كاي ، بقدوم الشيخ عمر الفتوى إلى المنطقة الخاضعة لسيطرته ، استدعاه وطلب منه أن يكتب تعهداً بضمان استمرار الأمن والاستقرار حسب زعمه . استجاب الشيخ عمر الفتوى له هذا الطلب فكتب التعهد بتاريخ أغسطس عام ١٨٤٧م . قام الشيخ عمر ، لدى وصوله إلى بلاده فوتاتورو ، بتوجيه رسائل إلى أعيان البلاد من العلماء والأمراء وكبار الشخصيات

يدعوهم فيها إلى تأييده ونصرته في الجهاد الذي يعتزم إعلانه ضد الكفرة والوثنيين . لكنهم رفضوا ذلك الطلب خوفاً من ألا يؤدي ذلك إلى حدوث أية مواجهة . حينئذ لجأ الشيخ عمر إلى الشباب الذين جاء لفيف منهم واحتشدوا حوله واستجابوا لدعوته وأعلنوا له المبايعة . من بينهم ألفا عمر تشرنوبلا الذي أصبح في وقت لاحق ، قائداً لقواته . رجع الشيخ عمر إلى بلدة "جغنكو" مع أتباعه من الشباب المتحمسين وأخذوا في شراء الأسلحة النارية من الأوروبيين الذين ينزلون إلى سواحل غرب إفريقيا لشراء الرقيق. توالى تدفق الشباب من مختلف أرجاء المنطقة، لاسيما من فوتا تورو وينضمون إلى جماعته في بلدة "جغنكو" حتى كوّنوا جيشاً قوياً مسلحاً. وقع خلاف بينه وبين الإمام الراتب للبلدة يدعى مودبو عمر بسبب هجوم قامت به جماعة الشيخ عمر الفتوى على بعض المسلمين في مقاطعة "لابي" الغينية. قرر الشيخ عمر، بعد هذا الحادث الانتقال من "جغنكو" إلى بلدة "دانغراي" التي اتخذها مقراً جديداً له ولجماعته. وفي "دانغراي" قام بتأسيس زاوية له لممارسة الأوراد التجانية. وقام بتأليف كتابه المشهور "رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم" الذي يعتبر أحد المرجعين الأساسيين لتلك الطائفة . والمرجع الثاني هو كتاب "جواهر المعاني" وغاية الأماني للشيخ على حرازم . والكتابان في الواقع ، مندمجان في كتاب واحد .

إعلانه الجهاد :

وفي يوم الاثنين الموافق للعشرين من ذي القعدة ١٣٦٨ هـ الموافق لسته أيام خلت من سبتمبر عام ١٨٥٢م استدعى الشيخ عمر أتباعه وأخبرهم بأن الله قد أذن له في الليلة السابقة بإعلان الجهاد المسلح في سبيل الله قائلاً : "أعلمني الله تعالى بعد العشاء ليلة الاثنين وعشرين من ذي القعدة الحرام عام ١٣٦٨ هـ بانى مأذون في الجهاد بهاتف ربّاني يقول : أذنت في الجهاد في سبيل الله". من هنا بدأ جهاده وبالتالى قيام دولته العمرية في الغرب الإفريقي (٤١). يستحسن أن أذكر بعض العوامل الأساسية التي انبنت عليها المعارك التي خاضها الشيخ عمر الفتوى في منطقة السودان الغربي حتى يكون التاريخ منصفاً له في تحليل المكاسب والنكصات التي اعترأها أثناء جهاده الإسلامي وما تأثرت به دولته لاحقاً جراء ذلك .

يجدر بالذكر أن دولة صوكتو الإسلامية التي قامت في القرن الثامن عشر الميلادي ، كانت عظيمة وأكثر تأثيراً على المجتمعات الإسلامية المعاصرة لها في غرب إفريقيا . ولا يزال هناك بقايا نسبية لهذا التأثير . وانطلاقاً من ذلك ، كانت الدولة العمرية أقوى الدويلات الإمامية التي ظهرت مؤخراً في السودان الغربي في القرن التاسع عشر الميلادي وأكثرها ارتباطاً بإمبراطورية صوكتو السالفة الذكر . وقد قام الشيخ عمر الفتوى ، بسفريات إلى صوكتو ،

(٤١) راجع كتاب سفينة السعادة للشيخ عمر ، وشرح وتعليق الشيخ محمد بللى .

مقر قيادة تلك الدولة في عهد السلطان محمد بللو ، نجل الشيخ عثمان دان فودى ، كما شارك في بعض المعارك التى خاضها السلطان محمد بللو دفاعاً عن الإسلام ونشره بين أهالي المنطقة . وتزوج بنت السلطان المدعوة رحمة التى أنجبت له ولداً سماه محمد النور . وفيما يلى بعض مميزات الإمامية أو الدولة العمرية .

أ- كانت تلك الدولة ، بخلاف سائر الإماميات التى ظهرت في السودان الغربي والأوسط ، حركة صوفية في المقام الأول . كان حماس مؤسسي تلك الإمامية واندفاعهم وراء الجهاد والأهمية التى علقوها بالطائفة التجانية الصوفية وراء سرعة انتشارها والحيوية التى اتسمت بها في تلك المنطقة، مما أدى إلى انجراف الطوائف الصوفية الأخرى بالاندفاع والحماس نحوها للمنافسة .

ب - وبخلاف سائر الإماميات الأخرى السابقة للعمرية في السودان الغربي والأوسط ، تميزت هى بحياسة الأسلحة النارية الأوروبية الأكثر تطوراً بالمقارنة مع ما ألفتها الإماميات والدويلات السابقة والمعاصرة لها من أسلحة بدائية تقليدية من السيوف والنبال (القوس والسهم) والأرماح . كانت الإمامية العمرية تحصل على تلك الأسلحة من الأوروبيين الذين كانوا ينزلون إلى سواحل غرب إفريقيا بهدف الاسترقاق . وقد نقل عنه ما قاله توجيهاً لمريديه : "جئوا في شراء السلاح والبارود من النصارى ، أى الأوروبيين ، فعن قريب ،

لو أعطيتهم كل ما بأيديكم من مال لما باعوا لكم شيئاً منه (السلاح). "

فكان يشتري هو وأتباعه تلك الأسلحة بتسديد القيمة من الذهب والرقيق. (٤٢)

ج- استفاد الشيخ عمر الفتوى ، من الخبرات التي أسفرت عنها سفرياته الواسعة عبر بلدان المشرق العربي وإقامته بمصر لوقت وجيز . كما تأثر بمشايع موريثانيا الذين أخذ عنهم العقائد الصوفية المتفشية في تلك المنطقة. ويليق بهذا المقام أن نشير إلى أن تعليمات مشيخة الطائفة الصوفية التجانية التي انتمى إليها الشيخ عمر الفتوى ، تتسم بالغلو والتشدد في عقائدها في بعض الأمور . إذ ورد في كتاب "جواهر المعاني وبلوغ الأمانى" للشيخ علي حرازم الذي ، الذي يعتبر المرجع الأول لأتباع هذه الطائفة ، أقوال نسبت إلى مؤسس الطائفة أبي العباس أحمد بن محمد بن المختار بن أحمد بن محمد التجاني ؛ منها : "أن تلاوة ورد "صلاة الفاتح" مرة واحدة تعادل تلاوة القرآن الكريم بكامله ٦٠٠ (ستة ألف) مرة ، وأنه لا تجوز تلاوة ورد "جوهرة الكمال" بدون الوضوء الذي يتم بالماء" ؛ مع أن الله سبحانه وتعالى قد أباح لنا تلاوة القرآن واداء الصلاة بدون الوضوء الذي يتم بالماء عند الحاجة . وأنه قال كذلك : "رجلاي هاتان على رقبة كل ولى من لدن آدم إلى يوم القيامة " . وليس بوسع عقل المسلم العادي تفهم هذه التلفيقات المبالغ فيها بأنها لا تتجنب الصواب الشرعي الذي كان الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون عليه ، عند علماء السنة .

(٤٢) المرجع السالف الذكر .

وللإنصاف العلمى نقول إن الشيخ عمر الفتوى يعد من علماء الدين الإسلامى والثقافة العربية الذين أفاء الله عليهم من نعمه وخصهم بما لم يخص به غيرهم من الذكاء والقدرة التنظيمية القيادية الفائقة فى تاريخ الفكر الإسلامى فى الغرب الإفريقى . بيد أنه كان وليد بيئته وثقافة مجتمعه، كما أنه لم يكن يعدو بشريته كإنسان . لأنه غير معصوم التجاوز فى إصدار حكم يمنعه من وقوعه ضحية الانزلاق الثقافى وانزواء الأهداف . كانت ثقافات الطرق الصوفية فى مجتمعات الغرب الإفريقى الإسلامية هي الواجهة المقبولة . كما تعد حيازتها بلوغ المرامى وإنجاز الأمانى باعتبارها قمة الثقافة الإسلامية والعربية والتي يأمل أى عالم أو مفكر إسلامى وجيه فى أن يرتقى إليها فى ذلك المجتمع وتلك العصور . عليه كانت كل أسرة تتوخى وتتطلع إلى أن يكون لها نصيب أوفر من تلك الواجهة . كان الشيخ عمر الفتوى فى تلك الآونة من بين مئات الفتيان النشء ذوى الطموحات الواسعة . كان هو من بين القلة التي حظيت بالارتقاء إلى قمة الثقافة الصوفية فى الغرب الإفريقى آنذاك .

توجهاته العسكرية :

أشير ، بادئاً ذا بدء إلى أشهر الإماميات أو الممالك الإسلامية التي تزامنت مع قيام الدولة العمرية فى الغرب الإفريقى . كانت هناك الدولة العثمانية التي اشتهرت باسم خلافة صوكتو أو إمبراطورية صوكتو وكانت هناك دولة الكانمى البورنوية وإمامية سيد البكاى الكونتى فى تنبكتو ودولة ماسينا وإمامية

سامورى ؛ ثم هناك دولة البامبرة وغيرها من الدويلات الوثنية الأخرى في غرب إفريقيا . قام الشيخ عمر الفتوى بعد إعلامه لأتباعه ومريديه بأن الله سبحانه وتعالى قد ألهمه بهاتف ربّانى بإعلان الجهاد المسلح لنصرة الإسلام والقضاء على الوثنية في السودان الغربي ، بالتوجه إلى سلطنة تامبا الوثنية وكان سلطانها يومئذ يدعى "غمبا ساخو" ، وكان بينه وبين الشيخ عمر حالة من العداء بسبب أنشطة الوعظ والإرشاد التي يقوم بها الشيخ وجماعته في المناطق الخاضعة لنفوذ ذلك الملك . قام الشيخ عمر الفتوى ورجاله بمحاصرة مدينة جلانكادا وعاصمة تامبا التي تقع على شمال دانغيراى رباط الجيش العمرى لمدة ستة أشهر ، ثم احتلها بعد هزيمة جنود السلطان ساخو . تمادى الشيخ عمر الفتوى وجماعته إلى سلطنة كارطة البامبرية واستولوا على عاصمتها نيورو في شهر شعبان للسنة ١٢٧٠هـ الموافقة لشهر إبريل للعام ١٨٤٥م .

كانت نيورو آنذاك معقلاً للوثنية وحافلة بالكهنة . لم يكد بيت من بيوتها يخلو من أصنام وأوثان. لذا طلب الشيخ عمر الفتوى من أهالى البلد، لاسيما الكهنة منهم إحضار كل ما لديهم من تلك الأصنام وإلقائها في ساحة كان قد خصصها لهذا الهدف . أقدم الشيخ ولفيف من أصحابه ومريديه على كسر تلك الأصنام المتراكمة وإشعال النار فيها . ومن ثم قام بوضع الخطوط الإرشادية لقواعد السلوك يتمثل لها جميع الناس في ظل الشريعة الإسلامية واعتناق دين الإسلام لمن لم يكن مسلماً بالفعل . تتلخص تلك الخطوط الإرشادية في النقاط التالية :

١- ضرورة قيام الرجال بحلق شعر الرأس وارتداء القلنسوة .

٢- عدم تجاوز العدد الشرعي للزيجات ، وهو أربع فقط .

كان بعض الناس من أهالي ذلك البلد ، لاسيما الملوك والأرستوقراطيين من الطبقة الحاكمة والأثرياء يتزوجون زوجات كثيرات . يبلغ عددهن أحياناً خمسين زوجة لشخص واحد .

ازدادت منطقة السودان الغربي شهرة في انتشار كتابات تحفيظ القرآن ودراسة الفقه الإسلامي على مذهب السادة المالكية خلال الفترة الأولى للإمامية العمرية . قام الشيخ عمر الفوتي في شهر فبراير للعام نفسه بتوجيه رسائله إلى زعماء المسلمين في مقاطعة اندار^(٤٣) السنغالية يعلمهم فيها بقيام جهاده الإسلامي المسلح وأن قواته تمثل قوة إسلامية في المقام الأول وفوتية فولانية في المقام الثاني . وأنه قد جاء لمقابلة أعداء الله ونصرة دين الحق تبارك وتعالى . عليه يوجه الدعوة إلى شباب فوتاتورو ويدعوهم للانضمام إلى جنوده للقتال في سبيل الله .

أقدم الشيخ عمر وجماعته ، بعد استيلائهم على نيورو على ملاحقة أعدائهم المنتشرين في تشي أرجاء ومقاطعات مالي والسنغال الذين فروا من مدهاماته ولجأوا إلى تلك المناطق إثر هزيمتهم وإسقاط دويلاتهم . وكان يعاود هؤلاء الفارون من المواجهة مع الشيخ عمر ، التمرکز وبناء قواتهم

(٤٣) تقع هذه البلدة في الجنوب الشمالي لجمهورية السنغال .

مجدداً للهجوم على المعسكر العمرى الذي أصبح بالفعل مهدداً لبقاء الدويلات الوثنية في السودان الغربى . قام الشيخ عمر بعد الانتصارات التي أحرزها بتعيين ابنه البشير والياً فى مقاطعة كونيكاكارى . وبذلك أصبح البشير أول من تولى منصب الوالى للإمامية العمرية . ففي السنغال اصطدمت القوات العمرية أثناء زحفها في السنة ١٢٧٣هـ الموافقة للعام ١٨٥٦م مع قوات الاحتلال الفرنسية بقيادة الجنرال لويس " فيد يهرسى " وأجبرتها على التراجع (القوات العمرية) والتوجه شرقاً حيث دخلت في الحرب مع دولة ويتلا البامبرية ، واحتلت عاصمتها الثانية سانسندنج حيث وقضت قرابة خمسة أشهر . تقدمت بعد ذلك لاحتلال عاصمتها الأولى - سيغو ، وكان ملكها يومئذ يدعى تاتا تورو كرومارى ، ويعرف أيضاً بالملك على مونز ويتلا. اضطر الملك على مونز ويتلا إلى الفرار واللجوء إلى الشيخ أحمد مو أحمد ، أمير إمامية ماسينا الفولانية الإسلامية بعد الهزيمة التي منى بها على أيدي القوات العمرية . وكان أمير ماسينا يومئذ حديث العهد بعرش ماسينا الذي ورثه من والده الراحل الشيخ أحمد لوبو . وكان يومئذ ، أحمد شاباً يافعاً لم يتجاوز عمره سبعة عشر (١٧) سنة على الأرجح .

المواجهة مع إمامية ماسينا :

وفي عام ١٨٦٢م دخل الشيخ عمر في مواجهة يبدو أنها غير مقصودة مع دولة يعتبرها شقيقة لدولته، وهى دولة ماسينا بإعلانه جهاداً عليها . اتسمت

تلك المواجهة بتناقضات عدة ومأسويات حقيقية. قامت دولة أسست تحت راية الجهاد الإسلامي تقضى على دولة أخرى قامت على الهدف نفسه. بل وعلى أيدي أبناء قبيلة مسلمة صرفة من كلتا الجانبين. كانت الإماميتان - الفوتية والماسنوية أشد امتثالاً للروح والشرعية الإسلاميتين من بين الإماميات الإسلامية في منطقة السودان الغربي. لقد أجبرت الإمامية العمرية، بذلك التصرف، شقيقتها الإمامية الماسنوية على إنهاء حالة العداء التقليدية القديمة بينهما ودولتي كل من البامبرا الوثنية والكونتية التنبكتوية، اللتين كانتا خاضعتين لها، والدخول في التحالف معهما ضد الإمامية العمرية. كما أدت تلك المغامرات الحربية الناجمة عن الطموحات التوسعية الجامحة غير المتأنية إلى النهاية المأسوية للإماميات الثلاث. أى الماسنوية التنبكتوية والعمرية نفسها. وكانت الإماميات الثلاث تمثل معا النهضة الإسلامية تحت التجربة الحقيقية للحكومة الإسلامية الحديثة في الغرب الإفريقي لاحقاً بدولة صوكتو العثمانية في السودان الأوسط، ونقول أن إمامية ماسينا باعتبارها طليعة تلك النهضة قد مرت بمراحل تجريبية أساسية ثلاث في مواجهتها مع الإمامية العمرية الفوتية الحديثة الإنشاء. وهذه المراحل هي :

(١) مرحلة تثبيت مكاسب ذلك الاحتلال .

(٢) مرحلة التعبئة وقيام الثورة الماسنوية المضادة لقوات الاحتلال والقضاء على قائدها نهائياً، وكانت الشخصيات البارزة في مسرح الأحداث هي: الشيخ عمر الفتوى، قائد ومؤسس الإمامية العمرية والشيخ أحمد مو أحمد،

خليفة وأمير الإمامية الماسنوية والشيخ مختار سيدى البكاى الكونتى - الزعيم الروحي وقائد الإمامية الكونتية التنبكتوية . لقي هؤلاء الثلاثة مصرعهم جميعاً نتيجة تلك المغامرة الاقتتالية وسقط ضحيتها عشرات آلاف من المسلمين معهم ، بحيث لم يبق سوى قليل نادر ممن كانوا أطرافاً في تلك الحروب الطاحنة لسرد وتدوين حقائق عما حدث لفائدة المؤرخين والأجيال اللاحقة. ثمة عوامل تبدو أساسية ساعدت على انهيار إمامية ماسينا في وجه الدولة العمرية الفتوية وبذلك الصورة المذهلة مع كونها ، أكثر نفوذاً وشهرة في منطقة السودان الغربي خاصة بين أبناء الجنس الفولاني الذين كانوا سنداً في طرفى النزاع .

ومن هذه العوامل :

أ- كانت إمامية ماسينا في مرحلة التجربة واكتمال النمو . لم يزد عمرها، كحكومة إسلامية عن أربعين سنة فقط من التأسيس .

ب- اتسام الإمامية بمركزية السلطة في عاصمتها "حمد الله" وتمتع المقاطعات التابعة لها بشبه الاستقلال عنها ، وتحول جماعات من رجال الخلافة إلى الطبقة الحاكمة ذات امتيازات ، الأمر الذي كان منافياً لروح الجهاد الإسلامي التي استنهض بها الخليفة الأول الشيخ أحمد لوبو .

ج- وجود النزاعات والانقسامات فيما بين أفراد العائلة الحاكمة ، لاسيما بعد وفاة الخليفة الأول ، وانتقال زمام الحكم إلى ابنه أحمد مو أحمد رغم حداثة عمره . إذ لم يتجاوز عمره يومئذ مرحلة المراهقة مما انعكس على قلة

خبرته في شؤون الحياة ، فوق ضحية تأمر خصومه من نفس العائلة ، ومن بينهم قائد قواته وعمه أبوبكر لوبو (الطيب) المعروف به لوبو . لعل ذلك كان السبب في عدم موافقة الشيخ عمر الفتوى على تلبية رغبته (باه لوبو) عندما أبدى الرغبة في الحصول على منصب من المناصب القيادية في بلاطه بمدينة حمد الله بعد هزيمة إمامية ماسينا والاستيلاء على عرشها .

د - لعل الشيخ عمر الفتوى قد تَفطن إلى هذا الجانب من شخصية باه لوبو ، أو لعله يعرف الدور الذي لعبه في الغدر بآبن أخيه أحمد مو أحمد مما أدى إلى إسقاط ملكه ، وكان باه لوبو هذا بالفعل هو المدبر للثورة الماسنوية التي أطاحت بدولة عمر الفتوى في نهاية الأمر ، وأدت إلى قتله اختناقاً في غار ديغمبري . هناك قول مأثور مفاده : " أن من خان لك سيخون عليك " . والحرب ، كما روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، مكيدة . وباه لوبو هذا قد أجاد هذه المكيدة بمعنى الكلمة . وكان حقاً بطلاً حريياً . إذ أبدى الرغبة في أن يرث عرش إمامية ماسينا بعد أميرها الشيخ أحمد ، فاستلطفه الأمير الشيخ أحمد لوبو وعينه قائداً لجيشه في ماسينا إرضاءً له بعد أن عين ابنه الكبير ، أحمد مو أحمد ولياً للعهد . لقد أولد هذا التصرف من الشيخ أحمد الكبير ضغينة وحسداً خفياً في قلب باه لوبو ضد أحمد مو أحمد بعد وفاة أبيه وتولييه حكم إمارة ماسينا من بعده . وكما جاء في قوله عليه الصلاة والسلام : " كل ذي نعمة محسود " . كان باه لوبو كما ذكرنا آنفاً ماهراً في المراوغات الحربية . كان هو الوحيد الذي نجح من تقلبات الحرب التي

دارت هناك في تلك الآونة من بين أبطالها الأساسيين . وهم أحمد وعمر الفتى وألفا عمر تشيز نويلا وباكاى كونتى وعلى مونزو ويتلا . كلهم سقطوا ضحية تلك الحروب باستثناء باه لوبو الذي ظل على قيد الحياة إلى أن مات موتاً طبيعياً في المناطق الشرقية لمسرح الأحداث . ذلك لأنه أكثر احترافاً لتلك المهارة الإقتتالية التي تسمى "المكيدة" .

هـ- قلة العلماء والمفكرين ذوى الخبرة في مجالات الدين والحياة السياسية والاجتماعية في بلاط حكم ماسينا بسبب وفاة معظم كبار المستشارين الذين أسسوا الخلافة ودعموها منذ البداية ، فكان معظم رجالات البلاط في عهد أمير المؤمنين "أحمد مو أحمد" من نظرائه في السن والنضج؛ أى الشباب النشء الذين يفتقرون إلى خبرات الحياة وتقلباتها بحكم السن، وكانوا يتباهون فقط بالشجاعة والبطولة العسكرية الميدانية وحياسة الأسلحة البيضاء من السيوف والأقواس والنبالة والرماح البدائية . وقد أثبتوا جدارتهم بتلك المعدات الحربية المهجورة في هذا الخصوص ، بالمقارنة مع الأسلحة النارية من البنادق والبواريد الأوروبية الصنع التي حصلت عليها القوات العمرية الفتوية، إضافة إلى فارق السن فى القيادة . كان الشيخ عمر يناهز السن السبعين بينما لم يبلغ الشيخ أحمد مو أحمد العقد الثاني بعد، في ذلك الوقت (٤٤) .

(٤٤) كان عمره سبعة عشر سنة كما ذكرت سابقا.

ز- ثمة بعض أهل ماسينا الذين قاموا بتحري أخبار بلاط الحكم فيها والاستطلاع على استعداداتها العسكرية وتزويد الجيش العمرى بتلك المعلومات . كان هؤلاء الماسينيون يدينون للشيخ عمر وجماعته بالولاء بحكم انتمائهم إلى الطريقة الصوفية التجانية التي كان يعمل لتقويتها ، وكان لهم عدد لا يستهان به في ماسينا . وكانوا ينتقدون حكام ماسينا ويتهمونهم بالتهاون بأمور الدين ، لاسيما لامتناعهم عن الانقياد للطائفة التجانية التي روجها الشيخ عمر الفوتى ورجالاته . نعود الآن إلى ذكر الأسباب المباشرة التي سبقت وأدت إلى اندلاع تلك الحرب بين الشيخ عمر الفوتى وجماعته من ناحية وبين أهل ماسينا تحت قيادة أميرها الشيخ أحمد مو أحمد من ناحية أخرى . كان هناك العداء الشخصي القديم بين ملك سيغو فراما على مونزو المعروف بعلى ويتلا وبين الشيخ عمر الفوتى عندما كان الشيخ عمر يقوم بتجوال استحصال العلوم بين علماء مالي وقبل سفره إلى الحجاز وبلاد المشرق العربى . وقيل أن الملك فراما على مونزو اعتقل الشيخ عمر الفوتى واحتجزه ثم أراد قتله فيما بعد ، لكن حالت زوجه دون تنفيذ ذلك ، وطلبت منه إطلاق سراح سجينه . وعندما عاد الشيخ عمر إلى المنطقة وقوت شوكرته كداعية وزعيم الطريقة التجانية وأعلن الجهاد ، كانت مملكة سيغو أحد الأهداف الرئيسية له . وبالطبع كانت سيغو كغيرها من معظم الدويلات القائمة في أرجاء بلاد البامبرا وثنية ، بصفة رئيسية . دخل جيش الشيخ عمر الفوتى مدينة سانساندنغ ، عاصمة سيغو في السنة ١٢٧٣م الموافقة للعام ١٨٥٦م بعد هزيمة جيش البامبرا بقيادة ملكهم ويتلا وقضى فيها قرابة

خمسة أشهر . فر الملك ويتلا إلى دولة ماسينا وطلب من أميرها الشيخ أحمد مو أحمد أن يحميه ضد خصمه الشيخ عمر وجماعته ، وقال إنه قد اعتنق دين الإسلام .

طلب الشيخ عمر من أمير ماسينا إعادة الملك على ويتلا وتسليمه إليه مستنكراً مزاعمه بأنه يدين بالإسلام . وأصر بأنه وثني العقيدة والممارسة ، ولا يستحق الاحتماء بحق الجوار الإسلامي . رفض أمير ماسينا هذا المطلب من الشيخ عمر بتسليم خصمه إليه بعد استدعاء علماء ماسينا واستفتائهم في الأمر ذاته . احتدم الخلاف بين الطرفين ، الفتوى والماسنوى واتسعت هوة النزاع . وجرى تبادل رسائل عدة بينهما ، حاول كل طرف الدفاع عن وجهة نظره شرعياً (٤٥) . ألف الشيخ عمر الفتوى كتاباً فيما بعد وسماه " بيان لما وقع بيننا وبين الأمير أحمد " في وجه الانتقادات الحادة الناجمة من الأوساط الإسلامية ضد الاعتداء الذي وقع على إمامية ماسينا وإسقاطها ؛ وذهب ضحيته أكثر من ثمانين ألف قتيل . وبعد أن تعذرت تسوية الخلاف القائم بين الشيخ عمر الفتوى والأمير أحمد مو أحمد بصورة سلمية ، أعد كل من الطرفين جيشاً لمواجهة خصمه . كان الجيش العمرى بقيادة ألفا عمر تشيرنو بيلامتحالفاً مع قبائل دوغون وبوزو وتومبو بينما كان الجيش الماسنوى بقيادة باه لوبو أى أبى بكر الطيب ، عم أمير ماسينا ، أحمد مو أحمد متحالفاً مع قبيلة البامبرا التي

(٤٥) أنظر مملكة ماسينا .

كان لجوء ملكها فارما على مونزويتلا إلى ماسينا والاستجارة بأميرها سبب نشوب القتال ، وقبيلة تنبكتو بقيادة المختار البكاى الكونتى . التقت جيوش الطرفين في مكان يدعى جغرابى بالقرب من مجرى نهر بانى . واصل الجيش العمرى زحفه بعد هزيمة جيش ماسينا إلى "حمد الله" عاصمة إمامة ماسينا واستولى عليها في يوم الخميس ، العاشر من شوال للسنة ١٢٧٨ هـ الموافقة للعاشر من شهر إبريل للعام ١٨٦٢ م . تأثر الأمير أحمد مو أحمد بجرح أثناء المعركة وحمله رجال من قواته حتى وصلوا به قرب نهر مانى حيث لحقهم مطاردهم من الجيش العمرى ، فاستشهد الأمير أحمد مو أحمد في يدهم ودفنوه في مكان مجهول فى داخل النهر .

بعد سقوط إمامة ماسينا فى يد الشيخ عمر الفتوى ، وجه إليه سيدى المختار الكونتى ، الزعيم الروحى للطائفة القادرية ، رسالة استنكار لما حدث منه ، وذكره بعدم جواز اعتبار عائلة الشيخ أحمد لوّبو ، خاصة زوجة الأمير أحمد مو أحمد أسرى فى يده . قام الشيخ عمر الفتوى بعد ذلك بشهور بإرسال عامليه إلى "تنبكتو" لاستحصال الضرائب التى كان أهلها يدفعونها لإمارة ماسينا سنويا . لكن رفض سيدى المختار الكونتى وأهل إمامة تنبكتو لاستجابة لهذا المطلب ، فقام الشيخ عمر الفتوى بإرسال كتيبة يرأسها قائد جيشه ألفا عمر تشير نويلا إلى إمامة تنبكتو . لكن غادرها الشيخ سيدى المختار الكونتى قبل وصول الجيش العمرى ولجأ إلى أماكن نائية في الصحراء الكبرى ليستنجد بقبائل الطوارق الصحراوية . احتل الجيش العمرى مدينة تنبكتو مقرر

القيادة الروحية للطائفة القادرية في السودان الغربي والأوسط في شهر ذى القعدة للسنة ١٢٧٩ الهجرية الموافقة للعام ١٨٦٣ م . عاد الشيخ سيدى المختار البكاى الكونتى التنبكتوى بعد ذلك إلى تنبكتو ومعه جيش من قبائل الطوارق وقتلوا قائد الكتيبة العمرية في مكان يدعى مانى بقرب من بحيرة ديو وأسررو الآخرين وعاد الباكون إلى مدينة "حمد الله" العاصمة الجديدة للإمامية العمرية .

وبعد مرور قرابة سنة واحدة على هذا الحدث قام أهل ماسينا بضرب حصار على حصون مدينة "حمد الله" لمدة تسعة أشهر . وعندما اشتد الأمر بالشيخ عمر الفتوى ومن معه من عائلته وحاشيته وقواته فى داخل الحصون، استدعى كبار رجالاته وتشاوروا فى الأمر، فتوصلوا بعده إلى ضرورة طلب نجدة وتعزيزات ليستنقذوا بها . فطلبوا من أحمد التجاني، أحد أبناء شقيق الشيخ عمر الفتوى أن يخترق الحصار المضروب عليهم الذى بلغ خلاله السيل الزبى وأباح علماؤهم أكل جيف المواشى وبعض المحظورات لدى نفاذ ما معهم من المواد الغذائية ، تسلل أحمد التجاني عبر شقوق الحصون زاحفاً فى ظلام ليال خالكة مكتسحاً وعور الجبال الخطيرة التي تحيط بالمنطقة . خرج فى ليلة الخميس الحادي عشر من شعبان للسنة ١٢٨٠ هـ الموافق للحادي والعشرين من يناير للعام ١٨٦٤ م حتى وصل إلى المناطق البعيدة عن نفوذ الثائرين المحاصرين لمدينة "حمد الله" فأخذ يبحث ويفاوض للحصول على القبائل التى تقبل الدخول فى التحالف مع الجيش العمرى المترابط فى مقاطعة سيغو تحت قيادة أحمد الابن الأكبر للشيخ عمر الفتوى وخليفته الأول لم يحصل أحمد

التّجاني على الحلفاء المطلوبين في وقت مبكر إلى أن وصل به الأمر إلى الاتصال بقبائل الدوغون الجبلية والبوزو والتومبو الوثنية البدائية التي وافقت على عرض أحمد التّجاني للدخول في التحالف مع الجيش العمري مقابل حلية أساوير الذهب والفضة التي كانت في حوزة أحمد التّجاني الذي أتى بها من قصر الدولة العمرية في "حمد الله".

وقد دخل في الشهر التاسع في من تاريخ تسرّبه، وكان الاتصال بينه وبين القيادة العمرية في "حمد الله" قد انقطع طوال ذلك الوقت . ولما تأخر مجيئه بالنجدة المطلوبة وكان الشيخ عمر الفتوى وأسرته ومن معهم من الرجال والنساء والأطفال في احتدام المشقة والإرهاق ، أرادوا أن يغامروا باختراق الحصار ، عندئذ أشعلوا النار في مخازن البارود في داخل الحصون مما أدى إلى انفجارها وتساعد دوى أصواتها ونيرانها . كان ذلك في ليلة الاثنين، الثاني والعشرين من شعبان للسنة نفسها ، الأمر الذي أجبر أهل ماسينا المحاصرين للقوات العمرية إلى التراجع ، وتمكن الشيخ عمر الفتوى وجماعته من كسر جزء من الجدران والخروج منه راكبين الحصان ، حتى وصلوا قرية تسمى "يوغنا". هناك أدركه مطار دوه من أهل ماسينا حيث اشتبك الطرفان في قتال مرير دام ساعات . استطاع الشيخ عمر وجماعته الخروج مرة أخرى من قرية "يوغنا" إلى قرية أخرى تسمى "غورو" وبضاحيتها جبل يسمى "ديغمري" فدخل الشيخ عمر ومن معه إلى الغار فجاء خصومه . وأشعلوا النار على باب الغار الذي امتلأ بالدخان مما أدى إلى استشهاد الشيخ عمر الفتوى

مختنقاً ومعه ثلاث عشرة آخرون من بينهم أبناؤه الثلاثة هم : مكى ومالى وهادى عمر الفتوى إلى رحمة الله . عثر خصومه على جثته ودفنوه في مكان مجهول . وكان ذلك يوم الخميس الموافق ثلاثة من شهر رمضان المعظم للسنة ١٢٨٠ هـ الموافق للحادى عشر من فبراير عام ١٨٦٤ م . كان الشيخ عمر يبلغ عندئذ سبعين سنة من العمر . وكان قد قضى سنتين فقط على عرش ماسينا . وهي نفس الفترة التى قضها الأمير أحمد مو أحمد لوبو على العرش نفسه . رحمهما الله ومن معهما وأدخلهم جميعاً فسيح جنات النعيم .

بعد هذا الواقع المفجع والمصاب الجلل وصل أحمد التجاني المبعوث للشيخ عمر الفتوى معزراً بقوات من قبائل الدوغون والبوزو والتومبو والقبائل الفولانية الأخرى التى تعيش في المناطق الشرقية والتي كانت بينها وبين دولة ماسينا حالة عدااء مزمنة بسبب سيطرة ماسينا عليها . وصل أحمد التجاني وتعزيزاته العسكرية إلى المكان ، بعد فترة وجيزة واستأنف القتال مع أهل ماسينا ومعهم أهل تنبكتو . وقد كانوا مستنفذي القوة والعدة من جراء الحروب المتوالية فهزمهم أحمد التجاني بعد مقاومة ضئيلة وإحتل المنطقة مرة أخرى بعد قتل من تبقى من رجال الدولة وتبعثر الآخرون . أدى هذا الحادث إلى ضياع كثير من الوثائق التاريخية والثقافية بسبب شراسة القتال . لأن الأمر قد تحول من طابع الجهاد الإسلامى إلى مجرد الحرب الأهلية العمياء بين الأشقاء الذين ينتمون إلى العقيدة الواحدة والقبيلة الواحدة . حكم أحمد التجاني تلك البلاد متخذاً مدينتى سيغو وبنيجرا عاصمة له متجنباً للعودة إلى "حمد الله" إلى أن وافته المنية في السنة ١٣٠٤ هـ الموافقة

للعام ١٨٨٧م. انتقل الحكم من بعده إلى ابن عمه سعيد بن الشيخ حبيب الله بن يلليمان (٤٦) سعيد لفترة قصيرة أى لم تتجاوز ثلاثة أشهر . ومن بعده جاء محمد المنير ابن الشيخ عمر الفتوى وتولى في عهده أخوه أحمد إمرة بلاد ماسينا حتى العام ١٨٩٠م عندما جاء حكم الاستعمار الفرنسي الذي طلب إبعادهم عن المنطقة كلياً .

أما بالنسبة للشيخ سيدى البكاى الكونتى التنبكتوى فقد توفي في شهر رمضان للسنة ١٢٨١هـ أى بعد مرور سنة واحدة على وفاة الشيخ عمر الفتوى . أما ألفا أبوبكر الطيب المعروف ب : باه لوبو ، قائد القوات الماسنوية فقد انتقل إلى شرق مقاطعة غمبلاً واستقر هناك إلى أن عاجلته المنية عن عمر ناهز السبعين . وبذلك انتهت مسرحية الاقتتال بين الإماميات الإسلامية الثلاث الشقيقة في السودان الغربي . وتحول الحكم العمري الذي كان أحمد الكبير ، ابن شقيق الشيخ عمر ، هو المؤسس الحقيقي له إلى نظام الحكم الوراثي ركّز على الاهتمام بنشر الطريقة التجانية . بل أصبح الاهتمام الأول والأخير هو تقوية الطريقة التجانية . ذلك لأنه لم يكن فقيهاً كسلفه . يمكن للقارئ الكريم الرجوع إلى هجرة الفولانيين في فصل الجنس الفولاني لمتابعة سير جماعة الشيخ عمر

(٤٦) اسم أول القرية التى أحرز فيها الشيخ عمر الفتوى انتصاراً في الجنوب الغربي لجمهورية مالي . أطلق أحفاده الاسم على بلدتهم التى تقع اليوم في شمال نيجيريا .

الفوتى وأبنائه وأحفاده في المهجر بعد أن تعذر التعايش مع السلطات الفرنسية الاستعمارية في السودان الغربي .

الخلاصة :

يعتبر الشيخ عمر الفوتى أحد أبطال الحركة الوطنية والإسلامية في السنغال والغرب إفريقي خلال القرن التاسع عشر الميلادي . ولد الشيخ في إقليم فوتا تورو الواقع في جمهورية السنغال ومنه جاءت تسميته . كان مولده في عام ١٧٩٤ وعاش حتى عام ١٨٦٤ الميلاديين وتوفي عن عمر ناهز سبعين سنة . بدأ الشيخ عمر الفوتى الذي يعرف أيضاً بالحاج عمر تال حياته العملية بالانتماء إلى الطائفة التيجانية التى أتت من خلال المغرب وموريتانيا في القرن الثامن عشر ، الى السنغال . وفي عام ١٨٢٦م غادر الشيخ عمر موطنه الأصلي في السنغال قاصداً مكة المكرمة عن طريق البر لأداء مناسك الحج وتحصيل العلم . استغرقت رحلته تلك قرابة أربع سنوات قضاها متنقلاً بين مكة والقدس ودمشق والقاهرة . قام لدى عودته إلى بلاده بنشر دين الإسلام وثقافته . استطاع عن طريق طائفته الصوفية أن يجمع حوله كثيرين من الأتباع والمريدين الذين تشكلت منهم قوة عسكرية استخدمها في جهاده المسلح ضد الوثنيين . كان الفرنسيون المستعمرون يحتلون بلاده السنغال وأجزاء من إقليم الغرب الإفريقي في ذلك الوقت فاصطدم هو معهم عندما أرادوا تضعيفه خوفاً من تعزيز وتقوية شوكرته واتساع نفوذه في المنطقة . نجح عمر الفوتى في فتح أراضي مملكة البامبرا

الوثنية في مالى ثم نشب خلاف بينه وبين زعماء إماميتى ماسينا وتنبكتو مما أدى إلى اندلاع حرب أهلية فيما بينها. قرر المواجهة مع القوات الاستعمارية الفرنسية مالم تدفع الجزية إليه. رفضت السلطات الاستعمارية الفرنسية التجاوب مع هذا المطلب، فأعلن الشيخ عمر الفتوى عليهم الحرب فثار عليهم المسلمون بمدينة سنت لويس وتصدوا لتقدمهم في وادى نهر السنغال حتى اضطروا إلى التفاوض معهم في عام ١٨٦٠م. ورغم ذلك لم تتمكن تلك السلطات الاستعمارية من تحقيق الاستقرار والتوسع. وبعد ثلاثة أعوام كان قد أسس لنفسه وأتباعه دولة كبيرة امتدت من نهر النيجر شرقاً إلى نهر السنغال غرباً. قامت تلك الدولة على أسس إسلامية إصلاحية. غير أنه لم يعيش بعد ذلك أكثر من سنة واحدة. قد مات إبان الحرب الأهلية التى اندلعت بينه وزعماء مملكة ماسينا وتنبكتو. ولقد رويت أنسجة من أساطير خرافية كثيرة حول شخصيته ووفاته وورعه وكراماته الصوفية. لم يكن الشيخ عمر الفتوى داعية إسلامياً ومصلحاً فحسب، بل كان فضلاً عن ذلك، مثقفاً متعمقاً في العلوم العربية والإسلامية خاصة الصوفية منها، وقد قام وهو في متوسط العمر، في سنة ١٢٤٤هـ الموافق ١٨٢٨م، عندما كان في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وفي روضته الشريفة، بتأليف قصيدته الأرجوزية المشهورة ب: "تذكرة المسترشدين وفلاح الطالبين" تضمنت حوالى نيف ومائتين بيت تأملي؛ اعتبرها مريدوه وأتباعه دستوراً أخلاقياً على ضوء القرآن الكريم والسنة

النبوية الطاهرة ، وينشدونها بتكرار للإنعاش الروحي والتوجيه الأخلاقي . فيما يلي النصوص والمقدمة التي كتبها الشيخ عمر الفتوى عن هذه الأرجوزة :

بسم الله الرحمن الرحيم : أصلى وأسلم على أفضل البرية ، ساكن هذه الروضة الشريفة عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام . فلما وصلنا مدينة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم زرنا قبره كما ينبغي ، وتحققت رغبتنا ، بحمد الله تعالى ، اشتاقت نفسى إلى تنظيم هذه القصيدة في تلك المدينة الطاهرة وتلك البقاع المقدسة ، وذلك تبركاً بصاحبها ، عليه أفضل الصلوات والسلام .
إنني ما قصدت بهذه القصيدة إظهار مكائتي في علم العروض والنحو والصرف أو المعاني والبيان والبدیع أو غير ذلك من علم البلاغ . بل قصدت بها تحقيق النفع للمؤمنين الذين لهم الاعتناء والاهتمام بإصلاح أنفسهم ونفوس غيرهم . إنها قصيدة نافعة إن شاء الله تعالى لمن عول عليها وعمل بما تضمنتها . وسميتها "تذكرة المسترشدين وفلاح الطالبين" . وقد تم تنظيم القصيدة وتسويدها وتبييضها في المدينة المنورة وفي مسجده عليه الصلاة والسلام وفي روضته المشرفة وبين منبره وقبره . ووجهي متجه إلى مكان وجهه الطاهر .
كان ذلك في وقت الضحى ليوم الخميس ، أربع مضيئ من شهر شوال المبارك للسنة أربع وأربعين ومائتين وألف من الهجرة . اللهم صلى على محمد وسلم تسليماً كثيراً آمين ؛ مبارك الابتداء لا إله إلا هو ولا إله غيره ميمون
الانتهاء :

"تذكرة المسترشدين وفلاح الطالبين"

- ١- يَقُولُ أَلْفُوتِي وَذَاكَ الْأَفَقُ — أَلِكِدْوِي بِنِ سَعِيدِ عُمَرُ
- ٢- الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي تَوَحَّدا — فِي مُلْكِهِ كَفَرَ مَنْ جَحَّدا
- ٣- إِيَّا هُنَا صَلِّ دَوَامًا سَلِيم — عَلَى الرَّسُولِ الْمُصْطَفَى الْمُكْرَم
- ٤- يَا أَيُّهَا الْإِخْوَانُ لَا تَشْتَغِلُوا — بِالْمَالِ وَالْبَنِينَ خَيْرًا أَعْمَلُوا
- ٥- هُمْ وَغَمٌّ دَائِمٌ الْمُشْتَغِلُ — بِالْمَالِ وَالْأَوْلَادِ دُونََ اللَّهِ جَلُّ
- ٦- إِذْ هَذِهِ الدُّنْيَا غُرُورٌ بَاطِلٌ — وَأَعْمَلْ لِدَارِ دَائِمٍ يَا غَافِلُ
- ٧- إِذْ كُلُّ شَيْءٍ كَانَ لَكِنْ زَائِلٌ — فَهُوَ غُرُورٌ اعْتَبِرْ يَا عَاقِلُ
- ٨- لَا تَطْلُبُوا فِيهَا سِوَى مَا يَنْفَعُ — فِي الْحَالِ وَالْمَالِ لَا مَا يَوَدُّعُ
- ٩- ذَرُّوا عِبَادَ اللَّهِ مَا تُشْغِلُكُمْ — عَنْ ذِكْرِ رَبِّ وَأَعْمَلُوا لِرَبِّكُمْ
- ١٠- يَا أَيُّهَا الْمَغْرُورُ بِالْأَمْوَالِ — وَيَحْكُ تَبُّ وَأَقْصِدْ إِلَى الْأَعْمَالِ
- ١١- نَكَالَ رَبِّ الْخَلْقِ وَالنِّيْرَانِ — لَا يَنْجُ مِنْهَا الْمَالُ وَلَا الْوِلْدَانُ
- ١٢- أَجَلٌ وَلَا جَاهٌ وَلَا قَرَابَةٌ — وَلَا شُجَاعَةٌ وَلَا حَرَابَةٌ
- ١٣- إِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ فِي الْقِيَامَةِ — يُحَاسِبُونَ هُمْ ذَوِي النَّدَامَةِ
- ١٤- مُزَوَّجٌ كُلُّ امْرِئٍ بِمِثْلِهِ — نَدِمْتَ مَا فَعَلْتَ مِنْ عِصْيَانِهِ
- ١٥- نَدَامَةٌ عَظِيمَةٌ لَا تَنْفَعُ — تَبُّ قَبْلَ أَنْ تَطْلُبَ مَا لَا يُسْمَعُ
- ١٦- وَلَا يَغُرُّكَ الَّذِي عَلِمْتَهُ — مِنْ رَحْمَةِ الرَّحْمَنِ أَوْ سَمِعْتَهُ
- ١٧- إِذْ رَبُّنَا لَوْ كُنَّا ذَا الْغُفْرَانِ — فَهُوَ ذُو النِّعْمَةِ وَالنِّيْرَانِ
- ١٨- لَا تَقْبَلُوا قَوْلَ عَدُوِّ اللَّهِ — بِالزُّورِ وَالْبَاطِلِ أَهْلَ اللَّهِ

- ١٩- إِنَّ إِلَاهَ الْخَلْقِ قَدِ اخْبَرَنَا
 ٢٠- تَرَى عَذْوَ اللَّهِ مَا كَرًا بِنَا
 ٢١- لِقَوْلِهِ أَعْمَلْ فَإِنَّ رَبَّكَ
 ٢٢- هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ آدَمَ النَّبِيَّ
 ٢٣- كُلُوا أُمُورَكُمْ إِلَى بَارئِكُمْ
 ٢٤- مَتَى اشْتَغَلْتُمْ بِدِكْرِ رَبِّكُمْ
 ٢٥- إِلَّا هُنَا ضَمِنَ أَنْ يَنْصُرَ مَنْ
 ٢٦- مَنْ يَشْتَغِلْ بِالذِّكْرِ وَالْعِبَادَةِ
 ٢٧- وَلِلَّذِي يَذْكُرْ خَمْسَةَ عَشَرَ
 ٢٨- أَغْنَى بِهِ الْمُسْتَغْرِقِينَ بِالذِّكْرِ
 ٢٩- لِأَنَّهُ مَقْرُونُهُ بِالتَّقْوَى
 ٣٠- كَذًا لَأَنَّ الذِّكْرَ جِنْسُ الْعَمَلِ
 ٣١- مَعْرِفَةُ هُدًى وَعَوْنٌ وَقَلَاخُ
 ٣٢- وَلَايَةٌ بُشْرَى نَجَاةِ النَّارِ
 ٣٣- لَهُ مِنَ الْهُمُومِ مَخْرَجٌ حَسَنٌ
 ٣٤- إِدَامَةُ الْغُفْرَانِ ثُمَّ بَعْدَهُ
 ٣٥- وَاشْتَغَلُوا بِالْعِلْمِ ثُمَّ الْعَمَلِ
 ٣٦- لِأَنَّ خَيْرَ النَّاسِ عَالِمٌ عَمَلٌ
- عَدَوَاةَ اللَّعِينِ حِينَ غَدَا
 مَكْرَ عَذْوٍ حَاذِقٍ وَمَاوَا
 يَغْفِرُ وَيَرْحَمُ وَغَيْرَ ذَلِكَ
 مِنْ جَنَّةِ الْإِلَهِ أَمْرُهُ أَبِي
 لِأَنَّهُ خَالِقُكُمْ مُنْشِئُكُمْ
 يُعِينُكُمْ اللَّهُ عَلَى عَذْوِكُمْ
 يَنْصُرُ دِينَهُ بِلَا خُلْفٍ زَكِي
 يُعِنُ بِلَا شَكٍّ لِيُخْرِقَ الْعَادَةَ
 فَضِيلَةً وَكُلُّهَا اللَّهُ قَدْ ذَكَرُ
 بِشَرْطِهِ الْمَعْلُومِ دُونَ مَنْ ذَكَرُ
 وَالْكَرْقُوتُ الْمُتَّقِي وَالْمَأْوَى
 خُذَهَا بِتَرْتِيبٍ بَدِيعٍ وَجَلِ
 مَحَبَّةٍ تَقْبَلُ لِيَذَى الصَّلَاحِ
 دُخُولُ جَنَّةٍ مَعَ الْأَبْرَارِ
 وَالزُّقُ وَالنَّيْسِيرُ حَيْثُ يُظَنُّ
 إِعْظَامُ أَجْرِ لَيْنَالٍ قَصْدُهُ
 لَا نَفْعَ فِي عِلْمٍ بِغَيْرِ عَمَلٍ
 يَعْلَمُهُ وَغَيْرُ هَذَا عَنْهُ مِلْ

٣٧- إِنَّ الَّذِي عَلِمَ دُونَ الْعَمَلِ

٣٨- دُمُ مُسْتَقِيمًا يَا أَخِي لِتَسْلَمَا

٣٩- كُنْ عَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا أَوْ فِي

٤٠- مَعْرِفَةٍ وَلَكِنْ خَامِسَهُمْ

٤١- نَسَّأَلُهُ بِالْفَضْلِ أَنْ يَرْزُقَنَا

٤٢- ذِكْرُ الْإِلَهِ مُنْتَهَى الْوِلَايَةِ

٤٣- كُونُوا إِلَى الرَّحْمَنِ مُقْبِلِينَ

٤٤- رَوْفٌ رَحِيمٌ رَحِيمٌ غَافِرٌ

٤٥- أَنْتَ الَّذِي تُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ

٤٦- لَوْ كُنْتَ تَعْلَمُ الَّذِي فِي النَّارِ

٤٧- لَكُنْتَ هَارِبًا مِنَ الذُّنُوبِ

٤٨- هِدَايَةُ الرَّحْمَنِ وَالرِّضْوَانِ

٤٩- وَاجْتَنِبُوا لِاتْلِهِكُمْ أَمْوَالَكُمْ

٥٠- مِنَ الْإِلَهِ يَغْمَّةُ الْأَوْلَادِ

٥١- مَوَالِهِ اقْتَضَتْ دَوَامَ ذِكْرِهِ

٥٢- يَدُومُ ذُو الْعَقْلِ مِنَ الْعِبَادِ

٥٣- فَكُلُّ مَنْ شَغِلَ بِالْأَوْلَادِ

٥٤- عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ فَذُو خُسْرَانِ

٥٥- لَا خَيْرَ فِي مَالٍ وَلَا وَلَدَانِ

شَرَّ الْعِبَادِ اعْمَلْ وَلَا تَعْتَرِلْ

إِيَّاكَ وَالْعِصْيَانِ كَيْ لَا تَنْدَمَا

مُسْتَمِعًا أَوْ كُنْ مُجِبًّا لِذَوِي

تَرْبَحْ أَخَانًا وَتَكُنْ رَفِيقَهُمْ

دَوَامَ فِعْلِهِ كَمَا أَمَرْنَا

لَأَنَّهُ الْمُبْدَأُ وَالنَّهَايَةُ

عَنْ كُلِّ مَاسِيَوَاهُ مُدْبِرِينَ

قَوِّ قُلُوبَنَا فَأَنْتَ النَّاصِرُ

وَأَنْتَ الَّذِي تُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ

مِنْ حَيَّةٍ وَعَقْرَبٍ وَغَارٍ

لِفِعْلِ طَاعَةٍ بِلَا غُيُوبِ

أَفْضَلُ مَا يَطْلُبُهُ الْإِنْسَانُ

عَنِ الْعِبَادَةِ وَذِكْرِ رَبِّكُمْ

لَاتْلِهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ عَنْ هَادٍ

لَأَنَّهُ الْوَهَّابُ دُونَ غَيْرِهِ

عَلَى الْعِبَادَةِ بِلَا عِنَادٍ

وَكثْرَةِ الْمَالِ عَلَى التَّمَادِ

لَأَنَّهُ خَالَفَ ذَا النَّيِّرَانِ

إِنْ كَانَ مُشْغِلًا عَنِ الدِّيَانِ

- ٥٦- ذَرِ الْعُقُولِ مَا أَرَادُوا غَيْرَ مَا
 ٥٧- إِنَّ الَّذِي أَمَرْنَا بِالذِّكْرِ
 ٥٨- لِقَوْلِهِ جَلَّ وَعَزَّ اذْكُرُوا
 ٥٩- كَذَلِكَ الرَّسُولُ قَدْ رَغَبْنَا
 ٦٠- فَالْعِزُّ وَالْإِكْرَامُ وَالرِّضْوَانُ
 ٦١- إِنَّ الْخَسَارَةَ مَعَ النُّقْصَانِ
 ٦٢- وَرَبَّنَا مَا حَصَلَ الْيَقِينُ
 ٦٣- لَا يَجْمَعُ الْحَلَالَ وَالْحَرَمَ
 ٦٤- إِنَّ الَّذِي نَهَى عَنِ التَّكَاثُرِ
 ٦٥- أَمَّا حِسَابُ صَاحِبِ الْجَلَالِ
 ٦٦- كَانَ الَّذِي يَكُونُ لَا تَعْلَمُ هَلْ
 ٦٧- هَذَا الَّذِي يُخَوِّفُ الرَّجُلَ
 ٦٨- مَا تَعْلَمُ الْجَوَابَ فِي الْقَبْرِ هَلْ
 ٦٩- إِنَّ نُشِرَتْ صَحَائِفُ الْأَعْمَالِ
 ٧٠- لَمْ تَذَرِ فِعْلَ اللَّهِ فِي الْحِسَابِ
 ٧١- خِذْلَانُ مَنْ فُلِسَ مَرْوِيٌّ وَهَلْ
 ٧٢- إِنَّ وَزْنَ الْأَعْمَالِ لَا تَذَرِ هَلْ
 ٧٣- سَعَيْكَ فِي الصِّرَاطِ لَا تَذَرِ هَلْ
 ٧٤- رُؤْيَةُ رَبَّنَا هُوَ الْمَنَانُ
 يُعِينُهُمْ خِلَافَ مَنْ تَقَدَّمَ
 أَمَرَ بِالْإِكْتِسَارِ دُونَ الْهَجَرِ
 وَالذَّاكِرِينَ الَّذِينَ يَذْكُرُوا
 إِلَيْهِ فَاذْكُرْهُ يَا حَلِيلَ رَبَّنَا
 وَالرِّيحُ فِي الطَّاعَةِ يَأْتُونَ مَانُ
 وَالْفَقْرُ وَالْهَوَانُ فِي الْعِصْيَانِ
 لِذِي تَكَاثُرٍ كَمَا يَبِينُ
 إِلَّا غَيْبُ حَوْزِ نَارِ زَامَا
 لَهُ عَذَابٌ دَائِمٌ لِلْخَاسِرِ
 فَخَطَرٌ يَعْظُمُ الرَّجَاءُ
 كُنْتَ سَعِيدًا أَوْ شَقِيًّا فِي الْأَزَلِ
 لَوْ بَلَغُوا الْعَايَةَ وَالْكَمَالَ
 يَكُونُ ثَابِتًا بِلاَ خَوْفٍ حَلْ
 هَلْ بِالْيَمِينِ الْأَخْذُ أَوْ الشَّمَالِ
 هَلْ بِالْمُنَاقَشَةِ وَالْعِتَابِ
 رَدَدْتَ مَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلِ الْحَجَلِ
 يَنْقُلُ فِعْلَ الْخَيْرِ أَمْ لَا فَاعْقِلْ
 يَكُونُ ذَا سُرْعَةٍ أَوْ بَطْءٍ يَلْ
 لَمْ تَذَرِ هَلْ يَكْثُرُهَا الرَّحْمَانُ

- ٧٥- وَأَيْنَ آمِنُكُمْ مِنَ الْعُسْرَانِ
 ٧٦- نَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ وَالْهِدَايَةَ
 ٧٧- وَانْفِقُوا أَمْوَالَكُمْ لِلَّهِ
 ٧٨- إِنَّ غَنِيًّا مُمْسِكًا فَاسَ الْغِنَا
 ٧٩- نَدَامَةُ الْمُمْسِكِ لَا يَسُدُّهَا
 ٨٠- فَلَيْسَ لِلْإِنْسَانِ شَيْءٌ غَيْرَ مَا
 ٨١- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ أَوْ مَا أَكَلَا
 ٨٢- وَكُلُّ مَا قَدَّمْتُمْ مِنْ مَضَالِكُمْ
 ٨٣- إِذْ كُلُّ مَا أَخْرَجْتُمْ لِإِنْسَانٍ
 ٨٤- مَنْ تَرَكَ الْأَمْوَالَ لِلْوَلَدَانِ
 ٨٥- مَتَى يَكُونُ عَاقِلًا مَنْ أَغْنَى
 ٨٦- أَذُوا حُقُوقِ اللَّهِ مِنْ أَمْوَالِكُمْ
 ٨٧- رَزَقْنَا الدِّيَّانَ هَذَا الْمَالَ
 ٨٨- زِينَةَ هَذَا الْمَالِ تَزِيدُ
 ٨٩- قَلَّةَ مَالِ الْمَرْءِ لَا تَمْنَعُ أَنْ
 ٩٠- نَذْكُرَ قَوْلَ اللَّهِ مَا دَحَّا لَهُمْ
 ٩١- إِذْ قَالَ رَبَّنَا وَيُؤْثِرُونَ
 ٩٢- كَفَاكَ قَوْلُ اللَّهِ لَنْ تَنَالُوا
 ٩٣- مَا يَبْخِيلُ نِعْمَةُ الرَّحْمَانِ
- قَبْلَ دُخُولِ جَنَّةِ الْمَنَانِ
 وَالسَّتْرِ فِي الدَّارَيْنِ وَالْوِلَايَةِ
 قَبْلَ نَدَامَةِ عَذْوِ اللَّهِ
 يَجُوزُ غَيْرَ مَالِهِ بَعْدَ الْفَنَاءِ
 شَيْءٌ نَعَمٌ إِذَا فَاتَهُ مَحَلُّهَا
 قَدَّمَهُ مِنْ مَالِهِ كُنْ فَاهِمًا
 أَوِ الَّذِي لَبَسَهُ فَاثْتِلَا
 فَهُوَ الَّذِي يَنْفَعُ عِنْدَ رَبِّكُمْ
 فَذَلِكَ لِللَّوَارِثِ يَأْنُومَانِ
 وَمَاتَ لَا زَادَ فَلَدُو خُسْرَانِ
 غَيْرًا وَأَرَادَى نَفْسَهُ وَأَقْنَى
 مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ حِمَامُكُمْ
 وَقَالَ أَنْفِقُوا اسْمَعُوا مَا قَالِ
 إِلَّا سَوَادَ الْقَلْبِ يَا مُرِيدُ
 يُنْفِقُ قَدْرَ وَسْعِهِ يَأْمَنُ فَطَنُ
 فِي سُورَةِ الْحَشْرِ بِمَا أَلْهَمَهُمْ
 اقْرَأْ إِلَى تَمَامِ مُفْلِحُونَ
 رَدُّعًا وَإِنْ تَبَحَّلَ فَيَسَّ الْمَالِ
 سِوَى عَذَابِ اللَّهِ وَالنَّيْرَانِ

- ٩٤- مَنْ كُنْ مُوقِنًا بِأَنَّ اللَّهَ
 ٩٥- نَهَى الْعَظِيمُ خَالِقُ النَّسِيرَانِ
 ٩٦- قَالَ إِلَهِنَا وَمَالِكُكُمْ إِلَى
 ٩٧- بَادِرْ إِلَى الْخَيْرَاتِ قَبْلَ الْفُرْتِ
 ٩٨- لَا تُطِيعُ النَّفْسَ وَلَا الشَّيْطَانَ
 ٩٩- ارْضُضْ أَخِي دُنْيَاكَ لِلنَّقْصَانِ
 ١٠٠- نَجَاةُ إِنْسَانٍ بِلَا انْقِصَامٍ
 ١٠١- يَا أَيُّهَا النَّوَامُ قَدْ أَمَرْتُكُمْ
 ١٠٢- إِنْتَبِهُوا قَبْلَ حُلُولِ الْأَجَلِ
 ١٠٣- تَذَارَكُوا مَفَاتٍ مِنْ تَقْصِيرِكُمْ
 ١٠٤- يُحَاسِبُ الْمَرْءَ عَلَى النَّقِيرِ
 ١٠٥- إِيَّاكَ الشُّحُّ وَطُولُ الْأَمَلِ
 ١٠٦- حَانَ الْمَمَاتُ وَعَلَى مَا تَغْفَلُ
 ١٠٧- دَوَامُ ذِكْرِ اللَّهِ خَيْرٌ مَّا اشْتَغَلَ
 ١٠٨- كَمْ ذَاكِرٍ صَارَ بِهِ وَلِيًّا
 ١٠٩- مَنْ تَرَكَ الدُّنْيَا لِأَجْلِ اللَّهِ
 ١١٠- أَلَا اتْرُكُوا يَاقَوْمِ سُمًّا قَاتِلًا
 ١١١- لَا تَطْلُبُوا أَنْ تُكْرِمُوا بِالنَّسَبِ
 ١١٢- مَنْ طَهَّرَ الْقَلْبَ مِنَ الْعُيُوبِ
 يَرْزُقُ لَا يَنْخَلُ خَافُوا اللَّهَ
 عَنِ التَّكَاثُرِ لِذِي الطُّغْيَانِ
 تَمَامِهِ كُنْ عَالِمًا وَعَامِلًا
 لِكَيْ يَطِيبَ الْعَيْشُ بَعْدَ الْمَوْتِ
 تَفْلِحُ وَتَرْضَى رَبَّنَا الرَّحْمَانُ
 خَالَفَ هَوَاكَ مِنْ غُسْرَانٍ
 فِي قَتْلِ نَفْسِهِ عَلَى الدَّوَامِ
 بِتَوْبَةٍ نَصِيحَةٍ لِرَبِّكُمْ
 لِكَيْ تَتَّالُوا الْأَمْنَ يَوْمَ الْوَجَلِ
 قَبْلَ الْمَمَاتِ وَلِقَاءِ رَبِّكُمْ
 يَا صَاحِبَ فَاغْلَمْ وَعَلَى الْقَطْمِيرِ
 مَنْ كَانَ زَاهِدًا فَذُو تَأْمَلِ
 عَلَى الْعِبَادَةِ وَمَاذَا الْكَسَلُ
 بِهِ عِبَادُ اللَّهِ قُورُوا إِلَى أَجَلِ
 كَمْ غَافِلٍ لَاءِ بَقِيَ غِيًّا
 يَنْالُ مَا يَشَاءُ عِنْدَ اللَّهِ
 يَغُرُّ مِنْ لَيْسَ لَبِيبًا عَاقِلًا
 لِأَنَّهُ بِالْأَمَلِ لَا بِالْحَسَبِ
 يَعِيشُ صَالِحًا بِلَا ذُنُوبِ

١١٣- وَحَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ
 ١١٤- تَرَakُمُ الذُّنُوبَ فِي الْقُلُوبِ
 ١١٥- فَكُنْ رَحِيمًا بِعِبَادِ اللَّهِ
 ١١٦- يَحْرُمُ اخْتِقَابُ أَهْلِ الْأَرْبِ
 ١١٧- قُوا يَا عِبَادَ اللَّهِ أَنْفُسَكُمْ
 ١١٨- وَأَمَرَ اللَّهُ كَذَا الرَّسُولُ
 ١١٩- لَا تَتْرُكُوهُمْ بِلَا عِلْمٍ وَلَا
 ١٢٠- رُمِ التَّوَاضُّعُ ذِرِّ التَّصَنُّعَا
 ١٢١- بِرُّ لَوْلَدَيْكَ فِي كُلِّ هُدًى
 ١٢٢- لَا تُهْمِلِ النَّظَرَ إِلَى الْحَرَامِ
 ١٢٣- وَاجْتَنِبُوا الرِّيَاءَ وَالتَّكْبِيرَ
 ١٢٤- لَا تُدِمِ الشُّبْعَ فِي الْحَلَالِ
 ١٢٥- إِسَاءَةُ الظَّنِّ بِعَبْدِ اللَّهِ
 ١٢٦- اجْتَنِبُوا الْغِييَةَ يَا إِخْوَانِ
 ١٢٧- خَيْرُ عِبَادِ اللَّهِ عِنْدَ اللَّهِ
 ١٢٨- رُمِ اصْطِحَابُ كُلِّ شَخْصٍ مُهْتَدًى
 ١٢٩- تَمُرُّ الْأَيَّامُ كَذَا الشُّهُورُ
 ١٣٠- نَهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ التَّذْيِيرِ

تُحَاسِبُوا يَوْمَ الْعِقَابِ وَالْفِتَنِ
 يَمْنَعُ أَنْ يُتُوبَ ذُو الذُّنُوبِ
 تَكُنْ عَظِيمَ الشَّانِ عِنْدَ اللَّهِ
 لِلنَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ وَسُوءِ الْأَدَبِ
 نَارًا وَأَهْلِيكُمْ وَمَمْلُوكَكُمْ
 تَعْلِيمُهُمْ اسْمَعْ كَمَا أَقُلُ
 عِبَادَةَ الْمَنَانِ جَلَّ وَعَلَا
 وَطَلَبَ الشُّهُرَةَ يَأْمُسْتَمِعَا
 وَأَعَصِيهِمَا إِنْ أَمَرَكَ الْأَعْيَادَا
 وَأَمْسِكْ لِسَانَكَ عَنِ الْكَلَامِ
 وَالْحَسَنُ وَالْحِفْدُ تَكُنْ مُكَبِّرَ
 إِلَيْكَ وَالْحَرَمُ ذَا النِّكَالِ
 تُبْطِلُ مَا تَعْمَلُهُ يَا لَاهُ
 كَذَا النِّمِيمَةِ مَعَ الْبُهْتَانِ
 أَشْفَقُواهُمْ عَلَى ضَعِيفٍ وَاهٍ
 إِنَّ الْقَرِينَ بِالْقَرِينِ مُقْتَدِي
 وَأَنْتَ فِي الْغَفْلَةِ يَا مَغْرُورُ
 وَالْإِخْتِيَارُ فَهُوَ ذُو التَّقْدِيرِ

- ١٣١- يَفْزُزُ قَائِمٍ بِأَمْرِ اللَّهِ
 ١٣٢- أَكْرِمَ بَعْدَ مُخْلِصِ أَوْبِي
 ١٣٣- لَيْسَ لَهُ تَعَلُّقٌ بِالْغَيْرِ
 ١٣٤- إِذَا رَأَى مَعْصِيَةً يَجْتَنِبُ
 ١٣٥- أَكْرِمَ بِهِ يَوْمَ لِقَاءِ اللَّهِ
 ١٣٦- جَرَاؤُهُ الْجَنَّةُ وَالرَّيْحَانُ
 ١٣٧- لَيْسَ لَهُ هَمٌّ وَلَا أَحْزَانُ
 ١٣٨- قَدْ نَالَ كُلَّ الْخَيْرِ فِي الْجَنَانِ
 ١٣٩- رُؤْيَا رَبِّ الْخَلْقِ فِي دَارِ الْبَقَا
 ١٤٠- يَفْزُزُ عَبْدٍ نَالَ كُلَّمَا اشْتَهَى
 ١٤١- بَلْ نَالَ كُلَّ الْقَصْدِ وَالْمُرَادِ
 ١٤٢- فَازَ بِمَا لَمْ تَسْمَعْ الْأَذَانُ
 ١٤٣- أَفْ لِعَبْدِ الثَّوْبِ وَالْدِّينَارِ
 ١٤٤- صَارَ أَسِيرًا لِحُكَامِ الدُّنْيَا
 ١٤٥- دَيْدَنُهُ تَمَتَّعُ الْبَهَائِمِ
 ١٤٦- قَرِينُهُ الْمَحْبُوبُ فِي الْأَنَامِ
 ١٤٧- وَظَنَّ أَنَّ الْعِزَّ عِنْدَ اللَّهِ
 ١٤٨- أَلْجَأَهُ الْجَهْلُ إِلَى اخْتِقَارِ
 ١٤٩- كَيْ لَا يَنَالَ فَضْلَهُمْ لِلشُّقْوَةِ
- وَنَهَيْهِ مُسْتَسْلِمٍ إِلَيْهِ
 مِنْ غَيْرِ إِعْرَاضٍ عَنِ الثَّوَابِ
 لَا طَمَعٌ فِي السَّرِّ أَوْ فِي الْجَهْرِ
 مَوْضِعَهَا جِدًّا وَلَا يَفْتَرِبُ
 أَكْرِمَ بَعْدَ عَابِدٍ أَوْاهِ
 وَالْحُورُ وَالْقُصُورُ وَالرَّضْوَانُ
 فِيهَا وَلَا غَمٌّ وَنُقْصَانُ
 مِنْ دُونِ مَا شَكَ وَلَا بُهْتَانِ
 أَذْرَكَهَا أَنْعَمَ عَبْدٌ إِنْ تَقَى
 دُونَ تَخَلُّفٍ وَنَالَ الْمُتَقَى
 مَا نَالَ جَمْعٌ مِنَ الْعِبَادِ
 وَلَمْ تَرَ الْعُيُونُ وَالْجَنَانُ
 وَالذَّارِ وَالذَّرْهَمِ وَالْأَغْيَارِ
 وَالنَّفْسَ وَالشَّيْطَانَ بَيْسَ الْبُغْيَا
 أَكْلًا وَشُرْبًا زِدْ نِكَاحَ الْبَاهِمِ
 أَخُو الثَّرَاءِ وَلَوْ مَعَ الْأَنَامِ
 تَحْصِيلُ أَمْوَالٍ بِلَا تَنَاهِ
 سَادَاتِ أَهْلِ اللَّهِ وَالْكَبَارِ
 إِذْ قَصَدَهُ دُنْيَاهُ دُونَ الصَّفْوَةِ

- ١٥٠- نَفَرَهُ الْخِذْلَانُ عَنْ إِكْرَامِ
 ١٥١- مَاخَابَ مَنْ أَحَبَّ أَهْلَ اللَّهِ
 ١٥٢- نَسَّأْتُ بِالْفَضْلِ أَنْ يَرْزُقَنَا
 ١٥٣- اَعْلَمْ أَخِي أَنَّ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ
 ١٥٤- لَا يَحْمِلُ الْإِنْسَانُ مِنْ أَوْزَرِي
 ١٥٥- صَلِّ الْفَرَائِضَ مَعَ الْخُشُوعِ
 ١٥٦- أَوْجِبْ رَبَّنَا إِقَامَةَ الصَّلَاةِ
 ١٥٧- إِذْ ذَاكَ كَمَلَهَا بِلَا نَقْصَانِ
 ١٥٨- حَانَ مَمَاتُكَ وَأَنْتَ تَلْعَبُ
 ١٥٩- يَنْقُرُ فِي الصَّلَاةِ نَقْرَ الدِّيكِ
 ١٦٠- نَصُّوْا بِأَنَّهُ كَانِ نَسَانٍ مَلِكُ
 ١٦١- وَكُنْ إِذَا دَخَلْتَ فِي الصَّلَاةِ
 ١٦٢- لَمْ يَكْ لِلْفَذِّ سِوَى الَّذِي عَقَلَ
 ١٦٣- نَفْلُ الصَّلَاةِ فَضْلُهُ مَائُورَةٌ
 ١٦٤- يَا أَيُّهَا الْعَاقِلُ صُمْ شَهْرَ الصِّيَامِ
 ١٦٥- وَزَكَ أَمْوَالَكَ دُونَ النَّقْصِ
 ١٦٦- خُسرَانُ شَخْصٍ مَانِعِ الزُّكَاةِ
 ١٦٧- رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَذَرَا
 ١٦٨- إِلَى امْتِثَالِ أَمْرِ ذِي الْجَلَالِ
 أَهْلُ الْهِدَايَةِ بِلَا انْقِصَامِ
 وَمَعَهَا خَادِمُهُمْ لِلَّهِ
 مَحَبَّةَ الْقَوْمِ كَمَا أَمَرْنَا
 إِلَّا الَّذِي نَسَعَى مِنَ الْإِحْسَانِ
 قَرِيْبِهِ شَيْئًا أَوْ الْأَصْطَهَارِي
 رَبَّيْلُ سُجُودِكَ مَعَ الرُّكُوعِ
 لَا وَجُودَهَا كَمَا قَدْ انْجَلَا
 بِالشَّرْطِ وَالْأَدَابِ وَالْأَرْكَانِ
 مِثْلَ مُنَافِقٍ يُصَلِّي يَلْعَبُ
 مَا نَالَ غَيْرَ لَعْنَةِ الْمَلِكِ
 جَارِيَةٍ مَاتَتْ وَأَهْدَاهَا الْمَلِكُ
 كَمِثْلِ شَخْصٍ كَانَ فِي الْوَفَاتِ
 مِنَ الصَّلَاةِ دُونَ مَا كَانَ غَفَلَ
 وَذَبُّ مَنْ لَازَمَهُ مَغْفُورَةٌ
 مِنْ غَيْرِ تَفْرِيطٍ وَثَرٍ بِالْقِيَامِ
 إِنْ وَجِدَ النَّصَابُ دُونَ وَقْصِ
 مُعَايِنَ دُنْيَا بِلَا مَمَاتِ
 عَنْ كَثَرِ مَالٍ فَازَ مَنْ تَشَمَّرَا
 سُبْحَنَ ذِي الْجَمَالِ وَالْكَمَالِ

- ١٦٩- لِمَانِعِ الزَّكَاةِ ذِي الْخُسْرَانِ
 ١٧٠- لَمْ يَكُ فِي الْكَنْزِ سِوَى الْخُسْرَانِ
 ١٧١- هَذَا الَّذِي هَوَلَ كُلَّ عَاقِلٍ
 ١٧٢- نَفْلُ زَكَاةِ الْبَمَالِ قَدْ قَدَّمْتُ
 ١٧٣- فَضْلُ تَطَوُّعِ الصَّيَامِ قَدْ وَرَدَ
 ١٧٤- سَعْيِي بِإِقْدَامِ وَالرَّحَالِ
 ١٧٥- أَوْجَبَهُ اللَّهُ عَلَى الَّذِي قَدَرُ
 ١٧٦- أَمَّا جِهَادُ الْمَرْءِ فَأَعْلَمُ أَنَّهُ
 ١٧٧- ذَرِ التَّكَاسُلَ عَنِ الْجِهَادِ
 ١٧٨- أَعْلَمُ أَخْبِي أَنَّ الرَّحِيمَ بَشَرًا
 ١٧٩- إِذْ أَنْبَأَ اللَّهَ بِأَنَّهُ اشْتَرَى
 ١٨٠- إِنَّ الْجِنَانَ رَأْسُ مَالِهِ لِمَنْ
 ١٨١- الْمُشْتَرَى اللَّهُ وَسَيِّدُ الْوُجُودِ
 ١٨٢- جَهَّزْ بِأَمْوَالِكَ جَيْشَ الْمُؤْمِنِينَ
 ١٨٣- لِلشُّهَدَاءِ يَغْفِرُ أَوَّلَ الْمُتْلَا
 ١٨٤- هُوَ الَّذِي يَمْنَعُ كُلَّ الْأَرْضِ
 ١٨٥- أَيْ وَالَّذِي جَعَلَهُمْ أَحْيَاءَ
 ١٨٦- وَهُوَ أَمْتُهُمْ مِنَ الْفَزَعِ
 ١٨٧- إِنْ قُلْتَ هَلْ لَهُمْ شِفَاءَةٌ أَقْلُ
- نَارٌ مَعَ الْحَمِيمِ وَالشَّعْبَانِ
 وَالطَّرْدِ وَاللُّعْنَةِ وَالنَّقْصَانِ
 عَنْ مَنْعِ حَقِّ اللَّهِ دُونَ غَافِلٍ
 فِيهِ كِفَايَةٌ وَمَا نَوَيْتُ
 فِي الذِّكْرِ وَالسُّنَّةِ لِلَّذِي اقْتَصَدَ
 بِفَضْلِ حَسْبِ بَيْتِ ذِي الْجَلَالِ
 دُونَ تَخَلُّفٍ وَفِي الذِّكْرِ ذِكْرُ
 فَرَضِ كِفَايَةٍ وَأَعْظَمُ شَأْنُهُ
 جَاهِدُ بِجِدِّ كُلِّ ذِي عِنَادِ
 أَهْلَ جِهَادِ الْحَرْبِ ثُمَّ أَعْذَرَ
 نَفُوسَنَا وَمَالَنَا وَأَخْبَرَ
 يُقَاتِلُ الْكُفَّارَ حَبَذَ الثَّمَنِ
 وَاسِطَةً بَيْنَ الْعِبَادِ وَالْوُدُودِ
 إِنْ كُنْتَ ذَا عُدْرٍ تَكُنْ مِنْ مُحْسِنِينَ
 قَاتِ إِلَهَنَا تَعَالَى ذُو الْعُلَى
 مِنْ أَكْلِ لَحْمِ الشُّهَدَاءِ وَالْعَرْضِ
 مَعَ الْمُتَمَتِّعِ كَمَا إِنْشَاءَ
 نَاجِ الْكِرَامَةِ لَهُمْ بِلَا جُوعٍ
 نَعْمَ بِلَا شَكٍّ وَرَيْبٍ يَارْجُلِ

- ١٨٨- لِوَاحِدٍ هَذَا مَعَ السَّبْعِينَ
 ١٨٩- لِوَاحِدٍ هَذَا مَعَ السَّبْعِينَ
 ١٩٠- هُنَا هُمْ مَعَ اللَّهِ بَيْنَ الْأَمَلِ
 ١٩١- خَافَ الْمُنَافِقُ مِنَ الْمَمَاتِ
 ١٩٢- بَلْ جَعَلَ النَّجَاةَ فِي التَّخَلُّفِ
 ١٩٣- يَنْظُرُنَّ أَنْ أَمَلَ الْإِنْسَانِ
 ١٩٤- رَضِيَ بِالسُّخْطِ وَالْعِتَابِ
 ١٩٥- بُشِّرَ مَنْ أَخْلَصَ فِي الْجِهَادِ
 ١٩٦- مَا صَعَقَ الْجَالِسُ عَنْ جِهَادِ
 ١٩٧- اعْلَمْ بِأَنَّ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ عَلَى
 ١٩٨- تَبَا لِمَنْ مَكَّنَ فِي الْبِلَادِ
 ١٩٩- عَلَيْكَ بِالسُّنَّةِ وَالْكِتَابِ
 ٢٠٠- مَا أَفْسَدَ الدِّينَ سِوَى الْمُلُوكِ
 ٢٠١- لَمْ يَرْجُوا فِي بَيْعِهِمْ نَفْسَهُمْ
 ٢٠٢- وَتَعَوُّوا فِي حِيْفَةٍ يَبِينُ
- خَوْرَاءِ قَبْلَ بَعْثِ عَالَمِينَ
 مِنْ أَهْلِهِ الْخَاصِّ وَالْأَقْرَبِينَ
 بِلَا حِسَابٍ وَبِدُونِ الْوَحَلِ
 قَبْلَ تَمَامِ أَجَلِ الْوَفَاتِ
 عَنِ الْمَعَارِكِ بِلَا تَوَقُّفٍ
 يَزْدَادُ أَوْ يَكُونُ بِالنَّقْصَانِ
 هَارِبٌ يَوْمَ الزُّخْفِ وَالْعَذَابِ
 بَيْنَ مَالٍ أَوْ ثَوَابِ الْهَادِي
 لِلَّهِ دُونَ غُذْرٍ ذُو سَدَادِ
 ذِي قُدْرَةٍ أَوْ حَبَّةٍ رَبِّ عَلَى
 وَلَمْ يُغَيِّرْ مُنْكَرِ الْعِبَادِ
 جَانِبِ ذِي الزَّيْغِ عَنِ الصَّوَابِ
 وَعُلَمَاءِ السُّوءِ بِالْأَنْفُوكِ
 وَمَا غَلَّتْ فِي بَيْعِهِمْ أَثْمَانُهُمْ
 إِنْتَانَهَا لِعَاقِلٍ يَدِينُ

وفيما يلي المصنفات الرئيسية للشيخ عمر القوتى :

- ١- رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرحيم .
- ٢- سفينة السعادة لأهل الضعف والنجادة .

- ٣- المقاصد السنية لكل موقف من الدعاة إلى الله من الراعي والرعية .
- ٤- كتاب الكلام - يتعلق بالعقائد .
- ٥- هدية المذنبين إلى كيفية الخلاص من حقوق الله والعباد أجمعين .
- ٦- تذكرة الغافلين عن قبح اختلاف المؤمنين .
- ٧- أسماء سور القرآن الكريم .
- ٨- منظومة في إصلاح ذات البين .
- ٩- كتاب أجوبة مسائل .
- ١٠- تذكرة المسترشدين وفلاح الطالبين .
- ١١- سيوف السعيد على رقبة الشقي الطريد .
- رحمه الله وأدخله فسيح جنّات النعيم . آمين ثم آمين .

الفصل الخامس

الاستعمار والمقاومة الإسلامية في غرب إفريقيا

كانت حركات الجهاد التي اندلعت وصادفت مجيء الاستعمار الأوروبي وفتوحاته لمنطقة الغرب الإفريقي في بداية القرن التاسع عشر الميلادي ، بمثابة الميلاد الحقيقي للحماس الديني والوعي السياسي والتضامن بين شعوب تلك المنطقة المسلمة . أظهرت المجتمعات الإسلامية استعداداً كاملاً للانقياد لتوجيهات دينية بزعامة رواد تلك الحركات تحت راية الجهاد بغية إصلاح أحوالهم الاجتماعية والدينية ومقاومة السيطرة الاستعمارية ونفوذها المسيحي على تلك المجتمعات . أوجدت تلك الحركات روحاً ثورياً ونشاطاً فكرياً في كثير من القطاعات الاجتماعية من هنا وهناك . ومن ثم تواجد الاستعداد لدى جماهير المسلمين للدفاع عن دينهم وتثبيتهم والمحافظة على قيمه الأخلاقية والاجتماعية والسياسية على وجه ذلك الاستعمار الأجنبي الدخيل . وانطلاقاً من هذا المضمار وأصالة عن الرغبة الطوعية لمسلمي المنطقة في الامتثال للتوجيهات القرآنية والسنة النبوية المطهرة في تسيير شؤونهم ، تقوت شوكت دعاء الإصلاح الديني وارتقت الروح المعنوية فيهم لتحدي ذلك الوجود الاستعماري ومواجهته نداءً بند .

إذ تجسدت روح تلك المقاومة من خلال الطرق الصوفية في القرن التاسع عشر الميلادي عندما أخذ الاستعمار الفرنسي ينمو نمواً مطرداً ويمد

نفوذه شرقاً وغرباً . فكان من الطبيعي ، تجاوباً مع ذلك التيار ، أن يناهض رواد الشعوب حركات العصيان والمقاومة ضد المستعمرين الغزاة في السودان الغربي والأوسط . تمثل أبرز تلك المقاومات في المواجهة بين إمامية التكرور خلال فترة ما بين أعوام ١٨٥٦م و ١٨٦٠م . وتجدر الإشارة إلى أن تلك الإمامية قد انبثقت عن حركات الإصلاح الديني والاجتماعي التي قامت في بلاد فوتاتورو في كل من مالي والسنغال وموريتانيا ، وكان الهدف الأساسي من تلك الحركات هو العمل لتوحيد القبائل المسلمة في المنطقة تحت كيان سياسي موحد . كما كانت تستهدف إيقاف مد النفوذ الاستعماري الفرنسي في حدود ذلك الكيان السياسي . اضطرت السلطات الاستعمارية إلى إبرام إتفاقية والدخول في هدنة مع تلك الإمامية في وقت لاحق بعد مرور قرابة عشرين سنة على تلك المقاومة وعلى فترات متقطعة، وبعد ذلك انهارت الإمامية نهائياً في عام ١٨٨٠م . لم تستطع السلطات الاستعمارية الفرنسية إنهاء المقاومة بعد القضاء على الدويلات الإسلامية وفرض سيطرتها عليها في المنطقة رغم مالديها من الأسلحة الحديثة والأكثر تطوراً . وذلك لأن المقاومة كانت دائرة حول الصراع العقيدى والثقافي ، ولم تكن بسبب مصالح مادية . لهذا اتخذت وجهاً جديداً بعد إختفاء الكيانات السياسية المتمثلة في تلك الدويلات والإماميات . تمثل الوجه الجديد في عقيدة ظهور الإمام المهدي المنتظر ، الذي سيظهر ويؤسس حكومة إسلامية على ضوء القرآن الكريم وسنة النبي صلى الله عليه وسلم .

تستر كثير من الناس بهذه العقيدة في معظم الأوساط الإسلامية في غرب إفريقيا واندفعوا وراءها . ومن ثم ازداد إيمانهم بقرب انتهاء العالم . الأمر الذي زاد حدة المقاومة ضد الاستعمار الأوروبي عنفاً وضراوة ، اعتباراً من عام ١٩٠٦م حتى وقت اندلاع الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٤م ووصولاً إلى نشوب الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٤٠م . نشطت العقيدة المهدية في كل من السنغال وموريتانيا وغينيا ومالي ونيجيريا ، حيث اتخذت صور الطرق الصوفية . وبذلك تحولت المقاومة الميدانية بالأسلحة إلى التعبئة الشعبية عن طريق ممارسات الرياضة الروحية . من هنا ظهرت أدوار الطرق الصوفية وأهميتها في حياة شعوب وأفراد المجتمعات الإسلامية في الغرب الإفريقي ، وأخذت هذه الأنشطة تزداد شهرة وانتشاراً مع انبثاق طوائف فرعية عن الطوائف الأم ، كلما يتنامى نفوذ زعيم لهذه أو لتلك الطائفة وتعلو له كلمة على لفيف من مريديه أو جاليات تتبرك به اعترافاً بولايته الجديدة أو لدى إعلانه عن اتصال بكشوفات ربّانية جديدة . نذكر فيما يلي الطرق الصوفية الرئيسية وفروعها المنتشرة في الغرب الإفريقي .

أ - الطرق الصوفية الرئيسية :

١- القادرية ، أسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي ولد في إيران في سنة ٤٧١ هجرية وتوفي سنة ٥٦١ هجرية (١٠٧٨م) . تعتبر القادرية أقدم الطرق الصوفية المعاصرة وأكثرها اعتدالاً في المعتقدات . تضم أورادها ذكر كل مقولة من المقولات التالية (١٠٠) مائة مرة دبر الصلوات المكتوبة . (١) "أستغفر الله (٢) سبحان الله (٣) اللهم صلى على سيدنا محمد وعلى آله

وأصحابه (٤) لا اله إلا الله . نسب إلى الشيخ عبدالقادر الجيلاني مصنفات عدة أشهرها . " الغنية لطالب طريق الحق والفتح الرباني والفيض الروحاني " الذي يتناول علم التوحيد " وفتوح الغيب " الذي يعالج مسائل صوفية .

يرجع دخول هذه الطريقة في منطقة الغرب الإفريقي إلى القرن التاسع عشر الميلادي من خلال عالم يدعى الشيخ المختار بن أحمد المولد في سنة ١٧٢٩م المتوفي سنة ١٨١١م . انحدر هذا الصوفي من قبيلة كوتنا الصحراوية . عاش في مدينة تنبكتو الواقعة في جمهورية مالي ، أنشأ الشيخ المختار المذكور أول زاوية للقادرية في غرب إفريقيا في بلدة أزواد بشمال تنبكتو . أصبحت تلك الزاوية أول مركز لهذه الطريقة في غرب ووسط إفريقيا ، يذكر لنا كتاب "كنة الشريون" مايلي عن الطريقة القادرية بين أبناء قبيلة الكوتنا التي ينتمى إليه الشيخ المختار: "إن كنة هم المؤمنون بالطريقة القادرية وناشروها ... وفي هذا المعنى فقدت السلسلة القادرية معناها العام الذي يعنى "السلسلة الصوفية" التي تنطبق على الخلافة أو تعاقب الدعاة لكل الطوائف التي تختص بالطريقة القادرية ... ولقد تقمص كنة القادرية ، مثلما تقمصتهم ، وأصبح اسمهم مرادفا لها ، وغالبا ماكنى القادرية السودانية بالبكاية نسبة إلى الجد الكنتى ، الشيخ سيدى عمر الشيخ ولد الشيخ سيدى أحمد البكاى ، الذى كان ناشر هذا الورد (القرن السادس عشر) أو المختارية نسبة إلى الشيخ سيدى المختار الكبير ، الذى كان المصلح الدينى فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر" ومن المرجح أن تكون

الطريقة قد وصلته عن طريق الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني.
واستمر الأستاذ محمد محمود ولد ودادی قائلاً :

"يستظهر أتباع القادرية البكائية ، أذكّاراً خاصة تؤلف فاتحتهم الخاصة
وتختلف نوعاً ما عن أوراد من نفس الشئ لدى فروع القادرية ... وإليكم هذه
الأوراد فى نصّها الكامل المقدم من المشايخ الكنتيين الأتقياء : "ذاك هو ورد
سلسلة القادرية ، وهو أشهرها ، يقوم مقام كل الأوراد الأخرى ، ولا يمكن
الاستعاضة عنه بأى ورد آخر . ومن يحفظه لا يموت إلا فى أحسن الأحوال .
ويقوم على قراءة الأدعية التالية دبر كل صلاة :

((حسبنا الله ونعم الوكيل (٢٠٠ مرة) . استغفر الله العظيم (٢٠٠ مرة).
صلى الله على محمد وآله (١٠٠ مرة))) .

ولا ينبغي الاعتقاد بأن هذه الأدعية الخاصة تقرأ بانتظام - حسبما
تقتضى القاعدة - عقب كل صلاة فرض من الصلوات الخمس فى اليوم .
وهذا الدعاء الكامل هو الكمال الذى ينبغى الوصول إليه ، والأولياء
والشيوخ الأتقياء هم الوحيدون الجديرون به . ولكن عامة المؤمنين لا
يقرؤنه إلا بعد صلاة العشاء ، وأيضاً بصورة غير منتظمة تماماً .
وتستخدم فى هذا الدعاء المسبحة العادية^(١) . كان الشيخ أحمد
لوئى بارى الأول ، مؤسس دولة ماسينا الإسلامية والشيخ عثمان دان
فودى مؤسس دولة صوكتو الإسلامية من طلائع أتباع الطريقة

(١) راجع كتاب كتنة الشريون ، تأليف بول مارتى تعريب وتعليق محمد محمود ولد ودادی.

القادرية كمذهب صوفي . انتشرت هذه الطريقة بين سكان المنطقة من خلال جهود أفراد من التجار والمشايخ الذين ينتمون إلى قبائل من مالي وموريتانيا والسنغال ونيجيريا وغينيا والنيجر .

٢: الشاذلية ، أسسها الشيخ أبو الحسن على الشاذلي المولود في سنة ١١٩٦م وتوفي سنة ١٢٥٨م . تعتبر هذه الطريقة إلزامية وأفكاراً فلسفية أكثر من كونها طريقة صوفية ذات ممارسات محددة كسائر الطرق الصوفية الأخرى المنتشرة في غرب إفريقيا . قام عالم يدعى الشيخ العربي بن أحمد الدرقاوى (توفي سنة ١٨٢٣م) في المغرب ، بمحاولة إحياء أفكار الشيخ أبو الحسن على المذكور . وقد التقى أحد دعاة الإصلاح الدينى بالمنطقة يدعى الشيخ على الصوفى ١٨٢٨م - ١٩١٢م الذي انحدر من قبيلة فوتا جلولو الفولانية ، أثناء زيارته لمدينة فاس المغربية بالشيخ الدرقاوى المذكور الذي لقنه أفكار أبي الحسن على الشاذلى . ومن خلال الشيخ على الصوفي هذا بدأ إنتشار أفكار أبي الحسن على الشاذلي بين سكان فوتا جلولو ومنها إلى المناطق المجاورة في غرب إفريقيا ، جنباً إلى جنب مع الطرق الصوفية المعاصرة الأخرى : حصل الشيخ عليّ الصوفي على مريدين وأتباع كثيرين وهم الذين قاموا معه بتأسيس زوايا كثيرة في المنطقة نفسها . ومن أشهرها زاوية غومبا وانداما وجاوية التي تقع في غينيا . كما قاوموا دخول الاستعمار الفرنسي في بلادهم ، ولعبوا أدواراً ملموسة في نشر الإسلام وثقافته في غرب إفريقيا . ونشبت خلافات طائفية بين الشاذليين والتجانيين أدت إلى مواجهات

دموية بين الجانبين. ولا تزال هناك بقايا الشاذليين في غرب إفريقيا لاسيما في منطقة فوتا جاللو، ومالي وبوركينا فاسو والنيجر ونيجيريا .

النظرية الشاذلية :

تضم نظرية هذه الطائفة ممارسة الصيام الطوعى والاعتكاف وتلاوة الأذكار التي يسمونها "جارورى" أى إجلال الله بلغة الفولاني ، كل ليلة الخميس . وتتسم بممارسة فردية أكثر منها جماعية . وهي الخصلة التي تتناسب مع أحوال الرّجال من رعاة المواشى وحياة العزلة التي يجبلونها . لجأت السّلطات الاستعمارية إلى ممارسة القمع والاضطهاد ضد هذه الجماعة وزجتهم فى سجونها بتهمة الانخراط فى السّياسة . وقد لعبت تلك الجماعات أدواراً ملموسة فى النهضة الدينية والانتفاضة الشعبية ضد الوجود الاستعماري فى إمارات فوتا جاللو الواقعة فى جمهورية غينيا والمناطق المجاورة فى الغرب الإفريقي .

٣ : التجانية : أسسها الشيخ أحمد بن محمد المختار بن أحمد بن محمد بن سالم . ويضاف إلى هذه التسمية لقب التّجاني . يرجع أصل الكلمة إلى كلمة تيجانا أو تيجان . وهي اسم لقبيلة بربرية من سكان الجزائر بشمال إفريقيا . وإلى هذه القبيلة تنتمى والدّة الشيخ أحمد التّجاني .

مولده ونشأته

ولد الشّيخ أحمد التّجاني ببلدة عين مادی الواقعة فى جنوب الجزائر فى السنة ١١٥٠هـ الموافق لسنة ١٧٣٧م . توفي فى مدينة فاس بالمغرب فى العام ١٨١٥م . أرجع الشّيخ أحمد التّجاني أصله إلى أهل البيت . أى إلى ذرية محمد

رسول الله صلى الله عليه وسلم . إذ أضاف لقب "الحسّاني" إلى اسمه وانتسب بذلك إلى ذرية الحسن بن فاطمة الزهراء نجيلة الرسول عليه أفضل الصلوات ، ويقال له "الشريف" أيضاً إجلالاً لهذا الانتساب . لكن لم يثبت تاريخياً أن أحداً من أجداد الشيخ أحمد الأوائل قد ادّعى هذا الانتساب إلى أهل بيت الرسول قبله . ذكر الشيخ على حرازم بن براد ، أكبر تلاميذ الشيخ أحمد ومريديه ومؤلف كتاب "جواهر المعاني" الذي يعتبر المصدر الأول لتاريخ حياة الشيخ أحمد التجاني وطريقته الصوفية، في هذا الكتاب ، أنه عندما سُئِلَ عن شيخه وعن مرجعية ادّعائه بالانتساب إلى شرفاء أهل البيت ؛ أن شيخه لم يكن يدّعي ذلك جزافاً ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد ظهر له في المنام وقال له : " أنت ابني ثلاث مرات" (٢) .

- نقل الشيخ على حرازم كثيراً من الفضائل والأفكار التي نسبها إلى الشيخ أحمد التجاني من كتاب المقصد الأحمدى في التعريف بسيدنا ابن عبد الله ، الذي ألفه الشيخ محمد بن عبد السلام القادري . لكنّه لم يشر إلى ذلك (٣) . تعتبر الطريقة التجانية التي أسسها الشيخ أحمد التجاني في السنة ١١٩٦هـ عندما أعلن لتلاميذه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أتاه جهرة بمبادرة تقديمه إلى التربية الروحية وأعطاه هذه الأوراد، أحدث الطرق الصوفية

(٢) كتاب : جواهر المعاني .

(٣) انظر كتاب: الطريقة التجانية للدكتور جميل محمد أبو النصر .

الرئيسية ظهوراً وأكثرها انتشاراً في منطقة غرب ووسط إفريقيا حتى الوقت الحاضر . تأثر الشيخ أحمد التجاني بالنزاعات الصوفية في وقت مبكر من حياته ، ولم يكن قد جاوز واحداً وعشرين من عمره وذلك عندما سافر إلى مدينة فاس المغربية في عام ١٧٥٨م ، بحثاً عن مشايخ للطرق الصوفية بعد حصوله على بعض العلوم الإسلامية والصوفية في قرية أبيه عين مادي . وتضمنت تلك العلوم حفظ القرآن ودراسة الفقه المالكي من كتب "مختصر الخليل" وكتاب الأخضر . ورسالة جماعة الصوفية ببلاد الإسلام " للشيخ أبي القاسم القشيري (٩٨٦م - ١٠٧٤م) . وقد التقى الشيخ أحمد التجاني ببعض علماء الطرق الصوفية أثناء تنقلاته بين الجزائر والمغرب والشرق العربي ، من بينهم شيخ يدعى أحمد بن عبد الله الصوفي الهندي الذي تأثر به الشيخ أحمد التجاني تأثيراً كبيراً في النظريات الصوفية بما فيها كرامات الأولياء (٤) .

انتسب الشيخ أحمد التجاني إلى عدة طرق صوفية قبل تأسيسه طريقة خاصة به . وقد كان في الوهلة الأولى قادري المذهب ، فانتقل إلى الناصرية فطريقة الشيخ أحمد الحبيب بن محمد ، ثم اختتم بالخلوطية التي أسسها أحد المشايخ الصوفيين في مصر يدعى الشيخ محمد بن عبد الرحمن .

انتشرت الطريقة التجانية في شمال إفريقيا من خلال منطقة "جاردا" الجزائرية ومناطق أخرى في تونس بفضل جهود أحد المشايخ يدعى محمد بن

(٤) راجع كتاب جواهر المعاني .

فويدر العبد لاوى (توفي ١٨٢١م) . ومن بلاد المغرب وصلت الطريقة التجانية إلى موريتانيا بواسطة شيخ يدعى محمد الحافظ الذي كان أحد مريدى الشيخ أحمد التجاني في مدينة فاس المغربية .

الرياضة الروحية :

أولاً : الأوراد اليومية، هي التي يقوم بها الصوفي التجاني في نشاطه اليومي، وهي على نوعين :

أ- النوع الأول يطلقون عليه كلمة "اللازم" . ويتم في الفترتين الصباحية والمساءية . يضم تلاوة كل من المقولة التالية مائة (١٠٠) مرة : أستغفر الله ، الصلاة على النبي ولا إله إلا الله .

ب- النوع الثاني، ويعرف " بالوظيفة" التي تتم مرة واحدة في اليوم : وتضم تلاوة " أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم ، ثلاثين" (٣٠) مرة . صلاة الفاتح ، وهي : "اللهم صلى على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق وناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى أهله حق قدره ومقداره العظيم" . خمسين (٥٠) مرة ، "لا إله إلا الله" مائة (١٠٠) مرة ، ثم جوهرة الكمال، اثنى عشرة ، وهي : " اللهم صلى وسلم على عين الرحمة الربانية والياقوتة المتحققة الحائطة بمركز الفهوم والمعاني ونور الأكوان المتكونة الآدمي صاحب الحق الرباني البرق الأسطع بمزون الأرياح المائلة لكل متعرض من البحور والأواني ونورك اللامع الذي ملأت به كونك الحائط بأمكنة المكنى . اللهم صلى وسلم على عين الحق

التي تتجلى منها عروش الحقائق عين المعارف الأقوم صراطك التام والأسقم،
اللهم صلى وسلم على طلعة الحق بالحق . الكنز الأعظم إفاضتك منك إليك
أحاطة النور المطلسم، صلى الله عليه وعلى أهله صلاة تعرفنا بها إياه " .

(١) يعتقد بأنها أنزلت على الشيخ محمد البكرى الذي عاش في القرن
الخامس عشر الميلادي . (١٤٩٢م - ١٥٤٥م) من السماء على صحيفة من
النور : كما يعتقد أن تلاوتها مرة واحدة تعادل تلاوة القرآن الكريم كله
(٦٠٠٠) ستة ألف مرة . ذكره كتاب زوال الحيرة للشيخ أحمد سكيرجى
نقلًا من كتاب "جواهر المعاني" .

ويقول الشيخ أحمد التجاني فيما نقل عنه في الكتاب نفسه أن "صلاة
جوهرة الكمال علمه إياها النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة ومشافهة " . وهو
أعظم ورد في الأوراد التجانية . ولا تجوز تلاوته إلا مع الوضوء الذي يتم
بالماء . ويعتقد الصوفي التجاني بأنه لدى وصول العدد السابع أثناء تلاوتها
بصورة جماعية ، أى في حلقة الوظيفة ، يحضر الرسول صلى الله عليه وسلم
وخلفائه الراشدون؛ ويظلمون في الحلقة إلى أن تتم التلاوة . لذلك يجب فرش
قطعة الثوب الأبيض الذى يطلق عليه إسم "الإزار" أو "السفسارى" باللهجة
التونسية في وسط الحلقة، ويقولون أن الرسول وأصحابه الكرام أى الخلفاء
الراشدين يجلسون عليه أثناء التلاوة الجماعية لجوهرة الكمال(٥) .

(٥) المصدر السابق .

ح - وإضافة إلى ممارسة اللازم والوظيفة المنصوص عليهما ، يتعين على التجانيين الاشتراك في هذه الرياضة الروحية التي تقام بعد صلاة العصر في كل يوم جمعة وتنتهي بصلاة المغرب . وفي حالة عجز أحد المشايخ أو مريديهم عن حضور تلك الحلقة يجب عليه تلاوة التهليل أى " لا إله إلا الله " ، (١٠٠٠) ألف مرة . وتكرار اسم الجلالة أى " الله " (٥٠٠) خمس مائة مرة مع الاستعانة بالسبحة ، وذلك تعويضاً لما فاتته من بركة ذلك اليوم - الجمعة وممارسته الصوفية .

دخول الطريقة التجانية إلى غرب إفريقيا :

تجدر الإشارة هنا، قبل الدخول في تفاصيل انتشار العقيدة التجانية في غرب إفريقيا ، إلا أن هذه الطريقة كحركة صوفية وسياسية في آن واحد قد استطاعت أن تؤسس دولة تحت رايتها مع اكتساب إعجاب وشعبية المسلمين المتحمسين بسبب مقاومتها للاستعمار الفرنسى في بادئ الأمر ، كما فقدت فيما بعد ، تلك الشعبية والإعجاب بسبب الغلو والتعصب . لعب الشيخ عمر تال الفوتي (١٧٩٤م - ١٨٦٤م) دوراً حيوياً دينياً وثقافياً وسياسياً في تاريخ غرب إفريقيا . غير أن دولته التي أسسها بحماس الطريقة التجانية لم تتسم بالاستقرار منذ البداية لأنها تأسست في غير موطنها الأصلي^(٦) . إذ وقعت تلك الدولة بعد وفاته في عام ١٨٦٤م فريسة نزاعات وخلافات نشبت بين أبنائه

(٦) تأسست الدولة العمرية في مالي .

الذين لم يكونوا على نفس القدر من الحنكة السياسية و المؤهلات الثقافية التي ارتقي إليها مؤسسها . كان هناك شخص يدعى محمد الحافظ بن مختار الذي كان ينتمى إلى قبيلة أداو - على الموريتانية هو أول من اتصل بالشيخ أحمد التجاني ، مؤسس الطريقة في فاس بالمغرب عندما كان فى طريقه إلى الحجاز للحج في عام ١٧٨٩م ، وأخذ عنه الطريقة التجانية وهو الذى قام بتقديمها إلى غرب إفريقيا من خلال موريتانيا . ومنها إلى السنغال ومالي . وعندما قامت الدولة العمرية الفتوية حظت تلك الطريقة برعاية ودعم قوى من قبل تلك الدولة في غرب إفريقيا .

وقد أصبحت عاصمتها ومدنها الكبرى مثل سيغو ونيورو ونيغرا بمثابة المنافذ التي انتقلت من خلالها تلك الطريقة إلى أماكن أخرى في المنطقة . ففي مدينة نيورو كان هناك شيخ يدعى محمد المختار بن أحمد بيللى سال (١٨٦٠م - ١٩٣٠م) ، هو الذي لعب دوراً رئيسياً في تقديم الطريقة التجانية إلى المناطق الساحلية ؛ انطلاقاً من الغابون وصولاً إلى غانا وتوغو وكوت ديفوار وسيراليون في غرب إفريقيا . ومن ناحية أخرى وصلت الطريقة التجانية إلى مدينة كانو بشمال نيجيريا بواسطة أحد أتباع الشيخ عمر الفتوي ، يدعى الشيخ أحمد باه والمعروف أيضاً بالشيخ سامبا ليللى الفولاني الذي أتى من مدينة نيورو في (جمهورية مالي حالياً) . عاش هذا الفقيه الصوفي ، بعد الهجرة التي قام بها هو وجماعة الشيخ عمر الفتوي من مالي ونيجيريا ، في بلدة "دماغرام" بالنيجر حيث قضى قرابة تسع سنوات في بلاط ملكها تميم .

استقدمه الملك عباس ، ملك مملكة كانو ، لدى السّماع عنه باعتباره أحد الأتقياء الصّالحين الذين تستجاب لهم الدعوات وأسكنه في حي يسمّى قوقى، الذي لا يبعد كثيراً عن قصره الملكي بمدينة كانو. تلقى الشيخ أحمد باه من الملك عباس الكرم والخفاوة والترحاب ، الأمر الذي شجعه على الاستقرار والبقاء في كانو . هو الذي أدخل الملك عباس وأفراد أسرته الملكية ورجال حاشيته وعوائلهم فى الطريقة التجانية . كما قام بفتح أعداد كبيرة من الزوايا التجانية في مدينة كانو وضواحيها؛ يتردد إليها مريدون حتى الوقت الحاضر. استخلف الشيخ أحمد باه لدى وفاته بنتيه هما : أمينة أحمد التجانى وخديجة أحمد التجانى وأكثر من ثلاثمائة من مريدينه الذين واصلوا جهود نشر الطريقة التجانية في معظم أرجاء الغرب الإفريقي .

ب- الطرق الصّوفية الفرعية :

ثمة طرق صوفية انبثقت عن الطّرق الصوفية الرئيسية الثلاث المذكورة آنفاً . وأهم هذه الطرق الفرعية هي :

١- المريدية : أسسها الشيخ أحمد بامبا بن محمد بن حبيب الله التكروري السنغالي (المتوفى سنة ١٩٢٧م). تفرعت المريدية عن الطريقة القادرية متخذة معظم أتباعها من قبيلة "ولوف" التي تسكن جنوب السنغال. تأصلت هذه الطريقة بين هذه القبيلة حتى كادت تسمية المريدية عند أبنائها تكون مرادفة للإسلام . اتخذ أتباع هذه الطريقة مدينة "طوبا" فى السنغال

كزاوية رئيسية لطريقتهم ومشهد لزعيمهم الشيخ أحمد بامبا . يقيمون بها أعيادهم الإسلامية ، خاصة إحياء ذكرى عودة هذا الزعيم الروحي من المنفى ، ويطلقون على هذا الاحتفال اسم "عيد المغلل" ، ويوجد بالمدينة مسجد مركزي وضريحا لهذا الزعيم الصوفي .

استشار ملك لارديور ، ملك مملكة ولوف القديمة الشيخ أحمد بامبا بعد سقوط تلك المملكة على أيدي المستعمرين الفرنسيين وطلب إنقاذ شعبه من قبضة الكفرة الغزاة الأجانب . فقام الشيخ أحمد بامبا في عام ١٨٨٦ م ، برغبة الملك لارديور الولوفي بتعبئة مريديه وأتباعه وأعلن الجهاد على الفرنسيين قائلاً للمجاهدين المسلمين أن الجنة هي مأواهم وأن الجحيم هو مصير الكفرة المعتدين على الشعب الإسلامي في بلادهم . استطاع الشيخ أحمد بامبا إقناع عدد غفير من المقاتلين القدامى لمملكة الولوف الذين انضموا إلى صفوفهم . وبذلك حازت قبيلة الولوف شخصية إسلامية في ميدان النضال ضد الوجود الاستعماري الفرنسي في غرب إفريقيا . أضمرت السلطات الاستعمارية الفرنسية مخاوفها حيال الشيخ أحمد بامبا ونفوذه في السنغال مما أدى إلى اعتقاله ونفيه إلى دولتي الغابون وموريتانيا في الفترة ما بين أعوام (١٨٩٥م و١٩٠٧م) . تمتع الشيخ أحمد بامبا بشخصية جذابة قوية كزعيم روحي واجتماعي وسياسي . شكل هو وجماعته مقاومة شديدة ضد الوجود الاستعماري الأوروبي في السنغال .

ويجدر بالذكر أن حركات المقاومة الإسلامية ضد الاستعمار الأوروبي لاسيما الفرنسي قد اتخذت صور تنظيمات دينية وسياسية وقومية ووطنية

هددت وجود تلك السلطات، مما أدى إلى استعانتها بالأجهزة الاستخبارية والتبشيرية لبلادها بغية قمع تلك الحركات واضطهاد المسلمين في غرب إفريقيا . ثمة وكالة استخبارات فرنسية (Agents Politiques) : قامت باستخدام شتى الوسائل لإخماد نيران المقاومة الإسلامية ؛ منها إغراء بعض زعماء المسلمين في السنغال عن طريق قيام الحكومة الفرنسية ببناء مسجد لأتباع الشيخ أحمد بابا وتقديم المعونات لمشاريعهم الزراعية ومساعدتهم على الذهاب إلى الأراضي المقدسة لأداء مناسك الحج وتعيينهم القضاة الشرعيين في المحاكم ومنحهم أوسمة وجوائز فرنسية تشجيعية وتشجيع بعض منهم على حيازة الجنسية الفرنسية . لجأ الرجال الذين يعملون لحساب أجهزة الاستخبارات الفرنسية في المناطق الخاضعة لهم في الغرب الإفريقي إلى تعلم اللغات الأهلية المحلية والإلمام بتقاليد وعادات شعوبها . وبهذه الأساليب الخادعة فقط استطاعت تلك السلطات الاستعمارية تثبيت وجودها في المنطقة والتعايش مع شعوبها المسلمين على مر الأزمنة .

٢-الحمَاوية : أسسها الشيخ حمّاه الله بن الشريف محمد بن سندنا عمر . ولد الشيخ حمّاه الله في مدينة نيورو الواقعة اليوم في جمهورية مالي، في السنة ١٨٩٣ الميلادية لأب من أصل البربر وأم فولانية . نشأ الشيخ حمّاه الله في بلدة نيورو حيث ترعرع وحفظ القرآن الكريم عن ظهر القلب واكتسب العلوم الإسلامية من الفقه واللغة العربية على أيدي علماء نيورو . أخذ الشيخ

حماء الله الأوراد التجانية عن مقدم يدعى الشيخ الأنحضرى الذى كان يعيش معه في نفس المدينة . وعندما توفي شيخه هذا في عام ١٩٠٩م نشب خلاف بين حماه الله وقيادة الطريقة التجانية بسبب ترابطها و صداقتها بالمستعمرين الفرنسيين الأجانب . قامت السلطات الاستعمارية الفرنسية باعتقال الشيخ حماه الله وسط مخاوفها إزاء اندلاع حركة عصيان وثورة شعبية ضدها، ونفته إلى جنوب موريتانيا في عام ١٩٢٥م . ومن هنا اشتدت نيران العداء بين الطرفين (٧) وقامت ثورة شعبية في عام ١٩٣٠م بمقاطعة كايدي الموريتانية ومات أكثر من (٣٠) ثلاثين شخصاً أثناء الهجوم الذي تعرض له مكتب الحاكم الفرنسي من الجماهير . ومن ثم نقل الشيخ حماه الله بن الشريف محمد بن سيدنا عمر إلى ساحل العاج (كوت ديفوار) أملاً في أن يتم إخماد نيران الثورة الشعبية، لكن إزدادات شهرته بين المتحمسين الإسلاميين والشباب والسياسيين الإفريقيين حتى بين ذوى الثقافة الفرنسية من أمثال : جلاندو ديوف ومحمد الأمين جي . وهما من بين الشخصيات المحترمة والبارزة لدى السلطات الاستعمارية الفرنسية في السنغال وهم الذين توسطوا وطلبوا تخفيف حدة ممارسة الاضطهاد ضد الشيخ حماه الله ؛ مما أدى إلى إعادته في عام ١٩٣٥م من المنفى إلى مسقط رأسه نيورو ، بجمهورية مالي . وبعد مرور خمس سنوات على عودة الشيخ حماه الله إلى بلده أى في عام ١٩٤٠م اندلعت نيران الثورة مجدداً برعاية ثلاثة من أتباعه ضد الفرنسيين وحلفائهم من الإفريقيين، وهاجم الثوار معسكر

(٧) انظر قاموس الشخصيات الإفريقية ل: رور. كنت.

"تنوجب"، وبلغ ضحاياه عدد أربعمائة (٤٠٠) قتيل ، معظمهم من النساء والأطفال. ألقت السلطات الفرنسية بعد هذا الحادث القبض على أكثر من ستمائة شخص من أتباع الشيخ حماد الله ومريديه ومن بينهم ثلاثة من أبنائه الذين أعدمتهم وزجت بالآخرين في السجن ... عندئذ قام الحاكم العسكري الفرنسي الجنرال بواش باعتقال الشيخ حماد الله مرة أخرى ونفيه إلى الجزائر في شمال إفريقيا. هناك قضى مدة سنتين في معتقل وبعد ذلك نقل إلى فرنسا حيث توفي إلى رحمة الله متأثر بالإضراب عن الأكل احتجاجاً على سوء المعاملة والتعذيب اللذين لقيهما على أيدي السلطات الفرنسية .

يجدر بالذكر أن أساليب القمع والاضطهاد التي لجأت إليها السلطات الاستعمارية الفرنسية أملاً في إخماد روح المقاومة لم تكن إلا على تصعيد حدة التوتر واشتعال نيران العداء بين المسلمين والمستعمرين الغزاة . ففي عام ١٩٤١م بعد وقوع حادث معسكر "تنوجب" وإعدام عدد من أتباع الشيخ حماد، اندلعت ثورة شعبية أخرى في مقاطعة بوبو جولاسو، في فولتا العليا (بوركينافاسو) لقي أثنائها ستة من الجنود الفرنسيين مصرعهم، كما تعاقب وقوع حوادث شغب وثورة في مختلف أرجاء غرب إفريقيا من وقت لآخر حتى عام ١٩٥١م عندما استهدأت أساليب العنف السياسي والمواجهة المسلحة بين المسلمين والسلطات الاستعمارية ، اندمجت حركات العصيان الجماعية في الحركات السياسية التي عرفت بحركة التجمع الديمقراطي التي كانت أكبر حركة مناوئة للاستعمار الفرنسي في غرب إفريقيا في ذلك الوقت .

٣- الأحمديّة : أرى أنه من المناسب في اختتام الحديث عن الطرق الصوفية ودورها في مناوأة الوجود الاستعماري في الغرب الإفريقي ، أن أشير إلى الطائفة الأحمديّة استكمالاً لذلك الوجود الاستعماري في المنطقة ذاتها .

قام أحد دعاة الإسلام وهو سني المذهب أصلاً، يدعى الميرزا غلام أحمد (١٨٣٩ - ١٩٠٨م) من مقاطعة قاديان بولاية بونجاب الهندية بتأسيس هذه الطائفة مدعياً بأنه هو المهدي الموعود والمسيح المنتظر . فنبذه المسلمون السنيون واتهموه بالافتراء والاختلاق على الله كذباً . كان الميرزا غلام أحمد رائد العملاء الذين اعتمدت عليهم الحكومة الإنجليزية الاستعمارية في فرض سيطرتها على شبه القارة الهندية . وقد جاءت في اعترافاته الشخصية حيث صرح بأن عائلته كانت حليفة للحكومة الإنجليزية وأنه قام شخصياً بخدمة تلك الحكومة بكل تفاني وإخلاص . إذ يقول : "لقد قضيت معظم عمري في تأييد الحكومة البريطانية وموازرتها . وقد قمت بتأليفات بغية إبطال حججة الجهاد في الإسلام ووجوب طاعة أولى أمرنا الإنجليز . ولو جمعت هذه المؤلفات لمألت خمسين خزانة . وقد نشرت جميع هذه المؤلفات في البلاد العربية ؛ من مصر والشّام وكابل والروم . (٨) وقال : "لم تبخل عائلتي ولم تفن ، ولن تبخل بدماء أبنائها في خدمة مصالح الحكومة الإنجليزية أبداً" (٩) .

(٨) كتاب ملحق شهادة القرآن الكريم .

(٩) كتاب ترياق القلوب لميرزا أحمد .

ادّعى الميرزا غلام أحمد أن الله قد بعثه مجدداً على رأس تلك المائة التي ظهر فيها . وقال : أعطاني الله علوماً ومعارف تجب لإصلاح هذه الأمة ووهب لي من لدنه علماً حياً لإتمام الحجة على الكفرة . وجعلني من المحدثين الملهمين . وأكمل على نعمه ، وأتم فضله ، وسماني المسيح بن مريم بالفضل والرحمة ، وقدر بيني وبينه تشابه الفطرة ، ووهب لي علوماً مقدمة نقية ، ومعارف صافية جلية ، وصب في قلبي ما لم يحيطوا به علماء . وفي عام ١٩٠٨م أعلن بأنه نبي . قام خليفته بشير أحمد بتحدي المسلمين السننيين في الهند قائلاً : "بما أننا نؤمن بنبوة الميرزا غلام ، فالمسلمون لا يؤمنون بتلك النبوة ، فهم كفار بحسب ما جاء في القرآن الكريم ، فإن الكفر ولو بنبي واحد هو كفر بالله . وأن الميرزا غلام أحمد أفضل من بعض أولى العزم من الرسل " .

انقسم أتباع غلام أحمد القادياني إلى قسمين : قسم اعتبر زعيمهم هذا من دعاة الإصلاح الديني والاجتماعي فحسب . بينما اعتقد القسم الآخر بأنه رسول الله مبعوث من عند الله لاستكمال رسالة القرآن بعد النبي محمد صلى الله عليه وسلم . يضم القسم الأول جماعة ، تعرف "بالجماعة الأحمدية اللاهورية" والثانية بالجماعة الأحمدية القاديانية أي غلاة الطائفة . ولدى قيام دولة جمهورية باكستان الإسلامية في عام ١٩٤٧م بعد استقلالها من الهند اعتبر دستورها "الجماعة الأحمدية" الأقلية غير المسلمة في كيان دولة باكستان الإسلامية. دخلت الطائفة الأحمدية إلى الجزء الجنوبي الغربي للقارة الإفريقية انطلاقاً من عام ١٩١٦م عندما وصل أول مبشر لها إلى نيجيريا . ووصل أول

مبشر لهذه الطائفة ، ويدعى المبشر عبدالرحمن نيار ، إلى ساحل الذهب (غانا) في عام ١٩٢١م. واتخذ مدينة سولت بوند (بركة الملح) التي كانت العاصمة لتلك الدولة المقر الرئيسى للأنشطة التبشيرية لهذه الطائفة . وبحلول عام ١٩٢٧م استطاعت الطائفة بمعاونة السلطات الاستعمارية الإنجليزية أن تفتح قرابة أربعين فرعاً لها في غانا وضواحيها .

انتشرت الطائفة بين الإفريقيين من سكان المناطق الساحلية لغرب إفريقيا الذين كانوا وثنيين أو مسيحيين من أبناء قبائل اليوربا في نيجيريا وفانتى في غانا. كان دخولها الأول عن طريق المراسلات البريدية التي يتم عن طريقها إغراء الشباب السذج ذوى الثقافة البسيطة، للتعرف على الطائفة عن البعد وتجنيدهم قبل وصول المبشرين لها إلى المنطقة. ظلت الأنشطة الأحمدية المنحصرة في الأجزاء الجنوبية في كل من نيجيريا وغانا وسيراليون . وكانت العامل الأساسى لتعبئة الولاء والتبعية لصالح الحكومة الاستعمارية الإنجليزية باسم الإسلام في تلك المنطقة. لم يحالف جهود الاستعمار الإنجليزي وحلفائه النجاح في كسب الأتباع بدعوى التجديد والتطور والتقدم . ومع ذلك ظل عدد أتباع الطائفة الأحمدية في منطقة الغرب الإفريقي في حدود نصف مليون نسمة فقط ولهم جهود مستمرة .

٤- البهائية : أثرت أن أشير إلى الطائفة البهائية التي تفرعت عن الطائفة الأم الأصلية أى البابية . ذلك لأن الأولى هي المعروفة في الأوساط الإسلامية في الغرب الإفريقي وهي التي تبذل جهود التنامي في هذه الأوساط لكسب الأتباع

غير أن ربط الأحداث التي أدت إلى ميلاد الطائفة البهائية يستوجب البيان عن الطائفة الأم وهي البابية . تأسست هذه الطائفة التي تعتبر دينا جديداً على يد الشيخ الميرزا علي محمد الشيرازي الذي ولد في عام ١٨١٩م ببلدة شيراز في بلاد فارس بجمهورية إيران الإسلامية حالياً . ادّعى علي محمد الشيرازي بأن أصله ينتهي إلى أهل بيت الرسول عليه أفضل الصّلاة والسّلام . عاش طفولته وصباه في جو تسوده الهلاوس الدينية التي كانت منتشرة في بلاد إيران . وكان يصعد على سطح البيت في حر الظهيرة ، ويجلس عاري الرأس يحملق في قرص الشمس يغمغم بالأوراد الصّوفية ويهمهم بالحروف والطلاسم السورانية حتى يغشى عليه . فإذا جاء الليل عكف على كتب التنجيم والسحر وتسخير روحانيات الكواكب . وكان يلازم شاباً آخر على مثاله يدعى السيد جواد الطباطبائي . وكان يحضه على ممارسة تلك الرياضات ويهيج أشواقه ويوهمه بأنه يرى من سيماء ومحياء الجميل الصبح ، أنه سيكون هو المهدي الموعود .

كان هناك شيخ يدعى أحمد الأحسائي وكان يجلس في مسجد كربلاء ، وحوله كوكبة من المريدين يعظهم ويشرهم بقرب ظهور المهدي الموعود . ويؤكد لهم أن ميقاته قد اقترب وبشاراته أهلت . مات الشيخ أحمد الأحسائي ليخلفه شيخ آخر هو كاظم الرشتي الذي قام بعزف نفس الوتر وبشر بقرب ظهور القائم أي المهدي المنتظر . يذكر مؤرخو الطائفة أن الميرزا علي محمد لازم الشيخ الرشتي وتلمذ عليه لمدة سنتين . وخلالها تعرف على زميل في الدراسة الصّوفية . هو الملا حسين البشروئي . اعتكف الميرزا في المسجد . ودخل الخلوة

ليخرج منها معلناً أنه "الباب" ؛ أى الباب الموصل إلى حضرة الإمام الموعود وأنه وكيله وسفيره بين الخلق . وبعد شهور يعود الميرزا إلى مسقط رأسه شیراز ويلحق به الملاحسين البشروئى . وبينما كان الملاحسين البشروئى ماثلاً أمام حضرة الباب ، إذ أعلن له بغته أنه هو المهدي القائم ، صاحب الزمان . ودعاه إلى الإيمان به وكان عمر جنابه حينئذ خمساً وعشرين سنة . وقد اعتبر ذلك اليوم عيد المبعث . وكان البشروئى هو أول المبشرين بظهور المهدي وقد أنعم عليه المهدي بلقب "باب الباب" . وكانت علامة المهديوية الصحيحة عند شيوخهم أن يقدم لهم المهدي تفسيراً جديداً لسورة يوسف وأن يكشف لهم عن حقيقة الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر . فماذا قال الباب الشيرازى ؟ قال إن يوسف هو الحسين . وأن الشمس هي فاطمة . والقمر هو محمد . والأحد عشر كوكباً هم أئمة الحق في أم الكتاب . الباكون سجداً منذ الأزل على سجن يوسف ومقتل الحسين . وخر البشروئى ساجداً لما سمع تفسير الباب وسجد بقية الأتباع خلفه . كان والد الشيرازى محمد الشيرازى يحترف التجارة وتوفي وكان ابنه لا يزال صغيراً فكفله خاله آغا سيد على . واصل السيد على محمد الشيرازى الاشتغال بحرفة والده . كما عنى في الوقت نفسه بالمسائل الدينية . وكان يبالغ في التقشف ويمكنه في الشمس ساعات عديدة حتى تأثر عقله بذلك . قام بزيارة مدينة كربلاء حجاً وتلقى العلوم الدينية الإسلامية على أيدي الشيوخ هناك . عندما عاد إلى مسقط رأسه شیراز دعا دعوة الإصلاح وألقى سلسلة من المواعظ في مسجد الحدادين ، حمل أثنائها على رجال الدين الرسميين ، وكان يناهز حينذاك

السن التاسع عشر من العمر . ادّعى "السيد" على محمد الشيرازى في اليوم الخامس من شهر جمادى الآخر السنة ١٢٦٠ هـ الموافق ١١ يونيو العام ١٨٤٤ م، بأنه باب الحصول على العلم عن طريقة الحقيقة الألهية، ومن ذلك التاريخ أصبح يعرف عند أتباعه بـ "الباب". توفي السيد على محمد الشيرازى متأثراً بإطلاق الرصاص عليه من طائفة بهادران المسيحية بتكليف من السلطان في ٢٧ من شعبان للسنة ١٢٦٦ هـ الموافق ٨ من يوليو للعام ١٨٥٠ م.

معتقدات البابية : لقّن السيد علي محمد أتباعه عقيدة كونه هو المرأة التي تعكس وجود الله. فيها يستطيع كل إنسان أن يرى الله . جاء في كتابه المشهور "البيان العربي" موجهاً حديثه لأتباعه : "اتخذوا امرأة من أنفسكم ومن أعمالكم حتى لاتروا في هذا المرأة إلا الشمس التي تحبون ". وتقوم عقيدتهم على :

١- أن الله خلق العالم بسبع صفات تسمى حروف الحق هي : القدر، والقضاء ، والإرادة ، والمشية ، والإذن ، والأجل ، والكتاب .

٢- للعدد عندهم شأن كبير . هم يقدسون العدد (١٩) التسعة عشرة . وهذا العدد يوجد في حسابهم في كلمة "واحد" وكلمة "وجود" .

٣- يقسمون أيام السنة إلى ١٩ شهراً والشهر إلى ١٩ يوماً . وتساوى السنة عندهم ٣٦١ يوماً . يقوم مجلس يتكون من ١٩ عضواً بتدبير شؤون جماعتهم كما يتسلم زكوات أفراد الجماعة بواقع الخمس من قيمة العقار .

٤- الزواج عندهم إجبارى لدى بلوغ سن الحادية عشرة . لا يجبذون الطلاق بل تترك للزوجين مهلة سنة لمحاولة التوفيق بينهما . وإذا وقع الطلاق بالفعل يجوز الرجوع فيه بعد مضي تسعة عشر يوماً .

والطلاق تسع عشرة مرة . وزواج الأرامل مباح بشرط دفع دية . ولا يتزوج الأرملة إلا بعد مضي ٩٠ يوماً على وفاة زوجها الأولى . أما الأرملة فيمكن زواجها بعد مضي ٩٥ يوماً على وفاة زوجها الأول .

٥- تفرض هذه العقيدة على أتباعها صوم ١٩ يوماً الذي يمثل أيام الشهر في السنة عندهم . هذا الصوم فرض على كل شخص بلغ إحدى عشرة سنة ولم يتجاوز سنة الثانية والأربعين . ولا يجب غسل الجنابة عندهم . لكنه مستحب .

٦- الحج عندهم هو زيارة البيت الذي ولد فيه "الباب" والمكان الذي حبس فيه عندما اعتقل ، وينبغي أن يقام فيه مسجد وبيوت كبار مريديه . ولا تقام عندهم صلاة الجماعة إلا صلاة الجنازة فقط .

٧- يجب قراءة "١٩" فقرة من كتاب البيان السالف الذكر الذي يعتبر الدستور الأساسي لهذه الطائفة، في كل يوم. وأن يذكر اسم الله ٣٦١ مرة، أي أيام السنة . ويجب دفن الميت في قبر من البلور . يعتقد أصحاب هذه الجماعة بأن "الباب" أي السيد علي محمد الشيرازي قد بشر بظهور نبي جديد بعده وهو بهاء الله . يسميه مريدوه "النقطة الأولى أو الحضرة الأعلى" .

بهاء الله - اسمه الحقيقي هو ميرزا حسين على نوري ، ولد في بلدة "نور" من أعمال مازندر - الفارسية في اليوم الثاني عشر من شهر نوفمبر للعام

١٨١٧م . اعتنق بهاء الله المذهب الجديد الذي أتى به أستاذه "الباب" وهو في سن الثلاثين . أصبح فيما بعد خليفة السيد علي محمد الشيرازي (الباب) . وهما لم يتقابلا قط .

العقيدة البهائية : تدعو هذه العقيدة إلى ممارسة الحياة المستقيمة وعدم إيذاء شخص آخر وعدم مقابلة أعمال الظلم بالعصيان ووجوب مراعاة الخير وحده واكراس النفس على إبراء المرضى . هذه هي خلاصة المبادئ التي تنادى بها البهائية . وهي صدى واضح من أصداء العقائد المسيحية . ان القصد الأسمى لهذه الجماعة هو أن يعم الأمن والطمأنينة الجميع . وهذا لا يتم إلا باعتراف هذا الدين الجديد . لا يعترف هذا الدين برجال الدين . بل يطالب بقيام كل قرية بتخصيص مكان تجتمع فيه لجنة تنفيذية يتكون أعضاؤها من تسعة أشخاص . يعرف هذا المكان ببيت العدل . ومورد هذه اللجنة الأكبر من الهبات التي تدفع لصندوقها ومن الغرامات ومن ضريبة يؤخذ بمقتضاها من كل فرد ما يوازي واحد من تسعة عشر من رأس ماله مرة واحدة فقط ، أهم مؤلفات البهائية هو كتابهم الذي يطلقون عليه "الكتاب الأقدس" . ولما كان كتاب "البيان" هو المصدر التشريعي الأساسي للطائفتين البابية والبهائية، أراد السيد علي محمد الشيرازي ومريده ميرزا حسين علي نوري (بهاء الله) أن يفهم أتباعهما بأن الله أعاد خلقهم بعلم القرآن. (١٠)

(١٠) راجع دائرة المعارف الإسلامية تحت هذه المواد.

يرجع تاريخ دخول الطائفة البهائية التي تعتبر امتداداً لسلفها البائية، إلى منطقة الغرب الإفريقي في أواخر الخمسينيات وبداية الستينيات عندما حصلت معظم دول المنطقة على استقلالها السياسي . ومثلها مثل الطائفة الأحمدية أو القاديانية السالفة الذكر ، قد حظت بمحاربة وحياد السلطات الاستعمارية، سيما الاستعمار الإنجليزي . لم تحرز الطائفة أنجحة ملموسة في الأوساط الإسلامية في المناطق التي دخلتها في الغرب الإفريقي . ذلك لأنها لم تكن تدعو إلى ممارسة طقوسه دينية معينة . إنما همها الأول والآخر هو الدعوة إلى التمسك بنظريات أخلاقية فلسفية عقيمة تفوق مستوى الشعب العادي المتوسط الثقافة .

٥- إمامية سامورى (١٨٣٠-١٩٠٠) م :

قامت هذه الإمامية في الغرب الإفريقي علي يد مواطن غيور لوطنه ودينه يدعي سامورى بن لافياتورى في منتصف القرن التاسع عشر الميلادى. كان قيامها متزامناً لحركات الجهاد التي قامت علي أيدي المجاهدين الأوائل الذين ظهروا في المنطقة، من أمثال: السلطان منسا موسى الأول مؤسس دولة مالي القديمة والسلطان محمد أسكيا ملك مملكة غاو أو صونغاى والشيخ عثمان دان فودى مؤسس دولة صوكتو والشيخ أحمد لوبو مؤسس الدولة الماسنوية والحاج عمر تال الفوتي مؤسس الدولة العمرية .

ميلاده ونشأته :

ولد هذا الزعيم الذى تقلدَ فيما بعد لقب " الإمام " سامورى بن لافيا تورى في عام ١٨٣٠م في قرية كونيان بجنوب شرق مدينة كانكان الواقعة اليوم في جمهورية غينيا الشعبية . قضى الإمام سامورى تورى أوائل شبابه في مزاوله التجارة الحرة كما كانت العادة بين أبناء قبيلة "جولاه" التى ينتمى إليها . اشتهرت أفراد هذه القبيلة باحتراف المهن التجارية كما اتصفوا بالتنقلات عبر مدن وقرى غرب إفريقيا، لا سيما في مناطق السنغال وساحل العاج (كوت ديفوار) وبوركينا فاسو وغانا وسيراليون . هم مسلمون أساساً كما يوجد فيهم دعاة نشطون هم الذين نهضوا بنشر الإسلام وثقافته بين أهالي المنطقة . تذكر مصادر تاريخية أنه كان هناك ملك جبار لقبيلة "جولاه" أو " الماندنغو " يدعى مورى أوليسيسى الذى قام بتأسيس دولة قوية في عام ١٨٣٥م لتلك القبيلة .

وفي إحدى السرايا التى كان يشنها ضد القبائل المجاورة وقعت أم الإمام سامورى تورى أسيرة في يد جيشه . أراد ابنها الإمام سامورى تخليصها من قبضة هذا الملك فانضم إلى جيشه تحايلاً للتدريب والوقوف على سر قوته وجبروته . وبعد فترة أصبح سامورى تورى جندياً ماهراً وشجاعاً وبطلاً حريياً زاع صيته وازدادت شهرته على طول البلاد وعرضها . فكر سامورى بعدئذ في إقامة دولة مستقلة تحت إمرته فانفصل عن ذلك الملك وأسس له دولة جديدة في منطقة مجرى نهر النيجر . وبدأ مغامراته الحربية في عام ١٨٦٦م بهزيمة ملك دولة كوما دوغو وحول بلدة بيساندوغو إلى عاصمه دولته الجديدة . من هنا أخذ يسيطر على

دويلات قبائل البامبرة الواقعة في المنطقة. بدأ بدولة تورون تليها ونيا ثم دولة واسولونكي وفي عام ١٨٧٣ م . استولى على مدينة كانكان وبعد ذلك بسنة واحدة أي في عام ١٨٧٤ تقلد لقب إمام الدين الذي يختصر ب : "الإمام" الذي نحوله صفة القيادة السياسية والدينية والاجتماعية . امتد نفوذه حتى شمل منطقة باماكو عاصمة مالي وضواحيها وشرقي مجرى نهر النيجر . كانت إماميته متزامنة مع الإمامية العمرية الفتوية التي كانت تقع على الشمال الغربى لإماميته وتقع دولة فوتا جيلو غرباً ودولة كينيدوغو (سيكاسو) شرقاً، بينما تتاخمها غابات سيراليون وليبيريا جنوباً .

مقاومته للاستعمار الفرنسى :

حاول الإمام سامورى التصدى لتوغل الاستعمار الفرنسى الذي أرسى قواعده في السنغال ، في المناطق الخاضعة لسيطرته . كان أول اصطدام بين قواته والقوات الفرنسية في شهر فبراير لعام ١٨٨٢ م . أحرزت قوات الإمام سامورى في البداية بعض الانتصارات ضد الفرنسيين. لكنه واجه انتكاسات شديدة في الشهر نفسه لعام ١٨٨٣م عندما احتلت القوات الفرنسية مدينة باماكو عاصمة مالي فجاءت المواجهة العسكرية المباشرة بين الطرفين بقرب مكان يدعى " سيغيرى " .

مهارته الإدارية وقدرته التنظيمية :

تميز الإمام ساموري تورى بالحنكة الإدارية والقدرة التنظيمية في المجال العسكري. إذ وصفه أحد خصومه من قواد القوات الفرنسية يدعي " بيروز " بأن الإمام ساموري هو الإمبراطور بونابارت^(١١) السوداني (الإفريقي) لتفوقه في المهارة والخبرة العسكرية.^(١٢)

اتسمت قواته بتنظيم جيد . كانت تتشكل تلك القوات من عشر وحدات تمثل عشر قيادات حربية أو كتائب مترابطة في مختلف حدود إمبراطوريته ومكلفة بحماية سيادة وأمن تلك الدولة والعمل من أجل توسيع نطاقها في الوقت نفسه. تكونت تلك الكتائب الفرعية من القوات النظامية تسمى "سوبا" ووحدات تدريبية تسمى " بيلاكورو" بلغة الماندنغو .

يقوم كل قائد أو حاكم أثناء نشوب حرب بتعبئة الشباب والرجال عن طريق إجبار كل قرية أو بلدة أو منطقة حسب استعدادها على تقديم عشرة متطوعين للانضمام إلى المقاتلين الذين يتحولون إلى قوات إحتياطية أثناء السلم . يقضي كل واحد منهم مدة ستة أشهر يزاول فيها العمل الزراعي في بلده أو الجهة التي ينتمي إليها . ثمّة طاقم للحرس الشخصي للإمام ساموري نفسه قوامها خمسمائة رجل . يرتدى رجال جيشه ، المكون من القوات

(١١) هو مؤسس الدولة الفرنسية المعاصرة .

(١٢) راجع كتاب: ألف سنة من تاريخ غرب إفريقيا تأليف: جى. ف. أدى أجاى أيان ايسى.

النظامية والفرسان والمشاة والحرس الخاص ، ملابس عسكرية تميز كل فئة عن فئة أخرى بزي خاص . تتكون تلك الملابس غالباً من القلنسوة والبدلة والسرwal الأصفر الضيق الساق . كان هناك أيضاً مصنع للأسلحة والخبراء من الحدادين يقومون بتصليح الأسلحة الفاسدة أو تصنيع جديدة منها . كان الإمام سامورى تورى مثله مثل قواد الجيوش في الإماميات الإسلامية التي قامت في الغرب الإفريقي ، من أمثال الشيخ عثمان دان فودى والشيخ أحمد لوبو والشيخ عمر الفتوى . إذ لم يألفوا استخدام المدرعات أو المدافع الميدانية وإنما كانوا يعتمدون على الأسلحة النارية من البواريد والبنادق السريعة الإطلاق التي كانت تصلهم من الأوروبيين تجار الرقيق الذين ينزحون سواحل الغرب الإفريقي ثم تحولوا فيما بعد إلى قوات الاحتلال الاستعماري .

قسم الإمام سامورى تورى قواته إلى ثلاث مجموعات من حيث استعمال الأسلحة والمواجهة مع الأعداء خاصة مع القوات الاستعمارية الفرنسية . تحمل المجموعة الأولى التي تقع في الصف الأمامي البنادق السريعة الإطلاق التي تقوم بمهمة الدفاع والمقاتلة ، وتليها المجموعة الثانية التي تحمل بنادق ذات طلقات فردية بطيئة وهى التي تقوم بحماية المدنيين وإخلائهم عند الحاجة ، بينما تمثل المجموعة الثالثة قوات الردع وشن الهجمات واحتلال مزيد من الأراضي وتمديد حدود تلك الدولة .

كان الإمام وقواته وجماعاته يخلون المناطق التي تزحف إليها القوات الاستعمارية قبل وصول تلك القوات . وبهذه الطريقة استطاع الإمام سامورى

تورى تمديد آماذ مقاومته الحرية ضد القوات الفرنسية التى كانت تتوقع أن تنتهى المقاومة فى خلال بضعة أسابيع ، فإذا بها تمتد لسنوات عدة قاربت ثمانية أعوام .

خططه الذبلماسية :

قامت السُّلطات البريطانية المتواجدة فى دولة سيراليون فى عام ١٨٧٩م بإرسال بعثة لها إلى الإمام سامورى تورى وإلى الإماميات الإسلامية الأخرى فى المنطقة لا سيما فوتا جاللو ، لإظهار نواياها الحسنة تجاه تلك الإماميات. استقبل الإمام سامورى تلك البعثة بحفاوة وترحاب حارّين ، وكان يريد بذلك التوقيع بين القوتين المستعمرتين ، أى الإنجليزية والفرنسية ، وإثارة سوء التفاهم بينهما فيما يخص مطامعهما الاستعمارية التوسعية. ففى عام ١٨٨٥م عرض الإمام سامورى للسُّلطات الإنجليزية موافقته على قيامها ببث نفوذها رسمياً فى دولة سيراليون باسم حماية ممثلها ، وهو حاكم تلك الدولة دون التعرض لأى خطر من جانبه ، شريطة موافقتها هى الأخرى على مواصلة بيع الأسلحة النارية له .

أحست الحكومة الفرنسية بخطورة موقف الحكومة البريطانية فى تلك الصفقة ، واجتياز الأراضى الخاضعة للإمامية السامورية . ومن ثم احتلال مناطق نهر النيجر التى تعتبرها فرنسا مجال مطامعها الاستعمارية ، فأرسلت هى الأخرى بعثة حسن النوايا إلى الإمام سامورى فى عامى ١٨٨٦ و١٨٧٨م تذكره بأن هناك اتفاقية مبرمة بينهما وبين الإمامية السامورية لتقوم الأولى

بحماية الثانية عسكرياً عند الحاجة . لم يقتنع الإمام سامورى بتلك المبادرة من قبل الحكومة الفرنسية وتفقن بأنها خدعة ومكيده . غير أنه كان هنالك بعض التطورات التي ساعدت الحكومة الفرنسية خلال الفترة نفسها التي أدت في آخر الأمر إلى نجاح الحكومة الفرنسية والقضاء على تلك الإمامية . تختصر هذه المبادرة في الأمور التالية :

أولاً : أخذت الإمامية تزداد قوة ونفوذاً يوماً بعد يوم خلال الفترة ذاتها وأصبحت قادرة على توجيه الضربة ضد دولة سيراليون التي كانت تحت السيطرة البريطانية واحتلالها مما كان سيؤدي إلى حدوث المواجهة بينهما وبين السلطات الاستعمارية البريطانية .

ثانياً : أخذت الحكومة البريطانية، في الحسبان صلاحية الاتفاقية المبرمة بين الامام سامورى والحكومة الفرنسية التي تقتضى قيام هذه الحكومة بحماية الامامية عند الحاجة . لذلك لم تتدخل الحكومة البريطانية عندما أرادت فرنسا القضاء نهائياً على تلك الإمامية بتعزيزات وإمدادات عسكرية من فرنسا بل شجعتها على المضي قدماً . كان الإمام سامورى خبيراً عسكرياً متفطناً ودبلوماسياً محنكاً . كما كان ادارياً محترفاً . تميزت عاصمة إمبراطوريته التي أسسها على شكل مقاطعات ومستعمرات صغيرة ، بيساندوغو ، بالاستقرار والأمن والنظافة النسبية .

ثقافته الدينية :

كان الإمام سامورى إنساناً تقيّاً ومخلصاً لدينه الإسلامى على الرغم من أنه لم يكن فقيهاً أو متعمقاً في الثقافة الإسلامية والعربية من أمثال الشيخ عثمان دان فودى وعمر الفوتى أحمد لوبو . غير أنه كان شغوفاً بنشر الثقافة الإسلامية والعربية بين شعوب المنطقة مما أكسبه لقب إمام الدين والمجاهد لأنه كان يقوم بهدم الأصنام والرموز الوثنية وبنى مساجد ويشجع الكفار على اعتناق الدين الإسلامى ، ويحث المسلمين على الامتثال لأوامر الله ونواهيه وفق منطوق كتاب الله وسنة نبيه الكريم بتوجيهات علمائه .

لقد حظي العلماء من أهل اللغة والفقهاء والمفسرين بحفاوة الكرم والاحترام البالغ في ظل حكمه . وحث عامة المسلمين ، لا سيما زعمائهم ، على تنقيف أبنائهم في الدين . وكان ينظم مسابقات في تحفيظ القرآن وبعض العلوم الإسلامية ويخصص جوائز للفائزين . وإلى جانب أنشطة نشر الإسلام كان يقوم بتوعية شعبه خاصة زعماء القبائل حول ضرورة التضامن والاتحاد ضد الغزاة الاستعماريين الأجانب والامتثال للعدالة الاجتماعية والابتعاد عن رذائل الماديات الدنيوية التي تعكس نمط الحياة الذي تمارسه غالبية قبيلة الماندنغو التي ينتمي إليها الإمام سامورى تورى نفسه .

تأسيسه عاصمة جديدة :

نقل الإمام سامورى تورى مقر حكمه إلى بلدة داباكالا التي أصبحت العاصمة الثانية لإمبراطوريته. لم تكن " داباكالا " كالعاصمة القديمة - بيساندوغو - من حيث الثروة والتناسب. وقد أصبحت علاقته مع دولة سيراليون التي تصل من خلالها احتياجات دولته من الأسلحة الأوروبية متوترة فيما بعد ، عندما توقف استيراد الأسلحة من خلالها بسبب تدخل الحكومة البريطانية ، فأصبح يعتمد كلياً على الحدادين المحليين من خبرائه في تصنيع الأسلحة (البواريد) . ومن ثم أصبحت تلك الإمامية التي كانت تعتمد على سواحل سيراليون وليبيريا للحصول على احتياجاتها من الأسلحة ، معرضة لهجوم من قبل الفرنسيين الموجودين في ساحل العاج .

وكانت بجوارها في الشمال الشرقي دولة كونج الإسلامية (شمال غانا حالياً) بينما تقع دولة أشانتي (غانا) على الجنوب الشرقي . وقع خلاف بين زعماء دولة كونج والإمام سامورى تورى وأدى إلى نشوب حرب بينهما فسقطت إمامية كونج . بذلك امتدت حدود الإمامية السامورية إلى الجزء الشمالي لجمهورية غانا حالياً . احتلت القوات الفرنسية مقاطعتي سيغاسو وبوبو جولاسو في عام ١٨٩٨م فوقعت الممرات التجارية الشمالية للإمامية في يد القوات الاستعمارية مما أدى إلى تعرض الإمامية للنقص في المواد الغذائية والمعدات الحربية والأمن الحدودى . كانت مقاومة إمامية سامورى للمستعمرين أشد وأطول مما شاهدتها تلك القوات الاستعمارية في إفريقيا جنوب الصحراء . مثل ما

عملته إثيوبيا مع الاستعمار الإيطالي بالنسبة لشرق إفريقيا. عجز الاستعمار الغربي عن فرض الاندماج الثقافي الكامل على المجتمعات التي تأثرت بحركات الجهاد في السودان الغربي والأوسط.

لجأ الاستعمار الفرنسي والإنجليزي إلى سياسة " فرق تسد " في وجه المقاومة الإسلامية الشديدة التي واجهها. وقد نجحوا في إثارة الفتن في المنطقة وتحريض بعض زعماء تلك الإماميات على البعض الآخر ، وإمداد الأطراف المسلمة المتنازعة بأسلحة لمواصلة الاقتتال فيما بينها . قامت في أبريل ١٨٩٨ م . السلطات الاستعمارية الفرنسية ، بعد هزيمة هذه الدويلات والقضاء عليها بتثبيت شعوبها ؛ ومن ثم فرض الفقر والجهل عليها مع تدمير القرى والمدن وإبادة سكانها بدون هوادة حتى الذين أظهروا لها روح الصداقة وتواطؤا معها ضد بلادهم وشعوبهم . اضطر الإمام ساموري لافياتوري بعد ذلك إلى التراجع والتوجه إلى ليبيريا في عام ١٨٩٨ م . لكن تمكنت السلطات الفرنسية أخيراً من إلقاء القبض عليه في نفس السنة بعد مواجهة بين الطرفين دامت سبع سنوات ، ونفته إلى دولة الغابون في وسط إفريقيا حيث توفي إلى رحمة الله في عام ١٩٠٠ م بعد مرور سنتين متأثراً بالالتهاب الرئوي .

دور الرؤية المنامية وانعكاساتها على حركات الجهاد في غرب إفريقيا:

لا شك أن الأسلوب الأمثل والأكثر ضماناً للمسلم ، والذي يجب أن ينتهج للتقرب إلى الله سبحانه وتعالى عن طريق ممارسه الرياضة الروحية،

بعيداً عن الخرافة والشعوذة والسطو والاحتيال ، هو الاعتماد على ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته المهديين ، من ممارسة النوافل والأدعية المأثورة . ولا مانع أن يلجأ الإنسان المسلم إلى هذه الممارسة بأدعية أخرى ذات مضمون سليم ، شريطة عدم حض مسلمين آخرين على الاعتقاد بأن الأدعية المقترحة منقطعة الصحة ومؤكدة الاستجابة عند الله . أما العادات التي شهدناها لدى بعض المشايخ خلال الدراسة التي مررنا بها في تاريخ غرب إفريقيا ، حيث يقوم بعضهم بتحريض أناس آخرين من أتباعهم على الاعتقاد بأنهم أولياء الله ومضمونو الصلة به ، ومن ثم هم مختارون من قبله دون سواهم بأمر إلهي جازم التأكد ، هو تجاوز الحد في عقائد السلف الصالح مما دعا إليها الرسول وخلفاؤه الراشدون . ذلك لأن الله سبحانه وتعالى هو القائل في محكم كتابه العزيز ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١٣) وقال : ﴿..كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ (١٤).

فالله سبحانه وتعالى قد خصّ لنفسه معرفة من هو جند من جنوده في السماوات والأرض ، وما علينا إذن ، كمسلمين ، إلا أن نجتهد عن طريق تقديم توضيحات بأنفسنا وثروتنا وإكثار النوافل وعمل الخيرات والمحافظة على

(١٣) سورة الفتح آية ٤-٧ .

(١٤) سورة الفتح آية: ٣١ .

حدود شرع الله آمليين في أن نكون محسوسين عند الله من جنوده . ولكن الإشهار أمام الملاء بأن الله قد أذن لواحد منا في منامه أن يعلن حرباً مسلحة بزعم نشر الإسلام ، بعد انقضاء فترة نزول الوحي بوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فإن ذلك من ضروب المجازفات بأرواح المسلمين السذج الأبرياء . إن آيات الجهاد المسلح في الإسلام معروفة كما هي واضحة ومتوقفة على ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم وفهمه الصحابة الكرام من بعده . إذن إعلان الحرب في الإسلام ليس قضية مطلقة . وإنما له قواعد ومبادئ يجب أن ينضبط بها المحاربون والمجاهدون والمقاتلون والمتحاربون . وألخص فيما يلي هذه القواعد والمبادئ .

(أ) الظلم . (ب) الاعتداء . (ج) عدم الاقتتال .

(د) التعايش السلمي . (هـ) عدم إجبار أناس آخرين على الدخول في الإسلام حتف أنفسهم .

القاعدة الأولى " الظلم " : على الأمة الإسلامية إعلان الحرب أو الجهاد المسلح من جانبها في حالة وقوع الظلم أو الاعتداء عليها . لأن الله سبحانه وتعالى يقول :

(أ) ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله﴾ (١٥)

(١٥) سورة الحج الآية: (٣٩) .

(ب) وفي الحديث : (عن أبي جعفر، أنه سَمِعَ أبا هُرَيْرَةَ يَقُولُ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ثَلَاثَ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٍ لَهِنَّ لَا شَكَّ فِيهِنَّ دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ وَدَعْوَةُ الْوَالِدَيْنِ عَلَى وَلَدَيْهِمَا (١٦).

والظلم في مفهومه اللغوي والشرعي هو انتزاع حق من حقوق المظلوم بدون رضا النفس . وهو على وجهين : الوجه الإلهي . هو الظلم الواقع من العباد تجاه الخالق وهو الشرك . لأن مبدأ التوحيد حق لله يجب الإيفاء به من كل المخلوق اتجاه خالقه الذي لم يخلق من أحد بل هو خالق كل شيء . فيقتضي العدل عدم إشراكه بأى مخلوق ، أياً كان ، سواء في الاعتقاد أو الاستدلال العقلي ، وحدث خلاف ذلك لا شك هو ظلم في حق هذا الخالق ، ألوهيته إذن مبنية على العدل . إذ يقول : «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأَوَّلُوا الْعِلْمَ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» . (١٧)

أما بالنسبة للعباد ، فإن الظلم هو الاعتداء ، فهو نوعان ؛ المادى والمعنوى . يشمل الاعتداء المادى انتزاع حق من الحقوق الحسية من الإنسان المظلوم ويشمل : شخصه وممتلكه وعرضه . ويشمل الاعتداء المعنوى : إساءة السمعة والاضطهاد أو قمع الحرية والتعذيب العقلي والنفسي .

(١٦) أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه.

(١٧) سورة آل عمران الآية: ١٨ .

القاعدة الثانية : يحثنا الله سبحانه وتعالى على عدم المبادرة بالاعتداء على أصحاب العقائد الأخرى المخالفة للإسلام ، وأن نعيش معهم في السلم والوئام. وإن كانوا أقلية يعيشون في أوساطنا فهم أهل الذمة نحميهم ضد اعتداءات خارجية ، ونضمن لهم حقوقهم الكاملة ، ونأكل من ذبائحهم ونتزوج من نسائهم عند الحاجة إلى ذلك لأنهم من أصحاب العقائد السماوية أى من أهل الكتاب ، يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ * ﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١٨) .

قال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ * واقتلوه حيث ثقتهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوه عند المسجد الحرام حتى يقتلوه فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين * فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم * وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾ . (١٩) وانظر حديث أبي هريرة السالف الذكر .

(١٨) سورة الممتحنة الآية : ٨ - ٩ .

(١٩) سورة البقرة الآية : ١٩٠ - ١٩٣ .

إذن ، نحن المسلمين أولى بتجنب إنزال الظلم على أحد من مخلوقات الله ، فشكوى المظلوم مسموعة عند الله تبارك وتعالى .

(ج) (الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (٢٠)

القاعدة الثالثة : عدم جواز حمل المؤمن سلاحاً ضد أخيه المؤمن؛ لا يجوز للمسلم أن يهجر أخاه المسلم فوق ثلاث ليال فضلاً من أن يعلن الحرب عليه ويسفك دمه ويستحل نساءه . قال الله تبارك وتعالى :

(أ) «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَآتُسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَسْهَوُونَ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ» وقوله :

(ب) «وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أَسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا

تَعْمَلُونَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ
وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ» (٢١)

(ب) «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ. وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ
اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ
وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ» (٢٢)

ج - في الحديث :

١- (عن أنس بن مالك ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا
تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا ، ولا يحل لمسلم
أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال) . (عن أبي أيوب صاحب رسول الله صلى
الله عليه وسلم قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يحل لأحد أن
يهجر أخاه فوق ثلاث ليال ، يلتقيان فيصد هذا ويصد هذا ، وخيرهما الذي
يبدأ بالسَّلام) .

٢- (عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لا تباغضوا،
ولا تنافسوا ، وكونوا عباد الله إخوانا) .

(٢١) سورة البقرة الآية (٨٤-٨٦) .

(٢٢) سورة الأنفال الآية : (٤٥-٤٧) .

٣- عن معاذة (٢٣) قالت سمعت هشام بن عامر الأنصاري ابن عم أنس بن مالك وكان قُتل أبوه يوم أحده أنه سمع رسول الله عليه وسلم قال : (لا يحل لمسلم يصرم مسلماً فوق ثلاث ، فإنهما ناكبان (٢٤) عن الحق مادام علي صرامهما، وإن أولهما فيئاً (٢٥) يكون كفارة عنه سبقه بالفئ وإن مات علي صرامهما لم يدخل الجنة جميعاً أبداً وإن سلم عليه فأبى أن يقبل تسليمه وسلامه ردّ عليه الملك وردّ علي الآخر الشيطان). (٢٦)

القاعدة الرابعة : لا يجوز حمل السلاح لإجبار أناس آخرين على اعتناق دين الإسلام . يقول الحق تبارك وتعالى :

أ- ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .
اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ
الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ﴾. (٢٧)

(٢٣) هي بنت عبد الله أم الصهباء ، امرأة صلة بن أشيم، كانت من العابدات تحيي الليل لم تتوسد فراشاً بعد الصهباء حتى ماتت سنة ٨٣هـ قال بن معين ثقة حجة.

(٢٤) أى مائلا عن الحق .

(٢٥) "أولهما فيئاً" أى رجوعاً .

(٢٦) أخرجه الإمام أحمد. انظر كتاب الأدب المفرد للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري.

(٢٧) سورة البقرة الآية: (٢٥٦-٢٥٧) .

ب- «فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ، كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ، وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ» (٢٨)

ج- «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ. وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ» (٢٩)

د- «سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ» (٣٠)

القاعدة الخامسة : دور الوساطة . لا شك أن الإسلام يعترف بإمكان نشوب اقتتال فيما بين أمم أو جماعات، مسلمة أو غير مسلمة ، كما رأينا في الآيات القرآنية والأحداث النبوية الشريفة السابقة. لكن إذا وقع ذلك بفعل الشيطان ومغرياته وأوقع أطراف المؤمنين أو فئاتهم في الفتن والاقتتالات، فعلى

(٢٨) سورة الأنعام الآية: (١٢٥) .

(٢٩) سورة الأعراف الآية : (١٤٦) .

(٣٠) سورة الحجرات الآية : (١٠) .

الأمة أو القيادة الإسلامية المسئولة أن تقوم بدور الوساطة لإقرار الصلح
والسّلم ومنع الظلم، لقوله تعالى :

أ- ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا
عَلَى الْأُخْرَىٰ فَجَاثِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا
بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ* إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ
أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. (٣١)

ب- ﴿... فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلَحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ* إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ
زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾. (٣٢)

ج- في الحديث الشريف: عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم
قال: (ألا أنبئكم بدرجة أفضل من الصلاة والصيام والصدقة) ؟ قالوا : بلى ،
قال صلاح ذات البين، وفساد ذات البين هي الحالقة). (٣٣)

لكن ويا أسفى !! لقد كان كثير من الحروب والاقتتالات التي خاضها
ولا تزال تخوضها جماعات من المسلمين في الماضى والحاضر ليست مبنية
على أسس إسلامية صحيحة، وبالمثل شهدت منطقة الغرب الإفريقي أنواعاً من

(٣١) سورة الحجرات : الآية : (٩-١٠) .

(٣٢) سورة الأنفال : الآية (١-٢) .

(٣٣) أخرجه أبو داود في الأدب والترمذى فى الزهد وكلاهما عن أبي معاوية.

مثل هذه الحروب والاختلالات التي أودت بحياة مئات ألوف من المسلمين الأبرياء والمظلومين الآخرين من جراء احتيالات الدجالين والمشعوذين ؛ ولقد توارث اللاحقون هذا الداء بعد رحيل الأولين . كما ورثوا الكراهية والبغضاء فيما بينهم بادعاءات التقرب الأكثر إلى الله العزيز المنان والحصول على الكشوفات الربانية وهي في الواقع دجالية كاذبة . اختلفوا في الطرائق شططاً، وتهاونوا في الفرائض والواجبات المطلوبة واقتتلوا حول النوافل والمندوبات المباحة . فأباحوا بها سفك دماء المؤمنين الأبرياء السذج . نسوا الله بأفعالهم العمياء . فأنساهم الله أنفسهم حتى وقعوا نتيجة ذلك فرائس الفقر والتخلف إضافة إلى الجهل المركب . أشير بهذه المناسبة إلى تلك المسميات والتيارات التي هبت على منطقة الغرب الإفريقي آتيةً من بلاد المشرق العربي عبر مصر والسودان ومن بلاد الشمال الإفريقي عبر المغرب وموريتانيا . حملت تلك التيارات في طياتها جراثيم معتقدات مختلفة ؛ انطلاقاً من العقائد المهدية والقادرية والرفاعية والسنوسية والشاذلية والتجانية إلى آخر تلك المسميات المنسوبة إلى أربابها الأوليين يتوارثها أبنائها اللاحقين .

يبد أن كتاب الله الذي بأيدينا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو شامل لكل ما يسمو به الإنسان المسلم روحياً وعقلياً .

يقول الله عز - جلاله : ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (٣٤)

لماذا إذن لا نلتزم بهذا الكتاب في إنماء أنفسنا روحياً كما نفعل جسمانياً وثقافياً ؟ إن ظروف حياتنا كمسلمين في الوقت الراهن ، دينياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً وثقافياً ، في شكل لا يدع لنا مجالاً لنسمح فيه لأنفسنا أن نقع في مطبات مصيدية . وقد حذرنا مرشدنا الأول وهو الرسول عليه الصلوة والسلام من التقصير في العمل بكتاب الله وسنة رسوله . حيث قال : تركت فيكم أمرين لن تضلوا بعدى أبداً ما تمسكتم بهما ، كتاب الله وسنتي هذه . وكذلك حثنا على التمسك بما لا يرينا واجتناب ما يريتنا . وقد حذرنا الله سبحانه وتعالى من مخالفة الرسول حيث قال : ﴿...قَدْ يَعْلَمُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. (٣٥) ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾. (٣٦) ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. (٣٧) ولله در قائل :

(٣٤) سورة الأنعام الآية : (٣٨) .

(٣٥) سورة النور الآية : (٦٣) .

(٣٦) سورة الحشر الآية : (٧) .

(٣٧) سورة الشورى الآية : (٥٢) .

إن العلوم وإن جلّت محاسنها فتاجها ما به الإيمان قد وجبا
هو الكتاب العزيز الله يحفظه وبعد ذلك علم فرج الكربا
فذاك فاعلم حديث المصطفى فيه نور النبوة سنّ الشرع والأدبا
وبعد هذا علوم لا انتهاء لها فاختر لنفسك يامن آثر الطلبا
والعلم كنز تجده في معادنه يأيها الطالب ابحث وانظر الكتبا
واتل بفهم كتاب الله فيه أنت كل العلوم تدبره ترا العجبا
واقراً حديث المصطفى وسلن مولاك ما تشتهى يقضى لك الأربا
من ذاق طعماً لعلم الدين سربه إذا تزيّد منه زاد واطربا

وأقول : ان ما ابتلى المسلمون بفتنة شدت وطأتها عليهم أكثر مما زاقوا
في تجربة الاختلاف حول الطرق الصّوفية ومعتقداتها في غرب إفريقيا وما
زالوا على ذلك شهوداً . لذا أورد فيما يلي بعض النماذج للتربية الروحية علي
ضوء كتاب الله وسنة نبيه الغراء عسى أن ننتفع بها جميعاً .

١- تزكية النفس من ارتكاب المعاصي وقمع حدة شهواتها الدنيوية عن
طريق الالتزام بالأوامر والنواهي الشرعية .
٢- الإكثار من أعمال الخير الطوعية وإعطاء الصدقات وتطهير الثروات
بالذكوات .

٣- الإكثار في قراءة القرآن الكريم ، خاصة الآيات الأدعية منه ؛ مثل
الأدعية الواردة في أوائل سورة البقرة وأواخرها وتكرار سورة ياسين .

٤ - الاستدامة على الأدعية التي لزمها الرسول صلى الله عليه وسلم. مثل التي كان يفتح بها الصلوات والتي يختتم بها ؛ منها :

أولاً :

أ- روى عن علي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا افتتح الصلاة كبر ثم قال : "وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ خَيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ" .

ب- وروى مسلم في صحيحه عن علي بن أبي طالب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال : "وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ خَيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ. اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ ظَلَمْتُ نَفْسِي وَاعْتَرَفْتُ بِذُنُوبِي فَاعْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ وَاهْدِنِي لأَحْسَنَ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ وَالشُّبْرُ لَيْسَ إِلَيْكَ . تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ اسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ" .

ج- كان يقول إذا افتتح الصلاة : "سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ تَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَى جَدُّكَ وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ" .

د- عن ابن المنذر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا كبر في الصلاة سكّت هينة قبل أن يقرأ ويقول :

"اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، اللَّهُمَّ
نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنْ
خَطَايَايَ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ".
ثانياً :

إن المسنون عقب الصلاة هو الذكر المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم من التهليل والتحميد والتكبير كما كان عليه الصلاة والسلام يقول عقب الصلاة منها :

١- كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ دُبْرَ كُلِّ صَلَاةٍ: ((لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ أَهْلَ النِّعْمَةِ وَالْفَضْلِ، وَالنِّسَاءِ الْحَسَنِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)) (٣٨)

- كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِذَا أَنْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ؛ اسْتَغْفَرَ - ثَلَاثًا - (أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ)، وَقَالَ: ((اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ، وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)) (٣٩)

- قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : ((مَنْ سَبَّحَ اللَّهَ (أَيُّ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ) - دُبْرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَحَمِدَ اللَّهَ (الْحَمْدُ لِلَّهِ) ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ،

(٣٨) رواه أحمد ومسلم .

(٣٩) رواه الجماعة إلا البخاري .

وَكَبَّرَ (اللَّهُ أَكْبَرُ) ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، - تِلْكَ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ-، ثُمَّ قَالَ تَمَامَ الْمِائَةِ:
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ) - غُفِرَتْ خَطَايَاهُ، وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ) (٤٠)

الأدعية وقراءة القرآن :

يجب علينا أن نعرف أن تلاوة أو قراءة القرآن الكريم عند المسلمين تأتي
للأوجه الثلاثة التالية : (١) التعب (٢) التعليم من الغير (٣) تعليم الغير. وفي
ذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ
وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٤١)

﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً
لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٤٢)

وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى ، من ناحية أخرى ، بأن نؤمن بكل الكتب
المنزلة من عنده والسابقة للقرآن الكريم . لكنّه لم يستوجب علينا الالتزام
بشرائع الرّسل المنزل عليهم تلك الكتب ولا الالتزام بمناهجهم في دعوة الناس
إلى الإسلام ، كما لم يترك أمر الدعوة إليه (الإسلام) والعمل بشريعته مطلقاً
بدون انضباط . يقول تبارك وتعالى :

(٤٠) رواه أحمد والبخاري .

(٤١) سورة النحل الآية : (٤٤) .

(٤٢) سورة النحل الآية : (٦٤) .

أ- ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ...﴾ (٤٣)

ب- ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ...﴾ (٤٤)

ج- ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾. (٤٥)

د- ﴿وَمَنْ يَقْنُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾. (٤٦)

هـ- ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾. (٤٧)

(٤٣) سورة الشورى الآية : (١٣) .

(٤٤) سورة المائدة الآية : (٤٨) .

(٤٥) سورة الجاثية الآية : (١٨) .

(٤٦) سورة الحجر الآية : (٥٦) .

(٤٧) سورة الرعد الآية : (٦) .

أ- نقل عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد ربه والثناء عليه ، ثم يصلى على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم يدعو بعد ذلك بما شاء) .

ب- وفى الحديث المروى عنه أنه قال :

(استحب الدعاء جوف الليل الأخير ودبر الصلاة). إن الدعاء وقراءة القرآن طرفى النهار وزلفاً من الليل هو سنة الرسول عليه الصلاة والسلام وعباد الله الصالحين قديماً وحديثاً. ومن أراد أن ينتهج منهجه عليه الصلاة والسلام، فعل ذلك على الانفراد ، ومن أراد أن يشارك الآخرين فى تلاوة القرآن والأدعية فعل ذلك ، لا ضرر فيه . كان الصحابة رضوان الله عليهم يجتمعون أحياناً ويأمرون أحدهم بقراءة القرآن والباقون يستمعون إليه ، كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم بنفسه .

ج- ثبت فى صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : أفضل الكلام بعد القرآن أربع : وهن من القرآن : سبحان الله ، والحمد لله ولا إله إلا الله . والله أكبر .

فإن منهج الدعوة فى الإسلام إذن، شىء معلوم بالمدلول الإلهى والتوجيه النبوى الشريف . ويشمل ائتلاف قلوب أهل الكتاب أو إقناع الكفرة من أهل الشرك والإلحاد وإنارة عقول المسلمين وازدياد وعيهم الدينى وابتعادهم عن الشوائب والملايسات فى المعتقدات .

وإذا كان هذا هو موقف القرآن والرّسول الذى أنزل إليه هذا القرآن ، من الكتب السماوية السابقة والرّسل والأنبياء السابقين الذين استقبلوا تلك الكتب والشرائع المتضمنة فيها ، فما بالنا بأساليب ومناهج للدعوة يزعم بأنه جاء لنصرة الإسلام لكن القرآن لم يبيّن للرّسول صلى الله عليه وسلم ، كما لم يقم الرسول بمفرده باجتهد تلقائى ليلقن صحابته المهديين المرشدين أو أهل بيته المقربين تلك الأساليب والمناهج، علماً بأنها تمس صميم الإيمان والعقيدة البحت ؟ إذن إصدار حكم يخص تلاوة وقراءة القرآن الكريم وكيفية آدابها ، أمر يخص خالق القرآن وحده وهو الله سبحانه وتعالى . والمصدر الوحيد الذي يستطيع أن يخبرنا بوجود مثل ذلك الحكم، هو النبى صلى الله عليه وسلم الذى أنزل إليه القرآن .

أما بالنسبة للمسلم العاصى الذى يخالف أمر الله ولا يلتزم بشريعة القرآن الكريم فتحكمه معروف لدى أهل العلم في الإسلام ، وهو التّوبة إلى الله توبة نصوحاً والامتناع عن التّمادى فى ارتكاب المعاصى . ولم يقل الرّسول صلى الله عليه وسلم بأن القرآن ينزل اللعنة على المسلم العاصى ، كما لم يقل بذلك الصّحابة رضوان الله عليهم فضلاً عن الأئمة المجتهدين من التابعين وتابعى التابعين، لأن ذلك، إن فعلوا يكون مخالفاً لمنطق العدالة الإسلامية . والله

يقول وهو أصدق القائلين . قل (يا محمد) ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا* إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٤٨)
﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ (٤٩)

وعن أحمد عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما أحب أن لي الدنيا، وما فيها بهذه الآية (قل يا عبادي الذين أسرفوا إلى آخرها) فقال رجل: يا رسول الله فمن أشرك، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: (ألا ومن أشرك - ثلاث مرات).

وروى أحمد أيضاً عن عمر بن عنبه رضى الله عنه قال: جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم شيخ كبير يتوكأ على عصا له فقال: يا رسول الله إن لي غدرات وفجرات، فهل يغفر لي؟ قال صلى الله عليه وسلم: أأنت تشهد أن لا إله إلا الله؟ قال بلى وأشهد أنك رسول الله، فقال صلى الله عليه وسلم: قد غفر لك غدراتك وفجراتك.

كانت الحركات الصوفية ورجالها بمثابة القوة الدافعة للنشاط الإسلامي، كما كانت حيوية هؤلاء الرجال الدينية أيضاً من أجل كسب ما يلزمهم من خيرات وضممان الحصول على الحماية ضد مكروهات من نوازل

(٤٨) سورة الزمر: الآية: (٧٣).

(٤٩) سورة الزمر الآية: (٥٤).

الدهر ونوائبه . كان العالم أو الفقيه فيهم لا يعرف سوى ما تتضمنه الكتب
الفقهية الخاصة بمذهبه وإرشاداته الصوفية .

ويلقن بالتالي تلاميذه ومريديه تلك المعلومات . كما لا يتم أى نشاط،
دينى واجتماعى إلا يطلب المسلمون من هذا الفقيه أو الصوفي بأن يبارك لهم
فيه؛ وبه يستوفقون الله في شؤونهم . احترف هؤلاء العلماء والفهاء تلك
المهنة للحصول على دخولهم اليومية للمعيشة . وليس هناك أى مصدر آخر
يعتمدون عليه لضمان قوت يومهم .

كما لم تكن لعامة الناس أى ملجأ آخر للإنعاش الفكرى والروحي سوى
الثقافة الصوفية أو ثقافات الشعوذة الدجالية . وهم عن ذلك غير ملومين (عوام
الناس) لأن تلك الثقافات والأعراف هى التي آلت إليهم في لبس الإسلام عبر
تاريخ المنطقة، انبثاقاً عن المغرب العربي والتيار الآتي عبر السودان الشرقي.
اعتنقت أعداد كبيرة من شعوب المنطقة الدين الإسلامى على ضوء هذا
المفهوم الذي ينطوى على جلب خيرات مادية ورد مكروهات وإنجاز
انتصارات لدى مواجهات فردية أو جماعية في حروب أهلية وخلافها .

١- أما كأسلوب استقامة الخلق والارتقاء إلى مستوى المسؤولية وتوطيد
العلاقة مع الله من خلال التفانى في عبادات الجوارح وسباق عمل الخيرات
ضمن الباقيات الصالحات، كان للإسلام حظاً يتوافر فقط للندرة من أعوام
الناس هناك .

٢- وبرغم محدودية الثقافة الدينية المتميزة بين إمكان الممارسة الدينية الإسلامية بعيداً عن الشوائب والتشويهات وبين الاعتماد على أصحاب الشعوذة والدجل بغية استوحاء إرشادات سليمة ، كان هناك الاتفاق الحاسم بين الشعوب الإسلامية في المنطقة على عدم الارتضاء بأي بديل آخر عن الإسلام كدين . فكانت الحركات الصوفية في هذا المنوال النواة الأساسية لرمز وحدة الصف والقوة الشعبية لردع الزحف الاستعماري في غرب إفريقيا ولحماية الثقافة الإسلامية وقيمها الأخلاقية.

٣- علاوة على الفضائل المذكورة التي تميزت بها الطرق الصوفية بكونها طليعة الجهود الفردية في نشر دين الإسلام في الغرب الإفريقي ، للحق أشير إلى أن هذه الطرق كانت في الوقت نفسه متلبسة بأسلوب أو بآخر في بث أنسجة عقائد خرافية حجبت الانطلاق الفكري الإسلامي السليم بين شعوبها . فيكفينا عبرة أن نلقي نظرة عابرة على الأمثلة التالية التي اقتبسناها من المصادر الصوفية الشائعة وذات الأثر القوي على عقول ونفوس قدر كبير من المسلمين في غرب إفريقيا .

أولاً : منزلة القرآن بالمقارنة مع الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم . جاء في كتاب " جواهر المعاني " لعلّي حرازم نقلاً عن الشيخ أحمد بن محمد بن المختار بن أحمد بن محمد التجاني ، أن لتلاوة القرآن المراتب الأربع الآتية :

أ- يقوم بها الصوفى العارف بالله أى الولي الذى يحاكي أثناء تلاوة القرآن الأصوات التي يسمعها مباشرة من الله سبحانه وتعالى . عندئذ تكون تلاوة القرآن الكريم أفضل من أى ورد أو أى كلام صوفى آخر .

ب- يقوم بها إنسان مسلم يجيد اللغة العربية بحيث يعى ما يتلوه من القرآن وكأنه يسمعه من الله سبحانه وتعالى مباشرة .

ج- يقوم بها إنسان مسلم لا يجيد اللغة العربية . ومن ثم لا يعى ما يتلوه من آيات القرآن لكنه ملتزم بشريعته .

د- يقوم بها إنسان مسلم عاص لا يلتزم بشريعة القرآن . ذاك يزداد بعداً عن الله ولعنة منه بتلاوته القرآن الكريم .

ثانياً :

منزلة الأولياء بالمقارنة مع منزلة الأنبياء والرسل . يبين الكتاب أيضاً (جواهر المعاني) أن ثمة ثلاث مراتب تشريفية من حيث تبليغ الرسالة الإسلامية .

أ- أعلى هذه المراتب هى المرتبة القطبانية. وتخص الأولياء من الصوفيين وتليها مرتبة الرسل المبعوثين برسالات إلى أمم ، ثم تليها مرتبة الأنبياء الذين لم يرسلوا ، بالضرورة ، إلى أمم أو برسالات معينة . وأن المرتبة القطبانية ترتفع وتندمج فى المرتبة الألوهية التى يتم تصريف أمور الكون بها . ويقول أن حقيقة القطبانية هى الخلافة العظمى عن الله سبحانه وتعالى فى جميع الوجود جملة وتفصيلاً، فحيثما كان الربّ إلهاً كان الصوفى القطباني خليفة له فى

تصريف وتنفيذ الحكم على كل من تقع عليه تلك الألوهية؛ ثم قيام القطباني بالبرزخية العظمى بين الله وبقية المخلوقات وذرات الوجود جملة وتفصيلاً. ولذلك يصبح الكون كله كأشباح أخرى، فلا يحصل أى مخلوق على أى شىء من خيرات الدنيا والآخرة إلا بواسطة قطب الزمان الذى ينوب عن الله فى تصريف حياة الناس وشؤونهم اليومية.....".

قال تعالى: ﴿ طَهُ مَا أُنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذَكُّرٌ لِّمَن يَخْشَى * تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴾ (٥٠)

وقال: ﴿ لَقَدْ أُنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٥١)

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ (٥٢)

وروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال "يسرّوا ولا تعسروا وبشّروا ولا تنفروا".

(٥٠) سورة طه الآية من: (٤-١).

(٥١) سورة الأنبياء الآية: (١٠).

(٥٢) سورة الحج الآية: (٧٨).

اختتامًا لهذا الفصل الذى عالجنا فيه المقاومة الإسلامية ضد الوجود الاستعماري فى غرب إفريقيا ، أشير إلى أن مؤتمر برلين الذى عقد بدعوة من الزعيم الألماني ، الأمير أوتوفون بسمارك ، (٥٣) فى الفترة من ١٥ نوفمبر ١٨٨٤ إلى ٢٦ فبراير ١٨٨٥ م أدى إلى تقاسم البلدان الإفريقية بين الدول الأوروبية كمستعمرات لها ، فقد وقعت المناطق المتأصلة بالحضارة الإسلامية، انطلاقًا من شمال إفريقيا حتى الجزء الغربى منه ووصولاً إلى مجرى نهر الكونغو نصيبًا للمطامع الاستعمارية الفرنسية . وقامت الحكومة الفرنسية فى عام ١٩٠٤ م بناء على ذلك ، بفرض نظام فيدرالى تضمّن سبعًا من مستعمراتها فى غرب إفريقيا ، وهى : السنغال ، موريتانيا ، مالى (السودان)، النيجر ، داهومى ، ساحل العاج ، غينيا واتخذت مدينة دكار عاصمة لها. وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه المناطق الشاسعة التى يبلغ تعداد سكانها وقتئذ خمسة عشرة مليون نسمة ، تعادل تسعة أضعاف مساحة جمهورية فرنسا نفسها .

كانت الحواجز الطبيعية من الغابات الكثيفة والكهوف ووعورة المرتفعات الجبلية والصحارى القاحلة، حجر عثرة أمام الإدارة الاستعمارية الفرنسية لهذه المناطق الشاسعة ، الأمر الذى أدى إلى إطالة عمر المقاومة الإسلامية ضدها

(٥٣) ١٨١٥م - ١٨٩٨م كان أول رئيس وزراء، للامبراطورية الألمانية فى الفترة من ١٨٧١م، تحت ذلك الكيان السياسى.

إلا أنها جندت أبناء المنطقة أنفسهم للقضاء على تلك المقاومة وفرضت ضرائب مفرضة على سكانها بواسطة هؤلاء العملاء. كانت التدابير التي تلجأ إليها تلك السلطات لإخماد الانتفاضات قاسية للغاية ولا إنسانية، تصل أحياناً حد الإبادة الجماعية ناهيك عن انتهاك أعراض النساء ، خاصة فى الفترة ما بين ١٩٠٨ و ١٩١٢م آخذة فى الاعتبار تجاربها المريرة فى الجزائر . وكان الأثرياء والملوك والأوتوقراطيون هدفها الأول للقمع والاضطهاد والقتل ، لأنهم يشكلون مصدر القلق والتهديد لاتهامهم بالتعاون سرّاً مع الدول الأعداء لفرنسا إبان الحرب العالمية الأولى ، وحاولت الحكومة الفرنسية فيما بعد كسب ود وصداقة أفراد هذه الطبقات العليا عن طريق الإغراءات والرشاوى. ومن هنا نزعّت شرائح الشعب ولاءها من تلك الطبقة التى أصبحت أو كادت تصبح حليفة للسلطات الاستعمارية ، فكونت تلك الشرائح جبهات منفصلة للمقاومة بزعامة علماء الدين الذين ارتكزوا ، فى بعض المناطق ، على المفاهيم والبدائل الأربعة التالية :

- ١- حتمية ظهور الإمام المهدي المنتظر .
- ٢- حتمية مواصلة الجهاد المسلح ضد الغزاة الكفرة مهما كلفهم ذلك حتى آخر قطرة من دمهم . لعل ذلك ينتهي بظهور المهدي الموعود .
- ٣- ضرورة القيام بالهجرة إلى مكة المكرمة فى حالة تفوق الكفرة عليهم وهزيمتهم فى نهاية الأمر .

٤- قبول الخل الوسط بالدخول فى المفاوضات مع السلطات الاستعمارية بحيث تسمح لهم تلك السلطات بالجلء التدريجي عن المناطق الساقطة على أيديها وباللجوء إلى الاماكن الأخرى البعيدة التى تكون غالبا هى المناطق الجبلية والصحراوية .

كان هذا التوجه الأخير هو ما لجأت إليه المقاومة الإسلامية فى موريتانيا ومالي والسّنغال ، كما حدث بالنسبة للشيخ حمّاه الله وجماعته فى منطقة نيورو (مالي) فى عام ١٩٠٨ م والشيخ أحمد بامبا بعد عودته من المنفى فى موريتانيا فى عام ١٩١٢ م . وقد انتقل الشيخ أحمد بامبا إلى منطقة جوربيل فى السنغال ولجأ إلى تحسين علاقته مع السلطات الفرنسية التى منحته لقباً تشريفياً كبطل حربى .

أما فى شمال موريتانيا ، حيث كان الوضع مختلفاً ، فهناك قام الشيخ ماء العينين بن الشيخ محمد فاضل بتعبئة سكان المناطق النائية فى أعماق الصحراء وإعلان الجهاد ضد الفرنسيين ، واكتسحت مقاومته أجزاء كبيرة حتى وصلت مناطق مجرى نهر النيجر العليا اعتباراً من عام ١٩٠٥ م حتى عام ١٩٠٩ م . وقد حظى بمساندة سلطان المغرب فى ذلك الوقت . كما برز مجاهدون آخرون من أمثال محمد المختار بن الحامد والشيخ عابدين بن الشيخ سيدى المختار وأبناء قبيلة أبدوكل حيث استمرت المقاومة طيلة ثلاثين سنة . وفى عامى ١٩١٦ م و ١٩١٧ م ، شهدت منطقة قبائل الأيير الطوارقية فى النيجر وجنوب الجزائر وشمال مالي آخر مراحل المقاومة الإسلامية

المستعصية ضد الاحتلال الفرنسى فى غرب إفريقيا . وكانت تلك القبائل الصحراوية تعيش فى معزل عن مجتمعات الغرب الإفريقى ومستقلة عن أية سلطة مركزية تنقاد لها ، وكانت تعتمد اعتماداً كلياً فى معظم الأوقات ، على القوافل التجارية المارة بمناطقها جيئة وذهاباً بين الجنوب والشمال كموارد اقتصادية مع التأثير بالنواحى الثقافية والدينية والاجتماعية . غير أن الاحتلال الاستعمارى الفرنسى الذى هبّ على تلك المناطق أوقف استمرار تلك الأنشطة التجارية ، فأصبحت الحياة فيها أمراً صعباً لسكانها وفقدت تلك المنطقة أمنها واستقرارها أمام الرعاة والأفراد التجار . عاودت غالبية هذه القبائل الصحراوية التجمع مجدداً ، فى عام ١٩١٦ م ، لكن هذه المرة تحت راية القيادة الدينية من خلال زعماء منتمين إلى الطريقتين القادرية والسنوسية الصوفيتين ، لا سيما فى مركزها بمدينة أغادس النيجيرية .

لكن نزلت عليها القوات الفرنسية من جديد وحاصرتها فى تلك المدينة لمدة ثلاثة أشهر، حتى استنفدت طاقاتها فى الاستمرار فى المقاومة واحتلت المدينة واعتقلت كافة من فيها من رجال القيادة الدينية وأعدمتهم شنقاً . أما فى منطقة الجنوب الشرقى للسنغال فقد نهض علماء الدين فى أوساط قبائل الماندنغو ببذل جهود مضيئة لإدخال أعداد كبيرة من الوثنيين إلى الدين الإسلامى . وفى منطقة كازامانص الواقعة فى الجنوب الشرقى للسنغال، على سبيل المثال، تدفق الناس، جماعات وفرادى إلى الاحتضان الطوعى للإسلام، وفى عام ١٩٠٨ م نهض داعية إسلامى هو الشيخ سليمان بياغا

بنشاط الوعظ والإرشاد وبنى مسجداً كبيراً هناك ، الأمر الذى أغاظ السلطات الفرنسية المستعمرة التى اعتبرت ذلك عصياناً وتمرداً ، فأمرت باعتقاله ، لكنه فرّ إلى "جامبيا". حيث لاحقته تلك السلطات وألقت القبض عليه بتواطؤ السلطات الاستعمارية الإنجليزية . ثم أعادته إلى كازا مانص حيث أعدمته شنقاً . وفى الشمال الشرقى لهذه المنطقة ، امتدت المقاومة إلى مملكة موسى (فولتا العليا)^(٥٤) بقيادة داعية إسلامى آخر هو ألاسانى مومونى (الحسن مؤمن) الذى أتى من منطقة رامونغو . واستطاع هذا الداعية إدخال أعداد كبيرة من الوثنيين فى المنطقة إلى دين الإسلام . وكون جماعة من الأتباع ولقّنهم فكرة عدم التجاوب والتعاون مع السلطات الاستعمارية الفرنسية فى مطالبتها الأفراد بدفع الضرائب عن كل من يعولونهم وعن رؤوس المواشى التى يمتلكونها . واستجابة لهذا النداء ، احتشد حوله مئات من الأتباع والمريدين . وكون جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل ، زحفوا إلى مدينة "واجادوجو" ، مركز الإدارة الاستعمارية . واشتبكت قواته مع القوات الفرنسية قبل وصولها إلى المدينة ، وقتلت تلك القوات الاستعمارية أكثر من ألفين من رجاله وأسرتهم ثم أعدمته شنقاً ، وكان ذلك أحد أسباب انهيار

(٥٤) أصبحت الآن : بوركينافاسو، هى كلمة مركبة من ثلاث لغات. أي الموسية والجولاوية والفولانية . معناها : وطن الرجال النزهاء .

مملكة "موسى" بعد استسلام ملكها "موغونابا". (٥٥) للسلطات الاستعمارية
الفرنسية .

(٥٥) انظر كتاب "The Cambridge History of Africa"
Volume 7, By A.D. Roberts

الفصل السادس

قضية ظهور المهدي بين الماضي والحاضر

أود فى هذا الفصل أن أعالج هذه القضية بشيء من الإسهاب نظراً لأهميتها الخطيرة بالنسبة للفكر الإسلامى بصفة عامة، ولما لها من صلة بكافة الثورات الدينية والاجتماعية الإسلامية عبر التاريخ، وانعكاس ذلك على العقيدة الإسلامية فى القارة الإفريقية؛ سواء بصورة سلبية أو إيجابية، إذ أرى فى هذا المقام أن خير ما أفتتح به هذه القضية هو ما ورد فى مطلع كتاب "حقيقة البهائية" للأستاذ/ مصطفى محمود الذى قال:

"ما إن مات محمد عليه الصلّاة والسّلام وتحركت المشاعر بذلك الحب الطّبيعى لآل البيت، فقال البعض: إن علىّ بن أبى طالب أولى بالخلافة من أبى بكر، حتى انفتحت ثغرة دخلت منها الفتن. وظلت تتسع وتتسع على مدى الأعوام الألف والأربعمئة، واجتمع الأعداء من كل الملل يرمون الإسلام من هذه الثغرة، ويتسللون منها لهدم البيت بحجة التشيع لآل البيت، وبهذا الحب الزائف؛ قال اليهودى عبد الله بن سبأ أن محمداً لا يمكن أن يموت، فمحمد إله، وما كان الأنبياء جميعهم إلا مظاهر الألوهية من آدم إلى نوح، إلى إدريس، إلى موسى، إلى عيسى وإلى محمد. فلما انتقل محمد إلى الرفيق الأعلى قال ابن سبأ: إن الألوهية حلت فى على، فلما قتل على، قال: لم يقتل

بل هو حى وأنه يجىء فى السحاب وأن الرعد صوته ، والبرق خنجره ، وأنه سيرجع إلى الأرض فيملؤها عدلاً بعد أن ملئت جوراً، وسرت هذه الأفكار سريان النار فى الهشيم، وكانت البذرة الخبيثة التى أنبتت التشيع والباطنية. وافترق التشيع إلى ثلاثين فرقة وأكثر، يقول بعضها بالرجعية، وبعضها بالتناسخ وبعضها بالحلول وبعضها بالتجسد وبعضها بالوهية على، وبعضها بالوهية الأئمة ، وأكثرها بالإمام المختفى فى سرداب منذ ثلاثة عشرة قرناً ليظهر ويكون مهدي آخر الزمان... وضاع نقاء التوحيد فى هذا الخليط من التناسخ والحلول والتجسد والفيض والرجعية والغيبة . ولم يأت هذا الخلط اتفاقاً ولم يولد مصادفة وإنما بكيد الكائدين من مختلف الملل التى غلبها الإسلام وأزاحها وكسر سلاحها وحطم عروشها فعادت بدورها تغزوه بأفكارها ومذاهبها لتفرق شمله وتمزق وحدته وتشيع الفوضى الفكرية والبلبله فى صفوفه.

من كان من المتأمرين على قتل عمر بن الخطاب ؟ إن التاريخ يذكر لنا كعب الأحمار اليهودى ، والهرمزان المجوسى ، وجفينة من نصارى الحيرة ، وأبو لؤلؤ المجوسى إلى آخرهم . لقد اشترك فى قتله كل خصوم الإسلام . وما كانت مذاهب التناسخ والتقمص والحلول والتجسد والغيبة والرجعية إلا بعض التراث الفكرى لهؤلاء الخصوم ، تسلبوا به إلى عقول المسلمين لتخريبها . وكان أكثر أهل إيران من الشيعة الاثنى عشرية، ينتظرون ظهور الإمام الغائب المختفى فى السرداب والبقية زرادشتيون ينتظرون ظهور موعودهم "هرا م شاه" أو اليهود ينتظرون مسيحهم الموعود والنصارى

ينتظرون نزول عيسى أو المسلمون ينتظرون ظهور المهدي الموعود الى آخره. كل فرقة تنتظر غائباً وترجو لها مخلصاً." (١)

أصل فكرة ظهور المهدي المنتظر :

من البديهي أن كلمة "المهدي" مشتقة من كلمة الهداية . والمهدي لغة هو "المرشد" ويراد به في هذا المفهوم الإنسان الذي سيأتي في آخر الزمان ليرشد الأمة المحمدية ويقودها . وليست هناك أية إشارة بهذا المعنى وردت في القرآن الكريم إلا في بعض الأحاديث المضطربة والغامضة الفحوى .

على كل ، أود قبل الشروع في الحديث عن دور علماء المسلمين في بث أفكار مجيء إنسان في آخر الزمان وبقرب البعث لينقذهم ويخلصهم من النكسات والمحن والفتن التي يتعرضون لها في حياتهم الدنيوية ، أن أشير إلى النصوص التالية المقتبسة من كتاب "الإنجيل" كما هو اليوم في أيدي اليهود والنصارى . ثم أترك الحكم في يد القارئ الكريم ليستنتج بنفسه ماذا تكون مصادر هذه الفكرة وكيف تسربت إلى الفكر الإسلامي في وقت لاحق :

أولاً : جاء في الآية ٢٤ للإصحاح الثالث عشر لإنجيل مرقس ؛ "وأما في تلك الأيام بعد ذلك الضيق فالشمس تظلم والقمر لا يوتئ ضوءه ونجوم السماء تتساقط والقوات التي في السموات تتزعزع . وحينئذ يبصرون ابن إنسان

(١) راجع كتاب "حقيقة البهائية" لمصطفى محمود .

آتى فى سحاب بقوة كثيرة ومجد . فيرسل ملائكته ويجمع مختاريه من الأربع الرياح من أقصى الأرض إلى أقصى السماء". .

ثانياً : فى الإصحاح الخامس عشر الآية ١٩ لنفس الإنجيل نجد ما يلى :
"ثم إن الرب (عيسى) بعد ما كلمهم ارتفع إلى السماء وجلس على يمين الله " .

ثالثاً : وفى الإصحاح الثالث عشر لإنجيل لوقا : "وانما اعلّموا هذا أنه لو عرف رب البيت فى أية ساعة يأتى السارق لسمر ولم يدع بيته ينقب . فكونوا أنتم إذا مستعدين لأنه فى ساعة لا تظنون يأتى ابن الانسان " .

رابعاً : ومن آية ٤ الى آية ١٥ للإصحاح السادس عشر لإنجيل يوحنا جاء فيها : " لكنى قد كلمتكم بهذا حتى إذا جاءت الساعة تذكرون أنى أنا قلت لكم . ولم أقل لكم من البداية لأنى كنت معكم . وأما الآن فأنا ماض إلى الذى أرسلنى وليس أحد منكم يسألنى أين تمضى . لكن لأنى قلت لكم هذا قد ملأ الحزن قلوبكم . لكنى أقول لكم الحق انه خير لكم أن أنطلق . لأنه إن لم أنطلق لا يأتىكم المعزى - ولكن إن ذهبت أرسله إليكم . وحتى جاء ذاك ييكت العالم على خطية وعلى برّ وعلى دينونة . أما على خطية فلأنهم لا يؤمنون بى . أما على برّ فلأنى ذاهب إلى أبى ولا تروننى أيضاً . وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين . إن لى أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن . وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية . ذاك يمجدنى لأنه يأخذ مما لى ويخبركم . كل ما للأب هولى . لهذا قلت إنه يأخذ مما لى ويخبركم . بعد

قليل لا تبصروننى . ثم بعد قليل أيضاً تروننى لأنى ذاهب إلى الأب". انتهت النصوص .

لقد تسربت هذه الفكرة ومثيلاتها إلى الفكر الإسلامى من خلال مدونات الكتب الأدبية والتاريخية الإسلامية المتأثرة بالأحداث المأسوية التى شهدتها العصر الأول للإسلام وأدت إلى اغتيال كل من عمر بن الخطاب الخليفة الثانى ، عثمان بن عفان الخليفة الثالث وعلى بن أبى طالب الخليفة الرابع للرسول صلى الله عليه وسلم ، وتداعيات تلك الأحداث من المواجهات والاقتتالات الدامية التى نشبت بين الصحابة والتابعين من أبنائهم لاحقاً . فكان من الطبيعى فى وجه تلك الصدمات واليأس والمآسى الكامنة فى لا شعور الأمة الإسلامية وانعدام ثققتها بالقيادة الماثلة أمامها بسبب تلك النوازل ، أن يأخذ أبنائها يبحثون ، بالانقياد الفكرى والشعورى ، عمن يأخذ بيدهم ويكون لهم موجهها فى مسيرة حياتهم اليومية ديناً ودنيا .

وفى خضم هذه الأحاسيس المؤلمة المتراكمة جاءت أدوار الأدباء وعلماء الدين الماهرين فى نسج القصص الدينية الترفيحية، الذين قاموا بإدخال هذه الأفكار إلى عقول المسلمين التى أرادوا بها تثبيت أفئدة المؤمنين بأن الأمل ما برح قائماً فى مجيء من يأخذ بيدهم وينجيهم من الاضطرابات النفسية ومن البلبلة الفكرية إلى بر الأمان . ومن خلال هذه المصنفات الأدبية والدينية ظهرت شخصية المهدي المنتظر أو المهدي الموعود . انعكس ذلك الأدب الدينى فى هذا المضممار ، على الأوضاع الدينية والسياسية والاجتماعية

المتداخلة والسائدة فى أجواء المجتمعات الإسلامية فى ذلك الوقت . ومن ثم انقسم هذا الفكر تلقائياً إلى اتجاه أهل السنة الذى يدعى الحياد عن التأثير بالانزلاق السياسى الدينوى البحت واللجوء إلى الاقتداء بسلوكيات السلف الصالح فحسب . بينما مالت الفئة الأخرى تجاه شيعة على بن أبى طالب ورأت ضرورة الدفاع عن الحقوق الدينية والسياسية لصالح من يستحقها من ذرية الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام . وقديماً ذكرت المصادر الدينية والتاريخية أنه من إرهاصات قيام الساعة والبعث بانقضاء حياة الإنسان على وجه هذا الكوكب الدينوى ، أن ينتشر الفساد والانحلال الخلقى بين الناس ، حينئذ يبعث الله رجلاً ينحدر من عترة النبى صلى الله عليه وسلم يدعى المهدي الذى يتولى منصب خليفة الرسول فى الأرض ، يملأ الأرض عدلاً ويحارب الجور الذى يكون قد تفشى بين الناس . وتستغرق فترة حكمه ما بين سبع وتسع سنين . وسيصلى خلفه عامة المسلمين ومن بينهم المسيح عيسى عليه السلام . إلى آخر مثل تلك المقولات المتشابهة .

نرجع الآن إلى المصادر التى تناقلت مثل هذه التنبؤات للوقوف على ما يطمئننا إسناده إلى الرسول صلى الله عليه وسلم :

١- جاء فى كتاب "التذكرة القرطبية" للإمام عبد الله بن محمد بن أحمد بن أبى بكر الأنصارى الخزرجى الأندلسى ما يلى :
روى عن حذيفة أن الرسول صلى الله عليه وسلم ذكر فتنة تقع بين المشرق والمغرب فيبينهما هم كذلك إذ خرج عليهم السفيناني من الوادى اليابس فى فورة ذلك حتى ينزل دمشق حيث يبعث

جيشين : جيشاً إلى المشرق وجيشاً إلى المدينة . فيسير الجيش نحو المشرق حتى ينزل أرض بابل فى المدينة الملعونة والبقع الخبيثة أى مدينة بغداد . قال : فيقتلون أكثر من ثلاثة آلاف ويفتضون أكثر من مائة امرأة . ويقتلون بها أكثر من ثلاثمائة كيس من ولد العباس رضى الله عنه ، ثم يخرجون متوجهين إلى الشام ، فتخرج راية المهدي من الكوفة فيلحق ذلك الجيش بهم على ليلتين فيقتلونهم ثم لا يفلت منهم مخبر ويستنقذون ما فى أيديهم من السبى والغنائم ، ويحل جيشه الثانى بالمدينة فينتهبونها ثلاثة أيام ولياليها ثم يخرجون متوجهين إلى مكة حتى إذا كانوا بالبيداء يبعث الله جبريل عليه السلام ويقول له اذهب فأهلكهم فيضربهم برجله يخسف الله بهم وذلك قوله تعالى : "ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب" (٢) فلا يبقى منهم إلا رجلان . أحدهما بشير والآخر نذير . وهما من جهينة . ومن هنا قيل عند جهينة الخبر اليقين . لفظ الحديث الذى رواه ابن مسعود أطول من هذا الحديث . وفيه أن محمداً بن عروة السفينانى يبعث جيشاً إلى الكوفة يضم خمسة عشر ألف فارس ويبعث جيشاً آخر يضم خمسة عشر ألف راكب إلى مكة والمدينة لمحاربة المهدي ومن تبعه . فأما الجيش الأول فانه يصل إلى الكوفة فيغلب عليها ويسبى من النساء والأطفال ويقتل الرجال ويأخذ ما يجد فيها من الأموال ثم يرجع فتقوم صيحة بالمشرق فيتبعهم أمير من أمراء بنى

(٢) الآية : ٥١ من سورة سبا .

تميم يقال له شعيب بن صالح فيستنقذ ما فى أيديهم من السبى ويرجع إلى الكوفة . وأما الجيش الثانى فإنه يصل إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم فيقاتلونها ثلاثة أيام ثم يدخلونها عنوة ويسبون ما فيها من الأهل والولد ثم يسيرون إلى مكة لمحاربة المهدي ومآ معه فإذا وصلوا إلى البداء مسخهم الله أجمعين . وفى رواية ابن ماجه زيادة : فلا يبقى منهم إلا الشريد الذى يخبر عنهم . وروى ابن ماجه أيضاً : إذا طلعت الرايات السود من ، قال : المشرق ، فإنه خليفة الله المهدي فبايعوه إذا رأتموه ولو حبوا على الثلج . وفى رواية أخرى له ، أى ابن ماجه ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : يخرج أناس من المشرق فيوطنون للمهدي كرسى سلطانه . وفى رواية لأبى داود : يخرج رجل من وزراء المهدي يقال له الحارث بن حارث على مقدمته رجل يقال له منصور يوطئ أو يمكّن لآل محمد صلى الله عليه وسلم كما مكنت قريش للنبي صلى الله عليه وسلم ويجب على كل مؤمن نصرته أو إعانته . والله تعالى أعلم .

٢- روى أبو داود عن أبى سعيد الخدرى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يكون فى أمتى المهدي إن قصر المهدي فسبع وإلا فتسع وينمو المال فى زمنه ويكثر عنده . يقول الرجل : فيقول يا مهدي اعطني فيقول نخذ . وفى حديث أبى داود أيضاً قال الرسول صلى الله عليه وسلم: المهدي منى واسع الجبهة أقنى الأنف يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً يملك سبع سنين . وفى رواية أخرى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : ليصين هذه الأمة بلاء حتى لا يجد الرجل ملجأ يلجأ إليه من الظلم فيبعث الله تعالى

رجلاً من عترة أهل بيتي يملأ به الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً
يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض . لا تدع السماء من قطرها شيئاً إلا
صبته مدراراً ، لا تدع الأرض من نباتها شيئاً إلا أخرجته حتى يتمنى الأحياء
العيش ، يمكث على ذلك سبع سنين أو ثمان سنين أو تسع سنين ، ولو لم
يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطّول الله تعالى ذلك فيه رجلاً من أمتي أو من
أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي . أخرجه الترمذى بمعناه .
وقال حسن صحيح . وفى رواية له أيضاً لو لم يبق من الدنيا الا يوم واحد
لطّول الله ذلك اليوم حتى يليهم رجل من أهل بيتي تكون الملائكة بين يديه
ويظهر الإسلام ويكثر فيه المال ويأتيه الرجل فيقول يا مهدى اعطني فينحى له
فى ثوبه ما استطاع أن يحمله . وفى رواية للحافظ أبى نعيم أن الرسول صلى
الله عليه وسلم قال المهدى من أهل البيت يصلحه الله عز وجل فى ليلة أو قال
فى يومين . وفى رواية ابن ماجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لا يزداد
الأمر شدة الدنيا إلا إدباراً ولا الناس على الدنيا إلا شكاً ولا تقوم الساعة إلا
على شرار الناس ولا مهدى إلا عيسى ابن مريم ، قال الإمام القرطبى إن هذا
لا ينافى ما تقدم فى أحاديث المهدى . لأن معناه تعظيم شأن عيسى بن مريم
لعصمته وكماله فلا ينافى وجود المهدى ، كقولهم لا فتى إلا على . إذ يؤيد
ذلك حديث المهدى من أهل بيتي يملأ الأرض عدلاً وإنه يخرج مع عيسى
عليه الصلاة والسلام ليساعده على قتل الدجال ببابل من أرض فلسطين وأنه
يعم هذه الأمة ويصلى خلفه عيسى بن مريم .

٣- تقدم حديث أبي هريره وغيره أن المهدي يبايع بين الركن والمقام .
وروى أنه يخرج في آخر الزمان رجل يقال له المهدي من أقصى المغرب
يمشي والنصر بين يديه أربعين ميلاً ، رايته بيض وصفرة و اسم الله الأعظم
مكتوب فيها . فلا تهزم له راية وقيام هذه الرايات وانبعاثها من ساحل البحر
بموضع يقال له ماسة من جبل المغرب فيعقد هذه الرايات مع قوم قد أخذ الله
تعالى لهم ميثاق النصر ، والظفر أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم
المفلحون . وأطال في الحديث إلى أن قال فيأتي الناس من كل جانب ومكان
فيبايعونه يومئذ بمكة بين الركن والمقام وهو كاره لهذه المبايعة الثانية بعد
البيعة الأولى التي بايعه الناس فيها بالمغرب . ثم إن المهدي يقول: يا أيها
الناس اخرجوا إلى قتال عدو الله وعدوكم فيجيبونه لا يعصون له أمراً ،
فيخرج المهدي ومن معه من المسلمين من مكة إلى الشام لمحاربة عروة
ابن محمد السفيناني ومن معه من كلب لم يتبدد جيشه ثم يوجد عروة
السفيناني على أعلى شجرة على بحيرة طبرية والخائب من خاب يومئذ من
قتال كلب ولو بكلمة أو بتكبير أو صيحة ؛ وفي الحديث أن حذيفة
رضي الله عنه قال : يا رسول الله كيف يحل قتلهم وهم مسلمون موحدون ؟
فقال النبي صلى الله عليه وسلم إنما إيمانهم في ردة لأنهم خوارج ويقولون
برأيهم أن الخمر حلال ومع ذلك أنه يحاربون الله . قال الله تعالى :
﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ

يُقْتَلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا» إلى آخر الآية (٣). وفي الحديث أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : ستفتح بعدى جزيرة تسمى بالأندلس فيتغلب عليهم أهل الكفر فيأخذون أموالهم وأكثر بلادهم ويسبون نساءهم وأولادهم ويهتكون الأستار ويخربون الديار وترجع أكثر البلاد فيافى وقفارا ويتخلى أكثر الناس عن ديارهم وأموالهم فيأخذون أكثر الجزيرة ولا يبقى إلا أقلها ويكون فى المغرب الهرج والخوف ويستولى عليهم الجوع والغلاء وتكثر الفتنة ويأكل الناس بعضهم بعضاً فعند ذلك يخرج رجل من المغرب الأقصى من ولد فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو المهدي القائم فى آخر الزمان وهو أول أشراف الساعة. أردف الإمام القرطبي قائلاً : وقد شاهدنا جميع هذه الأمور وعيناها فى بلادنا إلا خروج المهدي . فى حديث شريك أن الشمس تكسف مرتين فى رمضان قبل خروج المهدي .

٤ - روى ابن ماجه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطوله الله عز وجل حتى يملك رجل من أهل بيتى جبل الديلم والقسطنطينية، وإسناده صحيح . ثم إن المهدي ومعه جيش من المسلمين يأتون إلى مدينة أنطاكية وهى مدينة عظيمة على البحر فيكبرون عليها ثلاثة تكبيرات فيقع سورها فى البحر بقدرة الله عز وجل فيقتلون الرجال ويسبون النساء والأطفال ويأخذون الأموال ثم يملك المهدي

(٣) الآية ٣٣، سورة المائدة .

أنطاكية ويبنى بها المساجد وتعمر بعمارات أهل الإسلام ، ثم يسرون الى رومية ويقتلون بها أربعمئة ألف مقاتل ويفتضون بها سبعين ألف بكر ويستفتحون المدائن والحصون ويأخذون الأموال ويقتلون الرجال ويسبون النساء والأطفال ويأتون كنيسة الذهب فيجدون الأموال التي كان المهدي قد أخذها أول مرة وهذه الأموال هي التي أودعها فيها ملك الروم قيصر حين غزا بيت المقدس فوجدت في البيت المقدس هذه الأموال فأخذها واحتملها على سبعين ألف عجلة إلى كنيسة الذهب بأسرها كاملة كما أخذها ما نقص منها شيء فيأخذ المهدي تلك الأموال ويردها إلى بيت المقدس . زاد في رواية : قال حذيفة : يا رسول الله لقد كان بيت المقدس عند الله عظيمًا جسيم الخطر عظيم القدر . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هو من أجل البيوت ابتناه الله على يد سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام من ذهب وفضة ودر وياقوت وزمرد . وذلك أن سليمان بن داود عليهما السلام سخر الله تعالى له الجن فأتوه بالذهب والفضة من المعادن وآتوه بالياقوت والجواهر والزمرد من البحار يغوصون كما قال تعالى : " كل بناء وغواص " فلما آتوه هذه الأصناف بناه منها فجعل فيه بلاطاً من ذهب وبلاطاً من فضة وأعمدة من ذهب وأعمدة من فضة وزينة بالدر والياقوت والزمرد . وسخر الله تعالى له الجن فأتوه حتى بنوه من هذه الأصناف ، قال حذيفة : فقلت يا رسول الله وكيف أخذت هذه الأشياء من بيت المقدس ؟ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن بني اسرائيل لما عصوا وقتلوا الأنبياء سلط الله تعالى "بختنصر" وهو من المجوس وكان ملكه سبعمئة سنة

وهو قوله تعالى : ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ (٤) فدخلوا بيت المقدس وقتلوا الرجال وسبوا النساء والأطفال وأخذوا الأموال وجميع ما كان فى بيت المقدس من الأصناف المذكورة فاحتملوها على سبعين ألف عجلة حتى أودعوها أرض بابل فأقاموا يستخدمون بنى اسرائيل وينهكونهم الحرى والعقاب والنكال مائة عام ثم ان الله عز وجل رحمهم فأوحى الله إلى ملك من ملوك فارس أن يسير إلى المجوس فى أرض بابل وأن يستنقذ من فى أيديهم من بنى اسرائيل فसार إليهم ذلك الملك حتى دخل الى أرض بابل فاستنقذ من بقى من بنى اسرائيل من أيدي المجوس واستنقذ ذلك الذى كان فى بيت المقدس ورده إليه كما كان أول مرة . وقال لهم يا بنى اسرائيل إن عدتم الى المعاصى عدنا إليكم بالسبى والقتل وهو قوله تعالى : عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا. (٥) يعنى إن عدتم إلى المعاصى عدنا عليكم بالعقوبة . فلما رجعت بنو اسرائيل من بيت المقدس عادوا إلى المعاصى فسلط الله تعالى عليهم ملك الروم قيصر فهو قوله تعالى : "فإذا جاء وعد أولاهما" الآية . فغزاهم فى البر والبحر وسباهم وقتلهم وأخذ أموالهم ونساءهم وأخذ جميع حلى بيت المقدس واحتملته على سبعين ألف عجلة حتى أودعه كنيسة الذهب فهو فيها الآن حتى يأخذه المهدي ويردّه الى بيت المقدس ويكون

(٤) الآية : ٥ سورة الإسراء .

(٥) الآية : ٨ سورة الإسراء .

المسلمون ظاهرين على أهل الشرك بعد ذلك ، فعند ذلك يرسل الله ملك الروم وهو الخامس من أهل هرقل والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى .

يا أخى القارىء المسلم الكريم الغيور على دينه ! لا أجد نصيحة أكثر تناسباً أسديها إليك حول قضية المهدي المنتظر سوى استدعائك إلى الاستماع إلى التعليق التالى للأستاذ محمد وجدى الذى قال : "إن الناظر إلى الأحاديث السالفة الذكر من أولى البصائر ، لا يجد فى صدره حرجاً من تنزيه رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى قال عنه تبارك وتعالى : "لا ينطق عن الهوى " من أن يكون هو قائل هذه الأحاديث . فإن فيها من الغلو والخبط فى الحقائق التاريخية الثابتة والإغراق فى المبالغة والجهل بأمور الناس والبعد عن سنن الله المعروفة التى لا تجد لها تبديلاً . فالذى يشعر به المطلع على هذه الأحاديث لأول وهلة هو أنها أحاديث موضوعة تعتمد وضعها رجال من أهل الزيغ أو المشايعين لبعض أهل الدعوة من الراغبين فى الحصول على الخلافة والقيادة السياسية فى بلاد العرب أو المغرب العربى . فلما تعجب من ذلك فأعجب منه الذى يعتقد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو المؤيد بالوحي يقول : إن ملك بختنصر ملك سبعمائة سنة ؟ وكلنا يعلم أن ملك بختنصر الذى حكم بابل لم يزد فى ملكه أكثر من ثمانى وأربعين سنة لا غير . زد على ذلك أن بعض تلك الأحاديث تذكر دولة القياصرة بالقسطنطينية عند خروج المهدي المزعوم على ما كانت عليه حالتها فى عصر الواضعين للأحاديث .

ومعلوم أن دولة قياصرة القسطنطينية انقرضت من القرن الخامس عشر الميلادى ولم تكن بها أية كنيسة تحتوى على ما جلبه قيصر فيها من أموال بيت المقدس . علاوة على ذلك لقد ذكرت الأحاديث أن نبي الله سليمان عليه السلام قد قام ببناء بيت المقدس بالذهب والفضة واليواقيت والأحجار الكريمة . إن أسلوب سرد هذه الأساطير يؤكد لأى ذى بصيرة نافذة وتفكير سليم أن واضعى هذا الكلام قد تعمدوا الحط من شأن الإسلام والمسلمين وقوتهم العقلية . وقد ضعف كثير من أئمة المسلمين أحاديث المهدى الموعود المنتظر . واعتبروها من الأمور التى لا يجوز النظر فيها شرعاً . وإنى أردت يا أخى الكريم ، بإثارة هذه القضية لفت الانتباه إليها لما كان لها من دور فى تضليل جماهير غفيرة من الأبرياء المسلمين فى الماضى والحاضر والمستقبل والله على ما نقول شهيد . لا شك أن هذه الأحاديث من الإسرائيليات الكثيرة التى تسربت إلى العقيدة الإسلامية بقصد وضع المسلمين فى حالة التكلف المستديم . فعلى المسلمين أن ينتبهوا لذلك ويستيقظوا من سبات كان أمده طويلاً^(٦).

(٦) يمكن الرجوع إلى دائرة معارف القرن العشرين للبيان المطول عن هذا الموضوع.

عقيدة المهدي وأثرها في غرب إفريقيا:

من المعتقد أن يسبق ظهور المهدي المنتظر زمان يكثُر فيه الظلم والاضطهاد والفتن والاضطرابات . وقد تضمنت الفكرة أن ظهور المهدي يكون دالاً على قيام الساعة . ورأى الشيخ عثمان دان فودي مؤسس دولة صوكتو العثمانية في غرب إفريقيا ، من ناحيته ، أنه ستكون هناك إرهابات لظهور المهدي وهي التي سماها أشرار الساعة . ففي كتابه "أمر الساعة وأشرارها" (١٨٠٨م) أورد تلك المؤشرات . وذكر أنها قد ظهرت بالفعل باستثناء مؤشرة واحدة فقط . ومن بين مظاهر حدوث زلزلة الأرض وكسوف الشمس وخسوف القمر . وهذا أيضاً قد حدث . الشيء الوحيد الذي لم يحدث هو الحرب التي سيخوضها ذو القرنين (٧) . واستشهد الشيخ دان فودي بأقوال الإمام السيوطي بأن المهدي سيظهر بحلول سنة (١٧٨٦-١٧٨٨هـ) غير أن الشيخ دان فودي قد أشار إلى أن كتب الأحاديث النبوية لم تتضمن أية إشارة محددة لوقت انتهاء العالم وقيام الساعة .

ومن المهم أن نلاحظ أن جهاد الشيخ عثمان دان فودي صادم بداية القرن الثالث عشر الهجري ، وهو القرن الذي يعتقد فيه البعض في العالم وفي

(٧) أي الأسكندر الأكبر .

غرب إفريقيا على وجه الخصوص بظهور المهدي . وحملت هذه الفكرة بعض أتباعه على الاعتقاد بأنه هو ذلك المهدي المنتظر . لكن الشيخ أنكر هذا الادعاء في أكثر من مناسبة ، ونفى انتساب تلك الفكرة إليه ، رافضاً أن يوصف بالمهدي المنتظر ، الأمر الذي ساعد ، إلى حد كبير على تحقيق النجاح لحركته وجهاده . ولو كان قد قبل بالفكرة بأنه هو المهدي لعزل عنه كثير من تلاميذه وأتباعه لأنهم يعتبرون أن المهدي لا بد أن يكون عربياً وقريشياً ، بل ومن عترة النبي صلى الله عليه وسلم . ويذكر لنا بعض المصادر التاريخية أن ثمة حوالي عشرة تأليف للشيخ حول هذه القضية ، كانت لها انعكاسات كبيرة على المجتمعات الإسلامية في منطقة غرب إفريقيا حيث أعلن في المرحلة الأولى أن المهدي سيظهر في أوائل القرن الثالث عشر الهجري ، اعتماداً على ما نقله عن الإمام السيوطي . ثم نجده بعد الانتصار الذي أحرزه ضد أعدائه ، يعدل عن رأيه حول تحديد زمن ظهور المهدي ، والتمس العذر عما سبق أن قاله في هذا الخصوص .

ومن ناحية أخرى قام الدكتور فتح المصري والأستاذ محمد أحمد الحاج ببحث سبب هذا العدول عن الرأي الذي لجأ إليه الشيخ عثمان دان فودي ، فقالا : ((إنه في فترة ما بين (١٧٩٥م-١٨٠٨م) كان الشيخ أقل تحمساً للجهاد الذي خاضه لعدم تأكده من إحراز النصر ، مما دفعه إلى الاستفادة بكل الوسائل المتاحة لضمان تحقيق ذلك النصر . وعندما شعر بعدم توفر

ضمانات الأمان لمستقبل الجهاد أخذ يرسخ الاعتقاد فى حتمية قرب قيام الساعة وانتهاء العالم)). .

ومن ناحية أخرى يصرح الدكتور محمد أحمد الحاج بأن مصنفات الشيخ عثمان فى فترة ما قبل سقوط مدينة (الكالاو) التى كانت معقل أعدائه، كانت تؤكد على تمسكه بالأحاديث الدالة على التعجيل بظهور المهدي واقترب قيام الساعة ، بينما نجد أن مؤلفاته لفترة ما بعد سقوط تلك المدينة قد أشارت إلى الابتعاد عن محاولات تحديد وقت قيام تلك الساعة . وذلك نظرا لاعتزاله الحياة المترفة واللجوء إلى التصوف والارتقاء ، عبر الاهتمام بالتثقيف الذى تشبث به الشيخ وربطه بالنجاحات التى أحرزتها حركته للجهاد . وكان هناك ميل من بعض أتباعه إلى الاعتقاد بأنه هو ذلك المهدي المنتظر الذى بشر بعض العلماء بظهوره فى آخر الزمان. غير أنه فند تلك الادعاءات الصادرة عن أصحابه حيناً باللفظ وأحياناً أخرى بخشونة الشجب ، بل اكتفى بصفة المجدد الذى قال عنه الرسول صلى الله عليه وسلم ، بأنه سيظهر على رأس كل مائة سنة ليأخذ بيد المسلمين الذين يريدون الارتقاء بشأن دينهم وإصلاح أمورهم ، وفى ذلك أسدى الشيخ عثمان النصيحة الآتية : "اعلموا أيها الإخوة الأعزاء وبالله التوفيق أن الهدف من وضع هذا الكتاب هو استنكار اتصافي بالمهدي المنتظر، والتوضيح بأن الله سبحانه وتعالى قد أنعم علىّ بصفات الإمام المجدد وفق ما جاءت به كتب أسلافنا الصالحين وعلمائنا المسترشدين".

وقد نقل عن الإمام عبد الرحمن السيوطى فى كتابه "العرف الوردى فى أخبار الإمام المهدي" أنه قال : جاء فى كتاب "الفتن" للعلامة نعيم بن حماد، أحد الرواة الثقة ومفسر كتاب صحيح البخارى أنه قال: حدثنا أبو يوسف المقدسى عن محمد بن الحنفى أن الإمام المهدي سيظهر فى سنة ١٢٠٠ الهجرية . وذكر أيضاً نقلاً عن أبى قتيل أن ظهور المهدي سيكون فى سنة (١٢٠٤ الهجرية) وأنه سيظهر فى زمان يحدث فيه الفساد الخلقى والعقيدى، وأن هذا سيحدث حذو الرسول صلى الله عليه وسلم ولن يعصى الله أو رسوله". وذكر الشيخ عثمان فى مكان آخر أن المهدي المنتظر سيكون من ذرية السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأنه سيحصل على الولاء من بلاد المغرب ومكة المكرمة. كما أشار إلى قول ابن المسعود الذى ذكر أن الإمام المهدي سيظهر فى بلاد المغرب . وذكر فى مكان آخر أن الإمام المهدي سيظهر فى المدينة المنورة . وفى كتابه "نصائح الأمة المحمدية" اقتبس حديثاً للرسول صلى الله عليه وسلم ورد فى سنن ابن ماجه أن الإمام المهدي سيحمل اسم محمد وسيكون آخر من يظهر من الخلفاء . واعتذر الشيخ فى كتابه "تنبيه الفهيم" الذى استكماله فى شهر شعبان (١٢٢٣ الهجرية الموافق ٨ أكتوبر ١٨٠٨م) عن كل الأقوال التى صدرت عنه بخصوص الإمام المهدي وظهوره فى سنة (١٢٠٠ الهجرية) فقال : "إن كل ما ذكرناه فى مرات عديدة أثناء توجيهات أنشطة الوعظ والإرشاد أمام الناس حيث قلنا إن وقت ظهور المهدي قد حان انطلاقاً مما أسند إلى الإمام عبد الرحمن السيوطى كانت كلها شائعات . لقد بدت لنا هذه الحقيقة بعد

التحقيقات التى قمنا بها مؤخراً . ونود أن نؤكد فى هذا الصدد أننا لا نعرف على وجه التحديد الوقت الذى سيظهر فيه هذا الإمام " . واصل الشيخ عثمان دان فودى مناقشة فكرة ظهور المهدي حتى سنة (١٢٢٦ الهجرية الموافق لعام ١٨١١م) عندما ألف كتابه " تحذير الإخوان من ادعاء ظهور المهدي فى آخر الزمان " وجاء كتابه " التنبيه " أساساً لتفنيد ادعاء أحد علماء الطوارق من سكان منطقة " مغنغ " بأنه المهدي الموعود . وقال أن هذا المدعى بالمهدي يفقد الصفات الأساسية التى يجب أن يتصف بها المهدي . وأمر بإلقاء القبض عليه وإعدامه .

رفض الشيخ عثمان فى الكتاب نفسه أن يسند إليه الاتصاف بالفكرة المهدية . وقال : أن المهدي لا بد أن يأتى من نسل السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أي من أحفاد الرسول ، وأن يكون والده يحمل اسماً مثل اسم والد الرسول وتحمل والدته اسماً مثل اسم والدته الرسول ، وأنه سيولد فى المدينة المنورة . واستمر قائلاً : اعلّموا أيها الأخوة الكرام أنني لست الإمام الذى يدعى المهدي الموعود . وأننى لم أدّع المهدية ، إن ذلك ادعاء فاسد تناقلته السنة الناس بدون سند يحتج به . إننى حذرتكم مراراً وتكراراً فى بعض كتاباتي بالعربية والعجمية أن تمتنعوا عن تلك الادعاءات الكاذبة . كيف أدعى بأنى المهدي وأنا ممن ولدوا فى بلدة

"مرتاً" (٨). بينما سيكون الإمام المهدي مولوداً فى المدينة المنورة . وأردف قائلاً : لست المهدي الموعود والمنتظر على الرغم من أننى أرتدى ملابسه وأنا ذلك السحاب الذى سيسبق ظهور المهدي المنتظر ، تلك إذن هى صلة القرابة التى تربطنى به .

ونجد من ناحية أخرى أن الفكر السائد فى الغرب الإفريقي هو الاعتقاد بظهور المهدي فى مكة المكرمة على قرب قيام الساعة . وهناك سيلتف حوله بقية من المسلمين وينضم إليه عيسى بن مريم عليه السلام ويؤمنهم فى الصلاة، ثم يخوض المعركة الفاصلة ضد الكفرة الفاجرة . وعند ما ظهر الاستعمار الأوروبى فى بداية القرن التاسع عشر الميلادى اعتقد معظم المسلمين فى هذا الجزء من العالم ، أن الوقت قد حان للتوجه إلى مكة المكرمة استعداداً لاستقبال المهدي الموعود الذى يخوض المعركة المرتقبة ضد الدجال وأتباعه لأن الحياة الدنيوية لهذه النداءات فوصلت شريحة منهم إلى الأرض المقصودة؛ بينما ترسب الباقون دون بلوغ الغاية فى الطرائق شططاً . وذكرت بعض المصادر أن عدد أبناء غرب إفريقيا الذين وصلوا الى السودان الشرقى واستوطنوها قد بلغ أكثر من خمسة ملايين نسمة.

(٨) هى البلدة التى ولد فيها الشيخ عثمان بجمهورية النيجر .

ومن ناحية أخرى ، حمل الإيمان بقدوم المهدي بعض رجال الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا على الاعتقاد بأنهم هم المهدي الموعود . ومن ثم انقادت لهم جماعات بالانخراط في المجازفات التي أودت بحياة مئات منهم باسم الجهاد . فعلى سبيل المثال ظهر شخص يدعى الشيخ أمدو (أحمد) الذي ادعى بأنه هو المهدي الموعود وعرف بأمدو المهدي . وقد قام هذا الشخص في بلاد فوتا تورو بشمال السنغال بتأسيس مدينة "ورومهدي" أي مدينة المهدي ، شهدت تلك المدينة ويلات كثيرة من جراء ذلك في القرن التاسع عشر الميلادي إلى أن قضت عليه السلطات الاستعمارية الفرنسية وحطمت تلك المدينة ، كما وقعت مأسوية أخرى في عام ١٩٨١م في نيجيريا ، لاسيما في أشهر مدنها الشمالية انطلاقاً من كانو ، بقيادة الشيخ محمد مروا الملقب بمالم ميتسيني وقد عجزت الشرطة عن إخماد نيران تلك الفتنة إلا بتدخل رجال القوات المسلحة وسقطت ضحاياها عشرات المئات .

الفصل السابع

الجنس الفولانى واللغة الفولانية

يليق بهذا المقام أن أذكر بأن أي بحث جدي أو دراسة مستفيضة عن تاريخ الإسلام وانتشاره فى غرب إفريقيا ، لا تستكملان بدون إيماء الى الجنس الفولانى أو القبيلة الفولانية نظرا للأدوار الهامة والملموسة التى نهض بها أبناء هذا الجنس أو القبيلة فى تاريخ المنطقة وفى مجال الثقافة العربية والدعوة الإسلامية ومن بينها الأمور التالية :

أ- على أيديهم قامت أقدم إمبراطورية أو مملكة عرفت فى الغرب الإفريقى ، جنوب الصحراء الكبرى . وهى إمبراطورية التكرور ، نسبة الى مدينة حملت هذا الاسم (التكرور) منذ الألفية الأولى قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام . وقد اشتهر هذا الاسم على مدار تاريخ المنطقة عند المؤرخين والجغرافيين العرب والمسلمين . فلفظة "الفلاته" مرادفة للتكرور حتى أصبح أى إنسان ينتمى إلى الغرب الإفريقى يعرف بـ .. تكرور (المفرد) والجمع على تكارير (١) .

ب- على أيديهم قامت الممالك والإمبراطوريات التى تأسست باسم الإسلام فى منطقة الغرب الإفريقى . ولقد طبقت تلك الممالك والإمبراطوريات أحكام الشريعة الإسلامية ، مثل مملكة الإمام سليمان بال أى السليمانية

(١) راجع كتاب ممالك وإمبراطوريات غرب إفريقيا للبروفسيرين جى.تى. سترايد وس. أفريكا.

ومملكة الشيخ عثمان دان فودى التى تعرف أيضاً بالإمبراطورية العثمانية، ومملكة ماسينا التى كانت بقيادة الإمام أحمد لوبو والمملكة العمرية الفتوية التى نهضت فى القرن التاسع عشر الميلادى . كانت أولى تلك الإمبراطوريات الإسلامية هى التى أسسها الإمام ورجابى فى حوالى سنة ١٠٤٠ الميلادية .

ج- هو الجنس الجسور الوحيد الذى يربط بين الأجناس - العربى البربرى والزنجى من سكان الشمال الإفريقى وصحراء إفريقيا الكبرى .
اشتهر هذا الجنس بحياسة الثروة الحيوانية وبالتالى احتراف أبناؤه تربية الماشية بصفة أساسية . بذلك حازت القبيلة بشقيها "الفولبى والتوروبى" القوة الاقتصادية للمنطقة المعتمدة على تربية الحيوان والزراعة قبل العصر الحديث .

د- هو الجنس الوحيد ، من بين مختلف قبائل منطقة الغرب الإفريقى ، الذى ينتشر فى مناطق السودان الغربى والأوسط، انطلاقاً من جمهورية موريتانيا غرباً حتى جمهورية السودان شرقاً أى من المحيط الأطلسى إلى البحر الأحمر .

هـ- نهض أبناؤه بدور حيوى فى نشر الدين الإسلامى بين سكان غرب ووسط إفريقيا . كما نشروا ثقافة تحفيظ القرآن الكريم بين سكان المنطقة ذاتها . وهم الأكثر انقياداً لهذا الدين والأكثر إسهاماً فى نشر ثقافته من خلال الأدب التأليفى وعن طريق المأثورات الشفوية المنقولة فى إفريقيا جنوب الصحراء .

و- معلوم أن أبناء هذا الجنس هم أول من قاموا بالجهاد الإسلامى المسلح والمعلن فى منطقة الغرب الإفريقى ، دفاعاً عن هذا الدين الحنيف ضد طغيان الحكام والملوك الوثنيين الذين فرضوا بطش سيطرتهم ونفوذهم على الشعوب المستضعفة فى تلك المنطقة فأسقطوا أنظمة الحكم الطاغية وحرروا الشعوب المستضعفة المقهورة. كما حاربوا الالتباسات المصطنعة الدخيلة على الإسلام من بقايا الشرك والوثنية . وكذلك مقاومتهم للاحتلال الاستعمارى الإنجليزى والفرنسى والبرتغالى وثقافتهم التبشيرية المسيحية التى سجلها تاريخ المنطقة بأحرف من نور . وكانت التجربة القاسية والأشد ضراوة التى مرت بها السلطات الاستعمارية فى تاريخ الاحتلال هى مقاومة الإمامية العمرية الفتوية (١٨٦٢-١٩٠٣) . التى استمرت قرابة سبع سنوات. ولم تستطع القوات الفرنسية التغلب عليها إلا بعد وصول إمدادات وتعزيزات عسكرية من فرنسا والاستعانة ببعض القبائل المحلية التى جندتها تلك السلطات الاستعمارية الفرنسية . وتجدر الإشارة إلى أن الوضع البيئى للمناطق النائية التى كانت القوات العمرية متمركزة فيها بعيداً عن المناطق الساحلية الخاضعة لسيطرة سلطات الاحتلال ، قد حال دون تقدم قواتها نحو المعازل التى ينطلق منها الجيش العمرى .

نعود الآن بعد هذا العرض الموجز لنطرح تساؤلات طالما جاءت على ألسنة الباحثين وأقلامهم ، حول الأصل العرقى للقبيلة الفولانية . فمن هم الفولانيون ؟ نجمل فيما يلى مختلف الآراء عن الأصل

العرقى لهذه القبيلة قبل الدخول فى التفاصيل والوقوف على رأى
المراجع ، لقد قيل إن نسبهم راجع الى الأصول الآتية :

أ - قدماء المصريين .

ب- بنى إسرائيل ، أولاد يعقوب ابن نبي الله إسحاق عليه السلام .

ج- العرب - وصولاً الى أهل بيت الرسول صلوات الله وسلامه عليه ،
عن طريق فاطمة الزهراء ، نجلته الكريمة .

د- الحبشة سكان منطقة القرن الإفريقى فى شرق إفريقيا .

هـ - الهنود من الذين نزحوا عن شبه قارتهم الهندية إلى القارة الإفريقية
عبر المحيط الهندى والبحر الأحمر بحثاً عن العشب والأراضى الخصبة
للزراعة وتربية الحيوان .

و - البربر ، من قبائل شمال إفريقيا والصحراء .

ومن الواضح أن اختلاف المؤرخين حول نسب هذه القبيلة أو أصلها
يرجع إلى أسباب عدة أهمها :

قسمات الجسم والملامح الشخصية حيث يتميز الإنسان الفولانى
بطول القامة ونحافة القوام أو توسط الجسم ، والوجه المستطيل
والأنف المستدق واللون الفاتح أو اللون الأسود مع لمعان البشرة
واتساع مقلتى العينين . ويغلب على أبناء هذه القبيلة الحياء المفرط
وهدوء الطبع ونقاء الروح وعفة النفس وشدة الغيرة . وصفهم الرحالة
ابن بطوطة ، فى كتابه رحلة ابن بطوطة ، وجونسون فى كتابه

الإمبراطورية الفولانية وكذلك حسن إبراهيم حسن والرحالة بارث ، قائلين فى حملتهم : إن الفولانيين ، قوم شبه بيض سحتهم(٢) عربية ، يعتمدون دائماً على أنفسهم ويعملون غالباً بالرعى وعلى الخصوص رعى الأبقار . والجهاد تراث يعتزون به . وإنهم كثيرو الميل لبعضهم البعض عند المحن والشدة والحروب ، لا يرتبطون بأرض لا تعرف الإسلام بل يعملون لإدخال الإسلام فيها أو الهجرة منها فى حالة عجزهم . ويعيشون فى بلاد السودان منذ آلاف السنين ، وأنهم سريعو الانصهار فى المجتمعات التى يعيشون فيها . وفى الغالب ينسون لغتهم بعد انفصالهم عن الوطن الأم أو عشائريهم . فمثلاً يوجد فى نيجيريا أعداد كبيرة من أبناء هذا الجنس نسوا لغتهم الفولانية لكنهم احتفظوا بملامح شخصيتهم الفولانية .

تاريخ وأصل الجنس الفولانى :

ثمة أقاويل أسطورية كثيرة صدرت حول أصل هذه القبيلة . اتخذت هذه الأساطير وجوهاً عدة . أهمها :

أولاً - الأساطير الشعبية التى تقول : أ - هناك رجل طرده إخوانه من المجتمع الذى كان يعيش فيه حقداً عليه فأخذ يهيم فى غابات نائية ومنعزلة يعاني من الوحدة ويكابد ويلات العطش . فإذا بروحانى يظهر أمامه ويخرج من الأرض ماء ، يأمره بأن يغترف منه ويسقى به سائر حيوانات البر ، ونفذ

(٢) كتاب "الإمبراطورية الفولانية" لجونسمون .

الرجل تعليمات الروحاني إلى أن وصل الدور على البقرة ، عندئذ أمره الروحاني بأن يقود بقرته ويطوف بها في كافة أرجاء العالم المعمور ، شريطة أن لا ينسى إشعال النار عند غروب الشمس في كل مكان يحل به . بذلك ينعم بالثروة الحيوانية وينال السعادة السرمدية ويتخذ البقرة شعاراً ورمزاً له في الحياة الدنيا . وكان هذا الرجل هو الجد الأول للقبيلة الفولانية .

ب- هاجر سيدنا عمر رضى الله عنه من أرض مصر بعد فتحها متوجّهاً إلى مملكة ماسينا الفولانية بغرب إفريقيا وأدخل ملكها دين الإسلام . وبعد مرور وقت وجيز غادر سيدنا عمر المملكة وخلف وراءه صحابياً جليلاً يدعى عقبه بن ياسين ليواصل دعوة الناس إلى الإسلام . تزوج عقبه ابنة ذلك الملك فولدت له أربعة أولاد هم : (١- روريا . ٢- وانى . ٣- بوطوال . ٤- داتو) وتقلد كل واحد لقباً جديداً عرفوا به فأصبح روريا يعرف بـ باه (بالدى) واختار زراعة الأرز ، ووانى يعرف بـ سو واختار تربية الأبقار وفلاحة الأرض (بوطوال ويعرف بـ : جلولو إشتغل بالعلم ، داتو ويعرف بـ : ببرى واشتغل بالملك . ج- استوطن رجل عربي يدعى أبودا داي مملكة فوتاتورو شمال نهر السنغال ، وهناك اعتنق دين الإسلام وتزوج مسلمة أنجب منها أربعة أولاد . امتنع أحدهم عن الكلام لمدة ثمانية أشهر . وبعد ذلك بدأ يتحدث بلغة غريبة عن بقية أفراد عائلته الذين سألوا والدهم عن تلك اللغة . فقال إنها لغة جنس تنبأ النبى محمد صلى الله عليه وسلم بأن أبناءه سوف ينشرون الإسلام . وعندئذ تعلم بقية الأولاد اللغة الجديدة وانتشروا في مختلف أرجاء غرب

إفريقيا للدعوة إلى الدين الإسلامى .(٣) د- وقد ذكر الرحالة الإنجليزي ، كلابيرتون هوف الذى كان مبعوثاً للعاهل الإنجليزي، الملك جورج الرابع إلى السلطان محمد بللو أمير المؤمنين لدولة صوكتو ، أخبره أثناء الحديث الذى جرى بينهما فى سنة ١٨٢٦م: أن أصل الجنس الفولانى يرجع إلى بنى إسرائيل، أولاد نبى الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام . ومن ناحية أخرى ذكر السلطان محمد بللو فى كتابه "إنفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور" أن الصحابى عقبة بن نافع عندما نزل إفريقيا تزوج من بنات إحدى مناطق "فوتاتورو" تدعى "باجومانغا" أنجبت له أربعة أولاد ، وهم: ١- دوتى. ٢- ناس. ٣- ويا. ٤- أرابو. ثم عاد إلى موطنه الأصلي فى الجزيرة العربية تاركاً وراءه أولاده الأربعة مع أمهم، فنطقوا بلغة جديدة لم تكن معروفة لدى أهل المنطقة من قبل فأصبحت هى اللغة الفولانية، أى الفولفولدى .

ثانياً : وجهة نظر المؤرخين المسلمين .

جاء فى كتاب "الفلاته فى إفريقيا ومساهماتهم الإسلامية والتنمية فى السودان" تأليف الأستاذ الطيب عبد الرحيم محمد ، نقلاً عن كتاب "كنز الأولاد فى تاريخ الذرارى والأجداد" للمؤرخ محمد سامبو الكلوى المتوفى سنة ١٨٢٠م: هاجرت قبيلتا جهينة وتميم من الجزيرة العربية إلى الهند عقب فتنة "بخت نصر"، وذلك ما يبين عام (٢٠٠٠-٢٧٥٠) قبل ميلاد المسيح

(٣) راجع كتاب الشعب الراعى ل:جى.ع. هاريس. طبعة ١٩٦٥.

عليه السلام . ثم عادتا إلى الجزيرة العربية بعد إخماد نيران الفتنة . وكان مع قبيلة تميم الأبقار والسيوف وعلى رؤوسهم الطاقية ذات اللسانين، ومع قبيلة جهينة الأغنام . لكن نظراً لقلة المراعى واصلت القبيلتان هجرتهما إلى القارة الإفريقية حيث تتوافر المراعى . فسلكت قبيلة تميم طريق الشام إلى صحراء سيناء حيث استقرت فى طور سيناء فترة من الزمان بعدها واصلت الترحال إلى منطقة لىبى أى ليبيا الحالية . وسلكت قبيلة جهينة طريق اليمن إلى أن وصلت إلى منطقة لىبى حيث تعيش رقيقة دربها - ولكنها انتشرت جنوباً فى الوقت الذى واصلت فيه قبيلة تميم رحلتها إلى أقصى غرب إفريقيا والمغرب الأقصى حتى وصلت إلى أوداغست عاصمة إمبراطورية غانة(٤) القديمة التى تقع ما بين جمهوريتى مالى وموريتانيا وصحراء توات فى حدود جمهورية الجزائر حالياً . كانت هذه المنطقة خاضعة لنفوذ الروم - أى الإمبراطورية البيزنطية . فأطلق المؤرخون القدامى على هؤلاء العرب الذين استقروا هناك اسم الروم تجاوزاً . وقد عادت بعض الأسر من تميم مرة أخرى إلى موطنها فى الجزيرة العربية . ولما ظهر الإسلام ، قاد أحفاد هؤلاء العائدين حملة فتح غرب إفريقيا بقيادة عقبة بن نافع وبرفقته عقبة بن عامر التميمى وعقبة الجهينى وعقبة الهندى وغيرهم من المجاهدين رضوان الله وسلامه عليهم أجمعين . أسلم ملك الروم وهو

(٤) معناها أرض الملح بلغة أهلها .

ملك غانة ويدعى برمندانا بعد مقاومة ضعيفة وتزوج عقبة بن نافع من ابنة له تدعى باجومانغو التى ولدت له خمسة أولاد ذكور وبناتا واحدة هم :

- ١- عثمان تورو . ٢- محمد فولان . ٣- أبو بكر فلات . ٤-
- عمر درداو . ٥- على غردو . ٦- فاطمة شلفو/شافو .

ينتشر أحفاد هؤلاء الأبناء فى مناطق ما بين فوتاتورو حتى البحر الأحمر . فيسكن أحفاد محمد فلان بأغادس وتاوا وبلما والسودان الشرقى وشمال نيجيريا . ويطلق عليهم اسم الفلانيين والفلاته . ويسكن أحفاد أبى بكر فلات بلاد بورنو ودمغرام وحول حوض بحيرة تشاد ومالى والسودان الشرقى واريتريا ومصر . ويسكن أحفاد عثمان تورودو أرض ماسينا التى تشمل أجزاء من مالى وبوركينا فاسو وبنين . ويسكن أحفاد عمر درداو حول نهر السنغال وصحراء ماضى والسودان وتشاد واريتريا وتنبيكتو . ويسكن أحفاد فاطمة شلفو/شافو شفوولين هم من أبى رومى - أرض السودان وذلك حول مناطق الكبائيش وأرض الشايقية وكلبك يسكنون الكاميرون ، وتشاد واريتريا . وقد أنجب عقبة بن نافع من زوجته صفية بنت جعفر بن أبى طالب خمسة أولاد، وهم : (١) يزيد ، (٢) فولو، (٣) فيلا، (٤) غرغاو، (٥) حيدر . وينتشر أحفاد هؤلاء الأبناء أيضاً فى المناطق الواقعة بين المغرب والبحر الأحمر . وتزوج المجاهدون الذين رافقوا جيش عقبة بن نافع روميات وبنات من القبائل الأخرى . كما زوجوا بناتهم وأخواتهم إلى رجال من قبائل الروم والبربر فأنجبوا العديد من الأبناء والأحفاد . وكونوا الكثير من الفروع والبطون التى انضمت للفلاته

انضمام التزواج . ومن بين هؤلاء من لا يتحدث إلا اللغة العربية .
استشهد عقبة بن نافع وكثير من المجاهدين معه وتوفيت زوجته
بانجومانغو (ماريم) مخلفين وراءهم ذرية نشطة تنقسم إلى عدة عناصر
أهمها : ١- الفلانيون الأصليون . وهم أبناء عقبة بن نافع من أم
رومية . ٢- الفلاتة بنو العرب ، هم أبناء المجاهدين الذين رافقوا
حملة عقبة بن نافع إلى إفريقيا ويعتبرون أخلاطا من النوبة والعرب
والزنج الذين تم فتح بلادهم فاختلف أولادهم وتكلموا بلغة الفلاتة
فصاروا فلاتة . ٣- الفلاتة الجعفريون ، كما يسميهم محمد بللوفى
كتابه "إنفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور" ومحمد السامبو
الكلوى فى كتابه "كنز الأولاد فى تاريخ الزرارى والأجداد" بأنهم من
الفلاتة التوروبى انتساباً لجدتهم صفية بنت جعفر ابن أبى طالب. (٥)

ثالثاً : وجهة النظر الأنثروبولوجية :

الجنس الفولانى الذى يعتقد بأن موطنه الأصلي كان فى فوتاتورو على نهر
السنغال أو ماسينا فى مالى ، أثارت مسألة أصله العرقى كثيراً من الجدل بين
الباحثين والمحققين من المهتمين بتاريخ أمم غرب إفريقيا . غير أن ثمة بحثاً
قام به المؤرخ الشهير البروفيسير جورج ديتيرلين أسند فيه إلى اكتشاف عالم
الآثار الفرنسى هنرى لهوت . HENRY LIOTE وجود نقوشٍ عثر عليها فى
جدران كهوف فى الصحراء الكبرى، يرجع تاريخها إلى العصر الحديدي أي

(٥) انظر كتاب الفلاتة فى السودان للأستاذ الطيب عبد الرحيم محمد.

إلى حوالى الألفية الثالثة قبل ميلاد المسيح عليه السلام، مما يدل على أن الإنسان الإفريقى قد عاش حياة مزدهرة فى تلك المنطقة وفى ذلك الوقت قبل جفاف مياه الصحراء الكبرى وتآكل خصوبة أراضيها . وتحمل تلك النقوش صور السكان الذين كانوا يعيشون هناك ومعهم الأبقار التى كانوا يرعونها والتى يبدو أنهم كانوا يمجدونها. ويذكر الباحث أن لهؤلاء السكان ملامح جسمانية جدّ شبيهة بالملامح التى تتميز بها الشعوب الفولانية فى عصرنا هذا. فبات من المرجح أن يكون الأصل العرقى للشعوب الفولانية راجعاً إلى أولئك القوم فى تلك الآماد الغابرة ، ومن ثم فهم الأجداد الأوائل الحقيقيون للجنس الفولانى .(٦)

ومن ناحية أخرى، يذكر لنا كتاب "ألف سنة فى تاريخ الغرب الإفريقى" الذى تضمن عدة بحوث تاريخية بأقلام عديد من الباحثين والمؤرخين وحققه الأستاذان / أيان ايسبى وجى. ف أدى. أ. ، أن المؤرخين والباحثين المعاصرين قد توصلوا ، فيما يبدو، إلى اتفاق عام فى رأى حول أصل الجنس الفولانى، مفاده أن الموطن الأصلى لهذا الجنس يقع فى ماسينا (جمهورية مالى) أو /فوتاتورو (شمال السنغال). إن هذا الرأى الأخير هو الرأى التقليدى السائد وإن قبائل الجزء الشمالى الغربى للقارة الإفريقية هم بيض من رعاة

(٦) انظر العدد "٣٦" لمجلة المجتمع الإفريقى الصادرة باللغة الفرنسية فى عام ١٩٦٦ ميلادى ص ٢٨-٧: من باريس.

الماشية يقطنون المناطق المتاخمة لأودية السنغال الوسطى، قامت باكتساح المناطق الجنوبية بحثاً عن المرعى حتى وصلت إلى هضبة فيرلو (FERLO) أى منطقة فوتاتورو جنوباً وغرباً . ومع مرور الوقت شهدت تلك المنطقة تدفق جماعات مهاجرة من البيض للاستفادة من خصوبة الأراضى الجنوبية فى تربية الحيوان والزراعة مع الاستيطان التدريجى . وبمرور الوقت، أصبحت هذه الجماعات المهاجرة منقطعة الصلة ومنعزلة جغرافياً عن بقية قومهم فى أقصى الشمال الغربى، وباتت تابعة سياسياً لدولة فوتاتورو التكرورية فى الجنوب. وأدى اختلاط الجانبين الزنجى والبربرى إلى تولد أجناس جديدة من البشر وكذلك اختلاط أجناس مختلفة من الحيوانات الى تولد أجناس الماشية فى تلك المنطقة ونمت اقتصاديات المنطقة كماً وكيفاً . وتطورت ، نتيجة لذلك، أنماط ثقافية ولغوية وعرقية جديدة مخالفة للأصول العرقية التى كانت تتميز بها كل من الجماعتين قبل اندماجهما . بيد أن الغالبية العظمى من الجانبين لا تزال تحتفظ بملامحها الجبلية الأساسية إلى حد كبير ، مثل نحافة الجسم واستدقاق الأنف وبياض البشرة ... الخ ، مع وجود اللغة والعادات والتقاليد المشتركة بينهما، فأصبحت المجموعة الأولى تعرف بالفولانيين الرعاة وأصحاب الثروة الحيوانية بينما تعرف الثانية بالفولانيين الفوتيين الذين يمارسون الزراعة وأنشطة الدعوة الإسلامية . وتجدر الإشارة إلى أن هذا التقسيم قائم فقط على سبيل المثال لا الحصر . فقد يزاوّل فرد أو جماعة من أحد الطرفين أنشطة الطرف الآخر . كما أن التمايز المشار إليه آخذ فى

التلاشى التدريجى بفعل التزاوج والاندماج مع مرور الزمان . وقد انتشر هذان النوعان من الجنس الفولانى ، انطلاقاً من منطقتي ماسينا وفوتاتورو إلى أرجاء السودان الغربى مكتسحاً المناطق المجاورة ووصولاً إلى البحيرات الكبرى فى وسط القارة حيث تشير بعض الآراء إلى أن قبيلة التوتسى التى تقطن مناطق الجنوب الغربى للقرن الإفريقى تنتمى إليهم أيضاً . ورافق هذا الانتشار تعاطم الازدهار والإنماء الاقتصادى مع زيادة النمو السكانى، خاصة بعد القرن الحادى عشر الميلادى عندما انهارت إمبراطورية غانة (٧)

إذن يتضح لنا من واقع هذا التحليل الانثربولوجى أن الجنس الفولانى قد تواجد أثرياً وبيئياً واجتماعياً وتاريخياً فى غرب إفريقيا منذ بدء تاريخ المنطقة. وعن موطنهم الأصلى أقول إن رأى المشهور هو أنهم نشأوا فى أول الأمر فى منطقة فوتاتورو . وهو رأى علمائهم . وهم أول من كتبوا حول هذا الموضوع كما ذكر محمد بللو دان فودى ، فى كتابه "إنفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور" نقلاً عن علماء فوتاتورو . غير أن ثمة باحثين محققين متأخرين من بينهم الأستاذان جى. و. هونويك وجى. ايس. تريمينجهام يرجحون أن تكون منطقة ماسينا هى الموطن أو المنشأ الأصلى للجنس الفولانى ، وذلك لأسباب عدة . أهمها : أ - توجد أغلبية الشعب الفولانى بهذه المنطقة التى تحتفظ

(٧) يقدر عدد الفولانيين فى الوقت الحاضر بحوالى ثلاثين مليون نسمة منتشرين فى المناطق المشار إليها.

بالمواصفات والمميزات الأصلية السالفة الذكر. ب- أن اللهجة اللغوية الفولانية الموجودة بها هي الأكثر فصاحة وأصالة، وهي التي لم تختلط بأية لهجة أو لغة محلية أخرى ، أو إذا كان هناك أى اختلاط فهو بنسبة أقل بكثير بالمقارنة باللهجات الفولانية الأخرى . ج- الاكتشاف الأثري الذي تم مؤخراً للنقوش الرسمية للأجداد الأوائل للجنس الفولانى فى منطقة ماسينا التى يرجع تاريخها إلى حقبة ما قبل التاريخ . إذ يدل الاكتشاف على كون الموطن الأصلي لهذا الجنس هو تلك المنطقة . د- الرأى القديم الذى يرجع أصل القبيلة الفولانية الى منطقة فوتاتورو ، لا يعتمد على الحقيقة التاريخية لأنه يسند أصل الشعب الفولانى إلى الصحابى التابعى الجليل عقبة بن نافع (٨) مما يومئ إلى أن الجنس الفولانى ظهر فى القارة الإفريقية بظهور الإسلام فيها فى القرن الأول للإسلام أى فى القرن السادس لميلاد عيسى عليه السلام. غير أن العوامل العرقية والبيئية والاجتماعية واللغوية للشعب الفولانى تدل دلالة قاطعة على أن وجود الجنس الفولانى فى القارة الإفريقية سابق بكثير لفتح الإسلام لهذه القارة . فالقبيلة الفولانية كما هى حتى هذا التاريخ هى أكبر قبيلة إفريقية من حيث التعداد والانتشار والتشعب . ولغتها هى أقوى اللغات الإفريقية الأخرى من حيث الفصاحة والدقة وكثرة المرادفات . ولاحتوى إلا على نسبة

(٨) هو عقبة بن نافع بن عبد القيس بن لقيط بن عامر بن أمية بن الضرب بن الحارث بن بني محارب بن فهر القرش . ولد على عهد الرسول عليه السلام. لذا كان من التابعين.

قليلة جداً من مفردات اللغة العربية أو أية لغة أجنبية أخرى ، اللهم إلا المصطلحات الإسلامية . بيد أن كون منطقة ماسينا هى المنشأ الأول لهذا الجنس ، لا يعدو أن يكون ذلك بسبب حركات الهجرة من وإلى أودية فوتاتورو ، خاصة إذا علمنا أن تلك المنطقة كانت غنية بخصوبة أراضيها الصالحة للزراعة وتربية الحيوان عبر القرون ؛ الأمر الذى شجع القبائل الأخرى المجاورة ومن شمال القارة على الإقبال على الهجرة صوب الجنوب والاستيطان بها والاندماج مع القبائل الأصلية والامتزاج بها . والله أعلم .

التسمية :

يطلق الشعب الفولانى على أنفسهم اسم "بولو" POLLO للمفرد و"فولبى" للجمع . ويعرفون عند المؤرخين العرب بـ "الفولانى أو الفلاتى" للمفرد و"الفولانيين والفلاتيين أو الفلاته" للجمع . كما يعرفون عند المؤرخين الفرنسيين بـ: "بيول" PEUL - للمفرد و"PEULS" للجمع . ويطلقون على لغتهم " فولفولدى أو هالابولار" . ومن المرجح أن يكون أصل التسمية قد جاء من كلمة "بول" بمعنى كتلة جماعية أو من كلمة فولادى أو فولتادى ، وترادف كلمة فردى "أو" فرغول" بمعنى الهجرة ، باللغة الفولانية . من الواضح أن رأى الثانى الذى ينطوى على كثرة التنقل من مكان إلى آخر هو الذى يتمشى وصفة أنشطة رعاة الأبقار ومزاولة تربية الحيوان عموماً التى انطبعت عليها حياة الشعب الفولانى وعاداته .

العشائر الفولانية :

اعتاد المؤرخون الفولانيون فى موطنهم الأصلي على أن يقسموا جماعاتهم إلى أربعة بيوت أسرية أو عشائرية تنتهى كلها بأصلها إلى الجد الأعلى المشترك . وعن هذه العشائر الأربع تفرعت سائر الفصائل الفولانية الأخرى المنتشرة فى أرجاء العالم المعمور . وتحمل كل عشيرة لقباً مميزاً لأبنائها . ولهذه الألقاب الأربعة مرادفات تستخدمها القبائل الأخرى المجاورة تتعرف بها على أفراد هذه العشائر . وهذه الألقاب هى :

اللقب اللقب المرادف اللقب بالحروف اللاتينية

١- برى/بارى سنجرى/سانجرى BARI

٢- جاللو جاللو JALLO

٣- باه جاكيتيه BAH

٤- صو سيديبى SOW

ويسقط معظم أبناء الجنس الفولانى فى الوقت الحاضر هذه الألقاب. سيما الذين يعيشون فى المهجر . فيكتفون بالانتساب، فى التسمية ، إلى البلدان أو القرى التى ولدوا فيها كابراً عن كابر . أو يكتفون باستخدام الأسماء الثلاثية . أى اسم الشخص والأب والجد ، تمشياً مع الأعراف الإسلامية وإنفتت الألقاب المذكورة لديهم مع مرور الزمان . ولم يتمكن، على وجه التحديد ، من الوقوف على معانى لغوية لهذه الألقاب أو تاريخ بدء استعمالها. غير أننا نعرف أنّ الأجداد الأوائل لهذا الجنس كانوا يقدسون بعض

الحيوانات البرية والأليفة ويعتقدون في تأثر أرواحهم وترابطها بأرواح تلك الحيوانات قبل العصر الإسلامى . كما يمجّدون السجايا الحميدة ، مثل : الشجاعة والكرم والذكاء والصبر والإخلاص وبشاشة الوجه إلى آخره . فكانوا يستخدمون ، على وجه الاستعارة الأحرف الأولى أو أكثر لأسماء الحيوانات الشجاعة والقوية ، مثل : الأسد والنمر ، أو صفة من الصفات الحميدة في تركيب تلك الألقاب على سبيل المثال قد تكون كلمة "بارى" أو "بريه" مشتقة أصلاً من اسم أو صفة الأسد وكلمة "جللو" دالة على الإنسان الكثير الابتسام أى البسام وتكون الكلمة "صو" من تشوسال أى الشجاع . وثمة ألقاب تتعلق بخدمات مهنية اجتماعية أو صفة شخصية ، مثل لقب "سيسى" يتقلده الفقيه أو عالم الدين، بغض النظر عن انتمائه العشيرى أو العائلى . والكلمة مشتقة من كلمة "تشسينيطو" أى الانسان المتأنى أو الحذر . وكذلك لقب "ديككوه" أى البطل (٩) .

الجنس التوام لل فولانى :

يشكل أبناء منطقة فوتاتورو الواقعة فى الشمال الغربى لجمهورية السنغال، الجزء التوام للجنس الفولانى . ويعرفون بالفوتيين نسبة إلى بلادهم الأصلية وهى فوتاتورو أو فوتاجللو . أو فوتا بوندو أو فوتا مللى (١٠) .

(٩) يختلف هذا اللقب عن اسم "ديكو" أو "ديكوجو" الذى تحمله البكر من البنات.

(١٠) تقع اليوم فى السنغال ومالى وغينيا ونيجيريا والكاميرون.

يعرف واحد منهم^(١١) ب : فوتنكى أو توروطو . ويجمع على فوتنكوبى
أو توروبى . كما يعرفون أيضاً بالتكرور ، نسبة إلى دولة قديمة قامت فى
المنطقة تحت هذا الاسم منذ العصر الحديدي، أى الألفية الأولى قبل ميلاد
السيد المسيح عيسى عليه السلام . وقد اشتهرت إمبراطورية التكرور عند
المؤرخين والجغرافيين العرب القدامى حتى أخذوا ينسبون أى إفريقى من الغرب
الإفريقى إلى تلك الدولة. فالفوتيون هم فولانيون من حيث النشأة واللغة
والعادات والتقاليد . بل قيل إن موطنهم - فوتا تورو- هو المنشأ الأصلي للقبيلة
الفولانية كما ذكرنا آنفاً . غير أن المؤرخ الإنجليزى جى.ايس. تريمنجهام
يصفهم فى كتابه "تاريخ الإسلام فى غرب إفريقيا قائلاً : لا شك فى أن
الملاحم الجسمانية واللهجة اللغوية تدل على أن قبيلة "التكرور" أى "فوتا" منبثقة
عن قبيلة "سيرير وسركوللى" السنغالية . وأن هذه القبائل الثلاث ومعها قبيلة
"أولف" السنغالية مشتركة فى أصل واحد . وأن قبيلة التكرور هذه قد سبقت
غيرها من القبائل الأخرى الموجودة فى المنطقة الى الدخول فى دين الإسلام .
ويتميز أبنائها بنشاط الدعوة الى الإسلام ونشره فى الغرب الإفريقى وغيره .
وقامت دولتهم الثانية فى المنطقة منذ القرن التاسع الميلادى بينما كانت الأولى
فى الألفية الأولى قبل الميلاد ، وأدى ازدهار تلك الدولة إلى الانتعاش
الاقتصادى والاجتماعى فى المنطقة . كما شجع تدفق قبائل البربر من سكان

(١١) باللغة الفولانية.

الصحراء الكبرى وغيرها من القبائل المجاورة على القيام بهجرات نحو منطقة فوتاتورو والاستيطان فيها. وللقبيلة الفوتية، كغيرها من قبائل المنطقة، فصائل يتقلد أفرادها ألقاباً خاصة بهم . من أشهرها :

اللقب	اللقب بالحروف اللاتينية
١- أورو	AW
٢- باه	BAH
٣- بال	BA L
٤- جاه	JA H
٥- ديم	DEM
٦- كان	KAN
٧- سل	SAL
٨- تال	TAL
٩- وان	WAN

وهناك ألقاب أخرى مشتركة بين أبناء القبيلة الفوتية وأبناء بعض القبائل الأخرى التي توجد في المنطقة ذاتها. وفيما يلي أمثلة للألقاب المشتركة :
جيوب JOUB وهان HANE وسى SY وسيلا SILA إلى آخره .

النظام الاجتماعي :

يقوم المجتمع الفولاني في الغرب والوسط الإفريقيين على نظام طبقي اجتماعي موروث . إذ لا يختلف هذا النظام عن الأنظمة الاجتماعية المألوفة لدى معظم القبائل المجاورة له . وهى مبنية على عنصرين مميزين هامين . هما العنصر العرقي الطبقي والعنصر القبلي . إذ ميلاد الفرد هو الذى يحدد مكانته الاجتماعية . وهذا يعنى ، بالطبع أن الفرد ، فى المجتمعات الفولانية لا يتزوج إلا من الطبقة الاجتماعية الكفوة بغض النظر عما قد يكون عليه هذا الفرد من الثروة أو العلم أو المركز الوظيفي أو أية مميزات اجتماعية أخرى . وبهذه الطريقة يستطيع الإنسان الفولاني أن يحافظ على استمرارية أصله العرقي ومكانته الاجتماعية . أما العنصر القبلي فهو القاسم الذى يفرض على الشخص الفولاني معرفة التسلسل التاريخي الذى يوصله الى الوقوف على جدّه الأول الأعلى ، فيجوز له عندئذ استعمال أحد الألقاب المشار إليها والذى كان يحملها هذا الجد الأكبر ويتوارثها الأبناء فالأحفاد نزولاً . وتعرف هذه الألقاب باللغة الفولانية ب: يتورى أو يتودى (للمفرد) ويتوجى (للمجمع) ، كما تطلق عليها كلمة جمورى أيضاً . (١٢)

(١٢) هذه الأخيرة ليست كلمة فولانية ، إنما هى من لغة البامبرا أصلاً .

النظام الطبقي :

تحتل طبقة "ريمبي" (الجمع) أى الأحرار والمفرد "ديمو" أي الحرقة سلم التشريف فى المجتمعات الفولانية. ويعتز كل من ينتمى إلى هذه الطبقة بنفسه، حيث يتولى أصحاب هذه الطبقة قيادة مجتمعاتهم فى أوقات الحرب والسلم، لأنهم أسياد القوم ولهم حق امتلاك أكبر مساحة من الأراضي الزراعية فى أوطانهم. كما يتسمون فى أغلب الأحيان بالثراء فى الماشية ويحتكم الناس اليهم فى حالة وقوع خلافات أو نزاعات. ويقومون بتسيير الشؤون الادارية العامة لرعاياهم. ويعلق أبناء هذا الجنس أهمية قصوى على مسألة حرية الأصل، إذ يزعمون -وفقاً لمعتقداتهم التقليدية- أن الله سبحانه وتعالى شرف الجنس العربى بأن أنزل القرآن بلغتهم وبعث منهم خاتم الأنبياء والرسل وشرف الجنس الوروبى بالقدرة على الابتكار الصناعى والهيمنة على علوم الكون. كما شرف الجنس الفولانى بحرية الأصل وعزة النفس. إن الحرية فى عقيدتهم لا تنحصر فى حدود الحسيات الجسمانية، بل تتعمق لتشمل جوهره النفس البشرية. فهى أصيلة قائمة بذاتها. فالإنسان الحرّ الحقيقى هو الذى رافقته النفس الحرة منذ خلقته الأولى حتى مرحلة الولادة والموت. وفى حالة ضعفه أو قهره جسمانياً تظل النفس الحرة متمردة وأبية ترفض الاستسلام للعبودية والانقياد لنفوس أخرى دونها. ويطلق على هذه النفسية الأصيلة الحرية كلمة "ديماغو" باللغة الفولانية، وعلى مثل هذا ينعكس قول

الشاعر العربي المتنبي: "عش عزيزاً أو مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود" (١٣) فاطلب العزّ في لظى ودع الذل ولو كان في جنان الخلود".

ويمتد هذا الإطلاق ليشمل الحيوانات الشديدة الألفة بحياة الفولانيين مثل البقرة والحياد - فالبقر الحرّ والشجاع هو الذى تنقاد له سائر رؤوس البقر فى الحظيرة وهو الذى يصارع صياده بلا هوادة ويسالم راعيه الذى يفتخر به ويريد دوماً أن يكتسب منه النوع. ويطلق عليه اسم "كالهادى". أما الأحصنة الحرة الأصيلة فهى التى يعتمد عليها فرسانها فى كل الحالات، لا سيما أثناء الحرب. ففارس الجواد الحرّ الذى يطلق عليه اسم "ديماغو" المفرد و "ديماجى" للجمع يسوقه فارسه إلى ساحة الحرب وهو مطمئن ، فإذا انتصر يكون للجواد فضل كبير لبسالة روحه وصموده أمام العدو . وإذا تأثر الفارس بجرح شديد يخمله الجواد عائداً به إلى بيت عائلته للتداوى . وفى حالة سقوط الفارس وموته فى ساحة المعركة يفر الجواد الحرّ مسرعاً إلى بيت عائلة الفقيد، ويكثر من الصّهاى والضجيج ليشرح أهله بأن مصاباً جليلاً قد وقع ، لأن فارسهم ذهب إلى ساحة الاقتتال حيث استجاب للقدر ولبنى نداء المنية فلم يعد للأصدقاء ورفقاء الحياة . عند سماع صيحات الجواد يخرج المستضعفون من الرجال والأطفال والباقيات من النساء المستخلفات، بواكى المناحات اللواتى يخلطن بكاءهن بزغاريد تمجيد أرواح الشجعان وتهليل

(١٣) القنا هو الرمح والبنود هى الرايات.

الاستغفار من هنا وهناك. وبالنسبة لقبيلة فوتا - الجزء التوأم للجنس الفولانى، فإن فصيلة "توروبى" هى التى تحتل مكان الصدارة. ذلك لأنهم يحترفون مهنة التفقه فى الدين ومنهم يكون العلماء والأدباء. ويقابلهم حملة لقب "سيسى" بين الفولانيين الآخرين الذين يتصفون بالتفقه فى الشريعة وتحفيظ القرآن الكريم أو تلاوته وجوانب أخرى من الثقافة الإسلامية الأساسية.

التقسيم الطبقي لهذا المجتمع :

يمكننا فى هذا المقام أن نوجز التقسيمات الطبقية للجنس الفولانى منذ القدم على الوجه التالى :

أولاً - طبقة "ريمبى" RIMBE "أى الأحرار .

تضم هذه الطبقة الملوك ويليهم العلماء أو الفقهاء . أحيانا تندمج الطبقتان وتصبحان طبقة واحدة. حيث يكون الملك هو نفسه الإمام والقاضى إذا كان من أهل العلم . ومن ناحية أخرى أصبحت الكلمة "توروجو" التى تدل أصلاً على فولانى فوتاتورو، تطلق على كل من يزاوُل أنشطة الدعوة منهم . وتطلق كلمة "توروبى" للدعاة بغض النظر عن الفصيلة الأصلية التى ينتمى إليها الداعية . وبالمثل يوجد من الجاليات الفوتية التى يقوم أبناؤها بتربية الحيوان ورعاية البقر بجانب العمل الزراعى .

ثانياً - طبقة جاومبي "JAWAMBE" (الجمع) (١٤)

جاوندو "JAWANDO" (المفرد) . وهى التي تلي طبقة "ريمبي" فى السلم الطبقي الاجتماعى . وأبناءؤها هم أيضاً أحرار لكن بدرجة أقل من طبقة "ريمبي" . ذلك لأن انتماءهم إلى الجنس الفولانى من ناحية الأم فقط دون الأب . وهناك علاقة مزاح مداعبية قائمة بين أبناء الطبقتين أى "الريمبي والجاومبي" . وأشير بهذه المناسبة إلى أن مثل هذه العلاقة المداعبية استهدفت دوماً إزالة الحرج الاجتماعى الذى قد يتواجد بين الأفراد أو القبائل أو الجماعات الاجتماعية المعنية أثناء الحديث أو الكلام العادى . ويخلو الشخص فى إطار هذه العلاقة من الشعور بالحرج أو المضايقة لدى مخاطبته أحد أفراد القبيلة أو الطبقة أو الجماعة المقابلة لقييلته أو طبقته أو جماعته . وبالمثل يلتزم الفرد المخاطب (بفتح الطاء) بهدوء النفس وعدم إبداء أى غضب أو الانفعال إزاء كل ما يصدر من الشخص الممازح من التجريح اللفظى أو الصراحة المرة . ويعتبر كل ذلك ضرباً من ضروب علاقات تثبيت وتحسين العلاقات الودية وإزالة الخلافات الأسرية والعائلية بين الأفراد والجماعات فى التاريخ الإسلامى لأمم غرب إفريقيا .

(١٤) هم فى مالي .

كما تتميز هذه العادة بقيام أحد طرفي المزاح لا سيما أبناء الأعمام بدفع نوع من الجزية الرمزية فى مناسبات سنوية ، لا سيما الأعياد . إذ تعتبر هذه الجزية الرمزية تجديدًا للتعهد بالولاء . وتعرف باللغة الفولانية :

DANDIRAJE دنطراجى

DEWANEL أو ديونيل

وفى أوساط الناطقين بلغة الهوسا ب : كوطن شارا (١٥) Kudin Shara إذ تنحصر المجموعات والأفراد الذين يخضعون لأحكام علاقات المزاح المداعبية المذكورة فى الآتى:

أ- القبائل التى كانت متحاربة ثم انتهت إلى عقد الصلح والمصالحة فيما بينها لسبب من الأسباب، ومن ثم وقف حالات العداء والمجازر والاختتالات القبلية الدامية بين شعوب الغرب الإفريقى .

ب- أبناء العمومة أو الخالات والأخوال . وهم الذين يجوز التزواج فيما بينهم فى حكم الإسلام . ويتمثلون فى الأصناف التى ذكرها القرآن فى قوله تعالى :

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ يُؤْتِكُمْ أَوْ يُتَوَاتَرُ آبَائِكُمْ أَوْ يُتَوَاتَرُ

(١٥) الكلمة جاءت من كلمة العاشوراء أى اليوم العاشر من شهر المحرم الذى أنجى الله فيه موسى وقومه من فرعون ، وأمر الرسول المؤمنين بصيامه تطوعًا.

أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ يُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ يُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ يُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ يُيُوتِ
عَمَّاتِكُمْ أَوْ يُيُوتِ أَخَوَالِكُمْ أَوْ يُيُوتِ خَالَاتِكُمْ..» (١٦).

ج- الأجداد والأحفاد . تتم ممارسة هذه العادات المداعبية بين ابن
الابن أو بنت الابن أو ابن البنت أو بنت البنت ، وبين والد الأب أو والدته
ووالد الأم أو والدتها أو بمن فى حكمهم .

د- وعلاوة على علاقة المزاح المداعبية ، ثمة علاقة مجاملة تختص
بها القبيلة الفولانية . وتعرف عندهم ب : فساغو أو فسادى أو باسو

FASAGO, FASADE, PASO.

ويقولون للأصحاب المترابطين بعروة هذا العلاقة:

بسير ابى (PASERABE الجمع) وبسيراطو (PASERADO المفرد).
وهى علاقة قائمة بين أبناء الطبقات الاجتماعية المتكافئة . ويقضى هذا
النوع من علاقات المجاملة بضرورة مراعاة بعض الاعتبارات فى معاملة
الزميل الكفاء طبقياً أو اجتماعياً . وتوضيحاً لهذه الفكرة نذكر أن هناك
مثلاً فولانياً يقول : (ونافسفو فسو نمتمما "WANA FASO FU FASO")

NAM TAMA"

أى : ليس كل زميل متكافئ يراعى لك حقوق التكافؤ . ويأتى هذا
المثل انتقاداً لتصرفات بعض الناس الذين يتهاونون فى مراعاة حقوق
المجاملة لمستحقيها . وفى مجمل القول نذكر أن هناك ثلاثة أنواع
أساسية لعلاقة المزاح المداعبية فى الثقافة والعادات الفولانية . وهى :

(١٦) الآية : ٦١ من سورة النور .

١- دينديراغو : DENDIRAGO هى علاقة المزاح المداعبية العامة التى توجد بين الأفراد والجماعات لسبب أو أكثر من الأسباب المذكورة آنفاً . فيقال :

"دينديرابى" (الجمع) أصحاب المزاح ودينديراطو (المفرد) . فتقول :
"كوأوديندام" . أى هو قرينى فى المزاح . "كومى دينديكو" أى أنا قرينه
فى المزاح . كومن دينديرابى أى نحن أصحاب المزاح والمداعبة .
"كو أون دينديرابى" أى أنتم أصحاب المزاح والمداعبة . وهلم جرا .

٢- غنديراغو GENDIRAGO ، ويقوم مثل هذا النوع من علاقة
المزاح فقط بين زوجات أبناء العائلة أو الأسرة أو بين هؤلاء الزوجات
والأخوات أو الإخوان الصغار لأزواجهن .

٣- فساغو/باسو (FASAGO / PASO) يقال لأصحابها "بسرابى
(للجمع) وبسراطو" (للمفرد) وأقول : (أوبسوام أى هو قرينى للمجاملة
وأقول : (مى بسومكو) أى أنا قرينه للمجاملة .. الخ : وكما قلت سابقاً،
إن عادة "فساغو" هى نوع من المجاملة تتم بين الأفراد الذين ينتمون إلى
الطبقات الاجتماعية أو المهنية المتماثلة والمتكافئة فى الرتب والاعتبارات
أو الامتيازات الأخرى .

إذ يتعين على الأفراد الأطراف فى هذه العادة ، مراعاة بعض اعتبارات
تشريفية وتكريمية أثناء التعامل مع زميل من الطرف المقابل . مثلاً
يستحسن أن يختار الإنسان الفولانى زوجته من بنات عمومته أو أخواله أو
خالاته . وفى حالة تعدد الزيجات ، يستحسن أن تكون الزوجة الأولى من
هؤلاء الأقارب . ومثال آخر ، كأن يتقدم أكثر من شخص فى طلب
زواج من بنت معينة.

وعندئذ ينتظر من البنت أو أهلها أن يختاروا من بين المتقدمين الراغبين فى الزواج منها شخصاً يكون كفواً لها إما من حيث مهنة أفراد العائلتين أو حرفتهم أو عشيرتهم وما إلى ذلك . وتعتبر هذا مجاملة تشريفية أو تكريمية لأفراد الطرف الآخر . هذه الأمور ليست إجبارية أو ضرورية لازمة ، وإنما هى أمور طوعية اختيارية بحته ، لكن لهذه الممارسات فلسفتها ومزاياها الاجتماعية والأخلاقية الاستراتيجية . إذ يعتقد أصحابها فى أنها توفر الحماية للعائلة أو العشيرة أو القبيلة . لأن بوجود هذا النوع من الزواج المتكافئ يصعب لعدو أجنبى اختراق صفوف العائلة أو العشيرة أو القبيلة للتواطؤ والخيانة ضدها ، خاصة فى أيام الحروب الأهلية أو القبلية كما يضمن الحفاظ على السلوكيات الحميدة وآداب المعاشرة التى طالما تباهى بها أبناء هذا الجنس ، والتى تختصر فى الكلمتين الفولانيتين الآتيتين :

أولاً : "دارتاغو" أى الاستقامة . ويقال للشخص المستقيم "درتيطو" (المفرد) و"درتبيى" (للمجمع) أو "درتيجو" باللهجة النيجيرية . ومن هذه الكلمة اشتقت الكلمة أو الهوسوية "داتيجو" المستعملة لنفس المعنى .

ثانياً : "بولاكو" وهى اسم المعنى لجوهر الفكر أو المعتقدات . وبهذا المعنى تجاوزت التسمية نطاق المسميات ذات المدلولات المادية لتشمل معانى السلوكيات والتصرفات . "فالبولاكو" التى اشتقت من الكلمة "بولو" POLLO (المفرد) أى الإنسان الفولانى ، تعنى ، باختصار آداب المعاشرة أو السلوكيات الحميدة . وقد جاء فى

الكتاب : وصية للشيخ عثمان دان فودى أن كل إنسان انضم إلى جهاده المعلن ضد الوثنيين الكفرة سواء أكان من الأصل الفولانى أم لا ، فقد أصبح بحكم هذا الانتماء فولانياً لأنه مدافع عن السلوكيات والأخلاق الحميدة(١٧). نعود الآن إلى الحديث عن طبقة "جاومبى" .

ليس لأبناء هذه الطبقة (جاومبى) أية لغة أخرى غير اللغة الفولانية ضمن شريحة العادات والتقاليد الفولانية الأصيلة وقد لعب أبناء طبقة "جاومبى" أدواراً حيوية فى التشكيل السياسى للممالك والإماميات الفولانية التى قامت فى غرب إفريقيا . وفى عهد الشيخ أحمد بن محمد لوبّ، ملك مملكة ماسينا ، كان كبير مستشاريه السياسيين هو برايما كليلو (إبراهيم خليل) وكان من أصل "جاومبى" . وقد اشتهرت الأدوار السياسية التى قام بها "جاومبى" فى تاريخ الممالك الفولانية فى ذلك العهد . وكانت هناك أسطورة فولانية تقول إن الشيخ أحمد بن محمد لوبّو المذكور ابتهل داعياً الى الله سبحانه وتعالى وراجياً منه أن ينعم على مملكة ماسينا بشخص يناصر مليكها - أى الشيخ نفسه فى الحكم ، عن طريق إسداء النصيح وتقديم المشورات الحكيمة ، فاستجاب له الله ورزقه بمجىء جاوندو برايما كليلو الذى كان سياسياً محنكاً . وكان ملوك ممالك الفولانية يعتمدون على "جاومبى" فى مساعى تحقيق الصلح والمصالحة فى حالات نشوب خلافات سياسية أو قبلية أو عائلية أو أسرية ،

(١٧) راجع كتاب وصية الشيخ عثمان دان فودى الآنف الذكر .

وهم قرناء علاقة المزاح المداعبية لأبناء طبقة "ريمبي" . ورغم أن "جاومبي" هم فولانيون ، فإنهم يتمتعون بدرجة تشريفية أقل من درجة "ريمبي" كما سبق أن ذكرت .

ثالثاً - طبقة "سبي" (الجمع) وتشطو (المفرد) يمثلون الدرجة الثالثة في النظام الطبقي للمجتمع الفولاني . ويحمل أبناء هذه الطبقة أسماء ومفاهيم مختلفة بين الفولانيين في بلاد ماسينا ونظرائهم في بلاد فوتاتورو ، فهم يحترفون مهنة صيد الاسماك أو التجارة في بلاد ماسينا . وهم الذين يعرفون هناك : بمركا بي (الجمع) و "مركاجو" (المفرد) . ويطلق عليهم في أوساط قبائل "البامبرا" اسم "بوزو/سومو" "سر كولي" للتجار ، ولهم فروع استوطنت في السنغال .

رابعاً - طبقة "نيانبي" ("NYANBE" الجمع) و "نينيو" "NYENYO" (المفرد) تشكل الطبقة الرابعة . ثم تليها طبقة العبيد "الماتشوبي" "MACCHUBE" في السلم الطبقي للمجتمع الفولاني . أو "غالونكوبي" (الجمع) و غالونكي (المفرد) . وتنقسم الأولى "نيبي" إلى الفئتين التاليتين :
(أ) أصحاب الحرف والمهن التقليدية الموروثة ، وهم :

باللغة العربية

باللغة الفولانية

المفرد	الجمع
١ - الحدادون / الصّناعة	بايلو
٢ - الدباغون	غرنكى / سكيجو
٣ - النّحاتون	لابو
٤ - الحزّارون	هوساجو / بوشي
٥ - النساجون	تشيونو
	لوبي
	هوسابو / بوشيبي (١٨)
	تشيونوبى

ب- تتشكل الفئة الثانية من طبقة "نيبي" من المغنين والمدّاحين وعازفي القيثارات والآلات الموسيقية الأخرى ، ويعرفون بأسماء مختلفة حسب نوع الغناء الذى يقومون به . ويعرفون "بمابوبى" (الجمع) و"مابو" (المفرد) أو "ألوبى" . ويطلق على المدّاح :

١ - "غولو - GAWLO" (المفرد) . و يكون ملماً بسلسلة تاريخية عن الآباء والأجداد للشخص الذى يمتدحه التماساً لعطاياه . لذا بات من الضروري أن يكون لكل عشيرة أو مجموعة محددة من العشائر "غولو" أو "ألوبى" خاصون بهم . حتى يكونوا عارفين بتاريخ من يتسولون عليهم .

ويجوز أن يستعمل المدّاح الطبل ، وهو نادر ، ولكن الغالب هو الاعتماد على الإنشاد بالمديح الشفهي .

(١٨) كلمة مستعارة من اللغتين الفرنسية والإنجليزية . (BUTCHER)

٢- "بامباطو BAMBADO" (المفرد) و"بامبايى" أو "وامبايى" (الجمع) . وهم أيضاً مدّاحون ومغنون أو شعراء فى آن واحد . ويستعمل "بامباطو" آلة موسيقية تعرف ب : "هوددو" (المفرد) و "كولى" (الجمع) أو "نياطيورو" (المفرد) و "نيايوجى" (الجمع) . وهى آلة وترية العود . وهم المدّاحون أصلاً للأبطال فى ساحات المعارك . وجاءت الكلمة من "بامبودى" أى الحمل على الظهر . الذى هو السند التشجيعى لمن يخوض المعركة ضد الأعداء . ويقوم "بامباطو" بتمجيد البطل والثناء عليه قبل القتال وأثنائه وبعده .

٣- "جاروتوطو" "JAROTODO" (المفرد) و "جاروتوبى" (الجمع) . هم الشعراء لا سيما الذين يقرضون الأشعار الدينية ، هذا خلاف الأشعار والقصائد أو المنظومات الدينية والأدبية التى يقرضها الأدباؤ أو الفقهاء باللغة الفولانية والعربية . وجدير بالذكر أن هذا النوع من الأدب الدينى الشعبى لعب دورا حيويًا فى إذكاء الوعى بالثقافة الدينية الإسلامية بين شريحات المجتمعات الفولانية فى غرب إفريقيا .

٤- "جيتو/أسكينو" "JETTOWO/ASKINOWO" (المفرد) و"جتتوبى/أسكينوبى" (الجمع) .

هم أيضاً مداحون ، لكنهم فى الغالب لا يستخدمون آلات العزف الموسيقية أثناء ممارستهم مهنتهم الموروثة . هذا ويوجد إلى جانب هؤلاء

وأولئك فئة "غرينوبى" GARBINOBE (الجمع) (١٩) و"غرينوو" GARBINOWO (المفرد) وهم المتسولون الذين غلب عليهم الدهر وأجبرتهم قساوة ظروف الحياة على اللجوء إلى تلك المهنة غير المشرفة بمدلول معانى القول النبوى المأثور : "اليد العليا خير من اليد السفلى". لعبت طبقة "نيبى" بفئاتها المختلفة أدواراً أساسية وحيوية فى الحفاظ على المعلومات التاريخية عن الجنس الفولانى وعن الأدوار التى قام بها فى نشر الإسلام . وكان أبناء هذه الطبقة هم حفظة تاريخ المنطقة عن طريق التراث الشفهى المنقول . إذ يقومون أثناء الاحتفالات بالعقائد وعقود الزواج والمآتم أو فى مجالس الملوك والحكام، بسرد تلك المعلومات التاريخية والترفيهية ، كوسيلة للتسلية أو إثارة الحمية وإشعال حماس المقاتلين بالإقبال والإقدام على خوض المعارك .

النظام الأسرى / العائلى :

١- يشكل الفرد - فى المجتمع الفولانى الذى يماثل معظم المجتمعات الإفريقية المسلمة التى تقع فى جنوب الصحراء - النواة الأولى والأساسية لتلك المجتمعات حيث يقع عليه عبء تكوين أسرته بدءاً باختيار شريكته فى الحياة ، أى الزوجة . فكيف يتم هذا الاختيار ؟ يتم اختيار الزوجة باتفاق ينهض به أهل طرفى الزواج حيث يكون الفتى والفتاة دون سن اتخاذ مثل هذا القرار بأنفسهما . وفى الخطوة الأولى يمضى نفر

(١٩) أونياغو (المفرد) نياغوتوبى (الجمع) .

من أهل الفتى يتكون ، فى الغالب، من عماته وأخواته الكبريات إلى أهل الفتاة يحملن معهن هدايا كنوايا حسنة وتحية وسلاماً ، يطلق على هذه الهدايا اسم "جور تغول" أو "جوتورى" إعراباً عن عزم عائلتهن ورغبتها فى طلب يد ابنتهم . يتم هذا الإجراء فى وقت يكون قد سبق تحديده فيما بين الطرفين . بعد ذلك ينهض أهل الفتاة برئاسة والدها ووالدتها يبحث جواز وصلاحيّة تزويج ابنتهم للفتى الخاطب من وجهة نظر التكافؤ الطبقي . وإذا كان الفتى ممن ينطبق عليهم شرط تكافؤ الزواج من تلك العائلة ولم تسبق خطبتها لشخص آخر ، عندئذ تطلع الفتاة إحدى عماتها أو خالتها على نبأ إقدام سيد عائلة الفتى على طلب يدها كزوج لأحد أبنائه ، مع الإشارة الى اسم الخاطب ، بعد تشاور يكون قد جرى بين كبار العائلة لأن الخاطب والمخطوبة هما "ديكرابى" أى متكافئان ويصلح الزواج فيما بينهما وإذا لم يكن ثمة أى مانع طارئ أو أية همسات اعتراض من جانبها ، وهو الغالب فى أمرها ، ذلك لأنها خاضعة لأحكام تقاليد العائلة وعاداتها القاضية بأن لا يكون لها خيار فى عظيم شأنها يناقض ما يتوصل إليه رب العائلة وحاشيته فى تعيين شريكها فى الحياة ؛ إذا كان الحاصل هو ذاك يكون الفتى قد استوفى شروط المضى قدما فى تنفيذ إجراءات لاحقة مستهدفاً استكمال العرس فى المجتمعات الفولانية . وليست الفتاة أوفر حظاً من هذا الشريك فى المستقبل من حيث إبداء الرأى سلباً أو ايجابياً إزاء ما يقرره كبار عائلته فى هذا الأمر الجليل الشأن . هذا هو المصير المائل فى حكم الأقدار لما يحياه العروسان ويموتان عنه لحاقاً ولموروثات الخلف من السلف الذين

لم يكونوا أقل تأثراً بالأضرار المجهولة ولا أقل براءة ، ولا أكثر ضحية لتلك المصائر المحتومة التي تفرضها هذه العادات والتقاليد الفولانية . ومن هذا المنطلق وبدافع مفاخر تحكيم العادات والتقاليد، يوجه رب العائلة دعوة إلى وفد عائلة الخاطب يستحضره لإبلاغه بالرد على مطلبهم ، إما بالرفض أو بالموافقة . وفى الوقت ذاته يكون الخبر المفرح والمشجع قد تسرب إلى مسامع الطرف المقابل بواسطة سماسرة الأخبار الذين يتكونون ، غالبا من فئة المداحين الذين يسترزقون من ممارسة مهنة السمسرة فى الأخبار وهى المهنة التى يستفيد منها العدو والصديق على حدّ السواء .

٢- ومن ثم تدخل عائلتا العروسين مرحلة الجد فى اجراءات النكاح التى تبدأ بتحديد قيمة المهر المناسب وهو ما يعرف باللغة الفولانية بـ : "فتى" . وأقل قيمة لهذا المهر المعتبر فى المجتمع التقليدى بالبيئة الفولانية هو زوج من العجول الذكر والأنثى اللذين يطلق عليهما أصحاب العادات والتقاليد . بلغتهم الفولانية "انغارى" للعجل و "نيلى" لأنثاه. وقد يتجاوز المترفون المقندرون من أثرياء القوم هذا العدد حيث يصل إلى خمس عشرة بقرة أو يزيد . ويتم عقد النكاح حتى بخاتم من الفضة أو بآية من الذكر الحكيم . غير أن القيمة التقديرية الرمزية لهذه المهور تختلف بين أسرة وأخرى تمشياً مع القيمة التقديرية للفتاة المخطوبة من وجهة النظر التقليدية ، وما إذا كانت بكرًا "سورباجو" أو ثيبًا "غورتالو" بلغة القوم . ويحبذ أهل الفتاة أن يتم تسديد المهر المحدد دفعة واحدة ما أمكن ذلك . ولا يستقبحون تقسيطه على مراحل فى حالة

تعذر الاختيار الأول . ويعلن المهر وقدره أمام الحضور يوم عقد الزواج .
ويطلق على مرسوم الزواج بـ : "كورتوغو" للمفرد و "كورتوغوجى"
(الجمع) . وهو يوم احتشاد الجماهير فى بيت أهل الفتاة أو فى المسجد
الجامع أو أمام بلاط الملك لإشهاد الناس على ما تم من أمر الفتى والفتاة
بموافقتهما على مواجهة الحياة كشريكين . وثمة هبة خاصة تستحقها
الفتاة المخطوبة من مخاطبتها وهى رمزية .. شكلاً ومضموناً يسمونه
"سفندى" أى "كوطن كى" بلغة الهوسا . وتختلف هذه الهبة عن المهر
المسنون وتكاليف الكسوة والأمتعة التجهيزية اللازمة .

٣- باجتياز هذه المرحلة يصبح الفتى طرفاً مباشراً فى إجراء عقد
النكاح . إذ يقوم بمرافقة لفيف من أصحابه بزيارة أهل زوجته المقررة
 وإهداء عجلين ذكرين آخرين ، أحدهما إلى أم عروسه "انغارى انا" والآخر
لأبيها "انغارى بابا" إسهاماً منه فى الاستعدادات التى تقوم بها عائلة
العروس لإعداد الأطعمة فى يوم عقد النكاح والزفاف يستقبلون بها
الضيوف المستقدمين من الأقرباء وغير الأقرباء الذين ينزحون إلى بيت
عائلة العروس للاشتراك فى حفل عظيم الشأن فى تاريخ الفتاة والفتى .
ومن يوم تقديم الفتاة الهدايا الإسهامية الماثلة فى العجلين يصبح ذلك عادة
سنوية .. يكرم بها الفتى أهل زوجته فى الأعياد الدينية، لا سيما عيد
الأضحى أى العيد الكبير . لكن يجوز له فى تلك المناسبات الدينية
اللاحقة أن يكتفى بأن يهدى إليهم كبشاً ثميناً واحداً يبعث على السعادة
والسرور . وبذلك المبادرة الأولى تقوم علاقة المصاهرة "اسراغو" بلغة

القوم بين العريس "سورباجووركو" وعائلة عروسه "سورباجوودبو".
ويستحي الإثنان ، من حينه أشد الاستحياء أن يقرب أحدهما من الآخر
تحت أنظار الأناس الآخرين حتى ولو فى إجراء الأحاديث المباحة إلى أن
يتم عقد النكاح الشرعى بين الاثنين علناً وإشهاد الناس عليه . وتكون الفتاة
أشد استحياء وأكثر حرصاً على أن لا يقع منها أى شىء يعد عاراً لا سيما
بكارتها التى تعكس شرفها الأولى والأساسى وشرف والديها وافتخار أفراد
عائلة زوجها برمتهم . ويأمل كل منهم ، وهى أكثر أملاً فى أن يتم نقلها
الى بيت زوجها سالمة وآمنة ، لكى تحظى بثقة زوجها فيها وبمزيد من
محبه واعتماده عليها فى طور حياتهما الزوجية اللاحق . وتستطيع بذلك
أن تشدد قبضتها العاطفية على وجدان حبيبها الجديد من التو وللأبد .
وللأهمية القصوى التى تعلقها الفتاة الفولانية على مسألة بكارتها ثمة
أهازيج موروثة تناقلتها ألسنة الفتيات الفولانيات عبر تاريخ مجتمعاتهن
التقليدية لتشجيع أنفسهن على ضرورة المحافظة على شرف أنوثتهن . ألا
وهو تلك البكارة مهما يكلفهن ذلك من التضحية . ومن هذه الأناشيد أو
المقولات المأثورة ، القطع الشعرية التالية :

بنددا بجبنا : بتشودا بتورا

دينو ، بينى : كوى بومبى (٢٠)

(٢٠) المفرد : بومبرى .

أى :

من حسن حظ فتياتنا .. أن حملن فى بطون أمهات
شريفات بوضعهن .. ثم زوجنهن أيضاً
بشرف ووجدن .. فيقال لهن أنتن أبكار

ومن ناحية الفتى يكثر كل الاكتراث بالأيدى سلوكاً يخل بشرفه
ومكانته المرموقة لدى تلك العائلة التى وهبت له زوجا من بناتها . وان
يتحلى بأخلاقيات ويلتزم مواقف تصون له تلك المكانة المرموقة والشرف
الموفور فى أنظار تلك العائلة وبمنزلتها فى بيئته الفولانية . يعود الفتى
ورفقاؤه من زيارتهم إلى بيت أصهاره ، بعد بضعة أيام إذا كانت المسافة
بين مكاني العائلتين بعيدة .

لكن إذا كانت العائلتان فى بلد أو قرية واحدة تكون عودة العريس
ورفقائه فى نفس اليوم . ومن تاريخ تلك الزيارة يصبح لازماً على الفتاة
والفتى أن يكتنأ لأهليهما الاحترام البالغ المتبادل دوماً . فكلما التقى الفتى
بأحد والدى زوجته أو كليهما أو بمن يكون بمنزلتهما يتعين عليه الإسراع
إليه وخلع نعليه والانحناء أمامه ليلقى عليه تحية وسلاماً . ويعتبر عاراً كل
عار إن هو حاول مصافحة هذا الصهر باليد .

٤- ومع تخطى المراحل السابقة تدخل إجراءات العرس طوراً حرجاً
بتحديد يوم الزفاف الذى يطلق عليه أصحاب تحكيم العادات والتقاليد
الفولانية "ينغى" (المفرد) و "ينغيجى" (الجمع) . وفى هذا اليوم يرتجف
قلب أم الفتاة وأبيها خوفاً من أن يأتيهما مكروه من طرف ابنتهما يمسّ

شرفها الأثوى . كما يضمران أملاً مكتوماً فى نفسيهما فى أن ينقضى
نهار الزفاف وليله بخير وأمان . وفى أن يجدها زوجها الحديث العهد
بحياتها بكرةً ، كما يتوخى أن تكون فى أطيب حال أثناء لقائه إياها
ليلة الزفاف العظيمة الخطر ، وأن تكون بعيدة عن أثر لمسات الشيطان
الرجيم الذي يخشى أن تكون الفتاة قد وقعت فريسة له من جراء
غوايات الطفولة الضالة قبل التقائها الشرعى بهذا العريس، أو أن تكون قد
وقعت ضحية انحراف خلقى مشؤوم . ففى أوساط أولئك الحيارى فى أمر
الفتاة الفولانية المقبلة على الزواج المحتوم المبكر ، وقبل حلول تاريخ
العقد المحدد بوقت وجيز أى بحوالى ثلاثة أيام أو أسبوع واحد وفق
اقتدارات متباعدة تتوجه اثنتان أو ثلاث من أقرب صديقاتها إلى منزل
عائلتها للزيارة ويبادرنها بأحاديث اعتيادية بدون إشعارها بأن ثمة
مهمة خاصة تكمن وراء تلك الزيارة الفجائية . وفى الوقت نفسه تكون
هناك امرأة عجوز وطبال يحمل آلهه يتربضان بالفتاة . وفى ذلك
الوقت يتسرب إلى نفسها الشعور بقلق مريب يساورها بحافز الحلس
الربانى أثناء جريان هذه الأحاديث المزعومة مع رفيقاتها الزائرات . غير
أنها مغلوبة على أمرها لأنها وقعت فى تلك الآونة فى كمين محكم ،
لا حيلة لها ولا قوة أمامها . فإذا بتلك المرأة العجوز المختبئة تفاجئ الفتاة
المغلوبة على أمرها بينما هى جالسة وسط الرفيقات وتلقى على جسمها
قطعة من الحناء المعجنة (بودى) "بلغة أهل تحكيم العادات والتقاليد
الفولانية . وعلى التو تهجم تلك الرفيقات عليها ، هن الأخريات يدلكن
سائر جسمها بذلك الحناء . فى حينه يظهر الطبال ويضرب على

آلته وتتوالى زغاريد النساء من هنا وهناك معلنة أن مراسم الزفاف قد بدأت . وبتلك الإشارة التقليدية يحتشد أولاد الحارة وبناتها من بعيد وقريب أمام منزل أهل الفتاة التى باتت عروساً . وفى طور الإعداد لانتقالها إلى منزل زوجها ، وبمرور وقت وجيز وتوالى ضجيج الطبول وزغاريد الرفيقات، تحضر ربات البيوت وسيدات الحارة وبنات خالات الفتاة وأخوالها وعماتها من الفتيات والأخريات للاشتراك فى حفل الرقص الشعبى الجارى على دقات الطبول حتى منتصف الليل عندما ينفض الجميع .

٥- يتم عقد الزواج فى اليوم المحدد الذى يطلق عليه القوم: "ينغى كورتوغو" فى أحد الأماكن المذكورة سابقاً . فى يومه يقوم إمام المسجد الجامع أو من ينوب عنه بإعلان المهر المقدر على الفتاة أمام الحضور . ويتلو شروط النكاح المسنون بأركانه الأربعة . أى الطلب والموافقة والمهر والشهود العدول . ويتلو عليهم مستوجبات النكاح وفضائله بمدلول آيات قرآنية وتوجيهات الرسول ، عليه أفضل الصلوات والسلام . ثم يختتم بأدعية ويطلب إلى المشايخ الآخرين أن يسهموا بإسداء النصائح العامة . وتختتم جلسة البساط هذه بتلاوة فاتحة الكتاب والصلاة على النبى عشر مرات عملاً بالقول المأثور عنه ، عليه أفضل الصلوات والسلام . ثم يقوم المقاتلون التقليديون القدامى بإطلاق نار البنادق البارودية والمدافع فى الهواء يعلنون بذلك عن النصر المحقق فى شأن الزواج . وتنتقل العروس الى مسكن زوجها فى آخر ذلك النهار أو بعد صلاة العشاء أو بعد ذلك

بليال وجيزة ، حسب استعدادات العريس وعائلته من حيث تجهيز البيت الذى يستقبل فيه عروسه . وتقوم نساء ، غالباً من الطبقة الاجتماعية الثالثة فى حكم العادات والتقاليد الفولانية ، يترأسهن أحد كبار عائلة العروس ، ويكون صديق والدها فى الغالب، بمرافقتها إلى بيتها الجديد حيث يستقبلهم نظراؤهم فى نفس التشكيل والطبقة من عائلة العريس لأن العروسين متكافئان فى الزواج بمنطوق العادات والتقاليد الفولانية .

٦- لا يكون جانب العريس وعائلته وأصدقائه وأخواته أقل نشاطاً واهتماماً مما ألفه جانب العروس فى ذلك اليوم العظيم فى تاريخ العائلتين وابنيهما المقابضين فى عروة الزواج وأصبح الاثنان يعرفان ب : سورباجو غوركو (العريس) وسورباجو ديو (العروس) بلغتهما القومية . وبعد انتقال الفرح إلى بيت العريس وقيام أفراد عائلته باستقبال عروسه والمرافقين لها ، لا سيما أختها أو أخواتها الصغيرات وصديقاتها وخادماتها (نيمبى) ، يقوم العريس بذبح ثورين أو ثور واحد أو كبشين على الأقل تكريماً للزوار والمرافقين للعروس . هذا ما يعرف عندهم ب : "غوسى" . ينتهى هذا الحفل فى اليوم الثانى من تاريخ انتقال العروس الى بيتها الجديد . بعد ذلك يغادر الجميع تاركين العروس فى كفالة زوجها . وبعد مرور أسبوعين أو ثلاثة أسابيع يعد العريس موكباً يضم لفيماً من أصدقائه وأصحابه راكبين على خيولهم الأصيلة المختارة التى أسرجوها وألجموها بسروج والأجمة ملونة ومزخرفة لامعة وبراقة . وللخيل مكانة خاصة فى الأعراف الفولانية . اذ يقدرون ويمجدون التشكيل اللونى للخيول . ويعتبر الشخص الذى

يمتلك الخيل المطهمة محظوظاً أى "ملاطو". ويتباهى بتلك الهبة الربانية
فى أوساط قومه: وفيما يلي أسماء ألوان الحيوان :

الوصف الاسم بالخروف اللاتينية

١- تشاجو (ج-تشاجى **CHAJO** ذات اللون الأبيض للجبهة
والأرجل الأربع) .

٢- كو (ج-كوى **KOW** ذات اللون الأبيض أو الأسود الفائق
للجبهة)

٣- كونغورو (ج-كونغورى **KONGORO** ذات اللون الأسود
الفائق للجسم كله) .

٤- بولو (ج-بولى **BOLO** ذات اللون الأحمر الفائق للجسم كله) .

٥- بريوو (ج-بريوى **BARIWO** ذات اللون الأبيض الفائق للجسم
كله) .

ويستحسن بهذه المناسبة أن نذكر الأوصاف الأساسية للبقر أيضاً.
وهذه الأوصاف هى :

الاسم الاسم بالخروف اللاتينية الوصف باللغة الفولانية

١- سومي (ج-تشومى **SOOME** ذات اللون الأبيض الفائق للجسم
كله) .

٢- دومارى (ج-دومار **DUMARE** ذات اللون الأبيض للجبهة
والجزء العلوى للظهر) .

٣- داكى (ج-دكى **DAAKE** ذات اللون الأبيض عند الرقبة) .

٤- توددا (ج-تودى **TODDE** ذات النقاط اللونية المشككة) .

٥- تريكاي (تريكى **TREKAYE** ذات اللونين الأسود والأبيض
الغليظين) .

٦- يتوجه موكب "سورباجو غوركو/جونبا جو غوركو" العريس والنفر المرافقون له والمكون من لفيف من أصحابه المقربين لابسين أزهى ثيابهم وهم على ظهور خيولهم المفضلة والأصيلة "ديماجي" (٢١) يتوسطهم بطلهم "سورباجو" يتوجهون لهجين بالضراعة ولسان الشكر إلى بيت عائلة العروس "سورباجو دبو" / جونبا جو دبو" أى أصهارهم ليعربوا لهم عن بالغ التقدير والشكر والامتنان . ويتلقى الموكب ، لدى الوصول إلى البيت المقصود ، عظيم الترحاب والحفاوة من قبل أفراد عائلة العروس الذين يكونون على أهبة الاستعداد لاستقبال ضيوفهم أولئك بفارغ الصبر والتطلعات الخيرية. ويعود الفتى والموكب المرافق له إلى مقر إقامته المستديم بعد انقضاء فترة زيارته التشريفية إلى أصهاره لياشر الحياة الزوجية العادية الطبيعية ويواجه ظروف الحياة الكادحة وفق الحكمة الفولانية الماثورة :

١- "جنغى" أيها القوم تعلموا.

٢- دورى" أيها القوم ربوا المواشى.

٣- "ديمى" أيها القوم ازرعوا الأرض.

ليس للفتى بعد الآن عدا اختيار أحد المجالات المهنية المشار إليها أو الجمع بين اثنين منها أو الانخراط فى الثلاثة معاً سواء بالتبعية أو الاستقلال حسب الفرص السانحة والمتاحة له من الموهبة والاسترشاد التوجيهى

(٢١) المفرد "دماغو" .

والاقتدار المادى . وإذا كان الفتى ممن كتب لهم سودد الانتماء إلى بلاط الحكم باحتكام العادات والتقاليد الفولانية سواء بالتبعية أو الأصالة ، فإنه يتعين عليه الالتزام بمبدأ ذلك الانتماء الذى ينحصر فى النصائح الثلاث الآتية :

٢- "تاككو" التزم جانب البلاط بعدم مخالفته أبداً .

٣- "توككو" التزم صفة التبعية والطاعة دوماً .

٤- "هوتوتيككو" ولا تبد علامة الغضب والاغتيال أبداً .

٨- يتجاوز الفتى الفولانى طور الشبيبة الطائش "كايجو" ويدخل طور الكهولة المسترشد "باليكى" فى بيئته الفولانية . آنذاك يحتسب له الوزن فى اعتبارات الأعيان وفى توجيه شؤون البيئة . ومن تلك الساعة تسرى عليه تسمية "جونغللى" أى رب الأسرة وعلى زوجته "جونسودو" أى ربة البيت . كما تطلق عليها وعلى ضرائرها إن وجدن ، التسميات الفخرية التالية وفق الترتيب التاريخى لانضمام كل منهن إلى أسرة "جونغللى" .

١- "جيو/جيكيل" باعتبارها الزوجة الأولى .

٢- "لمبيل" باعتبارها الزوجة الثانية .

٣- "لمبيطيل" باعتبارها الزوجة الثالثة .

٤- "نيويرطو" باعتبارها الزوجة الرابعة .

يكون "جونغللى" فى هذا الحال من بين الذين يرغبون فى الاستفادة بحكمة التشريع الإسلامى السنى الخاص بتعدد الزوجات ، كما يستحسن أن يكون هو أحد طوال الباع القادرين على الامتثال للعدل المادى

المطلوب فى تصريح الأحكام بين الزوجات وعلى الإنفاق بحقوقهن المشروعة والابتلاء بالبلاء المائل فى تلك الممارسة بعينها فى تلك البيئة. إذ يتلى "جونغلى" ببلاء حسن عندما ينعم الله عليه فيرزقه أبناء ذكورا وإناثاً فيختار لهم الأسماء الإسلامية التقليدية المقتبسة من صفات التفاؤل أو من بين أسماء أنبياء الله ورسله وملائكته الكرام أو كتابه العزيز أو من بين أسماء الصالحات الطيبات من جدات وأمهات المؤمنين أو اسم الحرمين الشريفين ، فيقول للذكر : مكى أو مدنى ، وللأنثى : مدينة ، إضافة إلى ما يلزمه كل طفل أو طفلة من الأسماء الفولانية المدرجة فى سلم الموجودين فى تاريخ أسرة "جونغلى" . وهذه الأسماء هى كالاتى :

أولاً - أسماء أبنائه الذكور :

١- المولود الأول (البكر) = حمادو / أفو / كولا .

٢- المولود الثانى = سامبا / سامباجو / سامبو .

٣- المولود الثالث = يايرو / يرو .

٤- المولود الرابع = باتى / باتيه .

٥- المولود الخامس = دمباه .

٦- المولود السادس = انجوبو / انجوبو .

ثانياً - أسماء الإناث :

١- المولودة الأولى (البكر) = ديكو / ديكوجو / فانتا (فاطمه) .

٢- المولودة الثانية = كومبا .

٣- المولودة الثالثة = بندو/بندا.

٤- المولودة الرابعة = دادو.

٥- المولودة الخامسة = جنسجى/جنجودو/جنجدو.

أما المولود الأخير أى الأصغر فى الأسرة، سواء ذكراً كان أو أنثى فيطلق عليه أو عليها اسم "كوّدو" وهى تسمية مشتركة بين الذكر والأنثى وعكسها "أفو" للبكر سواء الذكر أو الأنثى . وكذلك توأمين يطلق عليهما "فونوبى" والواحد منهما "فونيجو" أو "فونى" .

ويجوز تكرار هذه الأسماء من أولها اذا تجاوز الأبناء المولودون هذا العدد . وثمة أسماء للتفاؤل (يلا) أو التظاهر بالتشاؤم أو التطير أملاً فى أن ينقلب معنى التشاؤم المتضمن فى الاسم إلى الخير المرجو المضاد . ومثال ذلك المرأة الشكلى "باراطو" PARADO التى تفقد مواليدها تعتمد إلى أخذ مولودها الجديد ووضعه فى المكان المخصص للنفايا بضع دقائق ثم يطلق على المولود اسم "ديجيرى DIJERE" أى محل نفايات ، اعتقاداً فى أنه سوف يكتب له بذلك طول العمر . أما أسماء وصفات التفاؤل "يلا" فإنها تستخدم فقط للأفراد دون الطبقة الرابعة أى "نيانمبى" NYANBE أى الأقلية المبعثرة التى لا زالت على معتقدات الفطرة ولا تدين بالإسلام عقيدة وعملاً بحكم الجهل المتفشى وللابتعاد عن الحضارة العصرية ولغلبة الحياة البدوية عليها فى حلها وترحالها . ولهذه الأقلية شعوزات شفهية خرافية تلجأ إليها لمصارعة الكوارث ونوازل الدهر وإزالة الآلام ومحاولة

التغلب على الطبيعة . تعرف هذه الشعورات ب : "تشوفى" CHOFFE
بلغتهم أى النفث . ويطلق عليها فى بعض الأوساط الفولانية "ساركولى".
وهى عبارة عن ألغاز يزعم أصحابها بأنها من كلام الجان والشياطين.
يتكون "شوفى" من الكلمات المتقطعة التالية يتلوها صاحبها ثلاث مرات
وينفثها فى عقد حبل عند ربطه ، يكرر هذه التلاوة على ثلاث حلقات
حبلية (مقودية) متباعدة ثم يشدها . وبعد ذلك يضع المقود فى المكان
المقصود لقضاء حاجته . وهذه الكلمات هى : "ياتجو- ماتاجو- هاجا-
موس موسى" .

وفيما يلى بعض أسماء التفاؤل التى يستخدمها أفراد هؤلاء الوثنيين من
هذه القبيلة : "جام" السلام "كاوطو" شديد البأس، غيطال "النصيب"
"جوطوما" المعمر ، "ملل أو ملاطو" المحظوظ، و"كورسطو" المحبوب
إلى آخره . وتجدر الإشارة إلى أن هناك من المسلمين من أبناء هذه القبيلة
الذين لا يرون ضيرا فى الاحتفاظ بهذه الأسماء إضافة إلى ما يتقلدونه من
الأسماء الإسلامية .

٩- ويتخطى جونغلى "مرحلة" الكهولة المسترشدة "باليكاكو" بعد
عمر مديد حافل بتقلبات السؤدد ومحن الابتلاء ، ليدخل مرحلة
"نواكو أو نايوال" أى الشيخوخة المستقيمة حيث تتجلى فى بصيص
أبصاره حقائق عن الحياة وتجاربها الكادحة . فعرف أنها حقائق
تختلف عن أنماط الحياة التى طالما مال إليها فؤاده فى مرحلتى
الطفولة والشببيه "كيبجو" اللتين اجتازهما . أصبح "جونغلى" يعرف من
توه ب : "غوركو موطو" أى الرجل الكبير ، إجلالاً له بحكم السن
وزوجه "جونسودو" تعرف هى الأخرى ب : "دبوموطو" أى

السيدة الكبيرة . أخذ "غور كوموطو" يتأمل فى مسيرات الحياة وعواقبها
ولسان حاله يتعظ بالعبرة الماثلة فى مصداقية قوله تبارك وتعالى فى محكم
كتابه العزيز :

أ- «لَقَدْ كُنْتَ فى غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ
الْيَوْمَ حَدِيدٌ» (٢٢)

ب- «اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ
وَتَكَاثُرٌ فى الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ» (٢٣)

ج- «وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ» (٢٤)

د- «إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ» (٢٥)

١٠- يجلس "غور كوموطو" متربعا ومتكئا على شجرة وارفة الظلال
ليعاود تلك التأملات مرة تلو الأخرى . ويريد أن يستخلص درساً ثابتاً عن
حقيقة الحياة التى تحيط بالفرد فى مجتمعه الإنسانى فلم يجد أصدق مما

(٢٢) الآية : ٢٢ من سورة ق .

(٢٣) الآية : ٢٠ من سورة الحديد .

(٢٤) الآية : ٢٠ من سورة الحديد .

(٢٥) الآية : ٣٦ من سورة محمد .

لخصها كتاب بارئ الإنسان فى وجيز قوله تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ (٢٦)

فعرف أن عمر الإنسان لا يبرح دائراً فى فلك أطوار أساسية ثلاثة هى : طور نمو أولى متسم بالضعف الجبلى والاتكال على الغير ، و طور وَسَطى متسم بالكهولة ومتميز بالقوة والنشاط البدنى ، ثم طور شيخوخة متدهور بفعل العلل والانتقاص من كمال الإنسان . شرحاً وتوضيحاً لمحتوى تلك الآية من الذكر الحكيم يستدعى "غور كوموطو" أبناء العائلة ليلقنهم بعض أقوال الحكماء فى بيئتهم الفولانية حول الإنسان وأطوار حياته . فيبدأ قائلاً : اعلموا أن الإنسان هو بطل هذه الحياة ومحور العناية الربانية فيها . وعلى هذا الإنسان أن يمر بمراحل النمو الاعتيادية التى تنتهى به إلى مرحلة استكمال تلك العناية الربانية مع الانتقال إلى الحياة الأخرى . واعلموا أن هذه المراحل تضم سبعة أطوار يمر بها الإنسان من تاريخ ولادته الى يوم وفاته . وفيما يلى هذه الأطوار الخيالية :

أولاً - طور مرتبة الملك "لاميطو" يكون فيه الإنسان بمثابة الملك وهو طفل رضيع يحافظ عليه كل الناس ولا يرد أو يخالف له مطلب . يحظى بمحبة وولاء أفراد عائلته واهتمامهم به ورعايتهم له .

(٢٦) الآية : ٥٤ من سورة الروم .

ثانياً - طور مرتبة العبد : يدخل الإنسان طور العبودية بعد اجتياز مرحلته الأولى ، وفى هذا الطور يبدأ الإنسان فى تلقى أوامر التربية والتوجيهات الأولية لتكوين سلوكه لمواجهة الحياة وما بعدها .

ثالثاً - طور مرتبة المشورة / المستشار "بتا" : يصل الطفل فى هذا الطور مرحلة النضج النسبى بعد مروره بطور التكوين التربوى السلوكى، وفى هذا الطور يحتسب له رأى فيما يخص حياته كفرد بين أفراد العائلة. تقدم له المشورة إن كان به اعوجاج ويلقى التشجيع إن كان على صواب .

رابعاً - طور مرتبة الحمار "دكيرى" يقول الحكماء: بعد الأطوار الثلاثة التى يتلقى الإنسان من خلالها تكوينه الجبلى الإنسانى البحث يشارك بلسان حاله بعض حيوانات الدنيا فى صفاتها ، فىكون الإنسان فى طور مرتبة الحمار، حيث يدخل مرحلة تكوين الأسرة مع الإنجاب وتحمل مسؤولية تربية أبنائه وأبناء إخوته الآخرين والنهوض بالإنفاق عليهم بمقتضى تحكيم الأعراف الفولانية ذات النسيج الأسرى الممتد . وفى هذه المرحلة يكون الإنسان أشبه بالحمار الذى يحمل عبء مسؤوليات يستفيد منها شخصياً بنصيب أقل. يكون همه الأول والآخر هو توفير الخدمات التى تدخل السعادة فى نفس زوجه ونفوس ما أنجبت هى وسائر نساء العائلة .

خامساً - طور مرتبة الكلب "رواندو" يتصف الإنسان بلسان حاله بصفة الكلب فى هذا الطور الذى أصبح فيه كهلاً وأبناؤه يافعون . فينبح دائماً مثل الكلب ليؤنب الأبناء فى تصرفاتهم الصبيانية الطائشة . ويحذر الأبناء الذين يهمسون فى أذان بعضهم البعض عند-ما يسمعون صوت "جونغللى" / غور كوموطو" الذى ينبح اذا أحس بمخالفة أمر من أوامره وبجانبهم "جونسودو/دبوموطو" أى ربة البيت فى تلك الهمسات والغمزات .

سادساً - طور مرتبة القرد "واندو" : يتصف الإنسان بلسان حاله، بصفة القرد فى هذا الطور لأنه مقبل فيه على سن الشيخوخة "نيواكو". يحاول فيه تجنب ضجيج الدنيا والبيئة المحيطة به والابتعاد عنها فيشبه بحاله هذا حال القرد الذى يبدو ضعيفاً بليداً بالمقارنة مع الحيوانات البرية الأخرى . لذا يتجرأ عليه الصبية بالملاعبة .

سابعاً - طور مرتبة الحية أو الثعبان "بوغوللىدى". وهذا هو الطور السابع والأخير من أطوار حياة الإنسان كما جاء فى تحليل الحكماء فى البيئة الفولانية . فيتصف الإنسان بلسان حاله ، فى هذه المرحلة بصفة الحية التى تظل زاحفة على الأرض . وهى من أهلها فى المرتبة الدنيا ، وكل حظ لم يهبط إلى مستواها فليس لها نصيب فيه . وكذلك الانسان الذى يطعن فى السن ليس بوسعه أن يرتقى عن مستواه فى الانحناء على وجه الأرض . وفيها يتوارى بانتقاص وضعف تدريجيين مستمرين الى أن تبتلعه هذه الأرض فى

نهاية الأمر مصداقاً لقوله تبارك وتعالى ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ (٢٧)

بعد هذا السرد للقصة الأخلاقية يسترد "غور كوموطو" أنفاسه ويهز رأسه فيردف قائلاً : أبنائى ! اعلموا أن تلك هى الحقيقة الثابتة عن حياة الانسان على ظهر هذا الكوكب العائم . ومن أراد منكم أن يتعظ وينجو من الابتلاءات ومكائد الخلائق المكتومة فيه ، فعليه أن يتدرع بالمحصنات الأخلاقية الثلاث التالية :

١- يجب عليه أن يعرف قدر نفسه فيما له أو عليه من أمور الحياة قبل النهوض بأى عمل إزاء هذا أو ذاك .

٢- يجب عليه أن يكون على دراية بالعالم المحيط به من قريب أو بعيد .

٣- ويتعين عليه ، فوق هذا وذاك أن يحتمى بمعرفة الله ، خالقه وخالق كل ما سواه وبالاتماد على هذه الخصال الثلاث يصبح الإنسان قادراً على مجابهة الحياة الكادحة والتغلب على صعابها والامتناع بنعمها بطريقة فضلى ويلقى ربه فى نهايتها بنفس مطمئنة متعظة بقوله تبارك وتعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ، تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ... وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَالَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ (٢٨)
صدق الله العظيم

(٢٧) الآية ٥٥ من سورة طه.

(٢٨) الآية : ٢٤، ٢٦ من سورة إبراهيم .

ويقول الرسول عليه أفضل الصَّلَوَاتِ وَالسَّلَام مامعناه : إن العنصر الطيب فى الجاهلية هو العنصر الطيب فى الإسلام . لهذا يجب عليكم أن تختاروا لأنفسكم ذريات طيبة من الأصول الطيبة التى نبتت من أصلاب الصالحين . وتذكروا ماقاله الحكماء فى بيئتهم :

"بِى لَا لِيَطُو تَشَاهِيَطُو بُورَتَا بِي تَشَاهِيَطُو تَشَاهِيَطُو عِسَاكُو" - أى ابن الإنسان الوحش أو الصعلوك وإن كان طيباً لا يعلو على ابن الإنسان الطيب وهو أيضاً طيب فى الطيب . وبالمثل : بى تَشَاهِيَطُو لَا لِيَطُو بُورَتَا بِي لَا لِيَطُو لَا لِيَطُو عِلَالُو - أى ابن الإنسان الطيب وإن كان وحشاً وصعلوكاً فإنه لا ينحط عن ابن الإنسان الوحش والصعلوك وهو أيضاً وحش وصعلوك فى الوحشية والصعلكة .

اعلموا إذن أن طيب النفس والعمل الصالح القائم على تقوى الله والأخلاق الفاضلة هى ميزان التفاضل بين الأفراد والأمم .

يقول تبارك وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٢٩) .

وقال الحكماء فى ذلك : للمرأ ثلاثة رفقاء فى مسيرة الحياة . رفيق يودّعه إلى مثواه الأخير وهو حزين بالمفارقة ، هذا هو رفيق العمر . ورفيق يودّعه إلى مثواه الأخير وهو فرح بالمفارقة ، هذا هو عدو العمر . ورفيق

(٢٩) الآية : ١٣ من سورة الحجرات .

يشاركه الرّكود فى ذلك المثلوى للأبد ، ذاك هو عمله الذى اكتسبه فى
حال حياته . فتدبروا الحكمة الكامنة فى أقوال الشاعر الإسلامى أحمد
شوقى :

"صَلِّحْ أَمْرَكَ لِلْأَخْلَاقِ مَرْجِعُهُ فَقَوْمُ النَّفْسِ بِالْأَخْلَاقِ تَسْتَقِيمُ"
"وَإِذَا أُصِيبَ الْقَوْمُ فِي أَخْلَاقِهِمْ فَأَقِمْ عَلَيْهِمْ مَأْتَمًا وَعَوِيلاً"
"وَإِنَّمَا الْأُمَمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ فَإِنْ هُمْ ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا"
"وَلَقَدْ يَقَامُ مِنَ السُّيُوفِ وَلَيْسَ مِنْ عَثَرَاتِ أَخْلَاقِ الشُّعُوبِ قِيَامُ"

يتوفى "غور كومطو" بعد حين إلى رحمة الله فتصبح زوجته
"جونسودو/دبومطو" تعرف بـ "سوداطو" أى داخله فى فترة الحداد
الشرعى التى تستغرق أربعة أشهر وعشرة أيام. وبعدئذ تصبح "سوديتاطو"
أى متحررة من شروط الحداد الشرعى. يباح لها عندئذ أن تمارس من
الأنشطة كل ما يحلو لها من الحياة الاجتماعية المشروعة لنتنظر هى
الأخرى دورها للانتقال إلى الرفيق الأعلى والانضمام إلى "جونغللى"
لحاقا .

الجنس الفولانى ومفهوم الهجرة :

ورد فى كتب التفسير والفقه الإسلامى عديد من معانى الهجرة مع
انسجامها فى المغزى ؛ وهى تعنى فى جملتها الانتقال من حال إلى حال
أو من مكان إلى مكان آخر . فثمة هجرة إلى الله ، بمعنى الانتقال من
حال إلى حال . كما أن الهجرة قد تكون فى سبيل الحصول على العلم أو

سعيًا وراء الرزق أو نهوضاً بواجب تقديم المساعدة إلى اناس آخرين .
وقد تكون أيضاً هرباً من الظلم . وفى تفسير قوله تبارك وتعالى فى سورة
النساء : "ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الارض مراغماً كثيراً
وسعة" (٣٠) . ذكر الإمام القرطبي نقلاً عن ابن العربى أن العلماء قسموا
معنى الهجرة قسمين على الوجه التالى :

أولاً - بمعنى الهروب . وهو ستة أنواع :

١- الخروج من دار الحرب إلى دار السلام . وكان فرضاً فى أيام
الرسول عليه أفضل الصلوات والسلام .

٢- الخروج من أرض البدعة . قال ابن العربى إن المنكر إذا لم
يستطع أن يغيره فيعتزل عنه ويتعد مستنداً إلى قوله تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ
الَّذِينَ يَخُوضُونَ فى آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ (٣١)

٣- الخروج من أرض غلب عليها الحرام . فإن طلب الحلال فرض
على كل مسلم .

٤- الفرار من الأذى فى البدن . فإذا خشى المرء على نفسه من أى
ضرر يؤذيه فقد أذن له الله فى الخروج والفرار بنفسه ليخلصها من

(٣٠) الآية : ١٠٠ من سورة النساء .

(٣١) الآية : ٦٨ من سورة الأنعام .

المكروه . وأول ما فعله إبراهيم عليه السلام أنه لما خاف من قومه قال:
﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ (٣٢) .

٥- الخوف من المرض فى البلاد المبتلات بالوباء والخروج منها إلى
أرض المعافاة .

٦- الفرار خوفاً من الأذية فى المال ، فإن حرمة مال المسلم كحرمة
دمه .

ثانياً - الخروج فى طلب العلم :

ينقسم هذا النوع من الهجرة عند الإمام القرطبى إلى قسمين:

- أ- الخروج لطلب العلوم الدينية الإسلامية وتأدية الفرائض . ويشمل
هذا النوع الخروج إلى الحج والجهاد إلى آخره .
- ب- الخروج فى طلب مكاسب الدنيا . مثل التجارة والسعى وراء
الرزق والمعاش وطلب العلوم الدنيوية إلى آخره .

ثالثاً - يقسم صاحب تفسير المنار معنى الهجرة ودوافعها إلى ثلاثة
أنواع على الوجه التالى :

- أ - أنه لا يجوز للمسلم أن يقيم فى بلد يكون فيه ذليلاً، مضطهداً
ومسلوب الحرية الدينية أو الشخصية . فيجب عليه فى هذه الحالة أن
يهاجر من ذلك البلد حتى لا يفتن فى دينه أو يعانى من المذلة والانكسار .

(٣٢) الآية : ٢٦ من سورة العنكبوت .

لذا فإنه يذهب إلى بلد آخر يسترد فيه حريته الشخصية وكرامته الدينية .
وإذا لم يفعل ذلك فإن إقامته في ظل الذل والفتنة تصبح معصية يترتب
عليها عدد من المعاصي .

ب- الخروج في الهجرة لتلقى الدين والتفقه فيه . على هذا لا يجوز
للمسلم أن يستقر في مكان ليس فيه علماء الدين أو مركز من مراكز تعليم
الدين . لأن من شأن مثل هذا الاستقرار أن يجعله جاهلاً بأمور دينه
ومندثراً بعقيدته الإسلامية ، وليس هناك سبيل لتجنب هذا المصير إلا
بالهجرة .

ج - عندما تكون الجماعة الإسلامية ضعيفة ويخشى عليها من
الاعتداء والغلبة، حينئذ يجب على المسلمين أينما كانوا أن يشدوا أزر
تلك الجماعة ويهاجروا إليها لتعزيز قدرتها والذود عنها حتى يقوى جانبها
وتنهض برسالتها في عمارة الأرض وتبليغ الخلق الدين الحنيف .

ذلك هو معنى الهجرة ودوافعها بالاختصار من المنطلقين الإسلامى
والإنسانى .

نعود الآن إلى قضية الهجرة وعلاقتها بالجنس الفولانى . يعتبر أبناء
هذا الجنس أكثر انتشاراً من بين أبناء القارة الإفريقية في جنوب الصحراء
ولا يسعنا إلا أن نرجع الدافع من وراء هذا الانتشار الذى امتد من غرب
القارة الإفريقية إلى مشرقها مكتسحاً مناطقها الوسطى وأجزاءها الجنوبية
وصولا إلى شبه الجزيرة العربية ، إلى عامل الهجرة بمعناه المتعدد . إذ يثير

هذا التوضيح الوجيز العابر تساؤلاً هاماً حول الموطن الأصلي وأماكن الاستقرار للفلولانيين في الوقت الراهن .
وللإجابة على هذا التساؤل ، أشير إلى أن المنشأ الأول للجنس الفولاني هو منطقة فوتا تورو أو منطقة ماسينا (٣٣) .

ومن هذه الأمكنة بدأت حركة الهجرة الأولى للجنس الفولاني منذ آلاف السنين . ومنها انتشروا في مختلف أرجاء إفريقيا جنوب الصحراء . إذ يوجد أبناء هذا الجنس في الوقت الحاضر في كافة مناطق السهل لغرب إفريقيا ووسطها وشرقها مع التركيز المستديم على كل من جمهوريات : مالي ، موريتانيا ، السنغال ، جامبيا ، بوركينا فاسو ، غينيا ، غينيا بيساو ، النيجر ، نيجيريا ، الكاميرون ، والسودان .

الأسباب الرئيسية لهجراتهم :

يقسم المؤرخون المعاصرون أهم الدوافع الكامنة وراء هجرات الفلولانيين من موطنهم الأصلي ، إلى العوامل الأساسية الثلاثة التالية :

١ - السعى وراء المراعي والأراضي الخصبة الصالحة لتربية المواشى والزراعة .

٢ - الدوافع السياسية المتعلقة بغزو الاستعمار الغربى المسيحي لبلادهم .

٣ - الدافع الدينى الإسلامى .

(٣٣) يختلف على ذلك المؤرخون المعاصرون . راجع اكتشاف مخبر الآثار الفرنسى ، هنرى لهوت فى الفصل الثامن لهذا الكتاب .

بالنسبة للدافعين الآخرين ، يجدر ، أن أتحدث عنهما بشيء من التفصيل لأهميتهما التاريخية والدينية والسياسية والاجتماعية .

تعرضت منطقة الغرب الإفريقي خلال حقبة تاريخية متعاقبة للاحتلال الأوروبى الاستعمارى ، البرتغالى والألمانى والإنجليزى والفرنسى . وفى خلال تلك الفترات شهدت منطقة السودان الغربى والوسطى وعموم غرب إفريقيا صدامات دامية بين شعوب المنطقة وممالكها وإمبراطورياتها من ناحية وجيوش الاستعماريين الأوروبيين الغزاة من ناحية أخرى .

وقد اتخذ هذا الاحتلال الاستعمارى صوراً استدراجية احتيالية مختلفة، بدءاً من التستر وراء شركاتها التجارية المعنية باستيراد منتجات صناعية الى فريساتها المجتمعات المستعمرة (بفتح الميم) وابتياح مواردها الخام المتمثلة فى الثروات المعدنية والزراعية (الخشب والأحجار النفيسة وفى الاسترقاء) لتصديرها إلى بلدانهم الأوروبية المستعمرة (بكسر الميم) . وجاء فيما بعد دور التقنّع بالحركات التبشيرية المسيحية ثم اللجوء إلى القهر بالقوة العسكرية المسلحة .

ولم تكن العداوة والبغضاء على الأقل ، بالنسبة للمجتمعات الإسلامية ، فى تلك المناطق الواقعة بين الشعوب الإفريقية المغلوبة على أمرها من ناحية والغزاة الأوروبيين من ناحية أخرى ، أشد ضراوة بدافع الاستغلال المادي من تلك التى انبعثت حول الدفاع عن المعتقدات الدينية والعادات الموروثة كابراً عن كابر .

وانهارت الممالك الفولانية الإسلامية التي تأسست على أيدي
المجاهدين الكبار أمثال الشيخ عثمان دان فودى والشيخ أحمد لوبو
والشيخ عمر الفتوى فى مناطق السودان الأوسط والغربى ، أمام ذلك
الاحتلال الاستعمارى الإنجليزى والفرنسى فى نهاية القرن التاسع عشر
وبداية القرن العشرين .

ففى صوكتو كانت المواجهة بين أمير المؤمنين محمد بن الطاهر بن
أحمد ، خليفة الشيخ عثمان دان فودى ، الذى تولى الحكم فى عام
١٩٠٢ الميلادى خلفاً لأبيه أمير المؤمنين الطاهر الأول ، وبين القوات
البريطانية بقيادة المقدم مورلاند "MORLAND" والنقيب ميريكس
"MIREEKISS"، وبعد الهزيمة التى منيت بها الخلافة الإسلامية فى
صوكتو فى عام ١٩٠٣ ، رأى بعض رجال قيادة الخلافة ومن بينهم أمير
المؤمنين الطاهر الثانى نفسه، ضرورة قيام المسلمين بالهجرة وترك بلادهم
فى أيدي المستعمرين الأجانب ، والتوجه صوب المشرق للاستقرار فى
مكة المكرمة، لأن التعايش مع المستعمرين تحت ذل الانقياد لنفوذ
الكفرة يعد أمراً مستحيلاً . غادر أمير المؤمنين إمارة صوكتو مع جمع
غفير من أتباعه لمعاودة التجمع وخوض جهاد آخر ضد المستعمرين ،
فكانت معركة بورمى (BURMI) الأولى والثانية فى العام نفسه . قتل
خلالهما قائد القوات البريطانية الجديد الرائد مارش MARSH ومنى بأبشع
الهزيمة فى تاريخ الاستعمار الإنجليزى فى نيجيريا . واستشهد أمير
المؤمنين وبعض من كانوا معه من رجال قيادة خلافته والإمارات
التابعة لها .

وقد كان هناك عدد كبير من هؤلاء الرجال نجوا بحياتهم ولم تشملهم جرائم الإبادة البشعة التي كانت ترتكبها تلك القوات الاستعمارية ضد الشعوب الإسلامية فى السودان الأوسط ؛ من بينهم : أبو بكر ، أمير إمارة ييدا ، وأحمد بن صالح ، أمير إمارة ميساو ، وبشير بن أمير المؤمنين ، وأحمد بن الشيخ عمر الفتوى ، غلاديمان (٣٤) إمارة أكو وميورنو المعروف بمحمد بللو . واسرت القوات الإنجليزية الإستعمارية بعض كبار شخصيات الخلافة من بينهم أبو بكر ، أمير إمارة ييدا وبشير بن أحمد ، أمير المؤمنين ، نجل الشيخ عمر الفتوى ووضعتهم فى المعتقلات مع جملة الأمراء والملوك المسلمين الآخرين. (٣٥) وبحلول اليومين الثامن والعشرين والتاسع والعشرين من شهر يوليو عام ١٩٠٣ الميلادى أصبحت مدينة بورمى خلاء ليس فيها إلا الرماد المتراكم نتيجة الإحراق والتدمير الكاملين بفعل قوات الاحتلال الاستعمارى . وتمكن الأمير ميورنو ، نجل أمير المؤمنين ، الطاهر الثانى والأمير أحمد ، أمير منطقة ميساو، من الإفلات من قبضة تلك السلطات الاحتلالية وتسربا عن طريق إمارتى باوتشى وآداماوا النيجريتين حتى وصلا إلى بلدة الشيخ طلحت السودانية الواقعة على ضفاف النيل واستوطنا هناك . ولحق بهما بعد فترة أعداد كبيرة من المهاجرين المسلمين الذين نجوا بحياتهم من الاضطهاد الاستعمارى بعد سقوط إمبراطورية

(٣٤) منصب بمنزلة الوزير أو المستشار .

(٣٥) أنظر كتاب السلطة والدبلوماسية فى شمال نيجيريا للبروفسور أيللى .

صوكتو الإسلامية . كانت هذه الفئة الأولى من المهاجرين الفولانيين هي التي أسست مدينة في منطقة موازية لمدينة الشيخ طلحت وسمّتها مدينة ميورنو تخليداً لذكرى الهجرة الأولى بقيادة محمد بللو ابن أمير المؤمنين الطاهر الثاني .

وبالنسبة لهجراتهم إلى السودان الأوسط واستقرارهم فيما يعرف اليوم بنيجيريا والنيجر والكاميرون ، يقول الأستاذ / محمد بيللي (٣٦) في كتابه "أصل أهل فوتاتورو في نيجيريا" ما يلي :

أولاً - كان أول من هاجر من بلاد فوتاتورو من أبناء هذا الجنس هو وجماعته وأتى إلى بلاد هاوسا أي شمال نيجيريا والنيجر هو الأمير موسى جوكوللي ابن أمير المؤمنين المام (٣٧) ديمبا أحد ملوك امارات فوتاتورو . هاجر الأمير موسى جوكوللي من موطنه الأصلي واستوطن بلدة كوانى الواقعة في بلاد غويير بشمال نيجيريا منذ القرن الخامس الهجرى أي القرن الثانى عشر الميلادى . وكان هو الجد الحادى عشر للمجاهد الكبير الشيخ عثمان ،ان فودى ، مؤسس الدولة العثمانية الفولانية الإسلامية فى القرن الثامن عشر الميلادى (١٧٥٤م - ١٨١٧م) فى نيجيريا بغرب إفريقيا .

(٣٦) ولد فى يوم الإثنين ١٦ من ديسمبر ١٩٢٠ ميلادى وتوفى فى يوم الثلاثاء ، ٢٨ إبريل ١٩٩٩م بكانو شمال نيجيريا .

(٣٧) أى الإمام .

ثانيًا - كانت المجموعة الثانية من المهاجرين الفولانيين بقيادة الفقيه موديو أداما (٣٨) الذي هاجر من موطنه الأصلي في لاموردي ماسينا في حوالي القرن الثالث عشر الميلادي واستوطن هو وجماعته، في منطقة الشرق الجنوبي لدولة نيجيريا والشمال الغربي لجمهورية الكاميرون. وتطلق على هذه المنطقة اليوم اسم بلاد آداماوا . من هناك هاجرت أعداد أخرى من الفولانيين إلى السودان الشرقي مارين بإفريقيا الوسطى وصولاً إلى الأماكن الإسلامية المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة وبيت المقدس .

ثالثًا - أما المجموعة الثالثة من المهاجرين الفولانيين الذين أتوا إلى نيجيريا ومنها إلى السودان وبلاد الشام ، فهي التي أتت مع الشيخ عمر الفتوى . جاء الشيخ عمر الفتوى نفسه إلى بلاد صوكتو في أوائل عام ١٨٢٦ الميلادي وتزوج من السيدة عائشة بنت الشيخ محمد لايماء ، أحد كبار شخصيات بلاط الدولة العثمانية الفولانية ، كما تزوج من السيدة رحمة بنت أمير المؤمنين محمد بللو (٣٩) . وقد صادف وجود الشيخ عمر الفتوى في صوكتو مجيء المستكشف الإنجليزي هوج كلايبرتون ، (Clapperton Hugh) المبعوث الملكي للملك جورج الرابع ، ملك المملكة المتحدة إلى أمير المؤمنين محمد بللو في نفس العام . وأهل بلدة يليماء الواقعة اليوم في ولاية جيغاوا ، بشمال نيجيريا هم ذرية الشيخ عمر

(٣٨) آدم. والكلمة موديو هي عربية الأصل وتعني المؤدب معلم.

(٣٩) راجع كتاب جواهر المعاني للشيخ علي حرازمي .

الفوتى من خلال زوجه المذكورتين . ومعلوم أن الشيخ عمر الفوتى أسس دولته الإسلامية فى مالى التى كانت إحدى دول السودان الغربى الذى يشمل اليوم جمهوريات مالى والسنغال وموريتانيا. (٤٠) وبعد وفاته فى مالى انتقل حكم الدولة إلى ابنه أحمد تال الذى تقلد لقب أمير المؤمنين واتخذ مدينة سيغو بمالى ، عاصمة لدولته الجديدة .

نشوب خلاف بين الأمير أحمد والسلطات الفرنسية :

وقع أمير المؤمنين أحمد بن عمر الفوتى فى فخ السلطات الاستعمارية الفرنسية التى استدرجته كالعادة إلى إبرام صفقة تجارية معها فى عام ١٨٨٠ الميلادى فاستغلت السلطات الفرنسية تلك الفرصة التى جعلتها ذريعة للزحف التدريجى والقضاء نهائياً على الدولة العمرية فى السودان الغربى . وفى شهر فبراير عام ١٨٩٠ الميلادى بعث الجنرال جوزيف جالينى، قائد قوات الاحتلال الفرنسى فى غرب إفريقيا إلى الحكومة الفرنسية فى باريس رسالة فيما يلى ترجمة لها : "إن وجود أحمد تال فى بلاد السودان الغربى من جهة ووجود سامورى تورى فى منطقة كانكان بغينيا من جهة أخرى ليهتدان كيان استعمار فرنسا فى تلك الأراضى . أما بالنسبة لأحمد تال فإن الوقت قد حان للتخلص منه نهائياً . إذ من الممكن أن نقوم بمهاجمة مدينة سيغو مقر حكومته ونحتلها حيث إنه لا يزال

(٤٠) راجع الفصل الخاص بالدولة العمرية فى هذا الكتاب.

بمدينة نيورو فى زيارة لها. ثم نتوجه بعد ذلك إلى نيورو نفسها ونطرده منها . ومن ثم نقضى على سامورى تورى أيضا " ..

وافقت الحكومة الفرنسية على المقترحات التى تقدم بها ممثلها فى غرب إفريقيا، اللواء (الجنرال) لويس أرشينارد الذى قام بالهجوم على سيغو والاستيلاء عليها فى يوم الأحد، لخمسة عشر يوماً خلت من شهر شعبان سنة ١٣٠٧ هجرية، الموافق ستة من شهر إبريل عام ١٨٩٠ الميلادى . بعد ذلك أمر الحاكم الفرنسى بأسر الأمير المدانى بن أحمد تال بن عمر الفتوى وعين بدلاً منه أحد أعضاء أسرة أميكان المالكة سابقا لسيغو . ثم طلب من أحمد تال مغادرة مقر إقامته بمدينة نيورو والتوجه إلى بلدة دنغراى. غير أن هذا الأخير رفض الامتثال لتلك الأوامر وتوجه إلى مدينة (حمد الله) حيث يقيم أخوه المنير تال . عندئذ واصل الحاكم الفرنسى ملاحقة الأمير أحمد تال إلى منطقة (حمد الله) بأرض ماسينا . لكن أحمد تال غادرها ومعه أعداد كبيرة من الأتباع متجهين صوب شرق البلاد قبل وصول القوات الفرنسية إليها . وفى يوم الخميس الأول من شهر شوال المبارك لسنة ١٣٢٠ الهجرية الموافق أول يناير سنة ١٩٠٣ الميلادى ، قامت القوات الفرنسية بقيادة اللواء لويس أرشيارد باحتلال بلاد ماسينا وإزالة آخر معقل للدولة العمرية بالسودان الغربى ، وأمر قائد تلك القوات بمطاردة الأمير أحمد تال وجماعته . من هنا اضطر الأمير أحمد تال وأتباعه إلى مغادرة أراضى السودان الغربى إلى بلاد نيجيريا عن طريق مناطق مجرى نهر فولتا العليا والنيجر . توفى الأمير أحمد تال فى سنة ١٣١٥ هجرية الموافق لسنة

١٨٩٨ الميلادية لدى وصولهم قرية تسمى ميكولكى ، إحدى ضواحي مدينة صوكتو ، عاصمة دولة صوكتو العثمانية بنيجيريا . وتولى البشير بن الحاج عمر الفتوى ، شقيق الأمير أحمد قيادة الجماعة التى دخلت مدينة صوكتو فى عهد أميرها عبد الرحمن بن عتيق بن الشيخ عثمان دان فودى . وطلب الأمير عبد الرحمن إلى الأمير البشير بن الشيخ عمر وجماعته عدم مواصلة هجرته والإقامة بدلاً من ذلك ، ببلاد صوكتو بعد الوفادة الكريمة والحفاوة البالغة اللتين حظى بهما الأمير البشير وجماعته من أهل صوكتو وأميرهم عبد الرحمن بن عتيق بن الشيخ عثمان دان فودى .

لكن نظراً للخطط التى كان قد رسمها الأمير أحمد تال وجماعته لهجرتهم التى استهدفت الوصول إلى مدينة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، فقد اعتذروا إلى أمير المؤمنين عبد الرحمن وأهل صوكتو جميعاً بعد الإعراب لهم عن الشكر والتقدير العالين لما كان من نصيب الأمير البشير وجماعته من الترحاب الحار وكرم الضيافة فى بلاد صوكتو . وتوجه الأمير البشير وجماعته بعد ذلك إلى بلدة غيمى الواقعة فى اقليم زاريا ، ومنها إلى بلدة بورمى عن طريق منطقة ميساو ، وعندما احتلت القوات الإنجليزية الاستعمارية مدينة صوكتو فى يوم الأحد الأول من ذى الحجة سنة ١٣٢٠هـ الموافق الأول من إبريل ١٩٠٣ م ، غادرها أميرها محمد الطاهر الثانى متجهاً إلى بلدة بورمى على بعد خمسة وسبعين ميلاً شرقى صوكتو ، هناك أدركته القوات الإنجليزية واشتبك الجانبان فى قتال دموى فى ستة مواقع اشترك فيه مغاجن كفى ؛ انتصرت القوات

الإنجليزية فى المعركة الأخيرة على قوات أمير المؤمنين الذى استشهد
ومعه عدد كبير من كبار رجالات دولته وأسرت القوات الاستعمارية بعض
أمراء دولة صوكتو وأسر معهم البشير بن الحاج عمر الفتوى ونفوا إلى بلدة
لو كوجا .

هاجر محمد مى ورنو، ابن أمير المؤمنين الطاهر الثانى بمرافقة عدد
كبير من أتباع أبيه إلى السودان الشرقى حيث أسسوا مدينة سموها "مى
ورنو" بقرب مدينة سودانية تقع على ضفاف نهر النيل تسمى الشيخ
طلحة . أما بالنسبة لأمير المؤمنين البشير بن عمر الفتوى فقد تولى أخوه
أحمد المدانى قيادة جماعته بعد اعتقاله ونفيه إلى لو كوجا كما أشرنا
سابقاً . فواصل الأمير المدانى وجماعته السفر إلى بلدة كتاغون ومنها إلى
بلاد هطيجا بشمال نيجيريا حيث أسسوا قرية أسموها يلليما . واستمرت
شرذمة منهم فى الهجرة إلى السودان الشرقى واستوطنت بلدة سنار
السودانية . ووصلت فئة أخرى منهم بقيادة الفقيه ألفا هاشم بن أحمد
الفتوى ابن عم الشيخ عمر الفتوى ، إلى مدينة الرسول عليه أفضل الصلاة .
هناك استقر ألفا هاشم وكان يقوم بالتدريس بالحرم النبوى الشريف إلى أن
وافته المنية فى يوم الإثنين الحادى عشر من شهر ذى القعدة سنة ١٣٤٩هـ -
الهجرية الموافق ثلاثين من مارس عام ١٩٣١ الميلادى .

ثالثاً - المدافع الدينى :

لما كانت مكة المكرمة قبلة للمسلمين كافة ، جماعات
وأفراداً ، والسفر إليها واجب استكمال الأركان الأساسية لهذا
الدين ، اعتبر المسلمون فى عموم غرب إفريقيا ، بمن فيهم أبناء
الجنس الفولانى ، السفر إليها عملاً دينياً إلزامياً وهدفاً نهائياً

للفرد في حياته ، مما جعل كل واحد منهم لا يدخر جهداً ولا يوفر سعيًا في سبيل الهجرة إليها وإلى الحرم النبوي الشريف بالمدينة المنورة . كان العالم الجليل محمد بن أحمد بن سعيد الفوتي المعروف بألفا هاشم الفلاتي (٤١) ، أحد كبار الفقهاء الفولانيين الذين هاجروا إلى الحجاز واستوطنوا في جوار الحرمين الشريفين أي مكة المكرمة والمدينة المنورة ، واشتهر ألفا هاشم من بين فقهاء المدينة المنورة . وتبحر في مذاهب الفقه الأربعة مما حدا بالمغفور له الملك عبد العزيز العاهل الحجازي آنذاك أن يختار ألفا هاشم ويعينه عضواً بارزاً في مجلسه للشورى . وكان له تلاميذ كثيرون . وقد تتلمذ عليه صاحب كتاب تاريخ مكة والأديب المشهور الشيخ محمد حسين الزيدان .

نشرت جريدة "المسلمون" السعودية المقالة التالية في عام ١٩٩٥ الميلادي في حق ألفا هاشم : " هو محمد بن أحمد الفوتي المعروف بألفا هاشم الفقيه المالكي ، برع واشتهر في المدينة المنورة ، وكان من علمائها الأفاضل حتى توفي سنة ١٣٣٥هـ . وفي سنة ١٣٢٠هـ غزا الفرنسيون بلاده فاضطر إلى مغادرة أراضيه متوجهاً إلى الحجاز . وفي سنة ١٣٢٢هـ أدى فريضة الحج واستقر في المدينة المنورة فبدأ يعرف من بين أهلها ثم اختلط بعلماء الحرم النبوي الشريف حتي أصبح واحداً من أشهر علماء المدينة المنورة . لقد روى الأستاذ عادل عمر التركي ، أطال الله عمره وهو أحد طلابه ، أنه رأى الشيخ عبد العزيز

(٤١) ولد في حوالي سنة ١٢٧٥ هجرية بلدة هلوار في بلاد فوتا تورو ، بالسنگال.

بن إبراهيم أمير المدينة آنذاك يبكي يوم وفاة ألفا هاشم متأثراً بحزن شديد لذلك المصاب الجلل " . وبالمثل كان الشيخ عمر الفلاته الذي تقلد منصب رئيس الجامعة الإسلامية في السعودية في السبعينيات ، أحد أبناء الجيلين الثاني والثالث للفولانيين في المهجر بالحجاز . وثمة فئات أخرى انصهرت في المجتمع الحجازي والمجتمعات الوسيطة الي أرض الحرمين الشريفين لاسيما السودان . وقد يقدر بعض مصادر التاريخ عن غرب إفريقيا ، ومنها بحث تاريخي للأستاذ حامد نورالدين (١٩٩٦ م) عدد الفلاته أي الفولانيين الذين استقروا في السودان الشرقي بعد هجرتهم من غرب إفريقيا بحوالي ستة مليون نسمة . قد يكون هذا التقدير مبالغاً فيه ، لا سيما إذا ما أخذنا في الحسبان أن كلمة " الفلاته " تطلق في السودان ، علي كل من يرجع أصله إلى غرب إفريقيا تجاوزاً . غير أن الشيء الذي لا يختلف عليه إثنان هو انصهارهم في المجتمعين السوداني والحجازي بأعداد كبيرة . والله أعلم .

خصائص اللغة الفولانية :

أ - حروفها الهجائية :- ليست لهذه اللغة حروف خاصة بها، مثل اللغات ذات الأصول اللاتينية أو الصينية أو العربية أو الهندية إلى آخرها، لكنها تكتب بالحروف العربية واللاتينية . والترابط التاريخي المبكر الذي

تواجد بين الثقافة الإسلامية وهويتها الحضارية والشعب الفولاني ، جعل هذا الأخير يتخذ الحروف العربية ويستخدمها في كتابة لغته قبل اتصاله بالثقافة الأوروبية ولغاتها اللاتينية الأصل . ولتسهيل التعرف على الحروف الهجائية العربية لغير الناطقين بها من أبناء جنسهم وضع علماءهم أسماء وصفية للحروف العربية باللغة الفولانية . هذه الأسماء الوصفية مشتقة من الأدوات المستخدمة في بيئاتهم أو من أسماء بعض أعضاء جسم الإنسان . وفيما يلي أمثلة على تلك الحروف وأسمائها باللغة الفولانية :

- ١- ألف (أ) " دريطو " = الواقف
- ٢- (ب) جورطو = الجاف
- ٣- تاء (ت) اوديتيطو = المفتوح
- ٤- ثاء (ث) اندو = الثدي
- ٥- جاء (ج) تشيوطو = الرفيع
- ٦- حاء (ح) جلو / تانغو = معزوفة / مجرفة
- ٧- شن (ش) نيطي = الأسنان
- ٨- سين (س) جورطو = الجاف
- ٩- ص (ص) ريدو = البطن
- ١٠- طاء (ط) كوينيغيل = الرجل
- ١١- فاء (ف) ييشو / طوباطو = ذات النقطة
- ١٢- قاف (ق) تبيطو / طوباطو = ذات النقطة

١٣- كاف (ف) جورطو = الجاف

١٤- هاء (هـ) موطو = الكبير / المفخم

ب - حروفها الصوتية : نظراً لوجود بعض الأحرف الصوتية لهذه اللغة التي ليس لها نظير في الحروف العربية واللاتينية ، لجأ علماءها إلى اختراع رموز صوتية خاصة بها وأضافوها إلى الأحرف العربية واللاتينية كما فعل أصحاب اللغات الأخرى مثل : الأوردية والآشورية والتركستانية والصومالية إلى آخرها . وهذه الأحرف المخترعة للغة الفولانية هي كالآتي :

١- لب - تنطق بين الحرفين الباء والهاء مدمجتين

٢- ب١ - تنطق بين الشفتين . وهي مركبة من الحرفين الفاء والباء ، كما في كلمة الباكستان . أي الباء الخفيف .

٣- ث١ - تنطق بين الحرفين التاء والشين مدمجتين كما في كلمة تشاد .

٤- ط١ - تنطق بين الحرفين الطاء والظاء مدمجتين .

٥- و١غ - تنطق بين الحرفين الغين والقاف ، كالجيم المصرية أو القاف الحلقية.

٦- و١غ - تنطق بين الحرفين النون و القاف مدمجتين .

٧- ن١ - تنطق نونا بالغنة من الخيشوم.

٨- ن١ - تنطق بين الحرفين النون والياء مدمجتين (نيا).

ويلاحظ أنه لا توجد الأصوات المقابلة للأحرف التالية في اللغة الفولانية : ث ، ح ، خ ، ذ ، ز ، ش ، ص ، ض ، ط ، ظ ، ع ، غ . وتكتب الأحرف الفولانية . المخترعة بالحروف اللاتينية على الوجه التالي :

ح - الأحرف الفولانية المخترعة بالحروف اللاتينية

ث (٣) = ب (٢) = ن (٢) = ب (٢) =

غ (٦) ، غ (٥) = ظ (٤) =

ن - ، (٨) ن -

د - خصائص هذه اللغة :

تمتاز اللغة الفولانية أو الفولفولدي بغزارة مادتها ووفرة مفرداتها ودقة تصويرها لما يقع تحت الحس، وذلك نظراً لمرونتها وقدرتها على الاشتقاق بالمقارنة مع اللغات الإفريقية الأخرى وغالبية لغات عالمنا اليوم .

الخاصية الأولى :

تعد من أغنى لغات العالم من حيث استعمال أسماء الإشارة . إذ يشتق اسم الإشارة من أواخر الاسم الذي يشار إليه ، يعني هذا أنه لهذه اللغة أسماء الإشارة بعدد ماضيها من عدد المفردات من حيث تشكيل أواخر الكلمات . وفيما يلي بعض الأمثلة :

اسم الإشارة		اسم الشيء		المعنى
للمفرد	للمجمع	المفرد	الجمع	
١ - غو	طي	لينغو	لطي	السماك

٢- دو	طي	سودو	تشوطي	الغرفة
٣- أو	بي	نيطو	يمبي	الرجل
٤- انغل	طي	جوطورغل	جوطورطي	الكرسي
٥- انغل	طي	دمال	دمي	الباب

ويجوز تأخير أسماء الإشارة هذه عن الأسماء الموصوفة - أي
المشار إليها مثال ذلك قولك :

"سودو دو " أي الغرفة هذه ، "غوركو" أو "الرجل هذا لينغو غو"
أي السمك هذا ، إلى آخره . أود أن أذكر بهذه المناسبة أن ثمة ثلاثة
أسماء فقط وردت مع إشاراتها تطابق أو آخرها أو آخر اسماء إشاراتها لفظاً
وتركيباً ، هذه الأسماء هي : (١) "نغي" أي البقرة (٢) "ناغي" أي
الشمس (٣) "هيغي" أي المجاعة . فتقول في الإشارة إليها :

٢- "غي نغي" أي هذه البقرة ، أو تؤخر اسم الإشارة . وتقول "نغي
غي" أي البقرة هذه .

٣- "غي ناغي" أي هذه الشمس أو تؤخر اسم الإشارة فتقول "ناغي
غي" أي الشمس هذه .

٤- "غي هيغي" أي هذه المجاعة . أو تؤخر اسم الإشارة فتقول :
"هيغي غي" المجاعة هذه .

وهذا الاستعمال فريد من نوعه في اللغة الفولانية قاطبة .

الخاصية الثانية :

التمييز ، عند الحديث عن الملكية ، بين ما يملكه المخاطب (بكسر الطاء) بالاشتراك مع غيره ويستثنى فيه الشخص المخاطب (بفتح الطاء) أو إشراكه في تلك الملكية (بفتح الطاء) حين يقتضي الموقف ذلك . مثال ذلك أن تقول : " دوسودو - كوكو أمين أي هذه الغرفة لنا دونك أنت المخاطب (بفتح الطاء) ونقول أيضا " دو سودو " - "كوكو ميطين" أي هذه الغرفة هي لنا معك أنت المخاطب (بفتح الطاء) إلى آخره .

الخاصية الثالثة :

أسماء التفضيل : تمتاز اللغة الفولانية بقدرتها على التمييز بين الأسماء وأوصافها المتفاوتة في الدرجات ؛ مثال ذلك ، أن تقول في الصيغة الأولى : "غوريل" أي الرّجّل ، إمّا الضعيف أو الصغير . وتقول في الصيغة الثانية : "غوركو" أي الرّجّل المتوسط . وفي الصيغة الثالثة : تقول " غورال " أي الرّجّل العظيم الشأن ، بكل ما تعنيه الكلمة من معاني الرّجولة .

الخاصية الرابعة :

لهذه اللغة ثلاثة أنواع من فعل الأمر . النوع الأول يكون فيه المطلوب تنفيذه قريباً ، مثاله :
"ودّو" أي آت به من مكان قريب . والنوع الثاني يكون فيه المطلوب تنفيذه من مكان بعيد . مثاله كلمة "ودّوي" أي آت به من مكان بعيد .

والنوع الثالث هو أن المطلوب هو تغييره من حال أو من وضع إلى حال أو وضع آخر : مثل كلمة "بام" أي خذ (شيئاً) من مكانه الأصلي . وإذا أضفت إليها (الكلمة) حرف " تو " فقلت " بامتو " معناها خذ الشيء من مكانه أو وضعه الحالي إلى مكانه أو وضعه الأصلي أو المناسب . مثال ذلك أن تقول للتلميذ ، بام "دفترتي" أي خذ كتاباً . يكون الكتاب في هذا الحال في وضع عادي . أما عندما تقول له : " بامتو دفترتي " يكون الكتاب في هذا الحال قد سقط على الأرض ، مثلاً أو يكون في مكان غير مناسب ، إلى آخره .

الخاصية الخامسة :

استعمال كلمة واحدة لتفيد تكرار فعل من الأفعال المتعدية مثال : كلمة "في" أي اضرب . فإذا قلت " فيتا " معناه كرر الضرب . ومن هذه الخاصية اشتقاق فعل من أصله لأخذ الثأر أو رد الفعل ذاته . مثاله . "في" أي اضرب و"فيتو" رد الضرب أو خذ ثأراً . "يننو" أي اشم و "ينتتا/يننتو" أي رد الشتم إلى آخره .

الخاصية السادسة :

استعمال أفعال لإظهار بعض التصرفات على غير حقيقتها . مثاله كلمة "ماي" أي مات . وتقول "أوماينتكيما" أي تظاهر بالموت إذا كان الشخص غير معروف لديك، وتقول "أوماينكينكي" إذا كان معروفاً لديك ، "أو يوليم" أي غرق في اليم . "أو يولينكنيم" أي تظاهر بالغرق .

ومن هذه الخاصية نقض بعض الأفعال بإضافة حرف أو حرفين في آخر الفعل . فيما يلي أمثلة ذلك " أودّو " أي أغلق ، " اودتن " أي افتح ، " هابّو " أي اربط ، " هبتن " أي فك الربط . إلى آخره والله أعلم .

ح - أشهر السنة عند الفولانيين .

هناك اثنا عشر شهراً باللغة الفولانية تتماشى مع الأشهر الإسلامية والعربية . هذه الأشهر هي :

- ١- هارام = محرم
- ٢- ميني هارام = صفر
- ٣- المولودو = ربيع الأول
- ٤- ميني المولودو = ربيع الثاني
- ٥- راجم موندو = جمادي الأولى
- ٦- راجم هكنديرو = جمادي الأخرى
- ٧- هوڏارو = رجب
- ٨- يابوا = شعبان
- ٩- كوركوا = رمضان
- ١٠- جولدارو = شوال
- ١١- صفترادو = ذو القعدة
- ١٢- لايا = ذو الحجة

هـ - فصول السنة :

هناك أربعة فصول في السنة هي :

١- اندوغو = الشتاء/ موسم الامطار

٢- يامدي = الربيع

٣- دابوندي = موسم البرودة

٤- تشيطو = موسم الجفاف / الحرارة

ج - تقسيم السنوات إلى خمس سنوات :

١- راوتيني = السنة قبل الماضية

٢- رواني = السنة الماضية

٣- هيكأ = هذه السنة

٤- مووري = السنة المقبلة

٥- موورتي = السنة بعد المقبلة

د - أيام الأسبوع:

١- ألان = الأحد

٢- التينيري = الاثنين

٣- تلاتاري = الثلاثاء

٤- ألارباري = الأربعاء

٥- الكميساري = الخميس

٦- ألجوماري = الجمعة

٧- اسويري = السبت

تقسيم الزمان :

ينقسم الزمان إلى : نيلوما - اليوم (ج) نيلاطي .
يونتوري (ج) جونتوي ، الأسبوع ، ليورو (ج) لبي - الشهر .
هنتادي - (ج) كيتالي / دوبي - السنة .

و - وينقسم الزمان اليومي عندهم إلى :

(٣) كينيي - أمس ، هاندي - اليوم ، جانغو - غداً .
(٤) هتش كينيي - أمس الأول ، هتشتي كينيي - اليوم الذي كان
قبل أمس الأول .
(٥) جانغو = غداً ، فبّ جانغو ، بعد غد . فبّت جانغو ، اليوم الذي
يلي بعد غد .
(٦) هنكي = البارحة أي ليلة أمس بالليل . "هتشتي هنكي" ليلة
أمس .

(٧) هتشتي هنكي = الليلة التي سبقت أمس الأول .

ز - المفردات :

٢- بعض أعضاء جسم الإنسان .

" نيططو " - الإنسان

ترطي / ترغال نيططو - جسم الإنسان ، " هوري (الرأس) " لبي
(الشعر) .

"تيندي" (الحبين) "يسو" (الوجه) غيتي ج (العين) م يتيري (١)
هينيري "م كيني ج (الانف) "نورو" م "نوبي" ج (الأذن) هوندوكوم -
كوندوطي - ج (الفم) ، توندو م توني ح " (الشفة) غبوغال م عبوللي
ج (الفك) طمغال م طملي "ج" (اللسان) نيدي نيطي ج (السن) ،
داندي م داطي ج " (الرقبة) ، كونوغول - / كونولي ج " (الحلقوم) ،
بالال / ولبو بالاجي - ج (الكتف) "جونغو - م جوطي ج" (اليد)
فيطندو - م ، ييطيلي ج (٢) "الاصبع" ، "ناوري- م نوبي ج" (الكف) ،
هولغو- م ، كولطي ج " (الظفر) "يتشي - م بتشجي ج (الصدر) .
تشغغال (الظهر) ، ريدو- م ديدي / ديطي ج (البطن) . ودوم - ودّي ج
(السرة) تيكترول م - تيكيتي ج " (المصران) برندي - م بيرطي ج
" (القلب) وبسال - م بوسي ج " (الفخذ) كونيغال م - كويطي ج
(الرجل) .

اسم الحيوان (الطيور)	الاسم باللغة العربية :
المفرد	الجمع
١- فوندو	بولي الطير
٢- جيغوال	جيغاجي النسر
٣- كونباريال	كونباريجي الطاووس

(١) م - المفرد ح - الجمع .

(م) أسماء الأصابع الخمسة wordo البصمة sappordo السبابة، HAKKUNDERU

الوسطى، YAMUSARU البنصر، SIWUTURDO الخنصر .

- ٤- فوندومراطو/ تونتندو تونتوجي اليمامة
 ٥- فوندو كالوو بولي كالوجي الببغاء
 ٦- وغانو بوغالي الحمامة
 ٧- دوال دويج النعامة
 ٨- دونال دوتي الجشع
 ٩- جوغال جاولي الغرغر/الدجاج الحبشي.
 ١٠- ويلويلدو بيليلدي النبوت
 ١١- دانوغال دولي الغراب

١- حيوانات متنوعة :

- ١- رواند لادّي - دواطي لادي(برودي/بروجي)- الأسد
 ٢- غليوبا غيلوطي الجمل
 ٣- موسورو موسوجي الهرّ
 ٤- بوتشو بوتشي الحصان
 ٥- ياري جهي العقرب
 ٦- بودّي/ بوغولدي بولي/ بوغى ليدي الثعبان
 ٧- فلاّدو بلاطي السحلية
 ٨- نياتورو نياتوجي النمر
 ٩- إنكتو إنكتي التمساح

١٠- نيوا	نيبي	الفيل
١١- فورو/ نالادو	بوربي	الذئب
١٢- واندو	باطي	القرد
١٣- نيونيو	نيو ني	الزنبور / النملة.
١٤- لنغو	ليطي	السماك
١٥- غليغو	غلطي	الدود
١٦- سوندو	توللي	الثعلب
١٧- غومبا غومبا	غومباغو مبا جي	البرغوث
١٨- انجكار	انجكارو جي	العنكبوت
١٩- بوريتو	بوريتي	الجراد
٢٠- هوميري	كوميجي	السلحفاة
٢١- فامبرو	بابي	الضفدع
٢٢- سانغا نغارو	سانغسا نغاجي	الصرصور
٢٣- بالو	بالي	الغنم
٢٤- انغروو	انغرو جي	الخنزير
٢٥- بيوا	بيبي	الماعز
٢٦- ليولا (باروغا)	ليولي	الغزال
٢٧- كوتو	كوتي	القرادة
٢٨- انغبو	انغبى	البرنيق/ جاموس البحر

الفأر	دومبي	٢٩- دونبرو
دودة الأرض/الخرطون	تشيوريل كييجي	٣٠- تشيوريل كللي
البغل	ألبناجي	٣١- ألبنار
الصقر	تشيلي	٣٢- تشيلال
الحمار	ديكييجي	٣٣- ديكيري بابيا

ك - بعض النباتات العادية :

- ١- بامباري - الذرة
- ٢- غاوري = الذرة العويجة
- ٣- بييري - الذرة الشامية
- ٤- سريمبي = ذرة الديس
- ٥- مارو = الأرز
- ٦- جيبي = التمر الهندي
- ٧- بوللي السبانخ
- ٨- نيبي = الفول المدمس
- ٩- تيغاجي = الفول السوداني
- ١٠- لالو = الملوخية
- ١١- كاريجي = شجرة شيا (يستخرج منها الزيت) ١٢-
- غغانيي = البامية

١٣- بناكو = الكسافا ١٤- غاودي = التمر الحلوى .

١٥- نيتي الخرنوب ، ويقال لحبوب الشجرة = أوجي .

ل - اسماء الألوان :

١- بوطيجو = الأحمر ٢- دينيجو = الأبيض ٣- بليجو = الأسود

٤- بانانيجو = الأخضر ٥- بولاجو = الأزرق ٦- نتيجو = الأصفر

٧- ناو(ناوجو) = البني ٨- بورو = الاشقر .

انتهى والحمد لله رب العالمين .

دعاء :

وأقول في آخر دعواتي(١)

"اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي ، وتجمع بها أمري وتلم بها شعبي ، وتصلح بها ديني وتحفظ بها غائبي وترفع بها شاهدي وتزكي بها عملي، وتلهمني بها رشدي ، وترد بها أفتي ، وتعصمني بها من كل سوء .

اللهم أعطني إيماناً صادقاً ويقيناً ليس بعده كفر ، ورحمة أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة ، اللهم إني أسألك الفوز عند اللقاء والصبر عند القضاء ومنازل الشهداء وعيش السعداء والنصر على الأعداء اللهم إني أنزل بك حاجتي ، فإن قصر رأيي وضعف عملي وافتقرت إلى رحمتك، فأسألك يا قاضي الأمور ، ويا شافي الصدور كما تجير بين البحور أن تجيرني من عذاب السعير، ومن دعوة الثبور ومن فتنة القبور . اللهم ما قصر عنه رأيي ولم تبلغه مسألتني من خير وعدته أحدا من خلقك أو خير أنت معطيه أحداً من عبادك ، فإني أرغب إليك فيه . وأسألك برحمتك يا رب العالمين ، اللهم يا ذا الحبل الشدید ، والأمر الرشید أسألك الأمن يوم الوعيد ، والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود ، الركع السجود الموفين بالعهود ، إنك رحيم ودود ، تفعل ما تريد . اللهم اجعلنا هادين مهتدين ، غير ضالين ولا مضلين ، سلماً لأوليائك ، وعدواً لأعدائك .

(١) دعاء من أدعية النبي عليه أفضل الصلاة والسلام.

نحب بحبك من أحبك ، ونعادي بعداوتك من خالفك ، اللهم هذا الدعاء
وعليك الإجابة ، وهذا الجهد ، وعليك التكلان . اللهم اجعل لي نورا
في قلبي ، ونوراً في قبري ، ونوراً بين يدي ونوراً من خلفي ، ونوراً عن
يميني ، ونوراً عن شمالي ، ونوراً من فوقي ونوراً من تحتي ، ونوراً في
سمعي ، ونوراً في بصري ، ونوراً في شعري ، ونوراً في بشري ، ونورا
في لحمي ، ونوراً في دمي ونوراً في عظامي . اللهم أعظم لي نورا
وأعطني نوراً واجعل لي نوراً . سبحان الذي تعطف بالعز وقال به ، سبحان
الذي لبس المجد وتكرم به ، سبحان الذي لا ينبغي التسييح إلا له ،
سبحان ذي الفضل والنعم ، سبحان ذي المجد والكرم ، سبحان ذي
الجلال والإكرام . وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلي آله
وصحبه أجمعين .

تم في كانو ، نيجيريا في يوم الجمعة ٢٠ ربيع الأول للسنة ١٤٢٠
الهجرية الموافق ٤ يوليو للعام ١٩٩٩ الميلادي .

المراجع العربية :

- ١- القرآن الكريم
- ٢- كتب الصحاح الستة في الأحاديث النبوية الشريفة .
- ٣- كتاب رحلة ابن بطوطة .
- ٤- مقدمة ابن خلدون .
- ٥- سفية السعادة لعبد الرحمن أبي زيد الفازازي الأندلسي .
- تخميس الشيخ عمر الفوتي ، شرح وتعليق الشيخ محمد بللي .
- ٦- التحفة السنية بتوضيح الطريقة التجانية ، تأليف : محمد الطاهر ميغري البرناوي .
- ٧- بحث مختصر عن : الطائفة التجانية ، إعداد : اللجنة السعودية الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء .
- ٨- الفولانيون أو الفولبي ، بحث موجز ، إعداد الشيخ محمد بللي .
- ٩- الفلاتة في السودان ومساهماتهم الإسلامية والتنموية
تأليف : الطبيب عبد الرحيم محمد .
- ١٠- كتاب : سلسلر (أصل) تورنكاوا .
- تأليف : محمد البخاري ، ابن إمام صوكتو .
- ١١- أصل أهل تورونكاوا في نيجيريا ، تأليف : الشيخ محمد بللي . (بلغة هاوسا) .
- ١٢- مخطوطات من جمهورية مالي .
- ١٣- مخطوطات من جمهورية السنغال .
- ١٤- الإسلام وهجرة الفلاتة إلى السودان .
- بحث مختصر : بقلم الأستاذ حامد نور الدين .

- ١٥- مناقب إفريقيا في الإسلام : بقلم محمد بللي .
- ١٦- إفريقيا المسلمة - الهوية الضائعة .
- تأليف : الأستاذ الخليل النحوي . للأستاذ / محمد وجدى .
- ١٧- دائرة معارف القرن العشرين .
- ١٨- الأدب المفرد : للإمام ابي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري .
- ١٩- التفسير القرطبي - للإمام القرطبي .
- ٢٠- التفسير المراغي - للإمام محمد مصطفى المراغي .
- ٢١- حقيقة البهائية - للأستاذ مصطفى محمود .
- ٢٢- العهد الجديد - الانجيل .
- ٢٣- تاريخ الإسلام للدكتور /حسن إبراهيم حسن .
- ٢٤- كنز الشرقيون ، تأليف : بول مارتي تعريب : محمد محمود ولد ودادي .

المراجع الأجنبية :

- 1) A fulani-English Dictionary – By F.W.Taylor, M.A.
- 2) Corpus of early Arabic sources for West African History.
- 3) A Thousand years of West African History. By J.F.Ade Ajayi and Iar Espie
- 4) The Tijaniyya Order.
By Jamil M. Abun-nasr.
- 5) The Holy war of Umar Tal.
By David Robinson.
- 6) The Intellectual Origin of Sokoto Jihad.
By Dr. Muhammed A. Khani.
- 7) Origins of the Fulani:brief Historical parading of conjectual History – By Lukuman M. Saidu.
- 8) A Brief Biography of Amir – al mu'minin Ahamd bn al-Shaikh Omar bn said – by anonymous writer, said to be his desciple who accompanied the Amir on his flight to Sokoto. (unpublished)
- 9) The Fall of the segu Cliphate And Turkulor Exodus: 1891–1903
By : Lukumanu Mohd. Saidu (unpublished).
- 10) The Encyclopeadia Africana Vol.I published in 1977 Director:
Professor L.H. Ofosu Appiah.
- 11) Encyclopeadia Britanica.
- 12) History of West Africa.
Volume One and Two – By professor J.F.Ade Ajayi.
- 13) Power and diplomacy in Northen Nigeria.
- 14) Islam In West Africa By J.spencer Trimingham.
- 15) Dictionary of African Historical Biography.
By Mark R. Lipschutz and R. Kent Rasmussen.

- 16) A Hausa - English Dictionary English - Hausa vocabulary
By Rev. G.P. Bargery.
- 17) Inventaire de la Bibliotheque Umarienne de Segou
By : Nouredine Ghali Sidi Mohamed Mahibou et Louis Brenner.
- 18) Studies in the history of the Sokoto caliphate By Y.B. Usman.
- 19) Islam In Africa:
By : Professor Nuru Alkali, Adamu Adamu, Dr. Awwal Yadudu,
Dr. Rashid Motem and Haruna Saleh.
- 20) The Sokoto Caliphate.
By Murrqy last ph.d.
- 21) Peoples and Empires of West Africa.
By G.T. Stride B.A.dnd caroline 1 feka ph.D.
- 22) The Revolutionary years: West Africa Since 1800 A.D.
By. J.B. Webster A.A.Boahen and Michael Tidy.
- 23) The Arabian Africa,
By Ali Moahmmad Abdul Latif

فهرس الأعلام

ابن مسعود: ٣٠٩، ٢٩٧.	(أ)
ابن الغازى: ١٩١، ٢٥.	آدم/آداماوا: ٢١٥، ١٨٥، ١٣٠، ٨٢، ٤٥.
ابن خلدون: ٤٣.	٣٣٢.
ابن جابر: ٦٠.	أبا عثمان بن سعيد الدوكالى: ٤١.
ابن سينا: ٦١.	إبادان: ١٤٧.
ابن طفيل: ٦٢.	أبدوكل: ٢٨٧.
ابن رشد: ٦٢.	أبدورى: ١٢٩.
ابن مالك: ١٥٨.	ابن الحاج عبد الفهام: ٨٢.
إبراهيم (عليه السلام): ٢٨٤، ٥٥.	ابن رشيق: ٨٨، ٨٣.
إبراهيم الفولانى: ٨٣.	ابن السباغ: ٩١.
إبراهيم موسى: ١٦٣، ١٦٢.	ابن عباس: ١٢١.
إبراهيم سورى: ١٦٣، ١٦٢.	ابن إسحق: ١٢٤.
إبراهيم أمير المدينة: ٣٧٩.	ابن أرطو: ١٧٠، ١٦٩، ١٢٩.
إبراهيم خليل: ٣٤١.	الابن الأكبر: ١٣٥.
أوبكر سي: (ح)	ابن تيمية: ١٦٨.
أوبكر أحمد بن سعيد: ٢٧.	ابن الحاج عمر: ١٨٢.
أوبكر أسكيا داود: ٢٩.	ابن عبد الله: ٢٣٣.
أوبكر الباكوم: ١٥٧، ١٤٩، ٨٢.	ابن نبى الله: ٣١٦.
أبو بكر العتيق: ١١٥.	ابن أمير المؤمنين: ٣٧٢.
أبو بكر الأنصارى: ٢٩٦.	ابن المنذر: ٢٧٤.
أبو بكر لوبو: ١٠، ٢٠٥، ٢٠٣، ٢٠٢.	ابن ماجه: ٣٠، ٣٠١، ٢٩٩، ٢٩٨.
أوبكر فلاته: ٣٢١.	ابن بطوطة: ٣١٦، ٤٢، ٤١، ١٩.

بن أحمد بن يحيى بن فضل الله العمرى	أبوداود: ٢٩٨، ٧.
أبى العباس: ١٩٥، ٤٠.	أبو دادى: ٣١٨.
أحمد بامباه: ١٣٩، ١٤٢، ١٤٣، ٢٤٠،	أبو لؤلؤ: ٢٩٢.
٢٨٧، ٢٤١.	أبو رومى: ٣٢١.
أحمد بن بيللا: ٧٧.	أبو القواط: ٨٩.
أحمد ساردونا: ٧٧.	أبو يوسف المقدسى: ٣٠٩.
أحمد سكيرجى: ٢٣٦.	أبو سفيان: (ط).
أحمد سيكوتورى: ٧٧.	أبو الحسن الشاذلى: ٢٣١.
أحمد بن فارتوا: ٨١.	أبى بكر بن يعقوب: ٤٣.
أحمد بن عبدول: ٨٢.	أبى بكر الصديق: ٢٩١.
أحمد الحاج: ٧٨.	أبى بكر الرأزى: ٦٠.
أحمد لوبؤ: ١٣، ١٦، ٧٦، ٩٤، ١٥٥، ١٥٦،	أبى بكر أحمد بن سعيد: ٢٨، ٢٧، ١٨.
١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٤،	أبى بكر محمد: ٦٢.
١٧٥، ٢٥٢، ٢٥٦، ٢٥٩، ٣١٤، ٣٧٠.	أبى حامد الغزالى: ١٦٨.
أحمد مو أحمد: ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧،	أبى معشر: ٥٩.
١٧٨، ١٨١، ١٨٣، ١٨٩، ١٩١، ١٩٩، ٢٠٠،	أبى حنيفة: ١٢٤.
٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٠٦،	أبى طالب: ١٤٧.
٢٠٩، ٢١٠، ٢٣٠.	أبى شريح: ١٨٠.
أحمد بابا بن عقيت: ٢، ٣، ٢٤، ٢٧،	أبى القاسم القشيري: ٢٣٤، ٣٧٧.
٢٨، ٩١، ١٥٥.	أبى محاوية: ٢٧.
أحمد المنصور الذهبى: ٢، ٢٧، ٨٧.	أبى قتيل: ٣٠٩.
أحمد بن عمر جو الأمين: ٢٥.	أبى هريرة: ٣٠٠، ٣٠١.
أحمد بن عمر بن عقيت: ٩١.	أبى عبد الله بن إسماعيل البخارى: ٢٦٨.
	أبى الدرداء: ٢٧٠.
	أبى موسى الأشعرى: ١٠٧.

أحمد بن محمد بن الأمين: ٩٩.

أحمد بن صالح: ٣٧١.

أحمد عمر الفتوى: ٢٠٣، ٢٠٧، ٢١٠،

٣٧١، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٧.

أحمد المدائني: ٣٧٧.

أحمد حمّا بركي: ١٨١.

أحمد الحبيب بن محمد: ٢٣٤.

أحمد شوقي : ٣٦٦.

أحمد باه: ٢٣٨، ٢٣٩.

أحمد التجاني: ١٣٤، ١٩٠، ١٩٥،

٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢٣٣، ٢٣٦،

٢٣٨، ٢٨٢.

أحمد القادياني: ٢٤٥

أحمد بيللي سال: ٢٣٨.

الأحمدية: ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٥٢، ١٥٨.

أحمد الأحساني: ٢٤٧.

أحمد (أمدو الهدى): ٣١٢.

أحمد (الإمام): ٢٦٨، ٢٧٥.

الأمين الكانيمي: ٣، ١٥٥.

أمينة أحمد التجاني: ٢٣٩.

الأمويين: ٣٠.

أمريكا: ٥١، ٦٤، ٦٥، ٧٤، ٧٥.

أمير البحر: ٦٣.

أمين جي: ٧٧.

الأمة: ٩٣، ٣٣٦.

أمير المؤمنين: ١١٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٨١،

١٨٩، ١٩١، ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٨٥، ٣٧٠، ٣٧١،

٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٤، ٣٧٧، ٣٧٩.

أميكان: ٣٧٥.

الأماني: ١٩٢.

الأدب: ٢٧٠، ٣١٤.

أدباء: ١٤٠، ١٥٤، ١٨٩.

أديب: ١٤٦.

أداو على: ٢٣٨.

أدلار البائي: ٦٠.

إدورد بارون: ٦٨، ١٩٠، ١٩١، ٢١٠،

٢١١، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٣١، ٢٣٧،

٣٦٩.

إدريس ألوما: ٨٧.

إمارة: ١٥٧، ١٦٥، ١٦٩، ١٧٠، ٣٧١.

الإمام: ١٦٣، ١٦٤، ١٦٨.

الإمام مالك: ١٢٤.

الإمام المهدي: ١٢١، ٢٨٦.

الإمامية: ١٧٦، ١٨٠، ١٨٣، ١٨٥،

١٨٦، ١٨٧، ١٩٢، ١٩٤، ١٩٦، ١٩٩، ٢٠١،

٢٤٨، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٨٦، ٢٩٩، ٣٧٢.

إمبراطورية: ١١٤، ١١٦، ١٢١، ١٢٣،
١٢٦، ١٢٨، ١٩٦، ٢٥٥، ٢٥٨، ٣١٣،
٣١٤، ٣١٧، ٣٢٠، ٣٢٥، ٣٣٠، ٣٦٩،
٣٧٢.

إندجاي مصطفى: (ط)

إندو: ٣٨٠.

أنس بن مالك: ٢٦٥، ٢٦٨.

إندار: ١٩٨.

الانصارى: ٢٦٨.

أنجوبو: ٣٥٧.

الإنجيل: ٢٩٣، ٢٩٤.

الأنبياء: ٥٤، ٢٧٩، ٢٨٢، ٢٩١، ٣٠٢.

أنجلوديارا: ١٥، ١٤٠.

إندونغا: ٣٦.

الإنجليز: ٤٩، ٦٢، ٧٦، ٩٣، ١١٣،

١٣٢، ١٩٠، ٢٤٤، ٢٥٧، ٢٦١، ٢٨٩،

٢٤٣، ٣٧٠، ٣٧٤.

إنطاكية: ٧٤، ١٢، ٣٠.

اتفاق الميسور: ٩٢، ١٤١، ٣٢٢، ٣٢٥.

إنغورو: ١١٢.

إنغازار غومو: ١١٢.

الإنسان/الإفريقي: ١٣٢، ١٤٨، ١٥٣،

١٧٩، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٤٩،

٢٥٩، ٢٦٢، ٢٧١، ٢٨٣، ٢٩٣، ٢٩٤،
٢٩٦، ٣١٦، ٣٢٢، ٣٢٩، ٣٣٢، ٣٣٣،
٣٣٩، ٣٤٠، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٣،
٣٦٨، ٣٨٩.

الإفريقي/إفريقيا: ٨٠، ٨٤، ٨٨، ٨٩،

١١٢، ١١٦، ١٢١، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٨،

١٣٣، ١٤٨، ١٧١، ١٧٥، ٢٣٤، ٣١٤،

٢٦١، ٣١٤، ٣١٩، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٣٠،

٣٧٣، ٣٦٨.

الورين: ١١٤، ١٣٠.

الاستعماريون: ٦٥، ١١٦، ١٣٧، ١٣٨،

١٤٠، ١٥١، ١٨٧، ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٤٦،

٢٥٢، ٢٥٤، ٢٥٦، ٢٨٥، ٣١١، ٣١٢،

٣١٥، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٤، ٣٧٥.

إسحق: ١٣٠.

الإسلامية: ١٣٧، ١٧٥.

الانتفاضات: ١٣٧.

الأدارسة: ٨٧.

الأزهر: ٢٥، ٦٤.

أزواد: ١٥٧.

الأزرار: ٢٣٦.

الحسن بن حمد: ٢٩، ١٦٩.

الاساني (الحسن مؤمن) ٢٨٩.

ألاندلس: ٦، ٦٤، ٧٤، ٩٢، ١٢٨، ٢٩٦،

٣٠١.

أها سيلا: ١٩.

أهل السنة: ٢٩٦.

أهل الكتاب: ٢٧٨.

أهل البيت: ٢٣٢، ٢٩١، ٣١٦.

أهل الفضل: ١٢١.

الأهلية: ١٤١.

أسماء نانا: ١٢١، ١٤٠.

أسكيا الحاج محمد: ٢١، ٢٢، ٤٦، ٤٧،

١١٣.

أسماء سور: ٢٢٥.

الإسكندراني: ٢٠.

اسانتى: ٣٤، ٣٦، ١٢٣، ١٤٩، ١٥١، ٢٦٠.

الأسبانيون: ٤٩، ١٢٥، ١٢٦.

آسيا: ١٢٤.

الاستراتيجية: ٣٤٠.

أسكينوو: ٣٤٤.

الإسرا ئيليات: ١٢٤.

إسراغو: ٣٤٧.

أكان: ٣٣.

أكسفورد: ٦٢.

الإكسبير: ٦٣.

أكو: ٣٧١.

الأساطير: ٣١٧.

الأقوام: ١٥٣.

أفلاطون التريقولى: ٦٠.

أفو: ٣٥٧، ٣٥٨.

الإقطاعيين: ١٧٤.

الجان محمد بن عبد الله: ١٠٨.

الأطلسى: ١٥٨.

الفا الزازى: ٩٢.

الفا هاشم: ٣٧٨، ٣٧٩.

ألمانيا: ٥٢.

ألوما: ٨١.

إليزابيت: ٥٠.

أولوبى: ٣٤٢.

الألفية: ١٥٨.

الأولياء: ١٥٤، ٢٣٤، ٢٨٢.

أربى: ٨٠.

أرطوكيالا: ١٦٣.

أرطو ليرليما: ١١٢.

الاراضى المقدسة: ١٨٨، ١٩٠.

أرص الشايفية: ٣٢١.

الأرستوقراطيين: ١٩٨.

أرشينارد: ٣٧٥. الأوراد: ١٩٢، ٢٤٧.

الأثرولوجية: ٣٢٢، ٣٢٥.	الأوري: ٣٨١.
الآثار: ١٣٤، ١٣٨، ٣٢٢.	اووساي بونسو: ٣٦، ٣٤.
أغاسيد على: ٢٤٨، أغباندي: ٢٤.	أوو: ٣٣٠.
أغس: ٣٢١، ٢٨٨، ٩٣.	أوونا: ٣٧.
الأخضرى: ٨٢، ٢٣٤، ٢٤١.	أوغوستين: ١٢٥.
أحياء زنجو: ١٣٤.	الأوروبية: ٤٨، ٤٩، ٥١، ٥٦، ٥٩، ٦١،
إحياء السنة: ١٢٠، ١٤١.	١٢٥، ١٢٤، ٧٧، ٧٤، ٦٧، ٦٦، ٦٥، ٦٢
أوداغست: ٥، ١.	٣٨٠، ٣١١، ٢٤٠.
"ب"	أوتوفون: ٢٨٥.
باباتو: ٣٦، ٣٧.	أويو: ١١٤.
بابل: ٩٧، ٢٩٩، ٣٠٣، ٣٠٤.	إيمانويل كانط: ٦١.
باه لوبو/باه: ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٥، ٢١٠،	أيان ايس: ٣٢٣.
٣٢٨، ٣١٨.	ايران: ٢٢٨، ٢٤٧، ٢٩٢.
البابليون: ٤٩.	إيلي-البروفسور: ٣٧١.
باسيل ديفيد: ٤٤.	الأيير: ٢٨٧.
بال: ١٣، ٣٣، ١٨٦.	اينيد: ١٢٥.
البابية: ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠،	إيداع النسخ: ٩٣، ٩٩.
٢٥١، ٢٥٢.	إيطاليا: ٤٩.
باجومانغا: ٣١٩، ٣٢١، ٣٢٢.	إيفور ويلكس: ٩٧.
بارث-الرحالة: ٣١٧.	الأصل: ٣١٦، ٣٢٢، ٣٢٤.
باريس: ٣٢٣، ٣٧٤.	الأصوليون: ٣٢٢.
بارى/برى: ١٦٧، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٤،	أصول العدل: ١٢١.
٣٢٩، ٣١٨.	الأشورية: ٣٨١.

البامبر: ١٣، ١٤، ١٧، ١٥٦، ١٧٠، ١٧١، ١٧٤، ٢١١، ٢٠٥، ٢٠٠، ١٨٧، ١٩١، ٢٥٤.	بسط الفوائد: ١٣١.
باماكو: ١٤، ٢٥٤.	براو: ١٤٥.
باتريل هنكس: ٤٨.	بدورى بن الأمين: ٩٨.
بامبوى سنغها: ٤٥.	برادى: ١٣٦.
الباكستان: ٢٤٥.	البردا: ١٤٦.
بانى: ٢٠٦.	البصرى: ١٤٦.
باوتشى: ١١٤، ١١٥، ١٣٠.	البرياريس: ٦٣.
باوانفاتا: ١٠٤، ١٠٧، ١٠٩.	برنيسا: ١٤٨.
باوالسلطان: ١٠٥، ١٠٩.	البرسيم: ٦٣.
بامغال: ١٦٧.	البربر: ٤، ٢١، ٤٥، ٤٦، ١٥٦، ٢٤١، ٣٣٠.
باسو: ٣٣٨، ٩٣٩.	براطو: ٣٥٨.
باندوق: ٨٢.	بحق رب الورى: ١٤٧.
بايرو: ٨٧.	البكاي: ١٥٨، ١٧٧، ١٨٩، ١٩١، ٢٠١.
بلاد التكرور: ٣٢٢، ٣٢٤، ٣٣٠.	٢٣٠، ٢٢٩، ٢٠٧، ٢٠٦، ٢٣٠.
بددا: ٣٧١.	البكرى: ١٨، ٣٠، ٨٢.
بريوو: ٣٥٤.	بكونى: ٩٧.
بركى: ١٨٢.	البحر الأحمر: ٣١٤، ٣١٦، ٣٢١.
البهائية: ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٥٠، ٢٥١.	بلوغ الأرب: ٩٣.
٢٩١، ٢٥٢.	بلوغ الأماني: ١٩٥.
بهادران: ٢٤٩.	البشير / بشير: ١٩٩، ٢٩٧، ٣٧١، ٣٧٦.
البيزنطيون: ٦٦، ٣٢٠.	٣٧٧.
البستاني: ٦٠.	بشير أحمد الهندي: ٢٤٥.
	البشروى: ٢٤٧.
	البرتغاليون: ٤٩، ٥٠، ٦٧، ٧٥، ٣١٥.
	٣٦٩.

بوركينا فاسو: ٢٤٣، ٢٣٢، ٣٧، ١٥.	بندو/بندا: ٣٥٨.
بويلسا: ٣٧.	البرتوسي: ٦٢.
بوروما: ٣٧.	براما انغولو: ١٤.
بوغهي: ٤٠.	برلين: ٢٨٥.
بونديو: ١٨٧.	برايم: ١، ٣٤١.
بولو: ٣٥٤، ٣٢٧.	برمندانا: ٣٢١.
بولاكو: ٣٤٠.	البروسيون: ٤٩.
البولندي: ٦٠.	بندامبندو: ٣٥٨.
البورق: ٦٣.	بنى هومي: ٨٥.
بوسنيا: ٧٤.	بنى أمية: ٣٢.
بورجا يعقوب: ٨٦.	بنى إسرائيل: ٣١٩، ٣١٦، ٣٠٣.
بولالا: ٨٩.	بنى الحمد: ١٨٢.
بوباير: ١٢٩، ١١٤.	بنى تميم: ٢٩٨.
البوزو: ٢٠٨، ٢٠٥، ١٨٣، ١٧١، ١٦٩.	بختنصر: ٣١٩، ٣٠٤، ٣٠٢.
٣٤٢.	البخاري: ٢٦٨، ١٠٠.
بودي: ٣٥١.	بلجيكا: ٧٥، ٥٢.
بواشي: ٢٤٣.	بحيرة تشاد: ٣٢١.
بوبو جولاسو: ٢٦٠، ٢٤٣.	بطليموس: ٦٠.
بونجاب: ٢٤٤.	بسمارك أوتوفون: ٢٨٥.
بونابارت: ٢٥٥.	بنتون: ١٤.
بوطوال: ٣١٨.	بنيخرا: ٢٣٨، ٢٠٩.
بورمي: ٣٧٧، ٣٧١.	بورنو: ٨٨، ٨٣، ٨٢، ٨١، ٨٠، ١٣، ٦.
بيلدو جوماساسي: ١٤.	١٥٢، ١١٤، ١١٢، ١١١، ٩٦، ٨٩.
بيرو-ولاته: ٢٥.	١٩٦، ١٩٠، ١٧٨، ١٥٨.

- البيالى مخلوف: ٢٥.
- بيتى العمرى: ٤١، ٤٠.
- البيضان: ٤٢.
- بريطانيا: ٥٢، ٧٠، ١٣٧، ١٨٩، ٢٥٧، ٢٥٨.
- ٢٦٠، ٢٥٨.
- بيكون: ٦٢.
- بيرنين: ٨٩.
- بيجارو هسكت: ٩٣.
- بيدو الكباوى: ٩٨.
- بينوى: ١١٤.
- بينين: ١١٤، ١٣٣، ٣٢١.
- بيان وجوب الهجرة: ١٢١.
- بيان البدعة: ١٢٠.
- البيان العربى: ٢٤٩.
- بيساندوغو: ٢٥٣، ٢٥٨، ٢٦٠.
- بيروز: ٢٥٥.
- بيت المقدس: ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٥، ٣٧٣.
- البير: ٣١٧.
- بيساو: ٣٦٨.
- بيسر ابى/بيسر اطو: ٣٣٨، ٣٣٩.
- بغامى كلفو: ١٣٠.
- "ت"
- تاج الدين: ٨٩.
- تاتا تورو: ١٩٩.
- تاميس: ٧٦.
- التتر: ١٦٠.
- تابين كواتو: ١١١.
- التائية: ١٤٤.
- تشارلس كاردينال لافيجيراك: ٦٨.
- تشارد: ٨١، ٨٤، ٨٨، ٨٩، ١١٢، ١١٣.
- تاكغو: ٣٥٦.
- تبشير الأمة الحمديّة: ١٠٩.
- تحذير الإخوان: ٣٠٠.
- التكرور: ١، ٥، ٢٠، ٢٦، ٢٧، ٢٢٧، ٣١٩.
- ٣٢٢، ٣٢٤.
- تنبيه الفهيم: ٣٠٩.
- تنبيه الإخوان: ١٢٠، ١٥٢.
- توجب: ٢٤٣.
- تتبكتو: ٢، ٣، ١٢، ١٤، ١٥، ٢٠، ٢٢.
- ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٨، ٢٩، ٤٦، ٤٧، ٦٤.
- ٦٩، ٩١، ١٥٦، ١٥٨، ١٧٥، ١٨٩، ١٩٦.
- ٢٠١، ٢٠٦، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٢، ٣٢١.
- تيجان: ١٤٨.
- التجانية: ١٥٩، ١٧٨، ١٩٤، ١٩٥، ٢١٠.
- ٢٣٩، ٢٤٢، ٢٧١.
- تذكرة المسترشدين: ٢١٢، ٢١٣، ٢٢٥.
- تذكرة الخافلين: ٢٢٥.
- التذكرة القرطبية: ٢٩٦.

ثوبان: ٢٨.
 الثقافية: ١٢٥، ١٢٨.
 "ج"
 جاننكي: ١٨٧.
 جامبيا: ٢٨٩، ٣٦٨.
 جاو مبي: ٣٤١، ٣٤٢.
 جام: ٣٥٩.
 جاروري: ٢٣٢.
 جاموسا: ١٤٨.
 جارو توبي: ٣٤٤.
 الجبزي ألحسن: ٩٢.
 جبريل بن عمر: ٩٨، ٢٩٧.
 الجهاد: ١٧٢، ٣١٧.
 الجملة المختصرة: ٩١.
 جمل مختارة: ٨٩.
 الجزء الشرقي: ١١٥.
 الجزء الغربي: ١١٤، ١٣٠، ٢٤٥.
 الجزارون: ٣٤٣.
 لجنة: ٢١٥، ٢١٨، ٢٢١.
 جهينة: ٢٩٧، ٣١٩.
 الجزيرة العربية: ٣١٩، ٣٢٠.
 جموري: ٣٣٢.
 الجنس الفولاني/الأوروبي: ٢٠٠، ٢٠١،
 ٣٢٣، ٣٢٦، ٣٢٩، ٣٣٣، ٣٣٥،
 ٣٣٦، ٣٤٥، ٣٦٥، ٣٦٨، ٣٧٨.

التيارات: ١٦٨.
 التزاخي: ٩١.
 تخوم: ٨٤.
 التركيا: ٨١.
 تراكي: ١٣٦.
 الترمذي: ٢٩٩.
 تشيروما: ١٣٥.
 تشرنوبيل: ٩٢، ٢٠٥.
 توماس اكويناس: ٦١، ٦٢.
 توتوغري: ٣٤.
 التوحيد: ١٤٠، ١٥٨، ١٨٨.
 التوكل: ١٤٠.
 التومبو: ١٨٣، ٢٠٥.
 التوروط/بي: ١٨٦، ٣٣٠، ٣٣٥.
 تونس: ٨٨.
 تونديون: ١٥.
 تورنار: ١٢٧.
 توغو: ١٤٥.
 تشوفي: ٣٥٩.
 تشيطو: ٣٨.
 تششنيطو: ٣٢٩، ٣٤٢.
 تريمجهم: ٣٣٠.
 "ث"
 ثمود: ١٥٩.
 ثرياق: ٢٤٤.

- جلانكادا، ١٩٧. جود الأمين: ٢٥.
- جلاندو ديوف: ٢٤٢. جورج: ٧٦، ٧٧، ١٢٥، ٣١٩، ٣٢٢.
- جللو: ١٦٩، ٣٢٨، ٣٢٩. جون تشاؤلستون: ٦٨.
- الجنوب: ١١٤. الجوزاء: ٦٣.
- الجنوب الغربى: ١١٤، ١٣٠، ٢٤٥. جون الاول: ٥٠.
- الجنوب الشرقى: ١٣٠. جونسودو: ٣٥٦، ٣٦٢، ٣٦٤.
- جنوب الصحراء: ١٧٥، ٣١٤، ٣٤٥، ٣٦٨. جونغلى: ٣٥٦، ٣٥٩، ٣٧٥.
- جسم الانسان: ٣٨٠. جوسيف دانكواه: ٣٣.
- جفينة: ٢٩٢. جورطو: ٣٨٠، ٣٨١.
- جى. ف. ادى: ٣٢٣. الجنرال لويس أرشيناد: ٣٧٥.
- جندودو: ٣٥٨. الجنرال فيدارب لويس: ٧٢، ١٩٩.
- جيلمى أومى: ٨٠. الجنرال جوريف جالينى: ٣٧٤.
- جينى: ١٥، ٢٤، ١٥٦، ١٧٠، ١٧٤. الجزائر: ٧٤، ٧٧، ٨٢، ٨٩، ١٨٥، ٢٣٢.
- جيو/جبكيل: ٣٥٦، ٣٥٩. جذوة الأنوار: ١٥٨.
- الجيش: ١٣٧. جيو ب: ٣٣٠.
- جيو اد: ٢٤٧. جريدة "المسلمون": ٣٧٨.
- جوهرة الكمال: ١٩٥. جرما/زيرما: ٣٦.
- جور بيل: ٢٣٥، ٢٦٠، ٢٨٧. جرارد الكرمونى: ٦٠.
- جوطوما: ٣٥. الجغرافيون العرب: ٣٣٠.
- جواهر المعانى: ١٩٢، ١٩٥، ٢٣٣، ٢٣٦. جغرابى: ٢٠٦.
- جولا: ٩٧، ٢٥٣. جغنكو: ١٩١، ١٩٢.
- جوو تغول: ٣٤٦. جعفر بن أبى طالب: ٣٢١، ٣٢٢.
- حامد نور الدين: ٣٧٩. "ح"

"خ"

- خاسو: ١٨٧.
الخلافة: ١٢٦، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٧، ١٦٩، ١٧٦، ١٨٩، ١٩١، ١٩٦، ٢٠١، ٢٦٢.
الخليل النحوي: ٨٤.
الخرجي الاندلسي: ٢٩٦.
ال خليفة مي إدريس ألوما: ٨٧.
ال خراعي أبي شريح: ١٨٠.
ال خوارزمي: ٦٠، ٥٢.
خديجة أحمد التجاني: ٢٣٩.

"د"

- الدالية: ١٤٢.
ال دجال: ٣١١.
الدانماركيون: ٤٩.
داهومي: ٢٨٤.
داتو: ٣١٨.
دارتاغو: ٣٨٠، ٣٤٠.
دادو: ٣٥٨.
داباكالا: ٢٦٠.
داكي: ٣٥٤.
دانيال ديفو: ٦٢.
دار الكتب المصرية: ٩٣.

حامد محمد ماني: ٨٠.

الحارث: ٢٩٨.

حبيل: ٦٣.

الحدادون: ١٤٣، ١٣٥.

الحجاج: ١٤٦.

الحجاز: ١٧٨، ٩٥، ٩٢، ٨٨، ٢٣.

الحبشة: ٣١٦، ٦٦.

حي بن يقظان: ٦٢.

حيدر: ٣٢١.

حمد الله: ١٧٠، ١٧٤، ١٧٦، ١٨١، ١٨٢.

١٨٩، ١٩١، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٦، ٢٠٧، ٣٧٥، ٢٠٩، ٢٠٨.

حبيب الله: ٢١٠، ٨٤.

حسن الجبرتي: ٩٢.

حصن الأفهام: ١٤١.

حسب المسك: ٦٣.

حسين/الزيدان: ٣٧٨، ٣١٧.

لحسناني: ٢٣٣.

الحرم النبوي: ٣٧٨.

حماء الله: ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣.

الحضارة اليونانية: ١٢٥.

الحكام والملوك: ٣١٥.

حذيفة: ٢٩٦، ٣٠٠، ٣٠٢.

- الدباغون: ٣٤٣.
- دبّو موطو: ٣٦٤، ٣٦٣، ٣٥٩.
- داو ترو: ١١٣.
- دوائر المعارف: ٣٠٥، ١٢٤.
- داورا: ١٣٠، ٩٠.
- دوتى: ٣١٩.
- دودو: ١١.
- دو غامبا: ٣٨.
- دوناما: ٨٨، ٨٠.
- الدوغون: ٢٠٩، ١٧١.
- دوغراى: ١٣٥.
- دورى: ٣٥٥.
- دمبا: ٣٥٧.
- دمشق: ٢٩٦، ٢١٠.
- دمغرام: ٣٢١، ٢٣٨.
- دكار: ٢٨٤.
- ديجيل: ١٠٩، ١٠٤، ١٠٣، ٩٤.
- ديندى: ١١٥.
- دى كوفيدو: ١٢٥.
- ديكو: ٣٥٧، ٣٢٨.
- ديماغو: ٣٥٥، ٣٣٤، ٣٣٣.
- ديندير اغو: ٣٣٩.
- ديمى: ٣٥٥.
- ديكر ابى: ٣٤٦.
- ديكيرى: ٣٦٢.
- دييو: ٢٠٧.
- دنغراى: ٣٧٥، ١٩٦، ١٩٢.
- الدنيا: ٢١٨، ٢١٦.
- الديان: ٢١٨، ٢١٦.
- الدرقاوى: ٢٣.
- "ذ"
- ذو القرنين: ٣٠٦.
- ذنب الدجاجة: ٦٣.
- "ز"
- رائو بيرام: ٩١، ٩٠.
- الرائية: ١٤٢.
- رابح زبير: ١١٣.
- رحمة بللو/منصور: ٣٧٣، ١٩٤، ١١٣.
- الرمة/الرماء: ١٧٠، ١٦٩.
- الراشدون: ٢٣٦.
- الرتاء: ١٤٠.
- الراين: ٧٦.
- روبيا: ٣١٨.
- روبرت بارك: ١٢٦.
- روبينسون: ٦٢.
- روجر بيكون: ٦١.
- الروتري: ٧٧.
- الروحانى: ٣١٨.
- الروائى: ١٢٦، ١٢٥.
- رواندو: ٣٦٣.

رونفا: ٨٨.	زنفر: ١٠٥.
رومانى: ١٢٥، ٢٤٤، ٣٠٢، ٣٠٤، ٣٢٢.	زرادشتيون: ٢٩٢.
رومية: ٣٢٢.	زغها: ٤٠.
الرقاعية: ٢٧١.	"س"
رماح حزب الرحيم: ١٩٠، ١٩٢، ٢٢٤.	سافانا: ١٧.
روندى سيرو: ١٦٨.	سانكورى: ٢٧، ٢٥، ٢٤.
رببنى كاي: ٧٣.	السامورى تورى: ٣٨، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢.
ريمبى: ٣٣٣، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٤٢.	٢٦١، ٢٥٧، ٥٦.
ريتشارد وومول: ٥٢.	ساروتومى: ٦٨.
رمضان: ٣٠١.	ساروا: ١٢٥.
ريكة: ٨٤.	سامبودمسا: ١٢٩.
"ز"	سانسندنغ: ١٩٩، ٢٠٤.
"زأ" البربرية: ٤٠، ٤٥.	سامبا: ٣٥٧.
زاوزاو: ٨٨، ١١٢، ١٢٩، ٣٧٦.	ساجو: ٣٥٧.
زبير رحمة منصور: ١١٣.	سامبا ليلي: ٢٣٨.
زبرما/جرما: ٣٦.	ساحل الذهب: ٢٤٦.
زيد: ١٠٢.	ساحل العاج: ٢٤٢، ٢٦٠.
زيدان-السلطان أحمد: ٢٧.	السهل: ١٢٨، ١٣٣.
زيتى: ٩٠.	سور باجو: ٣٤٧، ٣٥٣.
زوال الحيرة: ٢٣٦.	سويس: ١٢٥.
الزهد: ١٤٧، ٢٧٠.	السوريانية: ٢٤٧.
زرقتبانا: ٤٠.	سوفا: ٢٥٥.
الزرافة: ٦٣.	السومنى: ٨٢.
زاكى: ١٢٩.	سوداطو: ٣٦٤.
الزنجى: ٣٢٤.	

سي بامبا: ١٥.
 سیتی: ٣٧.
 سيدى المختار الكونتى: ٨٤، ٧٦، ٣،
 ٢٠١، ١٩٦، ١٨٩، ١٧٧، ١٦٠، ١٥٩
 ٢٠٦، ٢٠٧، ٢١٠، ٢٨٧.
 سيد الأنام : ١٠٨.
 سيدى يحيى السقادلى: ٢٣.
 سيدى عبد الرحمن التتيمى: ٢٣.
 سيدى عمر: ١٥٨.
 سيدى أحمد البكاي: ١٥٨.
 سيوف السعيد: ٢٢٥.
 سيسالا: ٣٨، ٣٧، ٢٦.
 سيرجون: ٥٠.
 سيرونى: ١٢٥.
 السيرى: ١٨٧، ٦٧، ٣٣.
 السرد التاريخى: ١٣٩.
 السيف القاطع: ١٦٠.
 سيغاسو: ٢٦٠، ٢٥٤.
 سيخيرى: ٢٥٤.
 سيسى: ٣٣٥، ٣٢٩.
 سبى: ٣٤٢.
 سير اليون: ٢٦٠، ٢٥٨، ٢٥٧، ٢٥٤، ٢٣٨.
 السيرة النبوية: ١٥٨، ١٢٤.
 السيفوا: ٨٨، ٨٥.

سوما غرور: ٦.
 سوندياتا: ٣٩، ١٩، ٦.
 سون دينكورو: ١٥.
 السيوطى: ٣٠٧، ٣٠٦.
 السنكى: ١٦٩، ١٦٥، ١٥٦، ١٧، ١٥، ٦، ٥.
 السويديون: ٤٩.
 السويس: ٨٤.
 سوجو: ١٠٣.
 السودان: ٨٧، ٨٦، ٨٥، ٨٤، ٨٣، ٨٢،
 ١٧١، ١٤٣، ١١٣، ٩٤، ٩٣، ٨٩، ٨٨
 ١٧٢، ١٧٧، ١٧٨، ١٨٠، ١٨٣، ١٨٥،
 ١٨٦، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٣، ١٩٧، ١٩٨،
 ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٧، ٢١١، ٢٢٧،
 ٢٥٥، ٢٦١، ٢٨١، ٢٨٥، ٣١١، ٣٢١،
 ٣٢٥، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٤، ٣٧٥.
 سيغو: ١٧٨، ١٧٠، ١٦، ١٥، ١٤، ١٣،
 ١٨٠، ١٩١، ٢٠٤، ٢٠٧، ٢٠٩، ٢٣٨،
 ٣٥١، ٣٧٤، ٣٧٥.
 السنغال: ٧٣، ٧٢، ٦٨، ٣٨، ١٨، ٦، ٣،
 ٧٧، ٩٥، ٩٧، ١٢٣، ١٤٢، ١٨٥، ١٨٦،
 ١٨٨، ١٩١، ١٩٨، ١٩٩، ٢١١، ٢١٢،
 ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٥٣،
 ٢٨٥، ٢٨٨، ٣١٢، ٣١٨، ٣٢١، ٣٢٩،
 ٣٣٠، ٣٤٢، ٣٦٨، ٣٧٤، ٣٧٨.

- سيف بن ذى يزن: ٨٥.
- سيرفانينيس: ١٢٥.
- سيغلى: ٣٤.
- سليمان/بال: ١٣، ٤٠، ١٢٩، ١٦٢، ١٦٥.
- ٣١٣، ٢٨٨.
- السلطان العثماني: ٨٧.
- السلطان/أوبكر: ١١٥، ١٣٨، ١٨٩، ١٩٤، ١٩٧، ٣١٩.
- سلطان غوبير: ١٠٧.
- السلطان السعدى: ٨٧.
- سنى على: ٢٥، ٤٥.
- سينيغامبيا: ٢٦، ١٨٥.
- سنغها: ٤٠.
- سنغور: ٧٣.
- السوسية: ٧١، ٢٨٨.
- سنت لويس: ٢١٢.
- السنة: ١٧٤، ٢٢٣، ٢٢٥.
- السعودية: ٣٧٩.
- السعديين: ٢، ٩، ٤٣، ٤٧.
- سعيد تال: ١٨٨.
- سركن/زنغو: ١٣٥.
- السفياني: ٢٩٦.
- السفهانى: ٢٩٧، ٣٠٠.
- السفسارى: ٢٣٦.
- سفينة السعادة: ٢٢٤.
- السلاسل القادرية: ١٥٩.
- "ش"
- الشام: ٣٢، ٣٠٠.
- شاجو: ٣٥٤.
- شافو: ٣٢١.
- شهاب الدين: ٤٠.
- الشعوب الافريقية: ٣٧٠.
- الشغب الراعى: ٣١٩.
- شعيب بن صالح: ٢٩٨.
- الشعر: ١٤٧، ١٥٤.
- الشعبية: ١٣٧.
- الشيعة: ٢٩٢.
- شمال السنغال: ٣٢٣.
- شرق إفريقيا: ٣١٦.
- الشمال الإفريقى: ١٢١، ١٢٨، ١٣٢، ١٣٧، ٢٤٣، ٣١٤.
- الشمال الغربى: ٣٢٤.
- الشريف: ٣٧٨.
- الشرقية: ١٣١.
- الشرية: ١٤١.
- الشرطة: ١٣٨.
- شفاء الربا فى تحرير فقهاء اليوربا: ٩٢.
- الشيرازى: ٢٤٧، ٢٤٨.

الشمس: ٢٤٨.
 الشخصيات التاريخية: ١٥٣.
 شيهو: ١١٣.
 شرح المقصود والممدود: ١٥٨.
 "ص"
 الصالح عمر بن عبد العزيز: ٣١.
 صلاح الدين الأيوبي: ٧٦.
 صلاة الفاتح: ١٩٥.
 الصحراء: ١٠٨، ٣١٦، ٣٢٠، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٣١.
 صنهاجة: ٤، ٦، ٨٤، ١٢٨.
 صوكتو: ٣، ٤٧، ٧٤، ٩٥، ١١٢، ١١٣، ١١٥، ١٢١، ١٢٣، ١٢٦، ١٢٨، ١٢٩، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٥، ١٣٧، ١٣٨، ١٤٠، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٥٣، ١٥٨، ١٦٨، ١٩٠، ١٩١، ٣١٩، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٤.
 صونغاي: ١، ٩، ١٢، ١٣، ٢٢، ٣١، ٤٣، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٩٦، ١٥٦، ١٦٩، ١٧٣، ٢٥٢.
 الصوفي: ١٤٠، ١٤٤، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٤، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٧٣، ٢٨٢.
 الصومالية: ٣٨١.
 صفية بنت جعفر أبي طالب: ٣٢١، ٣٢٢.
 الصرف الوردى في أخبار الإمام
 المهدي: ٣٠٩.
 صحيح البخاري: ١٧٩، ٣٠٩.
 الصينية: ٦٠، ٣٨٠.
 "ض"
 ضياء كوسوي: ٤٤.
 "ط"
 الطاوسي: ١٤٨.
 الطاغوت: ٧٤، ١٧٤.
 الطاهر: ٨٣، ٣٧٠، ٣٧٢.
 طبرية: ٣٠٠.
 الطباليين: ١٣٥.
 الطباطبائي: ٢٤٧.
 الطبيب عبد الرحيم محمد: ٣١٩، ٣٢٢.
 الطوارق: ٩٩، ١٥٨، ١٧٢، ١٨٩، ٣١٠.
 طوبا: ٢٣٩.
 طور سيناء: ٣٢٠.
 طن مرينا: ٩١.
 طريق الحق: ٢٢٩.
 الطريقة التجانية: ٢٣٧.
 طرابلس: ٨٠.
 طلحت: ٣٧٢، ٣٧٧.
 طليطلة: ٦١.

"ع"

عائشة: ٣٧٣، ١٧٩.

عادل عمر التركي: ٣٧٩.

العاشوراء: ٣٣٧.

العاهل: ٣٧٨، ٣١٩.

عبد الله فوري: ١٠١، ١٠٠، ٩٩، ٩٣.

١٠٢، ١١٥، ١٢١، ١٣١، ١٦٨، ١٨١.

عبد الله بن ياسين: ٦.

عبد الله ابن سبأ: ٢٩١.

عبدول: ١٨٧.

العبدلاوي: ٢٣٥.

عبد الرحمن السعدي: ٢٨.

عبد الرحمن ابن خلدون: ١٢٣، ٤٣.

عبد الرحمن الأخضرى: ٨٢.

عبد الرحمن بن حبيب: ٨٤.

عبد الرحمن سوقيتي: ٩١.

عبد الرحمن الجبرتي: ٩٢.

عبد الرحمن السيوطي: ٣٠٩.

عبد الرحمن بن حماد: ٩٨.

عبد الرحمن نيار: ٢٤٦.

العجمية: ٣١٠.

عباس: ٢٩٧، ٢٣٩.

عبد العزيز إبراهيم: ٣٧٩.

عبيدة بن عقبة: ٨٤.

عبد القيس: ٣٢٦.

عبد القادر/الجيلاني: ١٠٩، ١٠٨.

٢٦٥، ١٨٢، ١٨٦، ١٨٧، ١٩١، ٢٢٩.

٢٣٠.

عبد العليم/العظيم: ١٣٠.

العباد: ١٥١، ١٥٠.

العبيد: ١٥١.

عبد الكريم: ١٥١.

عبد السلام: ١٨١.

عثمان بن عفان: ٨٣.

عثمان دان فودي: ٩٣، ٨٢، ٧٦، ٣، ١.

٩٤، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٠٣.

١٠٥، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٣.

١١٤، ١١٨، ١١٩، ١٢١، ١٢٦، ١٢٧.

١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٦.

١٣٨، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٥.

١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٥٥، ١٦٨، ١٦٩.

١٩٤، ٢٣٠، ٢٥٢، ٢٥٦، ٢٥٩، ٣٠٥.

٣٠٧، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١٤، ٣٤١، ٣٧٦.

عثمان بامنداهش: ١٩.

عثمان تورودو: ٣٢١.

العثمانية: ٨٧، ١٩١، ١٩٦، ٢٠٠، ٣١٤، ٣٧.

٣٧٦، ٣٧٤، ٣.

العاقب: ٨٤.

عقبت أندق: ٩١، ٢٥، ٢٤.

العراق: ٨٨.

عقبة بن نافع: ٣١٩، ٣١٨، ٨٣، ٣٥.

٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٦.

عقبة بن عامر: ٣٢٠.

عقبة الجهيني: ٣٢٠.

عقبة الهندي: ٣٢٠.

على مهدي: ٢٩٢.

على تافيت السومني: ٨٢.

على غاجي: ٨٩.

على بابا: ١١٥.

على محمد براو: ١٤٥.

على بن الحسن بن علي: ٢٧٤، ١٤٧.

٢٩٥.

على مونزو ويتلا: ١٧٨، ١٩٩، ٢٠٣.

٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦.

على حرازم: ١٩٢، ١٩٥، ٢٣٣، ٢٨٢.

على محمد البكري: ٢٣٦.

على غردو: ٣٢١.

على محمد الشيرازي: ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠.

٢٥١.

العرب: ٣١٤، ٣١٦، ٣٢٠، ٣٨٠.

عربيا: ٣٠٧.

عروة ابن محمد: ٣٠٠.

العصر العباس: ١٢٤.

العصور الذهبية: ١٢٥.

عمر بن عثمان: ٨٢.

عمر الفوتي: ٧٢، ٧٦، ٨٤، ٩٤، ١٤٣.

١٤٧، ١٥٨، ١٧١، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨.

١٨٢، ١٨٥، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠.

١٩١، ١٨٢، ١٩٣، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧.

١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٤، ٢٠٥.

٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١.

٢١٢، ٢١٣، ٢١٤، ٢٢٤، ٢٣٧، ٢٣٨.

٢٥٢، ٢٥٤، ٢٥٦، ٢٥٩، ٣١٤، ٣١٥.

٣٧٠، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٧.

عمر بن الخطاب: ٨٣، ٢٩٢، ٢٩٥.

عمرو بن العاصي: ٨٣.

عمر الأمين: ١١٣.

عمر سيدنا: ٣١٨.

عمر ناكركي: ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٥٢.

١٥٣.

عمرة: ١٧٩.

عمر عبد الرحمن عتيق: ٣٧٦.

عمر تشيرنو بايلا: ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٠٦.

عمر الفلاتة: ٣٧٩.

عمر الشيخ ولد: ٢٢٩.

عمر بن عتبة: ٢٨٠.

عمر درداو: ٣٢١.

العمرى: ١٩، ٢٠، ٤٠، ٢١٠.

العصر: ٣١٤، ٣٢٢، ٣٢٩.

العساكر: ١٣٧.

العشر بنيات: ٩٨.

العشائر: ٣٢٨، ٣٤٠.

عيد المغل: ٢٤٠.

عين جالوت: ٧٤.

عين مادي: ٢٣٤.

عيسى بن مريم: ٤٩، ٦٦، ١٢٥، ٢٧٦،

٢٩٢، ٢٩٤، ٢٩٦، ٢٩٩، ٣١١، ٣٢٦.

العنصر: ٣٣٢.

"غ"

غانا: ١، ٦، ٥، ١٨، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤،

٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤٣، ١٢٣، ١٣٧، ١٤٤، ١٤٥،

١٤٦، ١٤٧، ١٥٢، ٢٣٨، ٢٤٦، ٢٦٠،

٣٢١، ٣٢٥، ٣٣٣.

غالو نكوبى: ٣٤٢.

غامبيا: ١٩١، ٢٨٩.

غابات نائية: ٣١٧.

غاو: ١٧، ٣٩، ٤٥، ١٥٨.

الغابون: ٢٤٠.

غينيا: ٣، ١٥٨، ١٦٢، ١٦٥، ١٦٧، ١٨٥،

١٩١، ١٩٢، ٢٢٩، ٢٣١، ٢٨٥، ٣٧٥.

غيطال: ٣٥٩.

غيطاطو: ١٣١.

غيمى: ٣٧٦.

غمبلا: ٢١٠.

غمباسوخو: ١٩٧.

الغزاة: ١٤٨.

غزارى: ٣٦، ٣٧.

غرب إفريقيا: ٨٣، ٩٠، ٩٤، ٩٥، ٩٦،

٩٩، ١١٥، ١١٦، ١٢٧، ١٣٠، ١٣١،

١٣٢، ١٣٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٥٥، ١٥٨،

١٥٩، ١٧٢، ١٨٠، ١٨٢، ١٨٧، ١٨٨،

١٨٩، ١٩٠، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٦، ١٩٧،

٢٢٦، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٧،

٢٤١، ٢٤٤، ٢٤٦، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٦٢،

٢٧٠، ٢٧١، ٢٨٢، ٢٨٥، ٢٨٨، ٣٠٦،

٣٠٧، ٣١١، ٣١٢، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٨،

٣٢٠، ٣٢٢، ٣٣٠، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٤١،

٣٧٥، ٣٧٨، ٣٧٩.

غربينوبى: ٣٤٥.

غرناطة: ٥٩.

غرونشى: ٣٦، ٣٧، ٣٨.

غومبا: ٢٣١.

غوير: ١٥٠، ١٥١، ٣٧٣.

- غورتالو: ٣٤٧.
- غوركو موطو: ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٤.
- غوانجا: ٣٧، ٣٤.
- غواندو: ١٣١، ١١٥.
- غوانى مختار: ١٢٩، ١١٣، ١١٢.
- غوامبى: ١٢، ١١٤.
- "ف"
- فاتحة الكتاب: ٢٤٦، ١٥٨.
- فاطمة/الزهراء: ٢٤٦، ٢٤٨، (ح)، ٣٠٠، ٣٠١.
- فارسية: ٢٥٠.
- فامانيقول: ١٩١.
- فارما: ١٧٨.
- الفار ابى: ٦١.
- فأجمات: ٨٤.
- فاس: ٢٣٨، ٢٣٤، ٢٣٢، ٢٣١، ٢٥، ٢٣.
- ٢٤٨.
- الفتح الربانى: ٢٢٩.
- فتح الغيب: ٢٢٩.
- فتح الوهاب: ١٥٨.
- فتحى المصرى: ٣٠٧، ١٠٣.
- الفتاش: ٢٨.
- الفشنالى: ٨١.
- فرانكو الكوبر غانى: ٦١.
- الفر غانى: ٦٠.
- الفرق: ١٢١.
- فران: ١٩٠، ١١٣، ٨٨.
- الفلاسة: ١٥٤.
- فلسطين: ٢٩٩.
- فلس: ٦٣.
- الفلكية: ٩٢.
- الفقراء: ١٥٣.
- الفكر الإسلامى: ١٤٧.
- الفكر الصوفى: ١٥٩.
- فساغو: ٣٣٩، ٣٣٨.
- فرنسيس/بيكون: ٦٩، ٦٨، ٦٢.
- فرانسييسكو غوميز: ١٢٥.
- فش: ١٨٩، ١٤٦.
- القطون: ٣٠٩.
- الفنسو العائش: ٦٠.
- فنيجو: ٣٥٨.
- الفقه المالكي: ١٥٨، ١٣٩، ١٢٤، ٩١.
- ١٨٨.
- الفر نسيون: ١١٣، ٧٣، ٧٢، ٦٤، ٥٢، ٤٩.
- ٢٤٣، ٢٤٢، ٢٤١، ٢٢٧، ٢١٢، ٢١١.
- ٣١٥، ٣١٢، ٢٨٩، ٢٨٥، ٢٥٨، ٢٥٧.

٣٧٥، ٣٧٤، ٣٧٢، ٣٦٩

الفولانية: ٣، ١، ١٤، ١٦، ١٧، ٣١، ٣٤،

٨٥، ٩٢، ٩٥، ٩٧، ١٠٠، ١٥٢، ١٥٦،

١٥٨، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٥، ١٧٣، ١٧٤،

١٧٥، ١٧٦، ١٨٢، ١٨٥، ١٨٨، ١٩٩،

٣٠٩، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٧، ٣١٩،

٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٤، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٣،

٣٣٢، ٣٣٥، ٣٤٢، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٧،

٣٦٩، ٣٨١.

فوتا: ٣، ٨٤، ٩٥، ٩٧، ١٦٢، ١٦٥، ١٨٥،

١٨٦، ١٩١، ١٩٢، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٢٧،

٢٣٢، ٢٥٧، ٢٨٩، ٣١٢، ٣١٨، ٣١٩،

٣٢١، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٦٨، ٣٧٢، ٣٧٨.

فوزية العبد: (ح)

فولتا العليا: ٢٤٣.

فوغمبا: ١٦٢

فيجيليوس: ١٢٥.

فيجيل: ١٢٥.

فيلا: ٣٢١.

فيديهربى: ١٩٩.

"ق"

قاديان: ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٥٢.

القاهرة: ١٨٣.

القارة الإفريقية: ٣١٦، ٣٢٦، ٣٦٨.

القادرية: ١٥٨، ١٦٠، ١٩١، ٢٣٠، ٢٣٤،

٢٣٩، ٢٧١، ٢٨٨.

قادة الدين: ١٤٠.

القبيلة: ٣١٦، ٣١٨، ٣٣٠، ٣٣٥، ٣٣٨.

القرآن الكريم: ١٧٢، ١٧٦، ١٨٠، ١٨٣،

١٨٨، ١٩٥، ١٩٨، ٢٢٧، ٢٣٤، ٢٣٦،

٢٧٢، ٢٧٦، ٢٧٩، ٢٩٣.

القدس: ٧٤، ٢١١.

قدماء المصريين: ٣١٦.

القطبانية: ٢٨٣، ٢٨٤.

قرطبة: ٥٩، ٣٠١.

القيروان: ٨٣.

القيراط: ٦٣.

القيثار: ٦٣.

قريش: ٢٩٨.

قيصر: ٣٠٣، ٣٠٤.

القسطنطينية: ٣٠١، ٣٠٤، ٣٠٥.

قوى: ٢٣٩.

القوات الاستعمارية: ٣٧١، ٣٧٧.

"ك"

كائم: ١، ٥، ١٩٦.

كانو: ٦، ٢٥، ٨٥، ٨٦، ٨٩، ٩١، ١١٥،

كونى: ٩٧.	٢٥٢، ١٤٦، ١٤٥، ١٢٩.
كولو بالى: ١٥، ١٤، ١٢.	كندى: ١٩١.
كوكيا: ٤٥.	كارطة: ١٩٧، ١٦، ١٥، ١٢.
كورتوغوجى: ٣٤٧.	كايل: ١٦٧.
كونغورو: ٣٥٣.	كاتسينا: ٩٤، ٨٨، ٤٧، ٣٧، ٢٦، ٢٥.
كومبا: ٣٥٧.	١٤٥، ١٢٩، ١١٥، ١١٢.
كو دو: ٣٥٨.	كلايرتون هرف: ٣١٩.
كورسطو: ٣٥٩.	كاردانوس: ٦١.
كوطنشارا: ٣٣٧.	كلك: ٣٢١.
كولى: ٣٤٤.	الكافور: ٦٣.
كو ينغيل: ٣٨١.	الكامبيرون: ٣٧٣، ٣٦٨، ٣٢٩، ٣٢١، ١١٤.
الكونغو: ٢٨٥.	كارى هوامى: ٨٠.
كوما دوغو: ٢٥٣.	كاز اما نص: ٢٨٩، ٢٨٨.
الكولونيل كاي: ١٩١.	كان: ٣٣١.
كومبى صالح: ٥، ١.	كالهادى: ٣٣٤.
الكوكب الوقاد: ١٥٨.	كاوطو: ٣٥٩.
الكوفة: ٢٩٧.	الكاثوليكية: ٦٨، ٦٧، ٥٠.
كوسوفو: ٧٤.	كوبير نيكوس: ٦٠.
الكحول: ١٣٣، ٦٣.	كو كو: ١٨.
الكهنة: ١٩٧.	كو لا: ١٥٢، ١٥١، ١٣٣.
كتاغون: ١٢٩، ١١٥.	كونج: ٢٦٠.
الكتاب: ٣٢٣، ٢٤٨، ٢٢٥، ٢٢٤.	كونتة: ٢٢٩، ٢٠٠، ١٨٠، ١٧٥.
الكتيبة: ٢٠٧.	كونتوس: ١٢٥.

كنكان: ٢٥٤، ٢٥٣، ١٩١.

كنز الأولاد: ٣١٩، ٣٢١.

كنريك: ٦٨.

كياوا: ١٤١.

كيليا: ١٢٧.

كيجو: ٣٥٩.

كيتي كراتشي: ١٤٦.

كربلاء: ٢٤٧.

كروماري: ١٩٩.

كرومنتانا: ١٨٨.

كراميل: ٦٣.

كشف النقاب: ١٥٨.

الكفرة: ١٧٣.

كعب الأحبار: ٢٩٢.

كيبى: ١٠٣، ٢١.

كنيسة الذهب: ٣٠٣.

كينيد وغو: ٢٥٤.

"ل"

لابى: ١٩٢.

لاميطو: ١٦٤، ٣٦١.

اللاتيني: ١٢٥، ٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٢.

لاسين: ٧٥.

لامين: ٧٣، ١١٣، ٢٤٢.

اللازم: ٢٣٥.

اللايون: ٧٧.

لبناتكو: ١١٥.

لورد لوجارد: ٧٠.

لوكونجا: ٣٧٧.

لوقا: ٢٩٤.

لويس: ١٢٧، ٣٧٥.

ليبيريا: ٢٦٠، ٢٦١.

ليمبيلي: ٧٧.

ليمن: ٣٢٠.

ليبيا: ٣٢٠.

ليجون: ١٤٥.

لمبيطيل: ٣٥٦.

"م"

ماء العينين محمد فاضل: ٢٨٧.

مالى: ١٩، ٢٠، ٢٣، ٢٥، ٢٦، ٣٩، ٤١،

٤٢، ٤٦، ٧٧، ٩٠، ١٥٦، ١٥٨، ١٦٢،

١٦٧، ١٧٧، ١٨٠، ١٨٥، ١٩٨، ٢٠٤،

٢١٠، ٢١٢، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣١،

٢٣٧، ٢٣٨، ٢٤٢، ٢٥٢، ٢٥٤، ٢٨٥،

٢٨٧، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٣، ٣٢٩، ٣٣٦،

٣٧٤.

ماسينا: ١٢، ١٣، ١٥، ١٦، ٢٣، ٧٧،

١٥٦، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٢، ١٦٨، ١٧٠،

٢٧١، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٩٦،

٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٨، ٢٠٩،

٢١٠، ٢١٢، ٣١٤، ٣١٨، ٣٢١، ٣٢٣،

٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٤١، ٣٦٨، ٣٧٥.

ماساسى: ١٤، ١٥.

ماسة: ٣٠٠.

الماندنغو: ١٦٥، ١٦٩، ٢٥٥، ٢٥٩، ٢٨٨.

ملاغال: ١٦٧.

مالام: ١٤٥.

مادواكى: ١٣٦.

ماتشوبى: ٣٤٣.

مابوبى: ٣٤٣.

مارى جاطة: ٤٣.

المالكى: ٩٨.

مازندر: ٢٥٠.

مامارى: ١٣.

مانبروسى: ٣٧.

المدجنين: ٥٩.

مولاي أحمد المنصور الذهبى: ٨٧، ٢٩٨.

مونجو: ١٥.

الموطأ: ١٢٤.

موريتانيا: ١٥٨، ١٦٢، ١٨٥، ١٨٨، ١٨٩،

١٩٥، ٢١١، ٢٢٨، ٢٣١، ٢٣٥، ٢٣٨،

٢٤٠، ٢٤٢، ٢٧١، ٢٨٧، ٣١٤، ٣٢٠،

٣٧٤.

مودبو: ٦٣، ٧٧، ١٢٩، ١٦٢، ١٨٢، ١٩٢،

٣٧٣.

موسى بن ميمون: ٦٢.

موسى جوكوللى: ٩٧، ٣٧٢.

موس موس: ٣٥٩.

مونزوويتلا: ٢٠٦.

مولود فال: ١٨٨.

مورفولوجى: ١٣٧.

المواشى: ١٥٦.

مورى أوليسيس: ٢٥٣.

المجوس: ٢٩٢.

محمد باباتو: ٣٨.

محمد عبد الله: ٩.

محمد بيللى: ١٤٤، ١٩٣، ٢٣٨، ٣٧٢.

محمد بن سيدى المختار الكونتى: ١٨٩.

محمد إدريس: (ط)

محمد المغيلى التلمسانى: ١، ٢، ٣، ٨٩،

٩١، ١٥٨، ٢٣٠.

محمد أحمد الترختى: ٢٥.

محمد عقيت: ٢٧.

محمد زنجينا: ٣٤.

محمد الكسناوى: ٣٤.

محمد ناورى: ٤٦.

محمد عبد الوهاب: ٧٥.	محمد النّور: ١٩٤.
محمد الحافظ العلوي: ٢٣٨، ٢٣٥، ٧٦.	محمد المنير: ٢١٠.
محمد لامين: ٢٤٢، ٢٢٨، ١١٣، ٨١.	محمد عبد السلام القادري: ٢٣٤، ٢٣٣.
محمد علي غاجي: ٨٢.	محمد عبد الرحمن: ٢٣٤.
محمد رونفا: ٩١، ٩٠، ٨٩، ٨٦.	محمد فويدر العبدلاوي: ٢٣٥.
محمد كاورو: ٨٨.	محمد بن سندنا عمر: ٢٤١.
محمد رابو: ٨٨.	محمد بن اسماعيل: ٢٦٨.
محمد براو: ٩١.	محمد المختار بن الحامد: ٢٨٧.
محمد كوراو: ٩١.	محمد بن عروة السفهاني: ٢٩٧.
محمد الكاتسيناوي: ٩١.	محمد وجدى: ٣٠٤.
محمد بللو: ١٠٩، ١٠٦، ١٠٤، ٩٢.	محمد أحمد الحاج: ٣٠٨، ٣٠٧.
١٤٠، ١٣١، ١٢١، ١١٩، ١١٦، ١١٥	محمد بن الحنفى: ٣٠٩.
٣٢٥، ٣٢٢، ١٩٤، ١٩١، ١٨٩، ١٤١	محمد مروا: ٣١٦.
٣٧٤، ٣٧٢، ٣٧٢	محمد سامبو: ٣٢٢.
محمد طن ماسينا: ٩٢.	محمد بن طاهر: ٣٧٠.
محمد بن ابي بكر البرتيلي: ٩٢.	محمد لايمّا: ٣٧٣.
محمد بن محمد الفولاني: ٩٢.	محمد بن أحمد بن سعيد: ٣٧٨.
محمد بن صالح فودي: ٩٨.	محمد ميورنو: ٣٧٧.
محمد بن راجي بن مودبو: ١٠٠.	المحمدية: ٣٠٩، ٢٩٣، ١٢٠، ١١٦.
محمد منغا: ١١٣.	المدنية: ٣٠٩، ٢٩٨، ٢٩٧، ٢١٢، ١٩٠.
محمد أهي بولو: ١٣٠.	٣٧٧، ٣٧٣، ٣١١
محمد الهاشمي: ١٤٦.	منسونج: ١٥.
محمد الغالي: ١٩٠.	منكيب: ٦٣.

منسا/موسى: ٢٨، ٢٦، ٢٤، ٢٣، ٢٠، ٢١١، ٢٨٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٣٩٩، ٣٠٩،
 ١٥٠، ١٢٩، ٦٤، ٤١، ٣٩، ٣٧، ٣٣، ٣١
 ٢٩١، ٢٩٠، ٢٨٩، ٢٧٦، ١٥١
 المجدد: ٣٠٨.
 محمود كعت: ٢٨.
 ميساوا: ١١٤.
 المسيح: ٢٩٦، ٣١٣.
 ميغيل رى سيرفانينس: ١٢٥.
 ميمة: ٤٣.
 مضر: ١٦١.
 مي إدريس: ٨٦، ٨٥، ٨٣، ٨٢، ٨١.
 مرتا: ٣١١.
 مراد الثالث: ٨٧.
 مراکش: ٨٧، ٤٣، ٣٢، ٢٧، ٣.
 مختصر الخليل: ٢٣٤، ٩٨، ٩١.
 منح القدوس: ٩٢.
 ملاطو: ٣٥٤.
 المنظومة فى الشعر: ٩٣.
 مصطفى الغوانى: ١٠٢، ١٠١.
 مغانى: ١٠٥.
 مناقب القادرية: ١٠٩.
 ممالك: ٣٦٩، ١٢٣، ١٢١.
 مكة/المسجد: ٢٠٩، ١٩٠، ١٨٣، ١٨٠.

٣٠٩، ٣٩٩، ٢٩٨، ٢٩٧، ٢٨٦، ٢١١
 ٣٧٨، ٣٧٣، ٣١١
 مصر: ١٧، ١٠٣، ٩٢، ٨٨، ٨٦، ٨٣، ٦٦، ٤٠
 ٣٨١، ٣٢١، ٣١٨، ٢٤٤، ٢٣٤، ٨
 المشرق العربى: ٢٣٤، ١٨٣، ١٧٨، ١٢٨
 ٢٩٧، ٢٩٦
 المغرب الأقصى: ١٨٦، ٩١، ٨٨، ٨٧
 ٢٩٩، ٢٨٧، ٢٧١، ٢٣٨، ٢٣١، ٢١١
 ٣٠٩، ٣٠١
 مرقص: ٣٩٣.
 المنان: ٢١٨.
 مناجاه الله: ١٤٠.
 المهدى: ٢٩٢، ٢٤٧، ٢٤٤، ٢٢٨، ٢٢٧
 ٣٠١، ٢٩٨، ٢٩٧، ٢٩٦، ٢٩٥، ٢٩٣
 ٣١٢، ٣١٠، ٣٠٨، ٣٠٧، ٣٠٥، ٣٠٢
 الميرزا غلام/على: ٢٤٧، ٢٤٥، ٢٤٤
 ٢٥١، ٢٤٨
 مبرزا حسن: ٢٥٠.
 المرابطين: ١٨٦، ١٢٨.
 مسلم: ٢٧٨، ٢٧٤.
 مغنغ: ٣١٠.
 معاذ هشام: ٢٦٨.
 المجاهد: ١٥٤.

ملل: ٣٥٩.

المحيط الاطلس: ٣١٤.

المحيط الهندي: ٣١٦.

"ن"

الناصرية: ٢٣٤.

نانا أسماء: ١٤٠.

النبا الهادي: ١٢١.

النبوة: ٢٧٨، ٢٧٣.

الناترون: ١٣٣.

النزعة: ١٤.

النهضة: ١٢١، ١٢٣، ١٢٤.

نهر النيل: ٣٧٧.

نصيحة أهل الزمان: ١٢١.

النصارا: ١٤٩، ١٥١.

النفحات العمرية: ٩٢.

نفاتا: ١٠٧، ١٠٩.

نعيم بن حماد: ٣٠٩.

النحاتون: ٣٤٣.

نانكانى: ٣٧.

نياطيور: ٣٤٤.

نيانجولو: ٣٩.

نبي الله يعقوب: ٣١٩.

نوبى: ١١٤، ١٤٩، ١٥١، ١٥٢، ٣٢٢.

نواكو: ٣٥٩.

نوح: ١٥٠.

النموذج: ١٤٠، ١٤٤، ١٤٦.

نيجيريا: ١٢، ٣٨، ٤٧، ٦٨، ٧٠، ٧٧،

٨٠، ٨٧، ٩٣، ٩٥، ١١٠، ١١٢، ١١٤،

١٣٠، ١٣٣، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٦٩،

١٧٨، ٢١٠، ٣١٧، ٣٢٩، ٣٧١، ٣٧٢،

٣٧٦.

النيجر: ٣٤، ٣٦، ٤٦، ٧٦، ٩٣، ٩٥، ٩٦،

١١٠، ١١٤، ١٣٢، ١٣٣، ١٥٩، ١٧١،

٢١٢، ٢٣٨، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٧، ٢٨٥،

٢٨٨، ٢٨٧.

نيمبي: ٣٥٣، ٣٥٨.

نيو بيرطو: ٣٥٦.

نيل جى سمسيرم: ١٢٧.

نينيو: ٣٤٢.

نيطو: ٣٨١.

نييبي: ٣٤٣.

النثر: ١٤١، ١٥٤.

"ه"

هابى هيرى: ١٨٣.

هاجا: ٣٥٩.

الهادى/هادى: ١٤٦، ٢٠٩.

هاشم الزنغرى: ٩٩، ٣٧٧.

ونيا: ٢٥٤.	يج: ١٠٢.
وصية دان فودي: ٣٤١.	يوسف: ٢٤٨.
"ي"	يونا: ١٠٧.
باجى طن مسامبا: ٨٥.	يولا: ١٣٠.
ياندى: ٣٨.	اليونانية: ١٢٥، ٦٠.
ياندوتوتو: ٩٤.	اليوريا: ٣٧١٥٢، ١٣.
يتورى: ٢٣٢.	يحيى أبوبكر: ٢٩.
ياسين: ٣١٨.	يرىما: ١٣٦.
يانا: ٣٤.	يهود: ١٩٣، ١٩٢، ١٤٩.
يلا: ٣٥٨.	ينبغى: ٣٥٢، ٣٥٠.
يلليما: ٣٧٧.	يزن: ٨٥.
يوحنا الأسبيلي: ٦٠.	يعقوب عبد الله بورجا: ١١٤، ٩٠، ٨٦.

نشرات أخرى للمؤلف :

١- القيادة الدينية والسياسية فى نيجيريا (باللغة الإنجليزية)

٢- الإسلام أم المسيحية - رأى سديد (باللغة الإنجليزية)

٣- الأضواء على الإسلام فى نيجيريا (باللغة العربية).

ثانيا - أعمال الترجمة :

٢- الدليل الإفريقى للعقاقير الطبية، المجلد الأول (من الإنجليزية إلى العربية بطلب منظمة الوحدة الإفريقية).

٣- الدليل الإفريقى للعقاقير الطبية، المجلد الثانى (من الإنجليزية إلى العربية بطلب منظمة الوحدة الإفريقية)

٤- إعلان القاهرة بشأن تسوية النزاعات (من الإنجليزية إلى لغة هاوسا بطلب منظمة الوحدة الإفريقية)

٥- وصية الشيخ عثمان دان فودى (من العربية إلى الإنجليزية)

٦- وعد الحق للدكتور طه حسين (من العربية إلى لغة هاوسا)

٧- مناقب إفريقيا فى الإسلام للأستاذ/ محمد بيللى (من العربية إلى الإنجليزية)

٨- الأصول الفكرية لجهاد صوكتو للدكتور/ أحمد كان (من الإنجليزية إلى العربية) .

٩- المقدمة لكتاب، تاريخ حياة قاضى القضاة - محمد بللو ، لجمهورية نيجيريا الاتحادية (بالإنجليزية) .

١٠- المقدمة لكتاب، الألغاز الفقهية للأستاذ/ محمد بيللى (بالعربية)

١١- المقدمة لكتاب، السلم فى علوم الرسم، للأستاذ/ محمد بيللى (العربية).

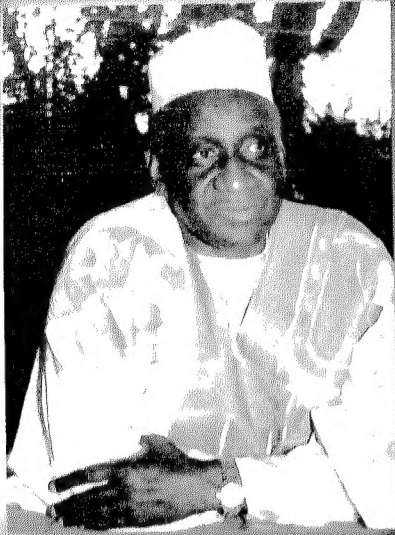


دار الأمين للطباعة والنشر والتوزيع

١٣ ش. البركة الخامسة (من الجوار) لاتفيلس، ت. ٧٩٥١٢٣٦
القاهرة • جمهورية مصر العربية

THE UNIVERSITY OF CHICAGO
LIBRARY



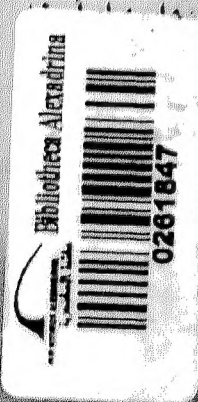


■ يستعرض كتاب « جذور الحضارة الإسلامية في غرب أفريقيا » جوانب الحياة الدينية والثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي عاشتها شعوب منطقة الغرب الإفريقي منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة مروراً بظهور المسيحية والإسلام ووصولاً إلى مختلف مراحل

الحقب الاستعمارية. كما يستعرض حصيلة خبرات المؤلف الأكاديمية في بؤرة التاريخ المتأصل في بيئته الإسلامية والإفريقية، إضافة إلى حنكته الدبلوماسية المعاصرة والمحصلة من واقع العمل الدراسي والسياسي والمهني بمنظمة الوحدة الإفريقية على مدى عشرين سنة متنقلاً بين العواصم الإفريقية وبيئاتها مترامية الأطراف.

استهدف المؤلف اختراق المكتبة العربية بهذا الموسوع التاريخي الذي يعتبر الأول من نوعه في المكتبة العربية بأسلوب يتميز بسلاسة اللفظ وعمق التحليل مستعيناً في ذلك بالمراجع والوثائق التاريخية التي تناولت هذا الموضوع.

ويأمل المؤلف في أن تتم ترجمة هذا المجلد إلى اللغتين الإنجليزية والفرنسية حتى يكون في متناول غير الناطقين بالعربية في الفكر الإسلامي خاصة والدراسات التاريخية عامة المفاهيم والتعاليم الإسلامية على حركة التاريخ في هذه الضربت بجذورها في عمق ووجدان شعوبها.



دار الأمين - القاهرة